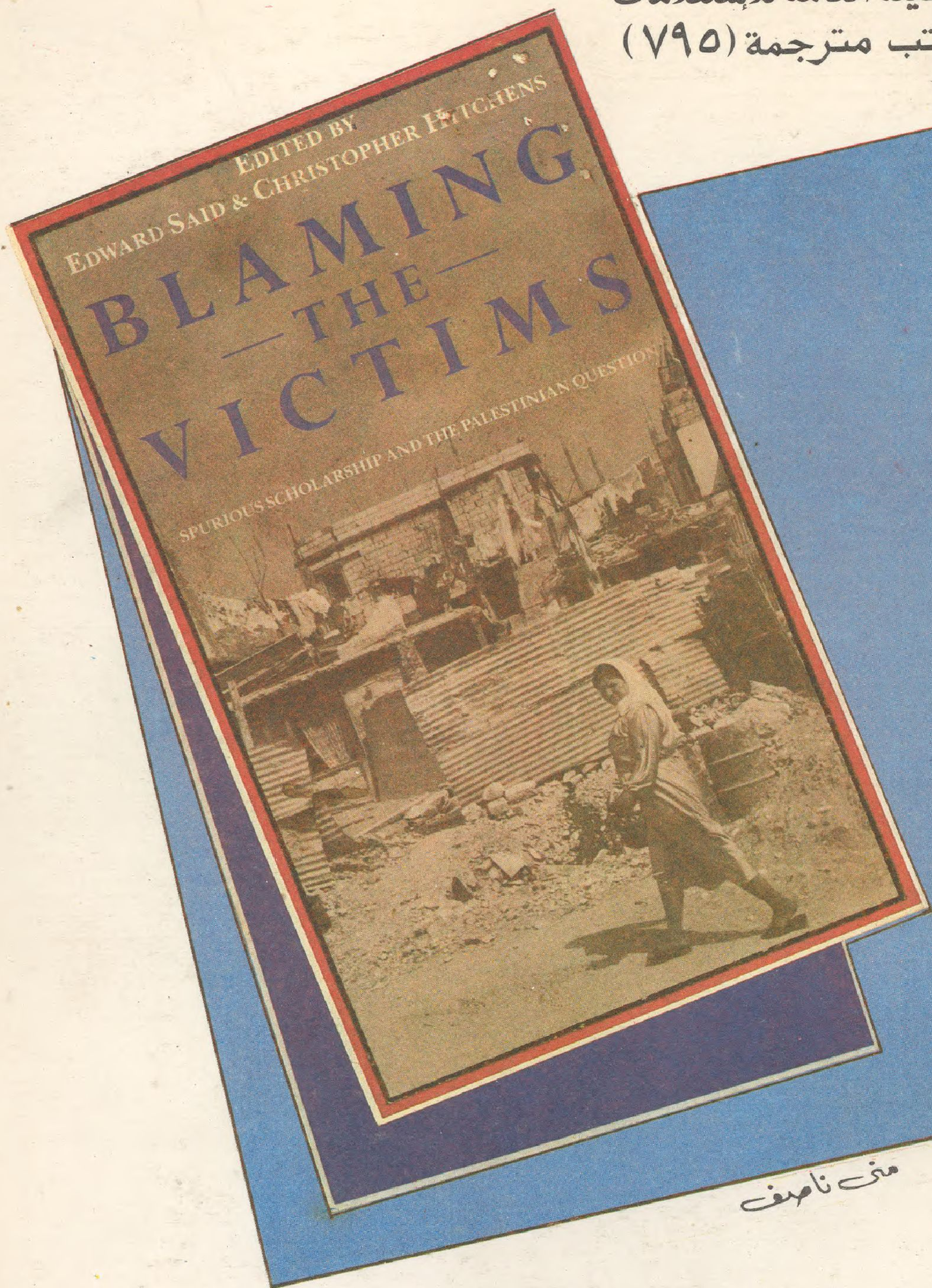
الهيئة العامة للإستعلامات
كتب مترجمة (٧٩٥)



إلقاء اللوم على الضحايا

الدراسات الزائفة والقضية الفلسطينية

إدوارد سعيد * كريستوفر هيتشينز

إهـــــــداء٢٠٠٧

الأستاذ الدكتور / قدري محمود حفني

جمهورية مصر العربية

القاء اللوم على الضحايا

الدراسات الزائفة والقضية الفلسطينية

اعداد : ادوارد سعيد
كرستوفر هيتشنز

فيرسو
لندن - نيويورك

مقدمة

النزاع الدائر بشأن فلسطين ، نزاع غير عادى من عدة جوانب مختلفة ويرجع ذلك – بالدرجة الاولى بالطبع – الى أن فلسطين ليست مكانا عاديا . فقد أثقلت فلسطين ، أرض الأساطير ، التى تشبعت بالمذاهب الدينية وتمتعت بأهمية ثقافية كبيرة ، بالمدلولات التاريخية والسياسية بالنسبة للعديد من الأجيال والشعوب والمعتقدات . وعلى أية حال ، فقد كانت خلال القرن الماضى مسرحا لنزاع فعلى شامل بين الحركة الصهيونية وسكان فلسطين المحليين من غير اليهود الذين يطلقون على انفسهم اسم العرب الفلسطينيين (مسلمين أو مسيحيين) . ورغم أن النزاع بين الشعبين كان دائما يدور حول الاستيلاء والسيادة على الارض ، فان الصراع كان حادا أيضا فى المجتمع الدولى العام على مسافة بعيدة من شرق البحر المتوسط .

وقد شمل هذا العالم ، الدبلوماسية الدولية ومختلف أجهزة الاعلام الجماهيرية التى تشمل الاذاعة والطباعة والصحافة والتليفزيون والسينما ومجال الدراسات فى (التاريخ وعلم الاجتماع والدراسات الثقافية ، والعلوم السياسية والديموغرافيا ، والاقتصاد ، والانثروبولوجيا والفلسفة وعلم الآثار القديمة) ، وبالطبع التبادل الخطابى المولع بالهجوم بصورة كبيرة ، والذى لا يتسم عادة بالتنوير ، ويشار اليه عادة بالدعاية . ومن غير المبالغة على الاطلاق القول بان اقامة دولة اسرائيل فى عام ١٩٤٨ ، قد جاءت نتيجة فرض الصهاينة سيطرتهم على معظم أرض فلسطين من ناحية ، ونتيجة لكسبهم بالفعل للمعركة السياسية بشأن فلسطين فى المجتمع الدولى الذى تعد فيه الأفكار والمزاعم والخطابة والصور البلاغية محل اعتبار كبير من ناحية أخرى .

فمنذ ذلك الحين ، توسعت اسرائيل فى الحجم والقوة . وحصلت عسكريا فى عام ١٩٦٧ – ومازالت تسيطر – على مساحات شاسعة من الارض والشعب العربيين ، بما فيها المساحة الكاملة من أرض فلسطين التاريخية . غير انه ما كان فى مقدور الاحتلال العسكرى والسيطرة الدائمة على السكان المقهورين من غير اليهود ، الاستمرار طوال عشرين عاما دون تأييد خارجى كبير . وكانت أوربا ، حتى الحرب العالمية الثانية ، هى الساحة الخارجية الرئيسية للصراع بشأن فلسطين ، وبعد الحرب العالمية الثانية تحولت الساحة الى الولايات المتحدة ، حيث اكتسبت اسرائيل سيادة مذهلة ، وان كانت غير حاسمة ، الى حد بعيد . وتعد اسرائيل ، بالنسبة لعدد سكانها ، الدولة التى تتلقى مساعدات

امريكية اكبر من اية دولة اجنبية اخرى فى التاريخ . اذ يقـــدر ان كل مواطن اسرائيلى يحصل على معونة مالية من جانب الولايات المتحدة تصل تقريبا الى ١٤٠٠ دولار سنويا ، كما يحصل كل فرد فى الجيش الاسرائيلى على معونـــة مالية من جانب الولايات المتحدة تصل الى حوالى ٩٫٧٥٠ دولار فى العـــام . وبجانب هذه المبالغ السخية (التى تتجاوز الى حد بعيد الاعانة المالية الفيدرالية للعديد من مواطنيها المحرومين) يأتى التأييد السياسى الامريكى الذى يبلغ أهمية مماثلة ، والذى تتمثل علاماته فى التضامن الثابت مع اسرائيل فى أى محفل دولى ذى أهمية ، وفى الاتفاقية الخاصة بالتنسيق الاستراتيجى (التى توضح الى حد كبير هيكل التنظيم السرى فيما اصبح يعـــرف بايران أو الكونترا ــ جيت) ، وفى الطريقـــة التى يشعر بها معظم المرشحين لأى منصب عن طريق الانتخاب فى الولايات المتحدة بأنه من الضرورى لهم اعلان التأييد المطلق لاسرائيل من أجل انتخابهم واستمرار انتخابهم . وبصفة عامة ، يمثل التأييد الامريكى لاسرائيل ضرورة لاستمرار الدولة اليهودية ، التى اصبحت تعتمد بصورة تامة تقريبا على الولايات المتحدة .

وتتسم مثل هذه الحقائق بالاثارة ، علاوة على أنها تتضمن كافة انـــواع الدلالات التى لا تتضح على الفور . واحدى هذه الدلالات تتمثل فى تمكين وتدعيم العنف ضد الفلسطينيين الذين يعدون الضحايا المباشرين للنظرية الصهيونيـــة والسياسة الاسرائيلية . وعندما يقر الكونجرس الامريكى بأنه نظرا لأن اسرائيل هى « حليفتنا » و « الديمقراطية المستقرة » الوحيدة فى الشرق الاوسط ، فانه يواصل ايضا تمويل اسرائيل بمعدلات متزايدة عـــاما بعد عام ، وذلك بدوره يؤدى الى أحكام قبضة الاحتلال ، ويسمح للحكومة الاسرائيلية باقامة المزيـــد من المستوطنات غير المشروعة والمثيرة للاستفزاز العميق فى الاراضى المحتلة فى الضفة الغربية وغزة (حيث يتجاوز اجماليها ١٢٠ مستوطنة) ، ويســـمح بتدمير مزيد من المنازل الفلسطينية وسجن أو قتل أو ترحيل مزيد من الفلسطينيين كما يسمح بمصادرة مزيد من الأرض الفلسطينية ، ويتيح لاسرائيل جعل الحياة الفلسطينية أكثر صعوبة وأقل احتمالا . كما أن هناك دلالة أخرى تتمثل فى أنه نظرا لأن الاهتمام باسرائيل قد اصبح تقليدا راسخا ، كما أن تأثيره قد أصبح ايجابيا للغاية فى الحياة العامة الغربية ، فان هنـــاك اتجاها ، فى الولايات المتحدة بصفة خاصة ، لربط مقاومة اسرائيل ليس « بالارهاب » و «الشيوعية» فحسب بل أيضا بمعاداة السامية . وفى الوقت الذى تزداد فيه حدة البراهين على الديمقراطية الاسرائيلية ، فانها تتجه أيضا للاتساع بمعدل مطلق ، وبذلك يتقلص الخبر الذى يحتله الفلسطينيون فى الأجهـــزة العلمة ، مثل شاشـــة التليفزيون الامريكى والصحيفة اليومية والفيلم التجـــارى ، الى أنماط جامدة قليلة ــ تمثل المتعصب المسلم الاحمق ، وقاتل الابرياء الذى يتسم بالعنف بلا مبرر ، والبدائى الهمجى المتهور على نحو يائس .

ولا يعد أي من هذه الامور من حقائق الطبيعة ، اذا جاز التعبير ، ولا هى حتمية . فقد جاءت نتيجة لجهد وقدر كبير من العمل المضنى ، يشمل العديد من العمليات المنسقة أحيانا والمتناقضة أحيانا أخرى ، ويكرس لها رجال ونساء أنفسهم لاهداف سياسية فى اسرائيل والخارج على حد سواء ، حيث كما أشرت آنفا ، يمثل التأييد لاسرائيل أمرا حاسما بصورة مطلقة.

ولا يتمثل الامر الرئيسي بشأن ذلك ، اليوم ، فى أنه حدث ، بل فى أنه يحدث مقاومة كبيرة وصعوبة متزايدة . ويجب علينا الآن القيام بعملية تغيير كامل ومفاجيء فى الموقف والدفع الى الجبهة بمجموعة من العمليات الاقل شهرة الى حد بعيد تتمثل فى مقاومة النجاح الصهيونى على الصعيد الثقافى والسياسي على حد سواء . وتستمد هذه المقاومة مصدرها اساسا من جهود الفلسطينيين للحفاظ على الصلة بأرضهم والنجاة من الهجمات الضارية المحمومة ضد الحياة الفلسطينية . وكانت حركات الاستيطان الاستعمارى ، فى أنحاء أخرى من العالم ، ترسم دورا خاضعا واستغلاليا على حد سواء للسكان الاصليين ، أما الصهاينة فانهم لم يسبق لهم مثيل فى اعتبارهم الفلسطينيين خاضعين لهم ، بل وحرمانهم من اى وجود ذىمعنى : فقد اعتبروا بدوا لا شأن لهم « اهملوا » الارض قبل عام ١٩٤٨ ، وبعد اقامة اسرائيل كدولة « للشعب اليهودى » وليست كدولة لمواطنيها تم انزال الفلسطينيين من الناحية القانونية الى مرتبة أدنى ، هى مرتبة « غير اليهود » . وهكذا أصبح كونك فلسطينيا خلال العشرين عاما الاولى من وجود اسرائيل يعنى اما النفى مع ما يصل الى ٧٨٠ الف فلسطينى تم طردهم فى عام ١٩٤٨ ،أوالعيش بشكل مهين داخل اسرائيل مع باقى الفلسطينيين الذين بلغ عددهم ١٢٠ الف فلسطينى والذين تمكنوا من البقاء . وقد كشف النقاب عن التفاصيل المروعة لتلك الحياة للعالم لاول مرة فى الكتاب الرائد الذى وضعه صبرى جريس بعنوان : « العرب فى اسرائيل » (١٩٧٦) والذى استكمله فى عام١٩٧٩ ايليا زريق فى كتابه « الفلسطينيون فى اسرائيل: دراسة فى الاستعمار الداخلى » (١٩٧٦) . وجدير بالذكر أن كلا الكاتبين ، هما نفسهما نتاج للحياة كفردين من الاقلية الفلسطينية . ويعد النظير الشخصى ، المثير للمشاعر لكلا الكتابين هو كتاب فوزى الاسمر : « أن تكون عربيا فى اسرائيل » (١٩٧٥) .

وهنا يجب أن نعود الى الوراء ابعد من ذلك . فمنذ ظهور دولة اسرائيل الى الوجود فى عام ١٩٤٨ — وبرغم أن الاستعدادات لقيامها قد جرت قبل ذلك بفترة طويلة — تم اغراق الغرب — بسلسلة كاملة من القصص والمفاهيم التى اكتسبت قوة وشرعية « الحقيقة » . ورغم وجود اغلبية كافية تصل الى ٦٧ فى المائة من العرب الفلسطينيين الذين كانوا

يملكون اكثر من تسعين فى المائة من الارض فى عام ١٩٤٨ (وذلك بعد عشرات السنين من الهجرة والاستيطان اليهودى) سمع العالم عن ارض « خالية » يعارض سكانها بقوة الاستيطان اليهودى فى جبل صهيون حتى بعد وقوع المحرقة « الهولوكست » . وبعد ذلك تكاثرت الاساطير وشكلت نظاما أصبح ، فى الغرب على الاقل ، من الصعب كثيرا انكاره . « فالعرب » تركوا فلسطين لان قادتهم دعوهم الى ذلك ، والعرب على وشك تدمير الدولة اليهودية ، ولانهم كانوا متحالفين بالفعل مع هتلر ، فان معارضتهم لاسرائيل أساسا عنصرية وفاشية ، واسرائيل هى الديمقراطية التى يعد حق وجودها حقا دينيا ويتفق مع الاخلاق (حيث لا يوجد أحد عانى أكثر من اليهود) ، ووجودها تاريخيا (حيث أن العالم بأسره قد وعد هؤلاء الليبراليين اليهود المستنيرين من أوربا بأرض فلسطين الخالية) وهى ، فوق كل شىء ، تتمتع بجاذبية سياسية حيث تبدو تجسيدا لكل صيغة يمكن تصورها عن الرواد والعلماء البارعين ودعاة الانسانية الجسورين ، والمقاتلين النبلاء ، واسرائيل هى هدف للهجمات التى تجاوزت فى العدد والوحشية ، الى حد كبير ، اى شىء أنزلته بأعدائها قبل ومنذ عام ١٩٤٨ على حد سواء ، واسرائيل ترمز الى التقدم والسلام فى حين يعد اعداؤها العرب مسلمين متعصبين ينتمون الى القرون الوسطى ، وقتلة متوحشين ، ومنافقين يستحقون الاحتقار . واضيف الى هذه الأفكار امتدادات أو تفصيلات للنظام الرئيسى مثل القول بأن الفلسطينيين ليس لهم وجود ، وأن الاردن هى فلسطين فى واقع الأمر ، وأن العرب يستخدمون الفلسطينيين كوسيلة لكراهية اليهود أو ليكونوا مؤذين بلا مبرر . ومع ذلك ، كان هناك دائما العديد من الدلائل لدحض معظم ، ان لم يكن كل هذه الخرافات التى لم يكن هدفها الرئيسى كسب التأييد لاسرائيل فحسب ، بل أيضا اخفاء الخسائر البشرية المروعة التى يتكبدها الفلسطينيون نتيجة لنجاحات اسرائيل . فقد كان هناك دائما فلسطينيون حقيقيون ينبضون بالحياة ، وكانت هناك أرقام الاحصاءات الرسمية للسكان ، وسجلات حيازة الارض وتقارير الصحف والاذاعة ، وتقارير شهود العيان ، وبالطبع الآثار المادية البحتة للحياة العربية فى فلسطين قبل وبعد عام ١٩٤٨ . وكان فى امكان أى شخص يشعر بالاهتمام باكتشاف ما اذا كان الفلسطينيون قد فروا لأن قادتهم قد دعوهم لذلك ، التحقق من مدى صحة هذا الزعم بمراجعة السجلات ، أو بالاستناد الى مصدر موثق بشأن يوم محدد . ولكن يبدو أن ايا من هذين الاجراءين لم يكن ضروريا . وبالمثل كان فى الامكان مراجعة واكتشاف ما اذا كان العرب قد أدلوا ببيانات بشأن السلام أم لا ، أو ما اذا كان يمكن مقارنة « الارهاب » العربى من حيث النتائج ، بارهاب عصابات شتيرن والهجاناه وارجون أو بمزاعم اسرائيل « بطهارة اليد » ، أو ما اذا كان من الحق او العدل أو الحتميات التاريخية الوعد بأرض يملكها أحد الشعوب ، لشعب آخر يستولى عليها بعد ذلك عسكريا ، ويشيد الغرب

المستنير بالغزاة ويلقى باللوم أو يتجاهل الضحايا تماما . وقد كان لهذه الخرافات عالمها الخاص بشكل او بآخر . واليوم ، فانها تبدو سخيفة ومنافية للعقل الى حد كبير عما كانت عليه منذ أربعين عاما ، ومازالت تبدو ــ كذلك حتى الآن . وتأمل ، على سبيل المثال ، مقالة تتسم بالتملق على ديفيد بن جوريون كتبها بيريز رئيس وزراء اسرائيل فى ذلك الوقت . فمازال فى مقدور بيريز ، فى مقاله فى مجلة « النيويورك تايمز » فى ٥ أكتوبر عام ١٩٨٦ ، اقناع نفسه ــ رغم التاريخ ورغم وجود ما يقرب من خمسة ملايين فلسطينى ــ بالحديث عن فلسطين والفلسطينيين كما لو كان الصهاينة القادمون قد اكتشفوا أرضهم : ــ

« أن الأرض التى قدموا اليها ، رغم أنها حقا أرض مقدسة ، كانت مهجورة وغير مغرية ، أرض قد لحق بها الخراب وظمأ للمياه ، مليئة بالمستنقعات والملاريا وتفتقر الى الموارد الطبيعية . وعلى الارض ذاتها كان يعيش شعب آخر (انظر كيف أن بيريز لم يشعر حتى بالحاجة لذكر هذا الشعب بالاسم) ، شعب أهمل الارض ، ولكنه كان يعيش عليها . وفى الحقيقة ، صاحبت العودة الى جبل صهيون مصادمات عنيفة متواصلة مع السكان العرب القليلين (لاحظ هنا كيف أصبح الفلسطينيون « سكانا عربا قليلين » رغم أنهم فى الحقيقة كانوا يشكلون الاغلبية الساحقة فى فلسطين حتى تأسيس اسرائيل فى مايو عام ١٩٤٨ ، حيث أجبر مئات الآلاف منهم بالقوة على الرحيل) ، فى اسرائيل (لاحظ كيف يتحدث بيريز عن اسرائيل وليس فلسطين ، رغم أن اسرائيل لم تكن موجودة فى ذلك الوقت) ومع الدول العربية التى حرضتهم وحاربت بجانبهم » .

ولاحظ هنا أن رئيس وزراء اسرائيل قد حول تماما شعب فلسطين الى مجرد اداة « للدول العربية » التى حرضتهم ، كأنما كان الفلسطينيون سيتركون الارض ولم يكونوا سيقاومون المستوطنين الصهاينة القادمين من تلقاء أنفسهم .

وكان لمثل هذه الافكار ــ كأسلحة ايدلوجية ــ التأثير المبكر فى اختزال الواقع فى فلسطين بالنسبة للجمهور وصانعى السياسة الغربيين الى مجرد نظام ثنائى . فمن جانب يقف الصهاينة الذين يتسمون بالشجاعة «مثلنا» ، وعلى الجانب الآخر تقف جماهير من السكان المحليين غير المتميزين الذين من المستحيل « علينا » أن نتطابق معهم . ولم ترتبط بالصهاينة مجرد مفاهيم الخير والحقيقة والجمال ، بل ارتبطت بهم صورة انسانية محددة للمستوطن الابيض الذى ينحت الحضارة فى البرية ، وهى صورة استندت فى حد ذاتها الى مصادر ثقافية فى مذهب البيوريتانية الامريكى (بنزعاته المحبة للسامية) وفى قصص مغامرات الاوربيين فى القرن التاسع عشر فى افريقيا وأمريكا اللاتينية ، وفى الملاحم الحديثة الكبرى عن البطل العصامى او الذاتى التكوين . وقد عزز النجاح

الرائع لافلام شهيرة مثل « الخروج » ، والمرتبطة بحوادث لا حـق لهـا عن الاسرائيليين ، ضحايا الظلم والاضطهاد الذين يتغلبون على المصاعب الكبيرة، الفكرة المثيرة للدهشة والسائدة تقريبا فى كل مكان فى الغرب ، بأن الضـحايا الحقيقيين فى الشرق الاوسط هم اليهود الاسرائيليون الذين هيأت لهم شجاعتهم البارعة التى تتسم بالمودة ارجاء تنفيذ التهديدات العربية المستمرة « بالقـاء اليهود فى البحر » . وقد فات ، للاسف ، على كل عالم غربى فى عام ١٩٨٢ ، أن الفلسطينيين هم الذين كان يلقى بهم فى البحر عند خروجهم من بيروت ، وأن الفلسطينيين وليس اليهود هم الذين كانوا يذبحون فى مخيمات اللاجئين البائسة. غير أنه منذ ذلك الحين بدأ العالم يرتب ببطء بالغ حقيقة المقاومة الفلسـطينية والوحشية الاسرائيلية) رغم أن قصة التاريخ الفلسطينى مازالت الى حـد بعيد فى طى الكتمان .

واعتقد أن هذه النقطة بالغة الاهمية . فقصة الانجازات الصهيونية فى اسرائيل لها نبض ثابت ومؤكد لها . فهى مستمرة ، وزاخرة بشخصيات انسانية يمكن تمييزها ، ومرتبطة بيهود عظام بحق ومشهورين بحق فى الغرب (اينشتاين، وفرويد ، وشاجال ، وروبنشتاين ... الخ) ويمكنها التمتع بشرعية عالمية تنسب اليها أو يحس بها . ويمثل الشعب ، الذى يتحدث عن القصة ، عالما يعـرفه المواطن الغربى العادى . فالتاريخ الصهيونى ، كما يتجسد فى قصة الانجازات اليهودية الحديثة ، هو باختصار تاريخ رسمى أو شبه رسمى . ولن يشعر سوى مواطن محلى أو ارهابى ومشاغب أجنبى بعدم الارتياح تجاهه . وفى الحقيقة ، فان معظم الفلسطينيين الذين يتحدثون عن تاريخهم هم بعيدون عن احتمال أن يكونوا من الغرب (رغم أن الكثير منهم قد يكون مقيما به) . فلغتهم هى اللغـة العربية ودينهم الاسلام او المسيحية الشرقية ، وثقافتهم بلا جدل غير غربية . وفى حين كان من الممكن لفترة طويلة لليهودى الاسرائيلى وصف آلام المحرقـة (الهولوكست) والتعويض الذى يستلزم العودة الى صهيون ، فانه بالنسبـة للفلسطينى ليست هناك مأساة تاريخية كبيرة بنفس الأبعاد الغامضة يعتمد عليها وليست هناك بالتأكيد عودة يدعى لنفسه حقا فيها . فالكارثة (أو النكبـة) الفلسطينية هى مجرد كارثة انسانية تتمثل فى تدمير المجتمع والطرد والتنقـل المؤلم ، والابعاد عن الأرض الذى تلا فقدان حق حتى أن يكون له تاريخ وهوية سياسية بالنسبة للصهيونية . والأهم من كل ذلك ان الفلسطينى يعانى لأنـه ضحية غير معترف بها ، والاسوأ من ذلك انه ضحية لا تلام فقط بسبب كارثتهـا فحسب ، بل لكوارث الآخرين أيضا .

غير انه رغم أن الفلسطينيين قد مروا بأوقات صعبة ، بل أحيانا بأوقات عصيبة ، فان الشعب لم يختف ولم يصرخ فى كافة الهزائم المتقطعة « كفى » ، ولم يتخل عن كونه فلسطينيا . وخلال السنوات الأولى بعد عام ١٩٤٨ حـاول

ـ ما يسمى بالبقايا ـ الذين أصبحوا مواطنين اسرائيليين ، اقامة صلات مع الحركات التقدمية فى اسرائيل ، واقاموا منظمات مثل منظمة « الأرض » لتعزيز الثقافة والتراث الفلسطينى بين الأقلية المعارضة . وانضم المتعصبون فى العالم العربى من جانبهم الى التيار الناصرى ، واصبحوا بعثيين أو شيوعيين أو بدأوا العمل السرى وأقاموا منظمات فلسطينية حاربت الدول العربية واسرائيل على حد سواء . وبدأ الظهور البطىء للادب الفلسطينى فى فترة ما بعد عام ١٩٤٨ مساره فى الستينيات مع الأعمال الهامة الأولى لمحمود درويش وفدوى طوقان وغسان كنفانى وجبرا جبرا وسميح القاسم وغيرهم .

وقد بدأنا الآن فقط فى سبر اغوار حالات الغليان الشديدة فى العالم العربى واسرائيل والغرب التى اعقبت حرب يونيو عام ١٩٦٧ . غير ان عام ١٩٦٧ كان يعنى ، بالنسبة للفلسطينيين استيلاء اسرائيل على الضفة الغربية وغزة ، وبالتالى ضياع فلسطين التاريخية برمتها . ومع ذلك ، أدى عام ١٩٦٧ الى انبعاث واضح لحركة وطنية فلسطينية مستقلة ، وفى مجال الثقافة والايديولوجية الى بداية لغة حدث فلسطنى مستقلة ، . وتزامنت كافة هذه الامور مع ظهور القوة الجديدة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، التى تأسست عام ١٩٦٤ ، وبدأ النظر اليها بجدية على انها قوة رئيسية فى الساسات الاقليمية والدولية بعد عام ١٩٦٧ . ورغم انمنظمة التحرير الفلسطينية قد تركت وراءها فى أعقاب صداماتها مع الدولتين المضيفتين (الأردن ولبنان) ميراثا ماساويا من الحرب الأهلية ، والتدمير والكراهية ، فقد كان لها ايضا تأثير عكسى تمثل فى توحيد الشعب الفلسطينى المشتت والمطرود لأول مرة فى تاريخه . وفى عام ١٩٧٤ اعلن مؤتمر القمة العربى بالرباط أن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الوحيد للشعب الفلسطينى ، وبعد خمسة عشر عاما من التمزق والشقاق ، حصلت منظمة التحرير الفلسطينية ، رغم ذلك ، على اعتراف وتأييد لم يسبق له مثيل من جانب الشعب ،الامر الذى ظهر فى عقد المجلس الوطنى الفلسطينى فى الجزائر واليوم تحظى منظمة التحرير الفلسطينية باعتراف ما يزيد على مائة حكومة فى العالم ، وباستثناء الولايات المتحدة واسرائيل ، لا تعتبر على مستوى العالم ممثلا للفلسطينيين فحسب بل ايضا كشريك أساسى فى اية عملية سلام ذات اهمية بين العرب واسرائيل .

وقد ادت حرب يونيو الى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ثم الى اتفاقيات كامب ديفيد عام ١٩٧٩ وغزو لبنان عامى ١٩٧٨ و ١٩٨٢ . كما وفرت الثورة الاسلامية فى ايران والحرب الايرانية ـ العراقية فى جزء آخر من المنطقة ادلة اخرى على ما كان يدل عليه عام ١٩٦٧ بالفعل وهو أن هيكل الدولة الذى أقامته القوى الاستعمارية الكبرى بعد الحرب العالمية الأولى ، والسياسات فى المنطقة التى حكم بها الغرب الشرق الأوسط بصورة رئيسية ، قد بدأت اما فى التلاشى أو فى الانتشار عبر الحدود .

وظهرت ايران الاسلامية واسرائيل الصهيونية كقوتين تتعديان الحدود القومية ، وتعتمدان — بصورة لافتة للنظر — على الاقتصاد الغربى ، وتتمتعان فى نفس الوقت باستقلال يتسم بالتصلب عن الوصاية الغربية . وبالمثل اكتسبت الحركة الفلسطينية ايضا بعدا دوليا قويا ، وارتبطت بخط القومية التحررية المتجسدة فى الحركات الكبرى المعادية للامبريالية فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية . وفيما يتعلق بالنظام العربى للدولة ، فانه يمكن للمرء رؤية حشد من النظم المعتدلة أو الاستبدادية ، العاجزة عن حماية حدودها والتى تعتمد بصورة مخزية على قوات الامن الداخلى لقمع سكانها المحليين وقمع حقوقهم الديمقراطية ، وغير القادرة على توجيه عوائدها من البترول أو فى فترة لاحقة مصادرها الآخذة فى التضاؤل ، والركون الى الاعتماد على الولايات المتحدة التى تجاهلت من جانبها احتجاجاتها واستخفت فيه بطموحاتها لمصلحة الطموحات الاسرائيلية .

وحتى هذه الصورة السريعة للتاريخ السياسى الحديث توفر خلفية كافية لفهم الجدلية الجديدة المعقدة والمتقلبة بصورة شديدة بين اسرائيل والفلسطينيين . وبينما كان من الممكن لاسرائيل ومؤيديها قبل عام ١٩٦٧ ، تجاهل الفلسطينيين باعتبارهم عقبات ثانوية فى طريق تقدمها ، فانه بعد عام ١٩٦٧ ، يتسم التيار الجديد من حملات الانكار الاسرائيلية والصهيونية الرسمية ، والدراسات الزائفة ، واعادة كتابة احداث التاريخ ، ببهرجة غريبة فى حكم المحاكاة المثيرة للسخرية والتى تتعارض بصورة تامة مع الحقائق . وقد دارت فى الحقيقة المواجهة الاخيرة بين اسرائيل والفلسطينيين على مستويين فى وقت واحد : فعلى الارض ، اذا جاز التعبير ، يدور النزاع بين حركة استعمارية صريحة (حيث كانت الصهيونية دائما ، والآن اصبحت السياسة الاستعمارية اخيرا وبصورة مثيرة للسخرية بادية للعيان امام عالم ما بعد الحقبة الاستعمارية) وحركة تمرد قومى . وعلى المستوى الثانى ، يدور الصراع ، على الصعيد السياسى والثقافى ، بين حركة تجردت من وعدها وتورطت الآن فى مشاكل لا متناهية من التبعية الاقتصادية والاحتلال الاستعمارى واضفاء الطابع العسكرى المستمر ، واستمرار الاتجاه المنحرف، من جانب ، وكتلة ثورية بازغة تنتمى بصورة مباشرة لحركات التحرير العديدة فى العالم الثالث ، تستعيد الوعى ، وتستعيد تاريخها بكافة السبل الجديدة .

ورغم ذلك اسارع ، دون الحاجة لتغيير هذه الصيغ ، الى القول بأن بعض الاسرائيليين والفلسطينيين عميقى التفكير الذين يتلمسون السبل لايجاد اشكال انسانية للتعايش قد التقوا بعد عام ١٩٦٧ ، رغم سيطرة النزاع الشامل . وادرك العديدون انه رغم اتباع الصهاينة نموذج المستعمرين

السابقين ، فان اليهود الاسرائيليين لم يكونوا فى الحقيقة مثل البيض فى جنوب افريقيا أو الجزائريين الفرنسيين . فاسرائيل دولة حقيقية ومجتمع حقيقى . ويتمثل الوعى البازغ الشامل ، فى شعبين يشتبكان فى صراع رهيب على نفس الارض يحتل فيه احدهما ، الذى يرزح تحت ماض مروع من الاضطهاد والابادة المنظمين ، موقع المضطهد لشعب آخر ، الذى تسرع مطالبه باستقطاع كل عضو فى المجتمع وتدفعه الى اليأس . وبالنظر الى ما يعنيه الوضع الآن . فان جيلا بأسره من الفلسطينيين والاسرائيليين لم يعرف سوى الاحتلال العسكرى المباشر ، أو فى حالة العديدة من الفلسطينيين المنفيين ، حياة اللاجئين الذين لا دولة لهم ، والذين يتعرضون لأهواء السياسات العربية ، وسخرية القوى العظمى ، وعزم أعدائهم على هلاكهم .

وقد الحت الى هيمنة وجهة النظر الصهيونية فى مجال الثقافة الغربية ، ويجب علينا الآن وصف أشكال وضغوط هذه الهيمنة بمزيد من التفصيل ، وفى الوقت نفسه نشير الى التقلصات والقيود التدريجية التى تفرضها المقاومة الفلسطينية النشطة على مقولاتها الزائفة ، والمنافية للعقل بصورة صارخة . ويبرز هنا أمر أو أمران . ويتمثل الاول فى التباين غير العادى بين الحديث الصهيونى الرسمى (كما تديره المؤسسات،والمتحدثون الرسميون ، والمدافعون الرسميون ، والمدافعون المجادلون الذين يتسمون بالعنف) والعمل الصهيونى غير الرسمى . ويعد معظم المؤرخين التحريفيين الاسرائيليين من الشباب الذين ظهروا فى منتصف الثمانينات (توم سيجيف ، وبينى موريس ، وغيرهما) صهيونيين غير أن جهودهم تنبع من رغبة حقيقية فى فهم الماضى ، وما يقولونه عن الاحداث المرعبة لعام ١٩٤٨ يقولونه بصراحة ، دون رغبة فى الكذب أو اخفاء الماضى . وما زال نظراؤهم على الصعيد الرسمى يعملون فى اطار الهواجس القديمة ، فالفلسطينيون بالنسبة لهم هم « عرب » ، بمعنى أنهم ارهابيون عندما يبدون مقاومة أو وضعيون عندما لا يبدون مقاومة . وعلى أية حال ، فان الاساطير القديمة عن عام ١٩٤٨ بالنسبة لهم ستبقى مهما يكن الامر .

ولعل الامر الاكثر مدعاة للدهشة هو ذلك التباين بين الحديث الامريكى والاسرائيلى الصهيونى . فهناك قدر كبير من الحوار ومزيد من حرية المناقشة بين الاسرائيليين اكبر مما بين الصهيونيين الامريكيين ، الذين يفوق تملقهم الواضح لاسرائيل كل حدود تقريبا . وعلاوة على ذلك ، فان الصهاينة الامريكيين قد مالوا بشدة ، خلال الثمانينات نحو اليمين ، فى الوقت الذى قامت فيه رئاسة ريجان بسلسلة من المغامرات الانتكاسية فى أنحاء العالم وزادت من مساعداتها للنظم الديكتاتورية وحركات التمرد اليمينية حيث كانت تكتشف « ارهابيا » تحت كل شجيرة ، ودلائل على وجود « امبراطورية الشر » حيثما لا تفرض الولايات المتحدة سيادتها . ولا شك أن هناك انحرافات مماثلة يمكن ملاحظتها فى المملكة المتحدة واوربا الغربية بصورة عامة ، غير أن

ما يجعل الحالة الامريكية بارزة للغاية هو بالطبع قوة واهمية التأييد الامريكى المنقطع النظير لاسرائيل .

وقد تحول تأييد المجموعة الامريكية بالفعل ، بعد ذلك ، فى منتصف السبعينات الى عامل منظم بصورة فريدةورائعة من الناحية التكتيكية فى الساحة السياسية الامريكية ، وخلال سنوات حكم ريجان ، أصبح فى مقدور « اللوبى » ، كما سماه ادوارد تيفنان ، مؤلف كتاب صدر فى عام ١٩٨٧ يحمل نفس هذا الاسم ، ان يدعو الكونجرس باكمله الى تأييد أو معارضة اجزاء محددة من التشريعات . فهناك شخصيات بارزة فى مجلس الشيوخ ومجلس النواب أمثال (كرانستون ، واينوى ، سبيكتر ، وكاستين ، وليهى ، وسانفورد ، وفاسيل دليفين وأوبى ،وفيجان ، وولب وغيرهم) مدينيين لاموال لجنة الشئون العامة اليهودية (انظر المقالين المطولين بشأن نشاطات اللوبى الاسرائيلى فى عمليات تمويل الكونجرس فى صحيفة « النيويورك تايمز » فى السادس والسابع من يوليو عام ١٩٨٧) . وآخرين مثل كيندى ومدينهان وداماتو ودود وسولارز علاوة على المنافسين على منصب الرئاسة (كيومو وبيدين وكيمب ودول) ملتزمون التزاما صارما بالرؤية الصهيونية اليمينية الأساسية للامور . وتتمثل معتقداتهم فى أن اسرائيل دائما على صواب مهما فعلت ، وان الفلسطينيين جديرون بالاهمال ، وأن الارهاب هو القضية الرئيسية فى الشرق الاوسط ، وبقدر ما تعنى هذه الصيغ التى تتم بالتبسيط وعدم الترابط ان اسرائيل يمكنها مواصلة ممارساتها فى الضفة الغربية وغزة والتى توصم بصورة مستمرة بانها بربرية أو عنصرية أو استبدادية فى اماكن اخرى (فى افغانستان وجنوب افريقيا على سبيل المثال) فانه يتم اعتبارها كذلك . ويتمثل الاستثناء المشرف من هذه الفضائح المتعلقة بالضمير والسياسة والتى لا تتسم سوى بحد أدنى من الشرف ، فى جيسى جاكسون وحفنة من السود أو المسئولين المنتخبين من الليبراليين الحقيقيين .

وقد اشع هذا النوع من تمركز القوة فى المجتمع السياسى الامريكى أيضا تاثيرات على المجتمع المدنى ، وخلف نتائج جديرة بالملاحظة . فكلما زاد اللوبى قوة فى أمريكا منذ عام ١٩٦٧ ، كلما لفت الانتباه اليه ، وزادت المقاومة التى يثيرها . ولذلك كلما حاولت منظمات مثل الرابطة المناهضة للتشهير ولجنة الشئون العامة الامريكية — الاسرائيلية ، سحق اى معارضة لاسرائيل فى الحياة العامة الامريكية ، كلما ظهرت المعارضة . ويعد كتاب الرابطة الصهيونية لالفريد ليلينتال ، والذى صدر عام ١٩٧٨ ، عملا رائدا عن المحاولات الصهيونية للسيطرة على الراى والمناقشة . وتمثلت ميزة هذا الكتاب فى الكشف عن أمثلة للقمع والتزييف الذى خضعت عن طريقه دور النشر والمجلات والصحف ومحطات الاذاعة والتليفزيون للضغط ، امتنعت عن نشر أى شىء قد ينتقص من سمعة اسرائيل التى لا تشعر بها شائبة كدولة نموذجية . ورغم أن كتاب

ليلينثال قد ذكر اسماء وأورد حقائق وأرقاما ، فقد جرى تجاهله الى حد كبير فى الصحف الرئيسية ، التى فضلت عدم قبول التحدي ضد استقلالها الخاص الذى تباهى به كما تدعمه كتاب ليلينثال ومع ذلك فــان مصيـــر ليلينثــال لم يمنــع الآخرين الذين زاد عددهم الى حد كبير . فقد ظهرت الفضائح الاخيـرة للوبى الصهيونى بصورة فعالة فى كتاب نوام كومسكى « المثلث المحترم » (١٩٨٣) وكتاب بول فيندلى « لقد جراوا على التحدث جهرا » (عام ١٩٨٥) ، فى حين تضخم بصورة مطردة خلاف اليهود الامريكيين مع المركز الصهيونى .

واصبح من الممكن الآن بوضوح رؤية الأسلوب الرسمى الذى ينتهجـــه انصار اسرائيل فى القيام بشيئين عندما يكتبون او ينظمون : فهم يعيدون رســم خط حزبى رسمى بشأن اسرائيل ، او يسعون وراء المنحرفين الذين يهــددون بافساد القصيدة القصصية . ورغم ذلك ، هناك نقيض جدلى لهذا الأسلوب . ويحمل منتقدو ومعارضو اللوبى الصــهيونى فى المجتمع المدنى على عاتقهم اولا فك رموز الأساطير ، وبعد ذلك يقدمون سجل الحقائق بأسلوب محايد بقــدر الامكان . ورغم اننى ساعود الى هذه المهام النقدية بعد قليل ، فان النقطة التى اريد توضيحها هنا أنه لا يوجد شىء — بالمعنى الحرفى — بشأن فلسطين يمكن ان يمر دون دليل ، وجدل ، ونزاع وخلاف فى المجتمع المدنى الامريكى : كما لو كان سرد التاريخ الفلسطينى !) غير مستساغ ، ولذلك يجب سرده واعادة سرده عدة مرات لا حصر لها . ولعل ابرز مثال على الهجوم على فكرة الهوية الفلسطينية هو كتاب جوان بيترز « منذ قديم الازل » ، وهو عمل كيل له المديح فى الولايات المتحدة ، ومع ذلك تم تجاهله بصورة تامة فى اسرائيل . اذ تقول مقولة بيترز ، بأن الفلسطينيين هم فى الحقيقة عرب من الدول المجاورة جاءوا الى فلسطين فى الفترة ما بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٤٨ بسبب اجتذاب رخــاء الاستيطان الصهيونى لهم — تحول الفلسطينيين كشعب الى سحابة فى الخيال التاريخى . وقد اشاد بالكتاب ، الذى منح جائزة جمعية الكتاب اليهودى ، مؤرخون محترفون (مثل بربارا توشمان) وشخصيات لامعة (مثل سول بيلو) على أنه حدث تاريخى ، حتى عندما ظهر ان الكتاب ملىء بانتحال الآراء واخطاء الاقتباس وتحريفات واسعة فى الحقائق والارقام .

وقد اتخذ كتاب بيترز وموجة الكتب التى تتنـــــاول الارهاب ، الغزو الاسرائيلى للبنان عام ١٩٨٢ كمصدر مباشر لها . فلأول مرة فى القرن العشرين ، يشعر الغرب واسرائيل ومؤيدوها بالحرج نتيجة المشهد غير العادى الذى مثله حصار بيروت والذى ظهرت كل تفاصيله الدامية فى نشرات الاخبار المسائية على شاشات التليفزيون . كما ادت مذابح صبرا وشاتيلا التى وقعت فيما بعد ، والانهيار التدريجى للسياسة الامريكية فى لبنان ، والمرونة المدهشة للفلسطينيين (الذين كان من المتعين سحق روحهم القومية ، وفقا لما اعلنه الجنرال شارون ، مرة واحدة والى الابد ، فى بيروت وأماكن اخرى) وهزيمة بيجين : ادت كل هذه التطورات الى تفاقم الفظائع السياسية والثقافيـــة للمنظمات الصهيونية .

ونشرت لجنة الشئون العامة الامريكية — الاسرائيلية ورابطة مناهضة التشهير على حد سواء قوائم بأسماء الاعداء وكتيبات لمواجهة اى شخص يبدو أن انتقاده لاسرائيل يحظى باهتمام كبير ، وتعقبت بعض الجماعات الصهيونية وسائل الاعلام (الواشنطن بوست وشبكة ان . بى . سى بصفة خاصة) لما يزعم عن ميولهما المعادية للسامية فى تغطية حرب لبنان . وبدأ موضوعان رئيسيان ، تدريجيا وكما لو كان باتفاق مسبق ومنسق،فى الظهور فى الجدل الصهيونى العنيف الأول هو ان انتقاد اسرائيل ليس الا انبعاثا لمعاداة السامية الكلاسيكية والثانى أن المقاومة المسلحة او الثقافية التى يقوم بها الفلسطينيون ضد اسرائيل هى فى جوهرها ارهاب وليست سوى ارهاب .

واعتقد أنه وراء هذه الافكار غير الواقعية التى تتسم بالتصلب ، هناك حقيقة أخرى غير مستساغة تتمثل فى أن الصهيونية الرسمية ، كما تتجسد فى السياسة الرسمية الاسرائيلية ضد الفلسطينيين الذين يبدو أنهم عازمون على الاستمرار فى مواجهة اسرائيل بصورة مزعجة ، يتحدون المستوطنات اليهودية ويشجبون بقوة ويقاتلون ضد سلب حقوقهم ، ويضربون بدقة فى تلك الاماكن (الضفة الغربية وغزة ولبنان على سبيل المثال) حيث من المفترض أن تلحق بهم الهزيمة . غير ان هناك مشكلة اعمق . فالتأثير الخطابى ، علاوة على التأثير الاخلاقى المصاحب لهذا المأزق يتمثل فى أن « مثل » الصهيونية الكلاسيكية ، التى كانت قد اغرت الغرب وعددا كبيرا من اليهود بوعودها ، قد بدت الآن على أفضل تقدير لا توجه الا تأكيدات لفظية فحسب لجمهور متناقص واقل سذاجة . واصبحت اسرائيل ، بصرف النظر عن كونها حقيقة بين الأمم — مع الولايات المتحدة — دولة منبوذة فى المجتمع الدولى ، تتعامل مع جنوب افريقيا وشاه ايران ، ونظام سوموزا فى نيكاراجوا ونظام ماركوس فى الفلبين وكل نظام رجعى فى العالم الثالث . ويضطر المثقفون ، الذين قد يزعمون انهم تقدميون فى تأييدهم لاسرائيل الان ، لاخضاع حججهم الى تحريفات غير عادية من اجل الحفاظ على وهم أن اسرائيل مازالت تمثل قضية ليبرالية. وأحد الامثلة لهذا الشكل الخاص لخيانة رجال الفكر يتمثل فى مايكل والترز ، المنظر السياسى الامريكى « اليسارى » الذى التمس العذر مع تقدميين آخرين (مثل آلان ديرشوتيز وايرفينج هاو ، ومارتن بيرتز) لاسرائيل فى ارتكابها اعمالا تواجه بالادانة فى كل مكان آخر » . ولذلك يمكنك ان تعارض الاعتقال الوقائى والعقوبات الجماعية والسياسة الاستعمارية والحرب الوقائية وقوانين الهجرة العنصرية ، وقوانين الايجارات والاسكان الجائرة فى جميع انحاء العالم، ولكن عليك ان تؤيدها فى اسرائيل . ويتم تبرير كل ذلك على انه صداقة حميمة وتضامن مع المجتمع الذى ينتمى اليه المرء .

ويستعمل نفس النوع من الليونة فى التعامل مع « الارهاب » والتعصب الدينى . فبسبب ان اسرائيل دولة تقوم بصورة واضحة على أساس المعتقدات الدينية الى حد كبير ، وبسبب انه من الواضح تماما أن القساوسة

والفقهاء علاوة على الحاخامات يوجهون العديد من اقبح جوانب السلفية الحديثة ، فقد ثبت أن الهجوم على الاصولية الاسلاميه والتماس العذر للآخرين هو تكتيك وقائى صهيونى حكيم . وقد ثبت أن انحاحام كاهانا انما هو كبش فداء ملائم لهؤلاء التقدميين الحذرين : فبالامكان مهاجمته علانية بأنه مجرد فرد شاذ ، فى حين ان العديد من الافكار التى يقترحها الآن (مثل طرد العرب بالقوة) هى مبادىء قويمة فى الفكر والممارسة الصهيونية منذ عشرات السنين . وبالنسبة للارهاب ، فقد ثبت انه يكشف أيضا عن حيلة بارعة . ويشير امنون كابيليوك ، فى مقال نشرته مجلة « لوموند ديبلوماتيك » فى فبراير عام ١٩٨٦ ، الى انه فى الوقت الذى اكتسبت فيه القومية الفلسطينية مصداقية اقليمية ودولية فى منتصف السبعينات ، فان المسئولين الاسرائيليين تبنوا بوعى سياسة وصفها بأنها « ارهابية » . ولا يمكن لأحد انكار ان هناك عنفا اجراميا، وأن القتل العمد للابرياء انما هو جريمة مروعة . وتتمثل المشكلة فى أن استخدام كلمة « ارهاب » هو سلاح سياسى يستهدف حماية الطرف القوى (ومحو مآثر الارهابيين « السابقين » ، مثل بيجين وشامير الذين يحكمان اسرائيل الآن ، من الذاكرة علاوة على اضفاء الشرعية على الاجراءات العسكرية الرسمية ضد الابرياء . وكان الوصف الاسرائيلى لكلمة « ارهاب » واضحا لدرجة أن المراسل ستيفن اينجلبيرج وصف فى صحيفة « النيويورك تايمز » فى ١١ يوليو عام ١٩٨٧ الرئيس ريجان بأنه قد تأثر بدرجة كبيرة بكتاب بنيامين نيتانيا هو عن الارهاب ، وقد نشر هذا الكتاب عام ١٩٨٥ ، وربط الارهاب بالاسلام والفلسطينيين والمخابرات السوفيتية « كى . جى . بى » الى درجة اننا نعرف من خلال صفحات الكتاب مدى تجاوز رؤساء آخرين للكونجرس لتبنى مبادرات خاصة بهم .

ولنعد الآن الى العمل المعارض الذى قدمه منتقدو السياسة الصهيونية الاسرائيلية . واقول ان الهيمنة أصبحت حقا شرعيا لوجهة النظر نفسها كانت دائما ، وان لم تكن بوضوح كاف مناسب ، تجد مقاومة من جانب الفلسطينيين ، فقد تعرضت حماقاتها الشاذة وضعفها العقائدى — على الاقل — وزيفها الصارخ ، لهجوم متزايد ، تحت رعاية المقاومة الفلسطينية مرة اخرى . ويجب علينا هنا التمييز بين المجال الدراسى والمجال العام . وبصفة عامة فانه من الصحيح القول ان الاساليب الغربية السائدة فى مجال الكتابات الدراسية عن الشرق الاوسط كانت دائما جزءا من سياسة المنطقة ، وخاصة فيما يتعلق بالصلات بين الدراسات والسياسة الامريكية . والآن فانه من الصواب القول بأن العديد — وليس الكل بالتأكيد — من المتخصصين الذين يتناولون الشرق الاوسط فى أى من جوانبه ، متأثرون بصورة معاكسة بالنزاع الصهيونى — الفلسطينى . ويميل معظم المستشرقين التقليديين الى الانسياق وراء وجهة النظر العالمية الصهيونية طالما سادت وجهة النظر تلك فى الواقع وفى واشنطن : حيث أن هناك نوعا من التناسق

الانعكاسى غير المترابط يكمن فى حقيقة ان مسئولى الاحتلال العسكرى الاسرائيلى المستعربين قد تخرجوا فى اقسام الدراسات الشرقية فى جامعات اسرائيل والغرب . ولذلك — ومرة اخرى اتحدث بصفة عامة — كانت الكتب او المقالات التى تعكس واقع وشرعية الثقافة العربية الاسلامية ، وتعترف فى النزاع ، نادرة للغاية فى الغرب . وكانت من الاستثناءات القليلة ، تلك بالحقوق الانسانية للعرب كشعب ، ومن ثم تتعاطف مع الطرف الفلسطينى الدراسات التى قدمها أ . ل . تيباوى ، والبرت حورانى ، وهما مؤرخان اكاديميان يحظيان باحترام كبير وقدما اعمالهما فى انجلترا ، وكان نظيرهما فى امريكا هو فيليب حتى .

وقد بدأت الأمور تتغير بعد عام ١٩٦٧ . ولندع جانبا مسألة ما اذا كان قد اصبح من الممكن الآن الوصول الى مصادر باللغة العربية فى لندن أو باريس أو نيويورك . وكما الحت من قبل ، فمازال من الصعب على شاعر او روائى عربى أن تترجم اعماله الى اللغة الانجليزية ، حيث أن معظم الناشرين الغربيين يعتبرون اللغة العربية لغة « مثيرة للخلاف » . وتنطبق نفس القاعدة على الاعمال الدراسية او الصحفية العربية . وقد كانت بعض الاعمال حول الفلسطينيين متوفرة باللغة الانجليزية قبل عام ١٩٦٧ . ويجب أن نتذكر أن عام ١٩٤٨ ، أو بالأحرى ما حدث خلال عام ١٩٤٨ ، يتعين أن يكون هو المسألة الحاسمة لأية مناقشة خاصة بفلسطين ومع ذلك تم تداول عدد قليل من الكتب أو المقالات التى تناقش احداث عام ١٩٤٨ من المنظور العربى ، بسهولة فى الارشيف الغربى ، ورغم أن عددا قليلا جدا للغاية منها كان متوفرا الا انه لم يستخدم قبل عام ١٩٦٧ ، وعلى سبيل المثال كتاب « اليقظة العربية » بقلم جورج انطونيوس وكتاب الحصاد المر بقلم سامى حداوى وظهر كتابان استهلاكيان هامان فى فترة ما بعد عام ١٩٦٧ ، اعدا بتميز دراسى يخلو من الأخطاء ، وقام بتحريرهما ابراهيم أبولغد : الاول فى عام ١٩٦٩ ، وهو يتضمن وجهة نظر عربية مخالفة لعام ١٩٦٧ (المواجهة العربية الاسرائيلية عام ١٩٦٧) والثانى عباره عن دراسة موثقة شديدة الحساسية شارك فى اعدادها العديد من الباحثين بعنوان « تحويل فلسطين » (عام ١٩٧١) . ونشرت كلا الكتابين دار نورث ويسترن يونيفيرستى برس ، الأمر الذى يعنى بالطبع أنهما حظيا بفرصة الوصول الى شريحة عريضة من القراء الغربيين .

وقد أدت فترة ما بعد عام ١٩٦٧ الى ظهور عدد من المنظمات العربية الامريكية كان هدفها المعلن هو تعزيز وجهة النظر العربية والفلسطينية فى الثقافة الغربية . كما ظهرت منظمات مماثلة فى أوربا الغربية . وفى بعض الحالات كان ذلك يعنى أن الأعمال المترجمة من أصول عربية وعبرية قد بدأت أخيرا فى الظهور ، وفى حالات أخرى كان يعنى ظهور النصوص الصهيونية

المحظورة أو غير المألوفة كدليل سلبي على ما كان يخفيه المدافعون عن اسرائيل لفترة طويلة ، وفي حالات ثالثة كان يعني تهيئة المجال للمناظرة والنقاش بين العلماء المعارضين أو غير المتشددين على حد سواء ليتحدثوا ويلتقوا معا • وفي معظم الأحيان ، كانت ـ المنظمات الجديدة ـ وعلى رأسها رابطة خريجي الجامعات العربية ـ الامريكية ـ تقوم بتنظيم جاليات العـــرب المغتربين في الغرب ، وتمكينهم من دعم العمل الاكاديمي والشعبي الذي « قدم » في الواقع العرب والفلسطينيين كمخلوقات في التاريخ العالمي لأول مرة في الغـــرب • وعلاوة على ذلك ، أصبح جيل كامل من الكتاب الفلسطينيين والعرب معروفا في الغرب ـ مثل محمود درويش واميل حبيبي وتوفيق زياد وغسان كنفاني واميل توما وسحر خليفة وصادق العزم والياس خوري وكثيرين غيرهم ـــ بفضل هذه الجهود . كما كانت دوريات مثل الدراسات العربية وصحيفة الدراسات الفلسطينية ونشرة أنباء رابطة خريجي الجامعات العـــربية ـ الامريكية ، وتقارير الشرق الاوسط في الصحافة العالمية ونشرة دراسات الشرق الأوسط (التي تصدر في انجلترا) ونشرات جازيل ولينك : كانت جميعها جزءا من موجـــة النقد العام للسيطرة الصهيونية ومنبرا لعمل ايجابي ونقدي جـــديد للواقع العربي والفلسطيني . وبالاضافة الى ذلك ، كشفت الجهود النقدية العظيمة التي قام بها اليهود غير الصهاينة أو المعادين للصهيونية أمثـــال ايلمر بيرجر واسرائيل شاهاك ونوام كومسكي وماكسيم رودينسون وليفيا روكاش وأ . ف . ستون ، الذين وجد العديد منهم الرعاية والتشجيع المباشر من جانب الجهود العربية في الغرب ، والتي ســارت على النمط الذى انتهجه جواده ماجنيس ، كشفت أعمالا مثل أوراق شاريت ويوميات حرب عام ١٩٨٢ لدوف يرميا والدراسات العميقة لكابيليوك عن صابرا وشاتيلا ، علاوة على كمية ضخمة من الوثائق « غير المعروفة » من السجل الصهيوني ودحضت الى الأبد أسطورة براءة الصهيونية •

ولفترة من الوقت واجهت هذه الاعمال التسجيلية المضادة جدلا واهتماما مرغوبا فيه من « الجانب الآخر » . وقد بدا ذلك مطلوبا طالما كان لمنظمة التحرير الفلسطينية قاعدة قوية في بيروت ، وطالما ظلت القضية الفلسطينية قضـــية رئيسية في المناقشات السياسية في الغرب بشأن مستقبل الشرق الاوسط • ومنذ عام ١٩٨٢ ، ومع بدايات الحرب الايرانية ـ العراقية ، وفي الواقع منذ تولي ريجان الرئاسة وترسيخ « الارهاب » على انه هدف السياسة الامريكية المفضل ، حدث هنالك تقهقر • فالمناظرة يجرى تجنبها والمناقشات يتم اسكاتها او منعها ، والاهتمام الجاد يتم تحويل اتجاهه • وفي حين كان القيام بتحليل نصوص الوثائق مثل الميثاق الوطني الفلسطيني أو قـــرارات المجلس الوطني الفلسطيني أحد الاعمـــال الصهيونية المشروعة في وقت من الاوقات ، أصبح البديل الأســـوأ الآن هو الاعتماد على شعارات مثل « المنظمة الفلســـطينية

الارهابية » وعلى التشهير الصريح عندما يصبح من المتعذر تجنب المناقشة الفكرية مع الفلسطينيين . وبدلا من الرد على الحجة أو محاولة دحض الحقائق ، فان الناطق باللسان الصهيونى كثيرا ما يصوب سهامه الى هوية المرء العرقية (انه فلسطينى — أو يهودى يكره نفسه — على اية حال) أو يصوبها الى الاتجاه السياسى العام الذى ينتهجه (« انه مناصر شهير للاتجاه اليسارى ») .

ولا يكتمل تصوير فترة ما بعد عام ١٩٨٢ دون اعطاء فكرة عما أدى اليه الانزلاق الكئيب الى الطائفية والقومية المحلية فى العالم العربى من تراجع فى الانجازات التى حققتها الاجيال الاولى لفترة ما بعد الحقبة الاستعمارية . فعلى الصعيد الدولى ، أصبحت الدول العربية فى حالة فوضى تكاد تكون تامة نتيجة لذلك . وتبنى العديد منها اتجاها يتسم بالخضوع بل والتذلل للولايات المتحدة ، وكان الدرك الأسفل ، رمزا وحقيقة ، لكافة هذه الأوضاع هو تمويل المملكة العربية السعودية لمتمردى الكونترا فى نيكاراجوا . وتخلت معظم الانظمة العربية تماما عن فكرة الوحدة العربية ، مع ما يعنيه ذلك من عواقب وخيمة على فلسطين . وفى بعض الحالات اتخذت اجراءات محلية صارمة ضد الفلسطينيين (مصر والاردن وتونس والمغرب) وفى حالات اخرى تآمرت بصورة مباشرة مع اسرائيل واليمين الدينى (الاردن وسوريا ولبنان) . واعتقد أنه من الصحيح بصورة عامة ، أن التوتر الكامن بين شمولية القومية الفلسطينية — العربية المحتملة والاتجاه المحلى للنظم العربية قد اشتعل بصورة أكثر اطرادا بعد عام ١٩٨٢ من ذى قبل . وهناك مثل بسيط يعطى صورة واضحة لهذا المناخ ، فقد عرقل عدد من الدول العربية اجراء دراسة مختصرة عن « الشعب الفلسطينى » قامت الامم المتحدة باعدادها عام ١٩٨٣ (وهى متضمنة فى هذه المجموعة من المقالات) بسبب ما زعمته هذه الدول من أن مجال الدراسة « يتعدى النطاق الاقليمى » الى حد كبير ، ولأن الفلسطينيين المقبولين لدى هذه الانظمة هم الذين يعيشون فقط فى الضفة الغربية وغزة . أما الباقين ، فانه يتعين نسيانهم .

غير أنه فى الوقت الذى فرضت فيه حقائق الحياة الفلسطينية التى تتسم بالتشتت والتعقيد نفسها على العالم ، وفى الوقت الذى بدأ فيه الموقف الاسرائيلى الرسمى متسما بالارتباك أو الحمق ، مهدت الحرب الباردة وايديولوجيتها التى اعيدت صياغتها الطريق لبدائل جاهزة تفى بجميع الاغراض الفكرية ، خاصة فى الولايات المتحدة ولحسن الحظ لم تجد هذه البدائل استجابة لدى جميع الاتجاهات . فقد أبدى جيل جديد من الباحثين الذين تعلموا اللغات المناسبة وقرأوا النصوص ، اهتماما بشعوب الشرق الاوسط العربية . وبدأت أفكار الاستشراق الثابتة تتعرض فى كل مكان لهجوم قاس ، وتوقفت المناهج النقدية الجديدة والاتجاهات السياسية المصاحبة لها ، عن ترديد مثل تلك التفاهات المستهلكة عن العقل العربى أو المجتمع الاسلامى .

فقد جعلت الماركسية واتجاهات المساواة بين الجنسين والميل للتفسير وهدم التقديم والنظرية الثقافية ، العادات القديمة بالية ، وظهرت هياكل جديدة فى كافة فروع العلوم الانسانية والاجتماعية . وفى النهاية ، أصبح من المقبول اعتبار الارتباط بين القوة والمعرفة حقيقة يتعين مواجهتها ودراستها وليست شيئا يجب اخفاؤه وراء الكياسة الطائفية السيئة .

وفى هذا الاطار النشط ، شغلت مناقشة القضية الفلسطينية بؤرة الاهتمام، وان لم يكن على نحو ظاهر دائما . وعلى سبيل المثال ، فانه اذا كان الاساس النظرى يقوم على مناقشة عامة حول تاريخ أعيد اكتشافه ، وروايات محظورة وشعوب محرومة من حماية القانون أو لا شأن لها ، فان الكثيرين يوضحون الصلة المباشرة بين الموضوع العام واحد اكثر الامثلة وضوحا عليه . وهكذا اصبح ذلك مصدرا للحرج للمثقفين الذين عارضوا الكونترا وأيدوا الساندينستا ، والذين نظموا المعارضة ضد انتشار الاسلحة النووية وأيدوا نزع السلاح ، والذين دعوا الى فضح جنوب أفريقيا والابتعاد عن العملاء الشموليين » و « والاستبداديين » ، والذين يؤيدون حقوق المرأة فى كل مكان فى العالم ويواصلون تجاهل حقوق الفلسطينيين والسلوك الاسرائيلى ، والذين لا يفوتهم الحديث عن أية قضية للسلام عدا النزاع المرير بين الفلسطينيين العرب واليهود الاسرائيليين ، للايحاء بأن أية مناقشة نقدية وصريحة لاسرائيل ستفقد التأييد اليهودى الهام لمواقف تقدمية كبرى .

وهكذا بدأت على نحو بطىء مناقشة نشطة ، رغم أنها اتخذت أشكالا معارضة فى اغلب الاحوال وأجريت فى أماكن معادية للسلطة . وكانت منابر الطلبة وقاعات المحاضرات فى الجامعات ، وقاعات الاجتماعات فى الكنائس والمطبوعات المناهضة للخط الرسمى هى المجالات الرئيسية ، حيث لم يكن هناك سوى تغيير طفيف فى وسائل الاعلام الاساسية او الاوساط الثقافية الرئيسية التى تتمتع بالصفة الرسمية . وكما قلت من قبل ، فان احد اهم الموضوعات الرئيسية كان يتركز فى ضرورة استعادة التاريخ للفلسطينيين ، وهو جهد يقومون به لانفسهم دائما ، وان كانت الدراسات الغربية متأخرة فيه . وما زال هناك تقصير ملحوظ بصورة غير عادية فى هذه الدراسات الجديدة والرائعة بصورة عامة يتمثل فى الغياب النسبى للمصادر العربية التى يمكن الرجوع اليها فى معالجة الموضوعات الدقيقة . وقد كان هناك طوال خمسة عشر عاما على الاقل ، على سبيل المثال ، ازدهار فى المادة ، بعضها كان متوفرا كدليل وثائقى وكادب من الطراز الاول على حد سواء بشأن المجتمع الفلسطينى قبل وخلال عام ١٩٤٨ (أعمال بيان الحوت ، وايلى صنبر ، ونافذ نزال والياس شوفانى ، ومذكرات مختلف الشخصيات الهامة ، وتطور روايات الشعب هنا وهناك ، وغيرها) . وبالاضافة الى ذلك جمع مركز الابحاث الفلسطينى ــ الذى قام الجيش الاسرائيلى بنقل سجلاته (واعادها فيما بعد) من

بيروت الغربية فى سبتمبر عام ١٩٨٢ — مادة جغرافية وسياسية واجتماعية وديمغرافية عن المجتمع الفلسطيني فى فترة ما قبل عام ١٩٤٨ ، وقدمت مجلته « شئون فلسطينية » سلسلة غنية من المقابلات ، ولمحات السير الذاتية ، والشهادات الشفهية ، وجميعها من شخصيات هامة أو متواضعة ، عن مختلف أحداث فلسطين . ويبدو أن عددا قليلا للغاية من مجمل هذه المادة باللغة العربية اما معروف أو مستخدم ، وذلك يوحى بأن معايير البحث السائدة التى تحتاج الى الشهود الغربيين كدليل وحيد يمكن الاعتماد عليه أو الوثوق فيه ، قد استمرت دون تحد الى حد كبير .

ومع ذلك ، وبصرف النظر عن هذا ، تحقق تقدم كبير على جبهة واسعة الغاية . فهناك قدر كبير معروف الآن عن فلسطين العربية فى أواخر القرن التاسع عشر . ويؤكد الاستخدام الماهر للسجلات العثمانية والبريطانية والصهيونية ، وجود مجتمع مزدهر ومنغمس فى السياسة نسبيا . وقد وضعت الفكرة القديمة التى تشار كثيرا بأن القومية الفلسطينية قد نتجت عن المواجهة مع الصهيونية ، فى طى النسيان منذ فترة طويلة ، مثلما حدث بالنسبة الفكرة القائلة بأن الهوية الفلسطينية لم تكن « سوى كيان غير مميز فى الامبراطورية العثمانية أو الحركة القومية العربية المبكرة . وقد أحل البحث الجيد بشأن أهمية القضية الفلسطينية داخل العالم العربى — قبل فترة طويلة من تحولها الى صرخة مشتركة للحكومات — النظام محل الفوضى التى كانت سائدة فى وقت من الاوقات ، والتى كان يعلن خلالها الباحثون الصهاينة والمستشرقون أن فلسطين هى قضية ملفقة تستغلها الحكومات لاغراضها الخاصة . وفى الحقيقة ، كانت فلسطين قضية شعبية فرضت على الحكومات المعارضة أو العاجزة التى اضطرت الى الاستجابة لضغوط الجماهير من القاعدة . ولم يكن أى من ذلك سيحظى بالقوة الاساسية التى يتمتع بها الآن دون بحث جوهرى فى الاحصاءات الديمغرافية وحيازة الارض فى فلسطين . وهنا أيضا ، أثبتت أبحاث هامة أعدها باحثون مثل جانيت آلو لفد وجوستين مكارثى والكسندر شولش ، بصورة مؤكدة ، وجود النموذج الثابت لاستيطان اغلبية عربية فى فلسطين قبل أجيال عديدة من التدفق الصهيونى خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

ومن المهم الاشارة ايضا الى أنه قد بذلت جهود كبيرة أشرف عليها الفلسطينيون لنقل الابحاث الى العواصم الغربية نفسها ، وتمثل هذه الجهود دعامة ثابتة للبحث فى الماضى الفلسطينى والعربى . وقد نشر معهد الدراسات الفلسطينية فى واشنطن ، على سبيل المثال ، مجلدا ضخما ، كتبه لى اوبريان ، بعنوان « المنظمات اليهودية الامريكية واسرائيل » (١٩٨٦) يتناول بالدراسة بصورة دقيقة ومفصلة كافة المنظمات اليهودية الامريكية الكبيرة . وبالمثل ، اعد المركز الدولى للابحاث والسياسة العامة ، فى واشنطن أيضا ، سلسلة

قيمـــة من الدراسات عن الرأى العـــلم الدولى والقضية الفلسطينية (وكانت النتائج مذهلة حيث أصبح من الواضح تماما أن الاجماع حتى فى امريكا اصـــبح مؤيدا بصـــورة راسخة لحق تقـــرير المصير الفلسطينى) ، وعن الاســـتعراب الاسرائيلى ، والارهاب الاسرائيلى الرسمى ، وما شابه ذلك . وكلمـــا أميط اللثام عن واقع الفلسطينيين كلما تعرت اسرائيل . وينبغى أن نشير الى سلسلة دراسات جديدة ، بداتها الدورية الشهرية « الشئون الخارجية الاسرائيليـــة » لجين هونتر ، التى يكشف توثيقهـــا للتـــاريخ والســـياسة الاسرائيلية الحقب الاخيرة عن الماضى الخفى . ويعد كتاب سيمحا فلابان الهام : « ميلاد اسرائيل :ـــ الاساطير والحقائق » (١٩٨٧) أثرا هاما لذلك الكاتب الاشتراكى الصهيونى الذى توفى مؤخرا ، كما يعـــد كتـــاب بنيامين بيت هلا همى والرابطـــــة الاسرائيلية ، (١٩٨٧) عمـــلا آخر فى التاريخ المعـــاصر من المؤكـــد أنـــه سيثير مزيدا من الجدل والتحـــرر من الوهم .

وما زال من الواضح أنه يتعين بذل قدر كبير من العمل . وفى الوقت الذى يدخل فيه الاحتلال الاسرائيلى للضفة الغربية وغزة لعقده الثالث ، يدرك المرء أن تحقيق التحرر المطلوب لا يمكن أن يتم الا عن طريق جهود كبرى ومنسقة . ورغم ذلك فان الامر الذى يتعين تذكره هو أنه لا يوجد شىء ـــ وبالتأكيد حتى « الواقع » الاستعمارى ـــ لا يمكن تغييره الى عكسه . وهناك دلائل مشجعة على نحو كبير لحدوث تغير بارز فى اتجـــــاه العـــديد من الاسرائيليين وبعض انصارهم الغربيين من اليهود وغير اليهود . وقد أقام الفلسطينيون منذ عام ١٩٧٤ تحـــــركهم وتنظيمهم السياسى على فكرة المجتمـــــع المشترك للعرب واليهود فى فلسطين ، وكمايرى مزيد من الصهاينة حكمة هذا الخيـــار ، كنقيض لعملية اضفاء الطـــابع العسكرى المستمرة والحرب غير الحاسمة ، فانه يتعين أن يكون هناك مزيد من العمل السياسى والبحث المشترك من جانب من يشتركون فىنفس الرأى والفكر . ويأتى تقـــديم هذه المجموعة من المقالات فى اطـــــار تحقيق هذا الغرض .

ادوارد ســـــعيد

نيويورك يوليو ١٩٨٧

الجزء الاول : فضيحة بيترز

(١) مؤامرة الثنـــاء

بقلم : ادوارد ســـعيد

نشرت دار هاربر آندرو كتاب جوان بيترز الذى يحمل عنوان « منذ قديم الازل : جذور الصراع العربى ــ اليهودى على فلسطين » فى ربيع عام ١٩٨٤ . وكتب على غلافه الخارجى عبارات اطراء من جانب بربارا و . توشمان وسول بيلو وانجير بيدل ديوك ، وفيليب م . هاوسر وايلى فيسيل ولوس داويدويتش وبول كاوان وباربارا بروبست سولومون وآرترجيه . جولد برج . وقد أقـــر كل ثناء بأهمية الكتاب الضخمة : فوصفته توشمان بأنه « حدث تاريخى فى حد ذاته » واوضح بيلو بتواضع بأن « ملايين الاشخاص فى جميع انحاء العالم ، الذين يخنقهم دخان التاريخ والدعاية الكاذبين ، سيشعرون بالعرفان لهــذا السجل الواضح لاصول الفلسطينيين » . وبعد ثمانى طبعات ذات غلاف مقوى ، اصدرت هاربر آندرو طبعة ورقية الغلاف من الكتاب ، تحمل هــذه التعليمات التى تتضمن الثناء على هــذا الكتاب (دون تعليق باربارا وروبست سولومون) مضافا اليها ثناء من تيودور هـ . وايت .

وقد عرض كتاب « منذ قديم الأزل » فى مقالات نقدية مؤيدة فى الصحافة الامريكية ، مع وجود استثنائين فقط . (رغم أن استقباله فى بريطانيا واسرائيل كما سنرى كان سلبيا بصورة تكاد تكون متماثلة) . وعلق جميع النقاد ــ باستثناء هــذين الناقدين وروبـــرت السون ، الذى شجب الكتاب فى جريدة « امريكان هيستوريكال ريفيو » ــ على دراسة بيترز الشاملة المدهشة والنتائج التى لم يسبق لها مثيل التى توصلت اليها . وقد قدم هذا التقييم نقاد هواة نسبيا تعوزهم الخبرة (امثال والتريش فى جريدة « الاتلانتيك » ، وتيمرثى فوت فى صحيفة « الواشنطن بوست ») علاوة على اساتذة متمرسين من امثال (دانيال بايبس فى جريدة « كومنيترى » ، ورونالد ساندرز فى جريدة « النيوريببلك » ، وجون كابل فى صحيفة « النيويورك تايمز ») . وكان الانطباع العام هو أن جوان بيترز قد قامت اخيرا بكل الجهد اللازم لحسم احدى اكثر المشاكل صعوبة والحاحا فى القرن العشرين . ولن يصبح فى مقدور اى باحث او رجل دعاية ، المجادلة بأن « الفلسطينيين » (حيث خولت بيترز كل شخص أن هوية شعب بين علامتى تنصيص من أجل التشكيك) هم فى الحقيقة شعب حقيقى لهم تاريخ حقيقى فى « فلسطين » . فقد اكد كتابها ان وجودهم القومى والفعلى وبالتالى مزاعمهم بشأن اسرائيل كانت على افضـــل تقدير مشتبه فيهـــا وعلى اســـوأ تقـــدير محض اختلاف . وبمعنى آخــر ، أعنى كتـاب « منـــذ قديم الازل » اسرائيل

ومؤيديها من مسئوليتهم عن مشكلة اللاجئين التى تولدت نتيجة لاقامة الدولة اليهودية فى عام ١٩٤٨ . والمسألة الخاصة بشعب الضفة الغربية وقطاع غزه .

ورغم أن كتاب « منذ قديم الازل » له صلة واضحة بالجدل المعاصر الدائر بشأن الشرق الاوسط فى الولايات المتحدة ، فان تميزه الفريد يتمثل فى تقديمه لنفسه على انه تاريخ واسع النطاق لاصول المشكلة الفلسطينية ، وفى محاولته اثبات ان الفلسطينيين كانوا دائما بمثابة دعاية . وسأترك للقارىء تصور مدى ما يصيبنا ذلك بالصدمة ، نحن الذين لنا ذكريات عن الحياة الاجتماعية فى حيفا والقدس وصفد ديانا والناصرة قبل عام ١٩٤٨ . وتزعم بيترز ان اعادة القراءة المتأنية للدليل الديمغرافى ، تظهر ان البريطانيين (وبالطبع « العرب ») قد أخفوا الدليل على عدد المهاجرين العرب بصورة غير مشروعة الى فلسطين قبل علم ١٩٤٨ . وتجادل بأن معظم اللاجئين عام ١٩٤٨ كانوا فى الحقيقة اناس لم ينزحوا الى فلسطين حتى عام ١٩٤٦ ، ولا يمكن لذلك اعتبارهم سكانا حقيقيين لفلسطين « منذ قديم الازل ». وتقول على أية حال ، أن عددهم كان يتضخم لاغراض دعائية — وهو زعم اسرائيلى مبتذل على نحو واضح فىالخمسينات والستينات وأصبح مستبعدا فى الوقت الحاضر .

وبالنسبة للحفنة القليلة من السكان العرب « الحقيقيين » فى فلسطين غير المأهولة « فانهم كانوا يقومون بأكثر مما تسميه بيترز « بالهجرة » ، بالانتقال من مكان الى آخر فى فلسطين ، ولذلك كانوا أكثر قليلا من كونهم بدوا رحل . وتستنتج بيترز بعد استعراضها لتاريخ كراهية العرب لليهود ، الذى تورده بكثير من التفصيل ، ان « الفلسطينيين » — الذين جذبهم الرخاء الاقتصادى اليهودى الى هذه المناطق من فلسطين والذين تم طردهم منها فيما بعد — هم خدعة دست لى اسرائيل وباقى العالم سهل الانخداع ، لمجرد الاسراع بتنفيذ المخططات الحاقدة للنزعة العربية والاسلامية المعادية للسامية . وتقول أنه لما كان العديد من اليهود الذين طردوا من العالم العربى قد نزحوا الى اسرائيل بعد عام ١٩٤٨ ، فقد كان هناك ، على أقل تقدير ، تماثل فى حركة الاشخاص المطرودين داخل وخارج فلسطين .

وليس ذلك كل ما فى الامر ، اذ تحكى لنا بيترز انها أجرت بحثها بروح من التعاطف مع اللاجئين العرب ، وأنها قامت بزيارتهم فى مخيماتهم البائسة ودرست تاريخهم وثقافتهم وحياة زعمائهم عن كثب . وقد اهتم كثيرا بهذا التأكيد النقاد الذين وجدوا ان ذلك يعطى النتائج التى توصلت اليها مصداقية الاكتشاف الاصيل عن طريق البحث المتعاطف . ولذلك فانه من الواضح انه أصبح من الممكن تحويل آراء أى شخص حسن النية عن طريق الدليل القائم على الواقع المجرد فقط الذى كشفت عنه بصور

متاسة . ولا تذكر بيترز فى صلب نصـــــها أنها كتبت مقالا بعنوان « تبــادل الســكان » فى عدد مجلة « كومنيترى » الصــادر فى شهر اغسطس ١٩٧٦ ، حيث انسابت أفكارها عن معاداة السامية المتاصــلة عند العرب ، الى جانب فكرة تبــادل العــرب باليهود ، كل ذلك فى نثر خــال تماما من التعــاطف مع اللاجئين العرب البائسين) .

ويدعم كتاب « منذ قديم الازل » من مظهر مشروعيته بنشره قائمة مؤثرة من الناصحين المخلصين ومصادر البحث التى وجهت اليها بيترز شكرا عميقا . وتضم هذه القائمة من الشخصيات البــارزة (التى الححت بيترز الى أنهم مشاركون معها بالفعل فى تأليف الكتاب) مستشرقين مشهورين مثل ايلى كيدورى وبرنارد لويس و ب · جى · فاتيكيويتس · ولا يعرف أحد من هذه الشخصيات بتعاطفه تجاه العرب ، وهو ما يفسر فى الغالب عدم قيام أى منهم بأية محاولة لينأى بنفسه عنها أو عن أفكارها حتى بالرغم من أن الدليل على اخطائها وتزييفها قد راج فى فترة من الفترات · وبجانب ذلك ، لم تتعرض مكانتهم المرموقة للتهـديد ، فلماذا ينبغى عليهم ازعاج انفســـهم بشأن قضية بمثل هذه التفاهة ، كالصدق البحثى لكتاب بيترز ؟ ·

وقد أصبحت الآن جوان بيترز ، بالنسبة لأى شخص لا يحظى بمؤهلات اكاديمية ، ولا يتمتع الا بخلفية بسيطة عن السياسة الخارجية أو عن مجــال الصحافة ، شخصية تتمتع بالخبرة فى الشئون العربية اليهودية بالنســـبة لوسائل الاعلام (رد واقعى على ليون اوريس) · واجريت معها المقابلات فى الصحف والمجلات فى جميع انحاء البلاد ، وجرى استضافتها فى العــديد من البرامج فى الاذاعة والتليفزيون · وتقول بيترز ان ما بين « ٢٠٠ الى ٣٠٠ » مقال نقدى مؤيد قد نشر عن كتابها « منذ قديم الازل » كما حصل أيضا على جائزة من فرع هيئة الكتاب اليهودى فى اسرائيل ·

ويمثل الاستثناءان لهذا السيل غير العادى للغاية من المديح ، فى مقال كتبه نورمان فينكيلشتاين ، وهو خريج جامعة برنستون ، فى عدد الحادى عشر من سبتمبر عام ١٩٨٤ من مجلة « ان ذيس تايمز » ، ومقال نقدى كتبــه بيل فاريل ، وهو طالب حقوق فى جامعة كولومبيا ، فى عدد الخريف عـــام ١٩٨٢ من مجلة دراسات فلسطينية · وفيما سأرويه الآن ، لعب كلا الشابين دورا يتسم بالشجاعة وان كنت سأتحدث اكثر عن فينكيلشـــتاين ، فذلك للاشارة الى اصراره المذهل رغم المنازعات التى كانت يمكن أن تعوق أى شخص آخر . وقد أوضح فينكيلشتاين ان كتاب بيترز هو ما وصفه بأنه « خدعة » : فبراهينها خاطئة من كافة الوجوه ، واحصائياتها الديمغرافية متناقضـــة ، ومستحيلة من الناحية الحسابية ، ومبالغ فيها بصورة مفرطة ، والاكثر أهمية انه تمكن فى جميع الحالات التى استطاع التحقق منها اثبات انهــا أما انتحلت آراء مصادر الدعاية الصهيونية أو أنها تلاعبت عن عمد فى الفقرات المقتبسة

على سبيل الاستشهاد لكى تغير معناها بصورة كاملة • فقد نقلت معظم الفصل الاول ـ بكل اخطائه ـ على سبيل المثـــال من كتاب ارنست فرانكينشتاين « العدالة لشعبى » الذى نشر عام ١٩٤٢ • ففى أحد الأجزاء تبلغ الهجـــرة العربية غير المشروعة ٢٠٠ر٠٠٠ شخص « على الاقل » وفى جزء آخـــر تبلغ ٣٧٠ر٠٠٠ شخص ، وفى جزء ثالث تبلغ ١ر٣٠٠ر٠٠٠ شخص ، وفى جـــزء رابع ٣ر٧٠٠ر٠٠٠ شخص • وقد توصل فاريل الى نتائج مماثلة باتباعه نفس النهج • وعندما قامت بيترز ، على سبيل المثال ، بالنقل عن تقرير هوب سيمبسون لعام ١٩٣٠ ، حولت عبارة « ويتم استخدام العمالة المصرية فى حالات فردية معينة » الى » وفقا لهذا التقرير ، هناك دلائل كثيرة على الهجرة العربية حيث « يتم استخدام العمالة المصرية « • وفى حين يفيد المسح الانجليزى ـ الامريكى لفلسطين (عامى ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦) انه تم ارسال ٣ر٨٠٠ عامل فى اكتوبر عام ١٩٤٢ « فى اطار حالة طارئة » الى فلسطين من سوريا ولبنـــان ، تقول بيترز : « ان ما يكشف عنه المسح الانجليزى ـ الامريكى (عامى ١٩٤٥ ـ ١٩٤٦) بالتحديد ••• هو انه قد تم تســـجيل ••• عشرات الآلاف من المهاجرين العرب غير الشرعيين « على أنهم قد » أحضروا « الى ••• فلسطين » وهكذا ، وهكذا •

وحيث أن جوهر موضوع بيترز يقوم على أساس (سوء) قراءة الدليل الديمغرافى ، فان كلا من فاريل وفينكيلشتاين قد بذل جهــدا عظيما لفحص واعادة فحص النتائج التى توصلت اليها ، والتى وجداها غير مقبولة • غير أن ما لم يلاحظه أى منهما ، هو أن آخر احصاء رسمى لفلسطين قد اجرى فى ظل الانتداب البريطانى عام ١٩٣١• ولا يمكن لاى تقديرات للسكان فى فلسطين فى القرن العشرين تجنب النتائج التى توصل اليها ، والتى تظهر وجـــود أغلبية كبيرة من السكان العرب المحليين • وتتجاهل بيترز تماما هذا الاحصاء الرسمى كما تتجاهل العمل الديمغرافى الموثوق به لجانيت ابو لغد ، وجوستين مكارثى وغيرهما ممن تتعارض نتائجهم تماما مع النتائج التى توصلت اليها • وبـدلا من ذلك تعتمد على الاحصائيات العثمانية فى تسعينات القرن الثامن عشر ، التى جمعها البروفيسور كمال كربات الاســـتاذ بجامعة ويسكونسين ، وعلى انطبـــاعات فيتـــال كونييـه ، وهو أحـــــد الرحالة الفرنســـيين فى القرن التاسع عشر . ولم تضف هذه الاحصائيات لقضيتها أكثر من مجموعة من الارقام الى ما يعتبر بالفعل نصا شديد التطرف على نحو مضجر ، وملىء بالاخطاء الصارخة مثل الاســــتشهاد بالمؤرخ المقريزى فى العصور الوسطى كشاهد عيان على فلســطين فى القرن التاســـع عشر . (وقد اشار برنارد جويرتزمان ، لصالحه ، الى النبرة الهجومية للكتاب فى مقال نقدى نشرته صحيفة « النيويورك تايمز » فى ١٢ مايو عام ١٩٨٤) . ورغم تيارات الشك الكلمنســة بشأن كتاب بيترز والتى ابرزها فينكيلشتاين ، لم تتابع سوى صحيفتين فقط الدليل الذى قدمه ، ولم تنشر أى شىء يتضمن انتقادا منظما للنقاط الرئيسية التى

تضمنها كتاب « منذ قديم الازل » . ففى صحيفتى « الجارديان » و « ذى ينشين » على التوالى ، وصف نوام كومسكى والكسندر كوكبورن ما تهدف اليـه بيترز وانصارها من النقاد ، غير أن الآخرين لم يبد الكثير من الاهتمام . وفى فترة من الفترات ، أبدى كولين كامبيل ، وهو محرر فى صحيفة « النيويورك تايمز » ، شيئا من الحماس اكتابة مقال على غرار ما كتبه عن قضية ديفيد ابراهام ، غير انه تخلى بعد ذلك عن هذا الأمر .

وعندما ظهر الكتاب فى بريطانيا فى ربيع عام ١٩٨٥ استقبل بمجموعـة مختلفة اختلافا شاسعا من المقالات النقدية . ويجدر بنا الاستشهاد بفقرة من أحد هذه المقالات النقدية لتوضيح الفارق الضخم بين بريطانيا والولايات المتحدة عندما تتعلق المناقشة بالشرق الاوسط . فقد كلفت صحيفة « الاوبزيرفر » ، البرت حورانى من جامعة اوكسفورد ، الذى قد يكون أهم مرجع متخصص فى العالم فى تاريخ الشرق الاوسط ، باعداد دراسة عن كتاب « منذ قديم الازل » . وليس من قبيل الصدفة ، أن أحدا من الباحثين المرموقين لم يمنح حق نقد كتاب بيترز فى الولايات المتحدة ، كما لم يعهد بالكتاب الى أى شخص — غير معروف بتأييده او تأييدها المطلق لاسرائيل . وربما كان الاستثناء الوحيد لهذا النموذج هو مجـلة « نيويورك ريفيو اوف بوكس » ، التى كلفت يوهوشوا بوراث ، المرجع الاسرائيلى البارز بشأن القومية الفلسطينية والمؤرخ البـارز والرجل المعروف بآرائه المعتدلة بشأن الفلسطينيين ، باعداد مقال عن كتاب « منذ قديم الازل » . (ويتم مناقشة مقال بوراث صفحة ٦٢) .

وعلى أية حال ، فاننا نورد فيما يلى الجزء الختامى من المقال النقدى الذى كتبه حورانى فى عدد الخامس من مارس لصحيفة « الاوبزيرفر » :

« لقد عثرت مسز بيترز على عدد كبير من الوثائق ، أو تم تزويدها بها ؛ لكن معظمها كان معروفا ، كما أنها اساءت فهم أو نقل العديد منها خارج سياقها وهى تدين السياسة البريطانية لأنها تعتقد أنها تخلت عن وعد بلفور والانتداب بضرورة أن تصبح فلسطين (شرق وغرب نهر الاردن) — « وطنا يهوديا » ، وان القرار البريطانى باقامة امارة عربية شرق الاردن واستبعادها من المنطقة التى يجب أن يقام عليها وطن قومى لليهود قد جاء طبقا لشروط الانتداب .

ان قولها بأن أعدادا ضخمة من العرب قد نزحت بصورة غير مشروعة الى فلسطين ليس له أساس ايضا . ومن بين الشواهد القليلة التى أوردتها ، تصريح أدلى به مسئول سورى غامض عام ١٩٣٤ بأن ما يزيد على ٣٠ الف سورى قد دخلوا فلسطين واستوطنوا هناك خلال أشهر قليلة . وسألت لجنة الانتداب الدائمة ممثلا بريطانيا عن رأيه فى ذلك ، فقال أنه « مبالغ فيه للغاية » . وتنقل مسز بيترز تصريح المسئول السورى ولكنها لا تنقل الرد البريطانى ،وفى الصفحة التالية يصبح هذا التصريح « محققا بوثيقة دولية رسمية » ، وبعـد

ذلك بقليل يصبح « دليلا ثابتا » يمكن فى ضوئه دحض التصريحات البريطانية العكسية على أنها كاذبة .

وقد كتبت بيترز هذا الكتاب بأكمله على نحو يتم من خلاله اختيار الحقائق ، أو اساءة فهمها ، والتعبير عن الحجج الملتوية والواهية بلغة عنيفة ومكررة . انه كتاب هزلى ولا قيمة له ، والقضية الوحيدة قليلة الاهمية التى يثيرها هى لماذا أشاد به اثنان من الكتاب الامريكيين المشهورين .

وفى مقالهما المكون من ثمانية آلاف كلمة فى مجلة « ذى لندن ريفيو أوف بوكس » ، استعرض ايان وديفيد جيلمور بعناء كتاب « منذ قديم الازل » ، وسجلا عددا كبيرا من تناقضاته وتزييفاته ، ومن بينها طمس بيترز لحقيقة انه لا يوجد زعيم يهودى يستحق الاهتمام حتى الآن ، وحتى بعد عام ١٩٤٨ ، ينكر وجود غالبية فلسطينية عربية محلية . ويشير ايان وديفيد جيلمور الى أن بيترز تناقش على نحو مضلل اعداد السكان « فى المناطق التى استوطنها اليهود » ، غير انها لا تكشف النقاب عن أن هذه المناطق لم تكن تمثل سوى ٤ أو ٥ فى المائة من البلاد بأسرها أو عن أن اعداد العرب المسيحيين لم تذكر ببساطة ، وهو اسلوب يتسم بشىء من الدهاء . كما قضى ايان وديفيد جيلمور أيضا . على محاولة بيترز أحياء القصة التى لا أساس لها بشأن رحيل العرب طواعية ، مثلما فعلا بالنسبة لمقولتها الهزلية بأن السياسة البريطانية قد شجعت الهجرة العربية الى فلسطين .

كما نشرت مقالات نقدية مماثلة فى مجلة « ذى تايمز ليترارى سليمنت » ، و « ذى سبكتاتور » (التى شبهت كتاب « منذ قديم الازل » « بالسيرة الذاتية » التى كتبها كليفورد ايرفينج عن هوارد هيوز) و « تايم أوت » ، و « الصنداى تايمز » ، ورغم ذلك وصفت بيترز — التى يبدو اتصالها بالحقيقة غير ثابت المقالات النقدية البريطانية بأنها « رائعة » . غير أنه ربما كان أكثر ما يوحى به هذا الكتاب الغريب هو استقباله فى اسرائيل ، فى عام ١٩٨٥ أيضا . فقد كانت معظم الملاحظات حول هذا الكتاب غير مبالية به ورافضة له ، وقد تناوله مقال نقدى شامل فى صحيفة « دافار » فى ٢٩ مارس ، باحتقار واضح . ووفقا لكاتب هذا المقال ، فان خطأ كتاب « منذ قديم الازل » الرئيسى هو استخدامه المحرج (للدعاية) الاسرائيلية الشائنة . وينبغى الاشارة الى أن معظم الدلائل القوية التى ساقتها بيترز بشأن عدم وجود الفلسطينيين قد استخدمتها بالفعل وكالات الاعلام الاسرائيلية الرسمية وشبه الرسمية خلال الخمسينات والستينات ، واصبح من المعتاد تماما الآن أن يحذر ممثلو الحكومة الاسرائيلية من اعادة استخدام هذه المادة عديمة القيمة . وقد خرج المرء

بانطباع بأن اسرائيل قد حظرت الكتاب عندما ظهرت بيترز فى البلاد لتجنى مجد عملها الشخصى الدعائى الامريكى بصورة فريدة . ولكنها اخفيت عن انظار الرأى العام ، وعادت، الى الولايات المتحدة فى الوقت المناسب لتتلقى جائزتها الاسرائيلية فى نيويورك .

وهناك عدة مظاهر مثيرة للفضول بالنسبة لهذا الكتاب الردىء للغاية . أذ يتضمن العديد من الفقرات بنودا منفصلة ضغطت جميعا لتحقيق نفس الهدف . والانطباع الذى يتولد لديك هو أن فريقا من الخبراء قام بوضع بطاقات مبوبة بصورة منفصلة فى ملفات كبيرة تحت تصنيف « اليهود ، وكراهية العرب » أو « اساطير الفلسطينيين » ، ثم قام فريق آخر بوضعها فى صفحات متتابعة تقريبا . ولعل عدم ذكر بيترز أى شىء عن ذلك القدر من المعلومات العربية والاسرائيلية عن فلسطين ، رغم أن جميعها من المتيسر الحصول عليها — يعد شهادة على مدى قلة تركيز وتفاهة وسذاجة الجهود التى قامت بها . فخلال الاعوام الخمسة الماضية وحدها تم اعداد عدة مجلدات من الوثائق العربية الأصلية للحياة الفلسطينية فى فلسطين . (ويمكن للباحثين والنقاد المهتمين بتقييم كتاب بيترز الرجوع أيضا الى كتابين صدرا مؤخرا ، وهما كتاب وليد خالدى بعنوان : « قبل شتاتهم : تاريخ مصور للفلسطينيين فى الفترة من ١٨٧٦ الى ١٩٤٨ » ، وكتاب بشير . ك : نجم وبشاره معمر بعنوان : « نحو نزع العرب من فلسطين — اسرائيل ١٩٤٥ — ١٩٧٧ » .

ويثبت مثل هذين العملين انه كان هناك مجتمع عربى محلى مزدهر فى وقت من الأوقات فى فلسطين ، وأن ذلك لم يكن مجرد وجود غير شرعى ومؤقت لمجموعة صغيرة متنقلة من السكان المشردين الذين لا ذكر لهم تسللوا بمساعدة المسئولين البريطانيين الخبثاء المعادين للسامية الذين كانوا يعملون بالتواطؤ مع شبكة عالمية من المتعصبين العرب . ولم تتعرض بيترز لأى من ذلك ، كما لم تشر الى البيليوجرافيا الضخمة للاعمال الغربية البحثية بشأن تاريخ فلسطين، التى يكذب العديد منها الآراء البعيدة عن الصواب التى طرحتها .

ومع التسليم بأن بيترز كاتبة تتسم بالحمق ، ودعائية سيئة ومؤرخة غير كفء على نحو بائس ، فكيف لم يظهر بالفعل اى انتقاد لكتابها فى الولايات المتحدة؟ وانسلم أيضا بأن دار نشر « هاربر آندرو » تواصل تجاهلها لشواهد تزييفاتها وانتحالها لآراء الآخرين ، فلماذا يساير نقاد ومؤرخون وصحفيون ومثقفون يتمتعون بالكفاءة على النحو المعروف ، الرواية الخيالية عن أن كتاب « منذ قديم الازل » هو كتاب رائع يتضمن اكتشافا تاريخيا ؟ لقد سجل نورمان فنكيلشتاين، على نحو مضنى ، بالوثائق تحريضات واخطاء بيترز التى لا حصر لها ، فلم يبد أحد أى اهتمام به ، ولم يسايره احد فيما قام به . كما لم يبد احد ادنى اهتمام بالمقالات النقدية البريطانية ، أو المقالات التى نشرت فى اسرائيل . والأسوأ من

كل ذلك ان احدا لم يطالب بيترز ومؤيديها بالرد على قائمة الاتهامات الكبيرة التى يواجهها كتابها منذ ثمانية عشر شهرا من ظهوره . فمازالت تجرى مقالات مع صحفيين أمريكيين ، يؤكدون بابتهاج قبولهم التام لكتابها .

اننى اتحدث هنا ليس كفلسطينى يريد مواصلة ترديد عبارة «لكننا موجودون وكنا دائما وسنظل موجودين » بل كمثقف أمريكى يخجل من التفاخر بما يسمى حاليا بالحياة الفكرية . ذلك ان قضية بيترز ليست مجرد مسألة كتاب هزيل . ولكنها ، رغم كل شىء ، قضية التواطؤ المنسق الذى يتسم عن طريقه تحويل تاريخ وواقع شعب بأكمله الى العدم . اين جميع المدافعين عن المبادىء الأخلاقية الفكرية الذين يتباكون فى آن واحد بقيادة كونور كروز اوبريانز وليزيك كولاكوسكيس ، على تشويه المعلومات والدعاية الشيوعية فى العالم الثالث ، والذين يدافعون بشجاعة عن حرية التعبير والمناقشة الصحية فى امريكا ، والذين يستشهدون بأورويل ويدينون النظم الشمولية؟وهل يصل الأمر بعد ذلك الى أن يسمح التمسك الاعمى بالايديولوجية بمرور الاكاذيب الاكثر افتراء واشمئزازا — والمكتوبة على نحو ردىء للغاية والمشوهة بصورة مقيتة والتى جرى التأكيد عليها بصورة هستيرية — على انها بحث أصيل ، وحقيقة واقعية وبصيرة سياسية نافذة ، دون تصد قوى أو اعتراض أو حتى تحفظ يتسم بالكياسة ؟

والحقيقة المحزنة هى أنه عندما تتعلق المناقشة باسرائيل ، يكون تمسك الولايات المتحدة بمعايير الصدق ووسائل المناقشة أدنى بكثير من اسرائيل نفسها. وهنا يبدو بصورة واضحة«أسلوب جنون العظمة»لريتشارد هوفستاردفى الحياة السياسية الامريكية . وتلك المسألة لا تكمن ، للأسف ، فى أن اليسار افضل من اليمين . فالشباب التقدميون الذين ينشرون « التاريخ الراديكالى » وفقا لما يمليه عليهم ضميرهم يتجنبون مناقشة مسألة الفلسطينيين . والذين يعلمون الكثير يتعرضون للتهديد من جانب اللوبى الاسرائيلى . صحيح أن لجنة العمل السياسى الامريكية — الاسرائيلية تعرضت للانتقاد فى الصحافة بسبب الحملات التى قامت بها فى حرم الجامعات ضد الذين جرأوا على الهجوم العلنى ضد اسرائيل أو تأييد الحقوق الفلسطينية،ولكن كم عدد العمداء واعضاء مجالس الكليات الذين جاهروا بمعارضتهم للرقابة والابتزاز الذى مازالت تمارسه لجنة الشئون العامة الامريكية — الاسرائيلية ضد « الاعداء » فى حرم جامعات البلاد ؟

. ان قراءة بيترز ومؤيديها ، تمثل بالنسبة للفلسطينيين ، معاناة طويلة من عملية قتل عرقى تنفذها دراسة زائفة — فتوم سوير يحضر جنازته كنوع من المزاح فى حين اننا نتعرض — للتهديد بالموت قبل ان نولد . ثم يقال لنا أن نبتعد عن الأمر برمته . وينبغى الا يكون من الصعب اكتشاف تجاهل ما يحدث فى الولايات المتحدة فى وقت يجرى فيه على الدوام احباط العديد من مبادرات السلام فى الشرق الاوسط عن طريق الاعمال الامريكية والاسرائيلية التى تستهدف ابعاد

الفلسطينيين . وبهذه الطريقة وعلى نحو ديمقراطى ـ تلتقى جهود المثقفين والدولة لوضع الشعب الصغير فى هذا العالم تحت البساط .

ان الشىء الوحيد الذى مازلت لا أستطيع فهمه هو كيف يمكن ان يبلغ الحمق بأناس درجة تصديق ما ورد فى كتاب « منذ قديم الازل » من ان الفلسطينيين شىء مختلق أو خيالى ، مثل حيوان وحيد القرن الخرافى أو الجنيه الشرسة ؟ . ولماذا تظن باربارا توشمان وسول بيلو ، على سبيل المثال ، انه يمكن جعل اربعة ملايين منا ، مشتتين فى كل مكان ، يكررون اكذوبة وجودنا على مدى ٣٥ عاما ؟ وهل يتصوران اننا جميعا نتلقى تعليمات من مكتب مركزى للدعاية ؟ ولعل أصعب المسائل جميعا هى كيف كان فى مقدورنا تحقيق النجاح ، كما تلمح بيترز ، فى توحيد معظم الدول العربية والاسلامية ودول العالم الثالث والدول الاوربية والمجموعة الاشتراكية فى جانب قضيتنا ، اذا لم نكن سوى اسطورة ؟ ان اقامة دولة فلسطينية كان يمكن أن تكون بالتأكيد ايسر كثيرا بالنسبة لنا .

(٢) تشويه المعلومات والقضية الفلسطينية

المسألة غير بالغة الغرابة لكتاب جوان بيترز

« منذ قديم الازل »

بقلم : نورمان جى . فنكيلشتاين

« الكلام الملتوى — هو قلب أو تشويه الحقائق بصورة خبيثة تجعل مثلا الضحية تظهر بمظهر المجرم » .

منذ قديم الازل صفحة ١٧٣

لم يثر سوى القليل من الكتب التى صدرت مؤخرا عن جذور ازمة الشرق الاوسط ، الاهتمام الذى اثارته دراسة جوان بيترز « منذ قديم الازل » هاربر آندرو ، ١٩٨٤ (١)) . وقد نشرت بالفعل كل صحيفة مقالا نقديا أو أكثر فى غضون أسابيع من صدور الكتاب . وذكرت دار نشر هاربر آندرو انه لم تكد تمر ثمانية أشهر على نشر كتاب « منذ قديم الازل » حتى صدرت طبعته السابعة . وقد تردد أن مؤلفة الكتاب جوان بيترز قد أجرت مائتين وخمسين لقاء لاجراء أحاديث خلال عام ١٩٨٥ .

وقد اختلف النقاد فى تقييمهم الشامل للكتاب . غير أنهم اشادوا بصورة متماثلة تقريبا بالبحث والاكتشافات الديمغرافية التى تأتى فى صميم دراسة بيترز . فقد هلل يهودا راينهارز ، كاتب السيرة المرموقة لحاييم وايزمان ، « بالنتائج القيمة » التى توصلت بيترز اليها و « بالتحليل الجديد ... المقنع » فى مجلة « ليبرارى جورنال » (فى ١٥ ابريل عام ١٩٨٤) . وكتب والتر ريش ، فى عرضه بمجلة « اتلانتيك » (يوليو عام ١٩٨٤) ، يقول أنه « اذا تأكدت أدلة بيترز ، وبصفة خاصة الدليل الديمغرافى ، فانها ستغير بالتأكيد من تصوراتنا بشأن النزاع العربى — الاسرائيلى » . وعبر رونالد ساندرز ، مؤلف دراسة وعد بلفور الهامة ، عن رأيه بالمثل فى مجلة « النيوريبابليك » (٢٢ ابريل عام ١٩٨٤) بأن الاحصاءات الديمغرافية التى أوردتها بيترز « يمكن أن تغير من صورة الجدل العربى — اليهودى بأسره بشأن فلسطين » . وفى مجلة « كومنترى » (يوليو ١٩٨٤) ، ألقى دانيال بايبس بكل الحذر فى مهب الريح لدى تقييمه للنتائج التى توصلت اليها بيترز — فقال أن « عملها البحثى التاريخى توصل الى نتائج مذهلة قد تؤثر بصورة أساسية على النهج

المستقبلي للجدل الدائر بشأن المشكلة الفلسطينية ، واشـار مارتن بيرتز من جديد في مجلة « النيوريبابليك » (٢٣ يوليـو ١٩٨٤) ، الى انـه لا يوجـد خطـأ حقيقي واحـد في الكتاب ، وانه اذا قرئ على نطـاق واسـع « فانه سيغير وجهة نظر جيلنـا . واذا تم فهمه ، فقـد يؤثـر ايضـا على التاريخ في المستقبل . واشاد تيموثي فوت ، في صحيفة « الواشنطن بوست » (٢٤ يونيـو ١٩٨٤) بكتـاب « منذ قديم الازل » على انه « كتـاب تاريخي اساسي تارة ، ومثير للجـدل تارة اخرى ومثير للدهشـة تارة ثالثة ، ووثيقة هامة في حـد ذاته » .

وتواصلت حملات التأييد ، حيث هنأت لوس واويدويتشي ، الباحثـة المتخصصة في المحرقة النازية ، بيترز « لالقائهـا الضوء على الحقيقة التاريخية بشـأن الشرق الاوسـط » . ووصـفت بربارا بروبست سولومون كتـاب « منذ قديم الازل » بأنه « رائع ومثير ويكشف عن فكر وثقافة » . ووصلت بربـارا توشـمان الى حـد القول بأن الكتـاب « حـدث تاريخي في حـد ذاته » . وتنبـأ بـول بيلو بأن « ملايين الاشخاص في جميع انحـاء العالم الذين يخنقهم دخـان التاريخ والدعاية الزائفين ، سيشعرون بالأمتنـان لهذا التقرير الواضح لاصـول الفلسطينيين » . وتوقع ايلي ويـسـيل ، اسـتاذ علم الاخـلاق ، بأن « نفـاد بصيرة وتحليـل » بيترز ستلقي ضوءا جـديدا على فهمنا لنزاع الشرق الاوسط . وضـم ارثر جـولد برج وبول كـومان وغيرهم أصواتهم ـــ واسمائهم ـــ الى جوقة منشـدي المديح .

ونادرا ما يصـبح عمـل بحثي يواجـه بتهليـل نقـدي ، موضـوعا للاختبـار ، غير ان كتـاب « منذ قديم الازل » يعـد في الحقيقة من بين اكثر كتب الاحتيـال المثـيرة التي نشرت على الاطـلاق بشأن النزاع العربي ـــ الاسرائيلي . وفي اجـواء تختلط فيهـا الدعـاية والتزييف والتلفيق الشـديد فليس ذلك بأي حـال تميزا هينا . غير أن كتـاب بيترز حقق هـذا التميز بصـورة شـاملة .

ان الاحتيال في كتاب بيترز هـو احتيال منحرف ومنظم للغـاية لدرجـة انه من الصعب جذب خيط واحـد دون الوقـوع في شرك النسـيج المفكك الخيوط كله . وبادئ ذي بدء ، يندرج الاحتيـال تحت نوعين رئيسيين . أولا ، يجـري تحريف الدليل الذي تورده بيترز لتوثيق الهجرة العربية الواسعة غير الشرعية الى فلسطين ، بصورة تامة تقريبا ـــ ثانيا ، لا تأتـي النتائج التي تستخلصها بيترز من دراستها الديمغرافية لسكان العـرب الاصليين في فلسطين ، نتيجة للبيانات التي تقدمهـا . وتلجـأ بيترز ، لزيـادة اربـاك القارئ ، الى انتحـال آراء الآخـرين .

تزعم بيترز انها توثق للهجـرة العربية الواسعة غير الشرعية الى المناطق التى استوطنها اليهـود فى فلسطين خلال سـنوات الانتداب البريطـانى (١٩٢٠ ــ ١٩٤٨) . وتتمثل وجهـة نظرها فى أن نسبة كبيرة من العـرب البالغ عددهم سبعمائة الف نسمة فى عام ١٩٤٩ ، لم تستوطن هذه المنطقة الا فى فترة متأخرة ، وانها هاجرت الى فلسطين بسبب الفرص الاقتصـادية التى وفرها الاستيطان اليهودى . ومن ثم ، تزعم بيترز أن المهاجرين اليهـود الكادحين كان لهم نفس الحق ، ان لم يكن أكثر ، فى هذه الأرض من « القادمين الجدد(١) » الفلسطينيين .

وتبـدأ بيترز بالتذكير بأن السكان العرب فى فلسطين قد ازدادوا بمعدل ملحوظ خلال سنوات الانتداب البريطانى . وتشكك بيترز فى الرأى الذى يحظى بقبول عام ــ على الصعيد البحثى . والصعيد الرسمى البريطانى وحتى التيار الرئيسى الصهيونى(٢) ــ بأن الزيادة « الطبيعيـة » تفسر الى حد كبـير الجزء الاكبر من زيادة عدد السكان العرب فى فلسطين خلال هذه الفـترة . وتكتب بيترز قائلة ان ما يسـمى بالمعدل « الذى لم يسـبق له مثيـل » لـ « الزيادة الطبيعية » بين غير اليهـود لم يتم تحليله أو توضيحه على نحو مرضى (صفحة ٢٢٣) . وتقدم استثناء خاصا لنتائج « خبير السـكان » (حسب عبارتها) أ . م . كار ــ ساوندرز فى دراسته عن سـكان العالم التى أعدها عام ١٩٣٦ . وفى روايتها للنتائج التى توصل اليها (صفحة ٢٢٤)، تزعم بيترز أولا أن كار ــ ساوندرز « ناقض » نفسـه بزعمه ،من ناحية ، أن « انخفـاض معدل الوفيات » كان هو السبب (المحتمل) لزيادة السـكان العرب الفلسطينيين ثم بتأكيده أن « التقـدم الطبى والصحى ــ حقق تقـدما ضئيلا بين الفلسطينيين حتى الآن ، ولا يمكن أن يفسر أى انخفاض كبـير فى معدل الوفيات » .

ورغم ذلك ، فاننا اذا رجعنا الى الصفحات التى استندت اليها بيترز من تقرير سكان العالم ، فسـوف نكتشف التالى :

« حقق التقـدم الطبى والصحى ، « بقدر ما يؤثر على الصحة والعادات الشخصية » ، تقـدما ضئيلاً بين العرب الفلسطينيين حتى الآن ، ولا يمكن أن يفسر أى انخفاض كبير فى معـدل الوفيات . غير أن الاجراءات الادارية العـامة ، فى منطقة الحجر الصحى . على سبيل المثـال ، قد وضعت فى ضوء المعلومات الحديثة ويجرى تنفيذها بدقة ... ولذلك ، فانه يمكننا أن نجـد فى هذه التغييرات الادارية ، التى أدخلها الاحتـلال البريطانى لفلسـطين ،

ما يعد ، على اية حال ، تفسيرا مقنعا للزيادة الطبيعية للسكان بين العرب (صفحة ٣١٠ — ٣١١ ، عبارات التأكيد من استخدامى) . ويوضح كار ساندرز حقيقة أن « التقدم الطبى والصحى « قد لا يفسر (انخفاض معدل الوفيات) الا بقدر ما يسمى مثل هذا التقدم « الصحة والعادات الشخصية » للعرب الفلسطينيين . ثم يمضى قائلا أن الاجراءات الادارية الطبية والصحية التى طبقت مؤخرا مثل الحجر الصحى يمكن أن تفسر انخفاض معدل الوفيات . ولا ينتج « التناقض » على نحو واضح عن خطأ فى استنتاج كار — ساوندرز ، بل بسبب شطب بيترز (على نحو غير معترف به) للعبارة حاسمة التحديد فى استشهادها بتقرير سكان العالم .

وبعد ذلك ، تشير بيترز الى تفسير « الاجراءات الادارية » فقط لدحضه على انه « احتمال ضعيف » . ولا تقدم سببا واحدا لمثل هذا التقييم . وتختتم بيترز بحثها المصغر بالتلخيص التالى لموقف كار — ساوندرز :

« بعبارة اخرى ، يمكن ارجاع الارتفاع « الضخم » الجديد فى عدد السكان العرب فى فلسطين ، الذى ظل ضئيلا ، وثابتا طوال مائتى عام رغم سد النقص المستمر فيه ، الى زيادة طبيعية مفاجئة ومفرطة للسكان المحليين « الموجودين » الذين استوطنوا منذ فترة طويلة . وقد جاءت هذه الظاهرة أو هكذا مضى التبرير ، نتيجة ظروف « جديدة » . ومع ذلك جرى الاعتراف ايضا انه بسبب توقيته الأخير ، فان توفر هذه الظروف الجديدة « قد لا تكون فى الحقيقة وراء زيادة السكان » فى هذه الفترة من الزمن المشار اليها ! (عبارات التأكيد من استخدام بيترز) ونلاحظ ان النتيجة التى توصل اليها كار — ساوندرز هى على وجه التحديد عكس ما نسبته اليه بيترز : فالظروف الجديدة ، المتمثلة فى « الاجراءات الادارية العامة » — تعطى « تفسيرا يمكن الدفاع عنه للزيادة الطبيعية لعدد سكان العرب » .

وهكذا بعد تشويه ما تصفه بأنه « مصدر خبرة متناقض مع نفسه « تدير بيترز معولها فى اتجاه تقرير لجنة تقسيم فلسطين عام ١٩٣٨ الذى توجه اليه التوبيخ » لمحاولته التوفيق بين « حقائق »متناقضة (صفحتى ٢٢٤ — ٢٢٥) . وتشتهد بيترز ، دون تعليق ، بالمقتطف التالى من التقرير لتوضيح هذا التقصير المفترض : —

« ولذلك فان لدينا اتجاهين متزامنين مختلفين اختلافا واسعا يعكسهما السكان العرب — وهما اتجاه معدل المواليد للمجتمع الريفى الذى تكون فيه الاسرة غير المنظمة أمرا طبيعيا ، ومعدل الوفيات الذى لا يمكن التحكم فيه الا فى ظل ادارة حديثة مستنيرة الارادة ورؤوس الاموال الضرورية على حد سواء لتمكينها من مساعدة سكان عاجزين عن خدمة انفسهم . وانه حقا لتعليق مثير للسخرية — من عمل الانتداب وربما علم الحكم — أن تكون هذه

النتيجة — التى « اعاقت اليهود بصورة غير مشجعة وتكاد تكون مؤكدة من الاستيطان فى الاراضى القريبة » — لم تتحقق الا عن طريق تخصيص عوائد الضرائب التى يسهم بها اليهود » . (عبارة التأكيد من استخدام بيترز) . ويبدو أن بيترز غير واعية بأن الاتجاهات المختلفة عادة ما تتواجد معا فى العالم الواقعى وأن تعليق لجنة التقسيم الذى استشهدت به أعلاه ليس سوى توضيح عادى لهذه الحقيقة .

وبهذه الطريقة ، تنحى بيترز جانبا المنطق المألوف بشأن الاحصائيات السكانية للعرب فى فلسطين خلال سنوات الانتداب . وتصبح فى وضع يسمح لها الآن بتقديم تفسيراتها الخاصة للتزايد غير العادى للسكان العرب — وهى الهجرة الضخمة « الخفية » . وبذلك ، تجزم بيترز أن جزءا كبيرا من سكان فلسطين فى عام ١٩٤٧ لم يكونوا من السكان المحليين .

وترفض بيترز تحديد النسبة المئوية الدقيقة للسكان الفلسطينيين غير المحليين . ويعد ذلك حذفا لافتا للنظر من جانب مؤلفة تتظاهر فى أماكن اخرى بأنها تتحرى الدقة العلمية فى حساباتها . وتعد التلميحات القليلة التى أوردتها بيترز بشأن هذه المسألة الحاسمة لافتة للنظر لتناقضها الواضح . وهذا ، ايضا ، أمر غريب بالنسبة لدراسة تكرس جزءا كبيرا منها لتفنيد التناقض العددى المزعوم فى تقارير واحصاءات السكان وغيرها من الوثائق الاخرى الخاصة باللاجئين .

وفى مناسبتين ، تشير بيترز الى أن عدد المهاجرين العرب بصورة غير مشروعة ممن استوطنوا فى المناطق اليهودية فى فلسطين كان كبيرا بقدر يمكن مقارنته بزيادة اليهود التى جاءت على أساس الهجرة (المعترف بها) من الجميع (صفحة ٢٧٥) وانظر ايضا صفحة ٣٣٧) . وذلك يشير الى ان اجمالى عدد المهاجرين العرب « غير المشروعين » أو « غير المسجلين » قد بلغ حوالى ٣٧٠ الف شخص . وفى مكان آخر (صفحة ٣٨١) ، يبدو أن بيترز قد قللت من رؤيتها بصورة اكبر — حيث تقول انهم « ٢٠٠ الف على الاقل » خلال عام ١٩٣٩ وفى مكان ثالث (صفحة ٢٩٨) ، تلمح بيترز الى أن كافة السكان العرب تقريبا فى فلسطين كانوا مهاجرين وليسوا سكانا محليين(٣) . وذلك يجعل من اجمالى عدد المهاجرين العرب « بشكل خفى » ونسلهم يصل الى ٣٠٠ر٠٠٠ر١ تقريبا . وفى مكان رابع أيضا (صفحة ٢٥٣) تستعرض بيترز مسألة ما اذا كانت الهجرة العربية الى المناطق التى استوطنها اليهود فى فلسطين فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٣ الى ١٩٤٧ قد وصلت الى نسبة عشرة الى واحد مقارنة بالهجرة اليهودية التى تزعم أنها بدأت فى السنوات الاولى للاستيطان الصهيونى الحديث(٤) . وبموجب هذا الحساب ، يصل عدد المهاجرين العرب الى المناطق التى استوطنها اليهود فى فلسطين خلال عام ١٩٤٧ الى ٣٫٧٠٠٫٠٠٠ مهاجر ، اى انه أعلى

بنسبة الف فى المائة من تقديرات بيترز الثانية المذكورة أعلاه . والأمر الاكثر اثارة للدهشة هو أن هذا الرقم يصل تقريبا الى ثلاثة اضعاف « اجمالى » عـــدد السكان العرب فى فلسطين « كلها » فى عام ١٩٤٧(٥) .

ونفترض ، من أجل المناقشة ، ان الرقم الذى ترغب بيترز فى اقتراحـــه لعدد المهاجرين العرب بصورة غير مشروعة يتراوح ما بين ٢٠٠ الف و ٤٠٠ الف مهاجر . وتزعم بيترز لذلك أن العرب غير المحليين كانوا يشكلون نصف السكان العرب تماما الذين كانوا يقطنون تلك المنطقة من فلسطين التى اصبحت اسرائيل فى عام ١٩٤٩ .

والامر الاول الذى يمكن ان يقال عن هذا الافتراض هو ان بيانات بيترز الخاصة تدحضه . اذ تظهر دراسة بيترز الديمغرافية (انظر صفحتى ٤٩ ــ ٥٧ اسفل) ان عدد السكان العرب فى فلسطين قد ازداد « بصورة طبيعية » بنسبة ٢ر٧ فى المائة (على الاقل) ما بين عـامى ١٨٩٢ و ١٩٤٧(٦) . وتقول بيترز أن عدد السكان العرب فى فلسطين قد بلغ ٤٦٦ر٠٠٠ نسمة فى عام ١٨٩٣ (فى صفحة ٢٥٥ ، جدول ز) . ويضرب نسبة ٢ر٧ فى الرقم ٤٦٦ر٠٠٠ فاننـا سنصل الى رقم ١ر٢٥٩ر٢٨٠ نسمه . وقد بلغ اجمالى عدد السكان العرب فى فلسطين ١ر٣٠٣ر٨٠٠ نسمة فى عام ١٩٤٧ (نفس المصدر) . وبذلك تصـل الزيادة الطبيعية تقريبا الى ٤٤ر٥٢٠ (الاكثر) من العرب فى فلسطين عـــام ١٩٤٧ . ومن ثم فان هذا الافتراض الذى تعمل بيترز على اثبات صحته ، حسب اعتقادها الخاص ، يتعذر الدفاع عنه . ألم تكن بيترز تعى أن النتائج التى توصلت اليها دراستها الديمغرافية تدحض افتراضها ؟ . وهل اختارت ببساطة تجاهل هذه الحقيقة غير السارة ؟ .

وتذكر بيترز ، استنادا الى « سجلات الحكومة البريطانية » (فى صفحة ٤٢٧) ، ان التقدير الرسمى لعدد المهاجرين العرب بصورة غير مشروعة ممـن استوطنوا فلسطين قد بلغ حوالى ١٠ آلاف مهاجر « طوال » فترة الانتـداب البريطانى التى استمرت ثلاثين عاما . ولكنها تؤكد هى نفسها ، على العكس من ذلك ، بأنه فى المتوسط من كل عام من الاعوام الثلاثين لفترة الانتـداب ، كان يستوطن ١٠ آلاف عربى بصورة غير مشروعة فى المناطق اليهودية من فلسطين .

ولعل أقل ما يقال عن هذا الافتراض هو أنه يتسم بالوقاحة(٧) . ذلـك أن جوهر قضيتها يتمثل فى اثبات معقولية هذا الرقم المحرف على نحو غير عادى . وتعول بيترز ، للقيام بذلك ، على ما يزعمه النقاد بأنه بحث أصلى غير عادى . وحتى جون س. كامبيل أشاد فى أحد الملاحظات الفاترة القليلة حتى الآن (فى صحيفة « نيويورك تايمز بوك ريفيو » ، ١٣ مايو عام ١٩٨٤) ، ببحث بيترز الضخم ... (الذى) كان يمكن أن يروع هرتل والواقع أنه لا يوجـــد شىء يمكن أن يكون بعيدا عن الحقيقة . وتكشف القراءة المتأنية للهوامش الضخمـة

فى كتاب بيترز انها قد اقتصرت تقريبا على الوثائق الرسمية المتيسر الحصول عليها لهذه الفترة — مثل تقرير هوب سيمبسون عام ١٩٣٠ ، وتقرير لجنة بيل عام ١٩٣٧ والمسح الانجليزى — الامريكى لفلسطين عامى ١٩٤٥ — ١٩٤٦ ، والتقارير البريطانية السنوية الى عصبة الامم وهكذا . ولا تأتى اى من هـــذه التقارير بجديد(٨) .

ويثير هذا الاكتشاف سؤالا مثيرا . فبدون استثناء ، تنتهى هذه التقـــارير الرسمية والتى وضع معظمها البريطانيون ، الى انه — بنص التقرير الخاص بمسح فلسطين — فان « الهجرة العربية لاغراض الاستيطان (فى فلسطين) كانت ضئيلة(٩) » . ومع ذلك تعمل بيترز ، باستخدام نفس الوثائق ، على » اثبات » العكس تماما . فكيف تعمل بيترز على احداث هذا التغيير الكامل المذهل ؟

وفى الحقيقة ، تستخدم بيترز استراتيجية ذات ثلاثة ابعاد لتوفير الدلائل حين لا توجد أية ادلة هى : (١) المصادر المتعددة (٢) نظرية « قمة الجبل الجليدى» (٣) عمليات الاستئصال الكبرى .

١ — المصادر المتعددة : — يتم عرض الاجزاء المنفصلة من الادلة التى تقدمها بيترز للقارىء (ومعظمها على أية حال مزورة) مرارا وتكرارا . ويتمكن العرض بالغ الفوضى الذى تقوم به بيترز للمادة المعنية من اخفاء هذه الحقيقـــة الى حد ما .

٢ — « قمة جبل الجليد » : تلمح بيترز مرارا الى ان الدليل الهزيل الذى تتوصل اليه يستحق فى الحقيقة اضعاف قيمته الظاهرية . ويرجع ذلك الى الزعم بأن البريطانيين قد غضوا الطرف عن معظم الحالات الصارخة للهجرة العربية غير المشروعة الى فلسطين . ونتيجة لذلك فانه من المؤكد انه تم السماح فى مقابل كل عربى قيل انه رحل عن فلسطين ، لعرب آخرين هاجروا .

بصـــورة غير مشروعة بالبقـــاء . ويقـــوم هذا القـــول على الزعم بأن البريطانيين كانوا يتخذون موقفا يتسم باللا مبالاة تجاه معظم الحالات الصارخة لعمليات التسلل العربية غير المشروعة . ولسوء حظ بيترز ، على أية حال ، فانه لا توجد ذرة دليل يؤيد « نظريتها » باستثناء فترة قصيرة الى حد ما خلال الحرب العالمية الثانية (اكتوبر ١٩٤٢ — اكتوبر ١٩٤٤) .

غيرأن بيترز لا تدع هذه العقبة تعوقها . فتقوم بتزييف جزء من تقرير هوب سيمبسون عام ١٩٣٠ تزييفا تاما لتوفر الدليل الحاسم ثم تشير بصورة متكررة الى نفس المادة التى تلاعبت فيها عند كل نقطة حرجة فى النص لتثبيت زعمها . وتؤول بيترز الفقرة المعنية لتعنى ان البريطانيين لم يرحلوا الا المهاجرين العـــرب بصـــورة غير مشروعة « صـــارخة » وسمحوا للعديد من غيرهم بالبقاء وذلك يعد محض اختلاق . فالوثيقة لا تقول شيئا من ذلك . بل انها بالأحرى

تقدم التوصيات التالية لمعالجة الهجرة غير المشروعة ـ لليهود والعرب وغيرهم الى فلسطين ٠

« منع الدخول غير المشروع : فيما يتعلق بالتعامل مع مثل هؤلاء المهاجرين (بصورة غير مشروعة) ، ينبغي أن تكون القاعدة ، عندما يتم اكتشافهم ، ان يعادوا في الحال الى البلاد التي قدموا منها ٠ وقد يواجه تطبيق هذه القـــاعدة صعوبة في بعض الحالات الفردية ، غير أنه اذا لم يكن مفهوما ان الاكتشــاف يعقبه الطرد الفوري ، فان هذه الممارسات لن تتوقف ٠ ومن المحتمل ان تتوقف تماما حالما يكون من الواضح ان هذه القاعدة يتم تنفيذها بالفعل ٠

« ولعل حالة « المسافر ـ الزائف » الذي يدخل بتصريح لفترة زمنية محددة ويستمر في البقاء في فلسطين بعد انتهاء فترة تصريحه ، تعتبر اكثر صعوبة ٠ وحيثما تكون الحالة صارخة ، فينبغي اللجوء بالتأكيد الى الطـرد وفي الحالة غير الصارخة بصفة خاصة ، وحيثما لا يوجد أي اعتراض خاص على الفرد ، فانه قد يكفي استمرار العرف الحالي ، والذي يسجل الفـــرد بموجبه بالقائمة العمالية ، رغم ان هذه الطريقة تلحق نوعا من الظلم بالمهاجر اليهودي خارج البلاد ، الذي يأخذ مكانه المسافر المعني(١٠) » ٠

وقبل تناول معالجة بيترز لهاتين الفقرتين ، ينبغي التأكيد على النقـــاط التالية : (١) ان التقرير يحث بوضوح على ترحيل المهاجرين بصـــورة غـــير مشروعة « على الفور » ، (٢) أن الاستثناء الوحيد الوارد في حـــالة « المســـافر الزائف » في « الحالة غير الصارخة بصفة خاصة » ـ هو أنه قد يعاد تصنيفه على أنه مهاجر مشروع ، ٠ (٣) كان اليهود هم المستفيدون الرئيسيون الى حد بعيد من الشرط الخاص الاخير(١١) ٠ (٤) أدرج البريطانيون ، ضمن اجمالي رقم المهاجرين العرب المسجلين(١٢) ٠ كافة « المسافرين » العرب الذين أعيـد تصنيفهم كمهاجرين مشروعين(١٣) ٠

ولذلك أصبحت الحالة الخاصة باعادة تصنيف « المسافر الزائف » ، لدى مناقشة بيترز ، غير ذات صلة بالموضوع تماما . ولنتذكر أن بيترز تزعم أنـــه بالاضافة الى عدد المهاجرين العرب المسجلين بصورة رسمية ، دخل حوالي ٣٠٠ الف من العرب غير المسجلين واستوطنوا في فلسطين ٠ ويقول بيـــان السياسة الوحيد في تقرير هرب سيمبسون وثيق الصلة بافتراضها أنه ينبغي اعادة المهاجرين بصورة غير مشروعة « على الفور الى البلاد التي قدموا منها »٠

وتورد بيترز تسع عشرة اشارة ـ احيانا ضمنية وفي احيان اكثر واضحة الى الفقرة الواردة اعلاه من تقرير هوب سيمبسون ٠ وتزعم انها (تقول) او (تعترف بـــ) او تسلم بـــ) او (تلمح الى) قوة فرضيتها الخاصة بشأن الهجرة العربية (غير المشروعة) الى فلسطين تحت الانتداب (انظر صفحات ٢٢٩ ، ٢٣٢ ـ ٢٣٣ ، ٢٩٦ ـ ٢٩٧ ، ٣٢٦ ، ٣٧٥ ـ ٢٧٩ ، ٣٩٤، ٤٠٢)٠

وكما تظهر المقارنة بالنص الكامل للفقرة التى استشهد بها من تقرير هوب سيمبسون ، فان كل اشارة من هذه الاشارات الى مضمونها تزيف الوثيقة نصـــا وروحـــا .

والخلاصة أن بيترز تجادل الى حد الاشمئزاز ، بأنه نظرا لان البريطانيين لم يتخذوا رد فعل الا فى الحالات الصارخة فقط للهجرة العربية غير المشروعة فانه يتعين علينا افتراض أنه فى مقـابل كل مهـاجر عربى بصورة غير مشروعة اعلن عن ترحيله خلال سنوات الانتداب ، فقد تم بصورة مؤكدة السـمـاح لاضعاف من المهاجرين غير المشروعين بالبقاء فى فلسطين . وبدون تزييف هوب سيمبسون ، فانه ما كان فى مقدور بيترز تدعيم افتراضها الذى يعد جوهريا فى تنـــاول كتابهـــا .

٣ ـــ عمليات الاستئصال الكبرى : مازالت بيترز تحتـــاج الى « القمة » لتثبت وجـــود « جبـــل الجليد » . ومازالت فى حاجـــة الى حقيقة قبـــل أن تستطيع الاشارة مرات متعددة اليهـــا . وتحل بيترز هذه المشـــكلة بالانغماس فى عملية من التزييف (كان يمكن أن تصيب هرقل بالرعب) كما ذكـــرت عبارة جـــون كامبيل التى وردت ذكرها آنفا .

ولا تقدم بيترز اى دليـــل جوهرى مناسب خـــال من التشـــويه من ناحية او اخـــرى لتوثيق وجهة نظرها . غير انه رغم ان بيترز مزيفة بـــكل ما فى الكلمة من معنى ، فانهـــا تتميز بالمهـــارة . فعلى سبيل المثال ، يرد بـــكل دقـــة ذكر الفقرات المقتبسة التى شوهتها فى النص ، عـــادة فى مكان ما من حاشـــية الكتاب ، واننى اشـــك فى أن بيترز ستجادل عنـــد نقطـــة معينـــة بأنهـــا لا يمكن أن تتعمـــد اخفـــاء اى شىء حيث أن نص العبـــــارة المقتبســـة بالكامل صحيح هناك ، ومدفون فى مائة وعشرين صفحة من الحواشى التى وضعتهـــا .

وهذا ليس مكان توثيق كافة تحريفات بيترز الفجة والمخزية . وفى المكان المتاح ، سوف أختار عينات فى البداية وأشرح الوسائل المميزة لبيترز . وهذه الوسائل موضحة فى جدول (١) ادناه .

والأمثلة المدرجة فى جدول (١) هى نماذج لأسلوب التزييف الذى تتبعه بيترز وفيما يلى بعض التحريفات المختلفة الأخرى :

١ ـــ تكتب بيترز قائلة : منذ (١٩٢٠) لم يتركز اهتمام ادارة فلسطين الا على (الحد) من هجرة (اليهود) . وكما أقر تقـــرير بريطانى ، فقد طبقت مجموعة « مختلفة » من القواعد على « الهجرة العربية » (صفحة ٢٧٥ ، كلمات التأكيد من استخدام بيترز) . غير أن الفقرة المقتبسة فى مسح فلسطين تأتى فى سياق مناقشة كيفية اختلاف الايواء العربى عن الايواء اليهودى . وتواصل

الوثيقة القول : رغم الاعتبارات المختلفة المطبقة على الهجرة العربية ، فليس هناك ضرورة لاعطاء اعتبار خاص للأخيرة حيث أنه لم يكن من بين اجمالى عدد المهاجرين الذين دخلوا فلسطين فى الفترة ما بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٤٢ والبالغ عددهم ٣٦٠ر٨٢٢ مهاجر ، سوى ١٨٩٨١ر٢٧ مهاجر أو ٨ر٧ فى المائة من العرب . ولذلك تم تقدير عدد وحدات الغرف التى تأوى المهاجرين العرب على نفس الاساس الذى طبق على المهاجرين اليهود ... » ولا تشير عبارة (اعتبارات مختلفة) التى تعتبرها بيترز مشئومة ومثقلة بالمعانى ، الى سياسة الهجرة ، بل الى هيكل الايواء . وتكرر بيترز نفس هذا التزييف فى صفحتى ٢٥٠ و ٥١٤ ، وحاشية ٣١ .

٢ ــ تؤكد بيترز انه فى علم ١٨٩٣ ، كان حوالى ٦٠ الف يهودى و ٣٠٠ر٩٢ من غير اليهود يقطنون منطقة فلسطين التى أصبحت اسرائيل بعد حرب عام ١٩٤٨ « صفحة ٢٥٠ ــ ٢٥١(١٤) » . وحيث أن ٣٨ ألفا من غير اليهود كانوا من المسيحيين ، فقد كان اليهود (ربما) يمثلون (أغلبية هامشية). غير انه وفقا لجداول بيترز فى مؤخرة الكتاب (صفحة ٤٢٤ ــ ٤٢٥) كان عدد العرب الذين كانوا يقطنون ، فى علم ١٨٩٣ ، فى ذلك الجزء من فلسطين الذى اصبح اسرائيل ، يصل الى ٢١٨ الفا وليس ٣٠٠ر٩٢ نسمة . وتستخدم بيترز هذه الحيلة الصغيرة البارعة بتقسيم منطقة فلسطين التى اصبحت اسرائيل ، الى ثلاث مناطق ، ثم « تنس » (فى نصها) المنطقتين اللتين لم يكن يقطن بهما اى من اليهود ، بل شهدتا حركة استيطان عربية كبيرة ، مما أصبح اسرائيل(١٥) .

جـــــدول (١)

١ — تقرير هوب سيمبسون (١٩٣٠)	منذ قديم الازل
« فى فلسطين » « ... يجرى استخدام العمالة المصرية فى حالات فردية معينة ... » .	(وفقا لهذا التقرير ، تكثر الادلة على زيادة الهجرة العربية ومنهـــا : « أنه يجرى استخدام العمالة المصرية (صفحة ٢٩٧) .

تعليقات : ان بيترز لم تدرج حتى علامة الحـــذف فى الكتابة بعـــد كلمة « استخدام » للاشارة الى ان شيئا ما — وهو فى هذه الحالة ، مجموعة الكلمات الحاسمة التى تحدد المعنى — قد تم حذفه .

« ان البطـــــالة العربية كانت عرضة للاستغلال كضمان سياسى . فالسياسيون العـــرب يتسمون بدهاء كاف لادراك ما قد يبدو على الفـــور وسيلة سهلة لعرقلة هذه الهجـــرة (اليهودية) التى يعارضـــونها على نحو متطـــــرف ، وربما وفى الاغلب تبذل محاولات لتضخيم قائمة العاطلين عن العمل من العـــرب بأسماء كان لا ينبغى أن تكوك هناك ، ربمـــــا لضمان تســــجيل شـــخص عاطل فى السجلات التى يستبدلها أكثر من شخص . ويجب اثبات صعوبة احباط هذه المناورة . تقرير هوب سيمبسون [illegible] .	(ان تقرير التقرير « قد اشار بقـــــوة ... الى أن « البطالة » العربية كان يجـــرى تفريغهـــــا من كافة أشكال المواقع من جانب الزعماء العـــرب الذين وجـــــدوا فى الواقع (الوسيلة لعرقلة هــــــذه الهجـــرة (اليهودية (التى يعارضـــونها على نحـــــو متطرف » صـــفحة (٢٩٨) وقد أدت الهجرة العـــربية غـــــير المشروعة من « ســــــوريا وشرق الاردن » ... الى « تضخم قـــوائم البطالة ، وقد تم استخدامها كضمان سياسى ، لعـــــرقلة الهجـــرة التى يعارضونها على نحو متطرف ... (صفحة ٣٧٤) .

تعليقات : ان الفقرة بأسرها تنصب على موقف افتراضى ، وهو موقف ، بنص كلمات التقرير ، « يجب اثبات عدم صعوبة احباطه » .

٢ — تقرير لجنة بيل (١٩٣٧) :	منذ قديم الازل
« تأتى نسبة كبيرة من المهاجرين العرب الى فلسطين من حـــوران . ويتوجه هـــؤلاء المهاجـــرون بأعـــداد	« أوضح التقرير ان « المهاجرين العرب » وبصفة خاصة (الحورانيين) من سوريا يقيمون بصورة دائمة غالبا

كبيرة الى حيفا للعمل فى الميناء . ورغم ذلك ، فمن المهم ادراك أن نطاق الهجرة الجماعية السنوية من حوران يعتمد بصورة رئيسية على حالة المحاصيل هناك » . ففى عام الرخاء يصبح معدل الهجرة غير المشروعة الى فلسطين تافهـا ويقتصر على الشباب الذين ينتمون الى أسر كبيرة العدد ووجودهم فى الحقول غير ضرورى . ويظل معظم الاشخاص الذين ينتمون الى هذه « الفئة » فى الاغلب فى فلسطين بصورة دائمة ، حيث تعد الاجور التى يتقاضونها أعلى بدرجة كبيرة من الاجور فى سوريا .

فى فلسطين » . غير أنه رغم أن عدد الحورانيين الذين هاجروا بصورة غير مشروعة قد « قدر بصوره رسمية » بما بين عشرة آلاف واحد عشر الف مهاجر خلال عام « الكساد فى حوران ، فلم يدرج الا التقدير الحكومة المنخفض بصورة غير واقعية وربما مخادعة . والذى يصل الى ٢٥٠٠ مهاجر على أنه العدد « الموجود فى البلاد فى الوقت الراهن » ... (صفحة ٣١٠) .

٢ — تقرير لجنة بيل (١٩٣٧) :

ووفقا لتقدير رسمى فان ما يقدر بعشرة آلاف أو أحد عشر الفا من الحورانيين يتوجهون الى فلسطين بصورة مؤقتة بحثا عن العمل فى العام السيىء فى الواقع . وقد قدر مؤخرا نائب المفتش العام لادارة التحقيقات الجنائية أن عدد الحورانيين الذين دخلوا البلاد بصورة غير مشروعة قد بلغ فى الوقت الراهن ما يصل الى ٢٥٠٠ شخص تقريبا (التأكيدات من عندى) .

منذ قديم الازل

تعليقات : تذكر أن بيترز يجب الا تثبت أن اعدادا ضخمة من العرب قد دخلوا فحسب بل ايضا استوطنوا فى فلسطين . وفى النص الاصلى ، فان عبارة الحورانيين الذين (ظلوا بصورة دائمة) تشير بوضوح ، لا الى المهاجرين فى عام « الكساد » الذين يتراوح عددهم ما بين ١٠ آلاف — ١١ الف شخص بل الى النسبة « تافهة » من الذين هاجروا فى عام « الرخاء » . وهذا التزييف على وجه الخصوص له ثلاثة أهداف ، هى :

١ — « توثيق » الاستيطان العربى الضخم غير المشروع فى فلسطين .

٢ — توضيح سوء النية وعدم الثقة فى التقارير البريطانية (مثل تقدير الحكومة المنخفض بصورة غير واقعية وربما مخادعة والذى يصل الى ٢٥٠٠) .

٣ — التاكيد على « التناقضات » المزعومة بين الحقائق المذكورة فى التقارير الرسمية والنتائج التى توصلت اليها . (فقد توصل تقرير لجنة بيل ، مثل كل وثيقة أخرى عن هذه الفترة ، الى أن (الهجرة العربية غير المشروعة كانت بصورة اساسية ، عرضية ومؤقتة وموسمية) .

٣ — المسح الانجليزى — الامريكى لفلسطين (١٩٤٥ — ١٩٤٦) :

منذ قديم الازل

(أن الهجرة العربية غير المشروعة بصورة رئيسية ... عرضية ومؤقتة وموسمية) ويلاحظ المسح أن الهجرة ، على سبيل المثال تتزايد فى فترات« الازدهار » والنزوح فى فترات « الكساد » . ونورد هذا المثال التالى لتوضيح هذا النموذج الخاص للهجرة المؤقتة : ادت ظروف(ال) رخاء فى فلسطين فى الاعوام من ١٩٣٤ الى ١٩٣٦ الى حركة هجرة الى داخل فلسطين وبصفة خاصة من سوريا . وأدى الكساد الاقتصادى الذى جاء نتيجة حالة الفوضى العامة خلال السنوات من ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ الى عودة هؤلاء الاشخاص والى حركة هجرة كبيرة للخارج من جانب الفلسطينيين العرب الذين اعتقدوا انه من الحكمة الاقامة فى لبنان وسوريا لفترة من الوقت

اشار تقرير أعد فى الفترة من عام ١٩٤٥ الى عام ١٩٤٦ (تحت عنوان « الهجرة العربية غير المشروعة الى أن « ... ظروف الازدهار فى فلسطين فى السنوات من ١٩٣٤ الى ١٩٣٩ قد ادت الى نشاط للهجرة الى داخل فلسطين وبصفة خاصة من سوريا » . (صفحة ٥١٧ ، هامش ٤٩)

تعليقات : ان هذه الفقرة المقتبسة قد استخدمت فى جزء من فصل فى كتاب بيترز بعنوان « اشارات للهجرة الضخمة غير المسجلة . ويؤكد على أحد اساليب بيترز المفضلة لتزييف الوثائق — حيث تحرف الملاحظة عن معناها الحاسم .

ويقسم « المسح » الهجرة العربية الى فلسطين خلال الحرب العالمية الثانية الى فئتين : الاولى العرب البالغ عددهم ٣٨٠٠ شخص ، والذين قدموا بموجب ترتيبات « رسمية » والثانية « الاعداد الضخمة » التى « لا تتوفر عنها اية تقديرات » ممن تم تشغيلهم من جانب المقاولين فى القطاع الخاص أو « دخلوا بصورة فردية » .

ان ما كشف المسح الانجليزى — الامريكى الرسمى عامى ١٩٤٥و ١٩٤٦ النقاب عنه بالتحديد .. هو ... انه قد تم تسجيل عشرات الآلاف من « المهاجرين العرب بصورة غير مشروعة » الى فلسطين على انهم قد « احضروا » الى فلسطين ... علاوة على ان اعدادا أخرى « كبيرة » غير مقدرة قد هاجرت « بصورة غير رسمية أو « كافراد » خلال الحرب ، وفقا لهذا التقرير (صفحة ٣٧٩ وجميع التأكيدات فى نص بيترز) .

تعليقات : العبارة الاخيرة فى طريقة تناول بيترز تشير بصورة واضحة الى الفئة الثانية من العمال العرب المهاجرين : لاحظ على سبيل المثال علامات التنصيص حول « كبيرة » و « غير رسمية » و « افراد » والحروف الطباعية المائلة فى « غير المقدرة » .

ومن الضرورى حينئذ ان « عشرات الآلاف » تشير الى الفئة الاولى — اى الى الذين دخلوا (فى ظل ترتيبات رسمية) . ومع ذلك لا يسجل المسح سوى ٣٫٨٠٠ من هؤلاء العمال المهاجرين .

« فى المجموعة الاولى التى تشمل ما يقرب من عشرة آلاف شخص ذكر انهم من « العمال الأجانب » الذين « رحل » معظمهم فى نهاية الأمر أو « ظلوا فى فلسطين بصورة غير مشروعة » — يوضح المسح ان العرب « المهاجرين بصورة غير مشروعة (كانوا) من المصريين والسوريين واللبنانيين ... ومن بينهم ايضا اعداد قليلة من شرق الأردن وايران والهند والصومال والحبشة والحجاز » . (صفحة ٣٧٨) .

تعليقات : لا توجد مثل هذه الإشارة فى المسح . وتقوم بيترز بتزييفها بدمج فئتى العمال المهاجرين المدرجين فى الوثيقة التى كانت قد سجلتها من قبل . ويأتى عرض بيترز الزائف (صفحة ٣٧٨ — ٣٧٩) — وفقا لأغراضها — للجزء الحاسم من المسح الذى نقلت عنه هذه العبارة المقتبسة على ما تزعم ، حتى بمعاييرها التى تحظى بالتمجيد ، فى اطار فئة خاصة به .

(٣) لاثبات ان سلطات الانتداب كانت اكثر عداء للهجرة اليهودية غير المشروعة من الهجرة العربية غير المشروعة ، تستشهد بيترز (فى صفحتى ٣٤٦ و ٥٤٨ ، حاشية ٢٦) بالتقرير السنوى « المتناقض » المقدم الى عصبة الأمم عام ١٩٣٢ والذى يوضح فى صفحة ٣٥ أن (هناك زيادة ضخمة فى الهجرة) « غير المشروعة» و « معظمها من جانب اليهود » ، الذين يدخلون كمسافرين لفترات قصيرة أو كسائحين ، (عبارات التأكيد من استخدام بيترز) ، ومع ذلك فانه « فى صفحة ١٨٠ ، جاء التقرير ، منفصلا عن موضوع « الهجرة » بـ ١٤٥ صفحة ، على النحو التالى « ان حجم الهجرة غير المشروعة وغير المسجلة الى فلسطين من أو عبر سوريا وشرق الاردن قد قدر بحوالى الفين ، ونسبة اليهود خمسين فى المائة . وبذلك انخفض التقدير من « معظمها من اليهود » الى خمسين فى المائة فقط » .

وهذا الكشف ببساطة غير صحيح . اذ يشير التقدير الوارد فى صفحة ١٨٠ من التقرير فقط الى الهجرة غير المشروعة عبر الاراضى المجاورة . (وتنسى)بيترز انه كانت هناك ايضا عمليات تسلل عبر موانىء فلسطين بصورة مباشرة ، حيث يصور من سيصبحون مهاجرين على انهم (مسافرون لفترة قصيرة) أو (سائحون) ومن ثم فانه لا يوجد تعارض بين العبارتين فى التقرير . واود ان أضيف ، بصورة اعتراضية ، ان التقارير البريطانية بصورة عامة تعتبر نماذج للدقة والوضوح والاتساق الداخلى . ولعل (التناقضات) التى تدعى بيترز انها « كشفت النقاب عنها » فى هذه التقارير هى جميعا من صنعها الخاص .

(٤) تقول لنا بيترز فى فصلها الخاص بـ « التجاهل الرسمى للهجرة العربية » انه على عكس المفهوم الشائع فان اليهود لم يقوموا بطرد السكان العرب المحليين ، بل بالأحرى كان الفلاحون العرب الذين لا أرض لهم فى فلسطين ، « فى معظمهم من القادمين العرب الجدد » (صفحة ٣٢٣) . وتوثيقها الوحيد لهذا الافتراض هو مقال كتبه موشيه برافر ، وهو استاذ جامعى اسرائيلى . وتنقل بيترز عن برافر ما يلى (صفحة ٥٤٦ ، حاشية ٧٦) : « كان الفلاحون الذين لا أرض لهم من المهاجرين الجدد ، غير ان برافر كتب فى الحقيقة أن « المهاجرين كانوا فى معظمهم من العمال الذين لا أرض لهم ... » وبمعنى آخر ، فانه لا يقول ان جميع العرب الذين لا أرض لهم من المهاجرين » . بل يقول ان المهاجرين كانوا بلا أرض .

(٥) تستشهد بيترز ، لتوثيق لا مبالاة حكومة الانتداب البريطانية بالتسلل العربى الى فلسطين ، بالتقرير السنوى المقدم الى عصبة الامم عام ١٩٣٥ ، الذى تؤكد انه لم يتم فيه « سوى » ذكر « الهجرة اليهودية الى فلسطين » ، وكان ذلك هو العنوان الوحيد .. (صفحة ٢٧٥) . وفى الحقيقة ، يعرض التقرير البريطانى المعنى جداول بالغة الدقة والشمول لكل جانب يمكن تصوره من جوانب الهجرة العربية فى « تسع » صفحات متتالية . ولم يكن من الممكن لبيترز التغاضى عن

هذه الجداول حيث ان الاحصاءات المقارنة للهجرة اليهودية ترد «فى نفس الصفحات فى اعمدة متوازية» . ويتضمن كل تقرير بريطانى سنوى بشأن فلسطين ــ وتزعم بيترز أنها وقفت النظر فى « ثلاثة عشر » منها ــ جداول متطابقة وشاملة للهجرة العربية ــ تحت نفس عنوان الفصل « الهجرة والنزوح(١٦) » .

وفى هذا الصدد ، هناك نوع آخر من تزييفات بيترز يستحق تعليقا خاصا . فقد علقت بيترز ونقادها اهتماما كبيرا على ملاحظات مزعومة ادلى بها مجهول « يعمل امين ارشيف منذ ثلاثين عاما ــ كأخصائى فى سجلات وزارة الخارجية ووزارة المستعمرات عن الشرق الاوسط بمكتب السجلات العامة فى لندن . وتزعم انه أبلغها بأنه « لم يكن هناك وجود للهجرة العربية الى فلسطين . ولم يحدث مثل هذا الأمر . ولم يتتبع أحد ذلك » (صفحة ٢٧٠ ، تأكيدات بيترز) . ومع ذلك ، فان كل تقرير سنوى بريطانى الى عصبة الأمم ، وكل دراسة بريطانية رسمية اساسية عن هذه الفترة ، تتضمن جداول شاملة وتعليقا مفصلا عن الهجرة العربية . فاذا كان « لم يتتبع أحد » الهجرة العربية ، فكيف تم اعداد هذه الجداول ؟ ومن اين جاءت هذه الارقام ؟ .

واخيرا ، فاننى سأتناول الدليل الرئيسى الذى دفعت به بيترز لتأييد فرضيتها . ويوجد هذا الدليل فى محضر رسمى لوقائع جلسات استماع لجنة الانتداب الدائمة التابعة لعصبة الأمم بشأن فلسطين تحت الانتداب البريطانى . وتاتى الاشارة الاولى ــ والاخيرة ــ اليه فى محضر اللجنة خلال جلسة عقدت فى يونيو عام ١٩٣٥ بسبب مزاعم الوكالة اليهودية بشأن (الهجرة الضخمة للعمال من مصر وسوريا وشرق الاردن) . وقد نفى مودى مساعد رئيس حكومة فلسطين وممثل الحكومة البريطانية فى جلسة الاستماع ، ــ نفى هذا الزعم ، موضحا انه فى حين دخل اشخاص من شرق الاردن وسوريا حقا الى فلسطين ، فقد تم حق الاستيطان لليهود على وجه الحصر تقريبا . وسأنقل الآن المحضر المعنى للجلسة بصورة كاملة : ــ

« قال لورد لوجارد (عضو فى لجنة الانتداب) أن صحيفة « سوريا » نشرت فى الثامن عشر من اغسطس ، ١٩٣٤ ، مقابلة مع توفيق بك الحورانى ، محافظ حوران ، الذى ذكر ان ما بين ٣٠ الف حورانى الى ٣٦ الفا قد دخلوا فلسطين فى الشهور القليلة الأخيرة واستوطنوا هناك . وقد دون المندوب المفوض تصريح المحافظ بأن هؤلاء الحورانيين قد (استوطنوا) بالفعل ... وأعرب مستر مودى عن رايه بأن تصريح محافظ حوران هو مبالغة ضخمة .

ولم يعرف مستر اوتس (وهو ايضا عضو فى اللجنة) مدى ما يمكن ان يعلق من أهمية على هذا التصريح ، ولكن التصريح نفسه محدد . فقد أشار المحافظ حتى الى المبالغ الضخمة من الاموال التى حولها هؤلاء المهاجرون الى عائلاتهم فى حوران .

وقال مستر مودى انه قرأ هذا المقال محل النقاش وكما ذكر ، فانه يعتقد أنه لابد أن هذا الرقم مبالغ فيه الى حد كبير ، لان الحكومة الفلسطينية قـد اتخذت اجراءات خاصة على الحدود الشرقية والشمالية الشرقية بهدف ابعـاد الأشخاص غير المرغوب فيهم » .

وتستشهد بيترز باشارة لجنة الانتداب الى التقرير المنشور فى صحيفة « سوريا » ، فى سبع مناسبات مختلفة (صفحات ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ ، ٢٩٧ ، ٣١٩ ، ٤٣١ ،) وتصنف هذه الاشارة فى محضر جلسات اللجنة على انها (دليل دامغ) (صفحة ٢٩٧) وتدرج ما ذكر عن دخول ٣٠ ألف حورانى الى ٢٦ الفا الى فلسطين صراحة على أنه حقيقة فى اطـار التسلل الزمنى الذى تقدمه للاحداث الهامة فى تاريخ الانتداب البريطانى (صفحة ٣١٩) وانظـر أيضا صفحة ٢٧٢ ، حيث عرض هذا الدليل من جديد دون صلاحيته كواقع) ومع ذلك لا تستشهد بيترز باشارة عارضة واحدة الى التقرير الذى يعد من وجهة نظر ممثل الحكومة البريطانية ، « مبالغا فيه بصورة كبيرة » . ولم يستحق الرد القوى للممثل ، الذى ورد فى محضر جلسات اللجنة ، مجرد اشارة ٣٢١٣٢١ فى كتاب بيترز . وبدلا من ذلك ، توضح بيترز على نحو خادع ، فى الاستشهاد بنفس هذه المحاضر فى يونيو عام ١٩٣٥ ، أن لجنة الانتداب « قد تحققت من (صفحة ٢٣١) و (اعترفت) صفحة ٣١٩) بتدفق ما بين ٣٠ الفـا و ٣٦ الفا من الحوارنيين ، فى غضون أشهر قليلة ، وان اللجنة (قد احيطت « علما » بصفة خاصة ... بأن الحوارنيين ، الذين لم يكونوا مجرد عابرى سبيل ، قد استوطنوا بالفعل » (صفحة ٢٣٠(١٧)) .

ومن المؤكد أن الحورانيين قد دخلوا فلسطين باعداد كبيرة الى حد ما فى منتصف الثلاثينات ، غير أنهم رحلوا باعداد مماثلة بعد ذلك بفترة قصيرة . وقد ذكر تقرير مسح فلسطين ان أحوال « الرخاء الاقتصادي » فى فلسطين فى الاعوام ما بين ١٩٣٤ ــ ١٩٣٦ قد أدت الى حدوث حركة الى داخل فلسطين وبصفة خاصة من سوريا . كما أدى الكساد الذى جاء نتيجة حالة الفوضى العامة خلال الفترة ما بين عامي ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، الى عـودة هؤلاء الاشخاص(١٨) ... وتخصص بيترز نفسها مساحة كبيرة لتوثيق « الرحيل السريع » (صفحة ٢٧٢) للحورانيين فى عام ١٩٣٦(١٩) وتنقل عن احدى مذكرات الحكومة البريطانية الخاصة قولها : أن « ١٢٨ من الحورانيين قد رحلوا اليوم . ومن المتوقع أن يرحل المزيد غدا .. » ووفقا لمذكرة ثانية فان (الريفيين من حوران تقدموا بطلبات عاجلة وملحة لكى تتم اعادتهم الى بلادهم ، لانه لا يوجد عمل ... ولانهم لا يريدون أن يتورطوا فى مزيد من المشاكل » .

ويبدو أن بيترز لا تدرك ان مجموعة المذكرات التى تستشهد بها بشأن الرحيل المحموم للحورانيين فى الفترة ما بين عامى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ ، تجعل أهم اكتشاف لها « والدليل الدامغ » الذى تقدمه عن الهجرة والاقامة الغربية

الضخمة غير المشروعة وهو تقرير صحيفة « سوريا » (الذى لم يتم التحقق منه) والذى ورد ذكره في جلسات استماع لجنة الانتداب ـ لا قيمة له ، ولنذكر ان بيترز ترغب فى اثبات أن خمسين فى المائة من العرب الذين كانوا يقيمون فى منـاطق الاستيطـان اليهـودى بفلسطين فى عام ١٩٤٧ كانـوا فى الحقيقة مهاجرين عرب بصورة غير مشروعة • غير انه بحلـول عـام ١٩٤٧ كان الحورانيون قد رحلوا منذ فترة طويلة عن فلسطين •

الوضع الغريب للمنطقة الرابعة :

تعد الدراسة السكانية التى اعدتها بيترز والتى تحتوى على قدر كبير من المعلومات لب كتاب « منذ قديم الازل » . غير أن هذه الدراسة تفسدها أخطاء جسيمة :(١) فالعديد من الاحصاءات، بالغة الاهمية، خاطئة(٢) وتستخدم الارقام بصورة انتقائية لتاكيد نتائج عكسية لا اساس لها من الصحة .

وتزعم بيترز أنها ترسم خريطة للنمو والتغيرات السكانية داخل فلسطين (هى المنطقة التى يحدها من جهة الشرق نهر الأردن ومن جهـة الغرب البحر المتوسـط) بين عامى ١٨٩٣ و ١٩٤٨ . وتتمثل فرضيتها الرئيسية فى ان ١٧٠ الف على الأقل من بين ٦٠٠ الف من اللاجئين بصورة غير مشروعة فى عام ١٩٤٨ كانوا أو لابد انهم كانوا من المهاجرين الجدد من الضفة الغربية وقطاع غزة .

وتقسم بيترز ، لتحقيق أهداف دراستها ، فلسطين الى خمس مناطق ، ثلاث منها (١و٢و٤) تمثل كل أرض اسرائيل قبل عام ١٩٦٧ ، والمنطقتان الباقيتان (٣و٥) تمثلان الضفة الغربية وغزة . وتمثل المنطقة (١) المنطقة الرئيسية للاستيطان اليهودى بين عامى ١٨٩٣ و ١٩٤٨ . وتقدم بيترز التقدير الديمغرافى التالى للسكان العرب المحليين فى فلسطين فى عام ١٨٩٣ :

المنطقة ١ :	٩٢ ر ٣٠٠
المنطقة ٢ :	٣٨ ر ٩٠٠
المنطقة ٣ :	١٤ ر ٣٠٠
المنطقة ٤ :	٨٧ ر ٤٠٠
المنطقة ٥ :	٢٣٣ ر ٥٠٠

وتشير بيترز بعد ذلك الى أن عدد السكان العرب الفلسطينيين المحليين قد تزايد بنسـبة ٢ر٧ ما بين عامى ١٩٨٣ و ١٩٤٧(٢٠) . (وتفترض بيترز للسكان العرب الفلسطينيين فى منطقة التجمع اليهودى نفس نسبة الزيادة الطبيعية التى قدرتها للسكان العرب الفلسطينيين فى المناطق التى لا يتركز فيها اليهود فى الفترة ما بين عامى ١٨٩٣ و ١٩٤٧) . ورغم ذلك ، فان الارقام الفعلية للسكان العرب الفلسطينيين فى منطقة التجمع اليهودى نفس نسبة الزيادة الطبيعية التى

قدرتها للسكان العرب الفلسطينيين فى المناطق التى لا يتركز فيها اليهود فى الفترة ما بين عامى ١٨٩٣ و ١٩٤٧) . ورغم ذلك ، فان الارقام الفعلية للسكان العرب المولودين فى فلسطين فى مناطق معينة من المناطق الخمس قد اختلفت بصورة ملحوظة عن الزيادة المتوقعة . ويضع الجدول رقم ٢ ، الوارد أدناه والمعد على اساس بيانات بيترز (صفحة ٤٢٤ — ٤٢٥ ، ملحق ٥) العدد الفعلى للسكان العرب الفلسطينيين المحليين فى كل منطقة من المناطق الخمس فى عام ١٩٤٧ (عمود أ) جنبا الى جنب مع ما كان يمكن أن يكون عليه هذا العدد لو كان السكان المحليون فى كل منطقة قد تكاثروا بالزيادة الطبيعية وحدها (عمود ب) .

جـدول ٢ *

		أ العدد الفعلى للسكان العرب الفلسطينيين المحليين علم (١٩٤٧) فى ...	ب العدد المتوقع للسكان العرب الفلسطينيين (١٩٤٧) فى ...	جـ صافى الهجرة الداخلية (+) النزوح (—) فى ... (عمود أ ناقص عمود ب)
المنطقة	١	٤١٧ر٣٠٠	٢٤٩ر٢١٠	+ ١٦٨ر٠٩٠
المنطقة	٢	١١٠ر٩٠٠	١٠٥ر٠٣٠	+ ٥ر٨٧٠
المنطقة	٣	٣٩ر٩٠٠	٣٨ر٦١٠	+ ١ر٢٩٠
المنطقة	٤	١٢٥ر١٠٠	٢٣٥ر٩٨٠	— ١١٠ر٨٨٠
المنطقة	٥	٥٠٧ر٢٠٠	٦٣٠ر٤٥٠	— ١٢٣ر٢٥٠

تستخدم بيترز نسبة قومية موحدة للزيادة الطبيعية المتوقعة لتعداد السكان العربالفلسطينيين المحليين فى كل منطقة من المناطق الخمس من خلال الاحصاء الرسمى لعام ١٨٩٣ . ومن البيانات الخاصة بالمنطقة (١) (تعداد عام ١٨٩٣ : ٩٣ر٣٠٠ والعدد المتوقع لعام ١٩٤٧ : ٢٤٩ر٢١٠) يستنتج معدل ٢ر٧ (٢٤٩ر٢١٠ ٩٢ر٣٠٠(٢١)) . وبصرف النظر عن بيانات المنطقة (٤) ، التى ساعود اليها بعد قليلا ، فان حساباتى الخاصة لا تختلف الا بصورة طفيفة عن احصاءات المؤلفة .

وتؤكد بيترز بأنه لا يمكن تفسير العدد الزائد للعرب الفلسطينيين المحليين فى المنطقة (١) (مركز الاستيطان اليهودى) وتعداد السكان العرب الفلسطينيين الضئيل على غير المعتاد فى المنطقة (٥) (مركز الاستيطان العربى) الا من خلال الهجرة الداخلية العربية(٢٢) . وبمعنى آخر ، فان ما يقدر بمائة وسبعين الف عربى فلسطينى تركوا أرضهم فى منطقة الضفة الغربية — وغزة فى فلسطين وانتقلوا الى مناطق الاستيطان اليهودى من أجل انتهاز الفرص الجديدة التى

اتاحها الاقتصاد اليهودى المزدهر . وتمضى بيترز فى الدفاع عن رأيها قائلة ان المائة وسبعين الف عربى فلسطينى الذين هاجروا هجرة داخلية قد وجدوا انفسهم فى الاغلب بين اللاجئين فى عام ١٩٤٨ حيث أن جذورهم فى الجزء الذى استوطن فيه اليهود من فلسطين لم تكن عميقة للغاية . غير أن هؤلاء العرب — وهذه هى النقطة الحاسمة بالنسبة لها — ليسوا لاجئين حقيقيين حيث انهم تبعوا اليهود الى هذا الجزء من فلسطين ، ولهذا فهم لا يعدون من سكانه المحليين ، فديارهم الحقيقية كانت فى مناطق الضفة الغربية وغزة من فلسطين . وتختتم بيترز وجهة نظرها قائلة :

« يتبين من هذا الدليل ، حينئذ ، أن من بين ما يتراوح بين ٤٣٠ الف « لاجىء » عربى و ٦٥٠ الفا ممن اعلن عنهم عام ١٩٤٨ ، فان ما يزيد على ١٧٠ الف شخص كان من الواضح انهم عرب عائدون الى « المناطق العربية » فى ... فلسطين (الضفة الغربية أو غزة) من الارض التى أصبحت اسرائيل — وهى المناطق التى استوطنها اليهود والتى كان هؤلاء العرب قد وصلوا اليها مؤخرا بحثا عن فرص أفضل (صفحة ٢٥٨ ، عبارات التأكيد من استخدام بيترز(٢٢)) واول ما يقال عن هذا الدليل هو أن الحالة التى تعرضها بيترز للهجرة العربية الضخمة غير المشروعة الى فلسطين تنكر صحتها . اذ تقدم بيترز الارقام فى عمود (أ) من الجدول (٢) بطرح الرقم المجدول رسميا للبدو ، والمهاجرين بصورة شرعية وغير شرعية لكل منطقة ، من اجمالى عدد السكان العرب لهذه المنطقة . فعلى سبيل المثال ، تقدر بيترز اجمالى عدد السكان العرب فى المنطقة (١) بـ ٤٦٢ر٩٠٠ نسمة . وتسقط بيترز من هذا الرقم البدو البالغ عددهم ثمانية آلاف والمهاجرين بصورة مشروعة البالغ عددهم ٢٧ر٣٠٠ والمهاجرين بصورة غير مشروعة الذين سجلوا رسميا فى هذه المنطقة والبالغ عددهم ٨ر٥٠٠ (صفحة ٤٢٥) ، وبذلك تتوصل الى رقم ٤١٧ر٠٠٠ . ولنذكر على أية حال أن بيترز قد قدرت الرقم الحقيقى للمهاجرين غير المشروعين فى المنطقة (١) بحوالى ٣٠٠ الف مهاجر . (وتفترض بيترز أن المهاجرين العرب الذين دخلوا فلسطين بصوره غير مشروعة قد استوطنوا جميعا فى المنطقة الرئيسية للاستعمار اليهودى ، المنطقة (١) ، انظر صفحة ٤٢٥ ، ملحق ، ١٩٤٧ ، عمود د) . وفى هذه الحالة ، فانه يجب بالفعل أن يكون رقم ١٢٦ر٨٠٠ فى عمود (أ) فى جدول ٢ ، ورقم (١٢٢ر٤١٠٠) فى عمود جـ . غير انه حينئذ لن يبقى شىء من استنتاج بيترز الرئيسى من دراستها السكانية . وببساطة ، فانه اذا افترضنا أن العرب قد هاجروا باعداد ضخمة الى المنطقة (١) ، فانه ما كانت ستحدث اى هجرة داخلية الى هذه المنطقة . واكثر من ذلك ، فانه اذا تم تقييم دليل بيترز حتى بمعاييرها الخاصة ، فانه الدليل الديمغرافى فى الدراسة لا يؤيد صحة رقم المائة وسبعين الف الذى استشهدت به بصورة متكررة فى النص . وبذلك تعد اكتشافاتها الفعلية تافهة ، على أفضل تقدير .

ولنلقى نظرة فاحصة على المنطقة ٤ (الجليل الغربى ، الخ) فى جدول ٢ ، حيث (يحذف) ما يقرب من ١١١ الف من العرب الفلسطينيين المحليين الذين كانوا يقطنون هذه المنطقة . ألم يكن من المحتمل أن يكون هؤلاء البشر البالغ عددهم ١١١ الف نسمة قد هاجروا الى المنطقة (١) ؟ لكن تذكر ان هذه المنطقة قد تم دمجها فى ارض اسرائيل عام ١٩٤٨ ، وفى هذه الحالة ، فانهم اذا كانوا قد لاذوا بالفرار حقا ، فقد أصبح هؤلاء العرب لاجئين حقيقيين . وبعبارة اخرى ، فان السكان « المحليين » العرب من منطقة الجليل الغربى فيما اصبح ارض اسرائيل قد هاجروا الى مناطق الاستيطان اليهودى خلال فترة الانتداب ، وبعد ذلك فروا (ايا كان السبب) فى عام ١٩٤٨ واصبحوا لاجئين . (ويبدو انه لم يتطرق الى ذهن بيترز أن المائة وسبعين الف عربى من الذين قاموا بهجرة داخلية قد لا يكونوا قد جاءوا جميعا من الضفة الغربية وقطاع غزة اذا لم يتم ، وفقا لحسابها الخاص ، حذف هذا العدد الكبير من العرب من هذه المناطق) ولم تذكر بيترز كلمة واحدة لتوضيح السبب وراء ضرورة عدم حذف هؤلاء المهاجرين البالغ عددهم ١١١ الف من المنطقة ٤ (وهى جزء من اسرائيل) من عدد المهاجرين البالغ ١٧٠ الفا والذين بدأوا على ما يزعم فى العودة الى وطنهم فى عام ١٩٤٨(٢٤) .

ولا تكتفى بيترز بالتجاهل التام للتفسيرات الديمغرافية الهامة فى المنطقة (٤) ، حين تنذر بتحويل اكتشافاتها الى اشياء تافهة ، بل تقوم بالفعل بتزييف الارقام المتعلقة بالموضوع . ووفقا لرسم بيترز البيانى (صفحة ٤٢٥ ، ملحق ٥) فان عدد السكان العرب المحليين فى المنطقة (٤) لا يقل عن مؤشر عددهم الذى يعتمد على الاحصاء السكانى لعام ١٨٩٣ الا بنحو ٧١ر٢٠٠ نسمة . ويصل عددهم الحقيقى الى ما يقرب من ١١١ الف « انظر جدول (٢) اعلاه(٢٥) .

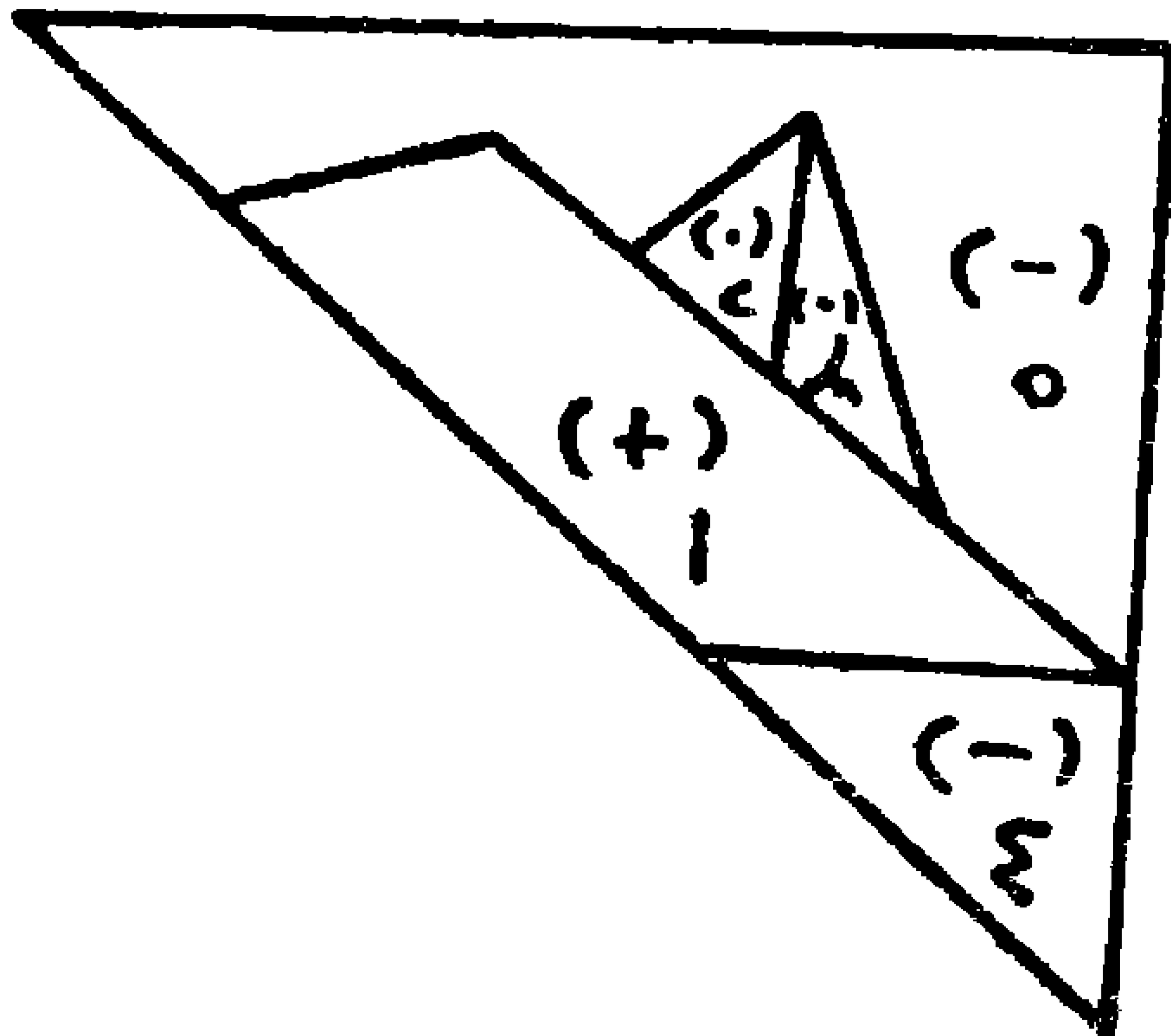
والاكثر من ذلك ، أن البيانات قد رتبت بما لا يمكن وصفه الا بأنه طريقة مشوشة على نحو غريب . فبدون سبب واضح ، صنفت المناطق التى شكلت اسرائيل فى نهاية الامر على انها المنطقة (١) والمنطقة (٢) والمنطقة (٤) وباقى فلسطين (٣ و ٥) (انظر مفتاح الخريطة ، صفحة ٤٢٦) . ونتيجة لذلك ، فمن الممكن بسهولة تضليل كافة القراء الا اكثرهم يقظة . وعلى سبيل المثال ، فانه فى الخريطة فى صفحة ٤٢٥ ، قسمت المناطق ١ و ٢ و ٣ الى مربعات من المنطقتين ٤ و ٥ . ومن السهل نسيان أن أولى المنطقتين الاخرتين (٤) — التى شهدت ، كما عرفنا ، نزوح اعداد كبيرة للغاية منها — قد أصبحت جزءا من اسرائيل . فلماذا لم تضع بيترز المنطقة ٣ ، وليس المنطقة ٤ ، مع المنطقتين ١ و ٢ ؟ وهناك مثال آخر : فى مفتاح الملحق الخامس الذى وضعته بيترز (صفحة ٤٢٤) ، ازيلت الحدود عن المناطق ١ و ٢ و ٣ وصنفت على أنها « تضم معظم

السكان اليهـود » ، وازيلت بصورة مماثلة الحـدود عن المنطقتين ٤ و ٥ وصنفت على أنهـا « تضم عددا قليـلا للغاية من السكان اليهـود » . غير انه وفقا لخريطة بيترز فى صفحة ٢٤٦ ، فان المنطقة (٣) لم تكن تضـم أى يهود . وبتصنيف المناطق الخمس بهذا الاسلوب المضلل على نحـو بالغ وخاطىء تماما ، يتمثل الانطباع الواضح من جديد فى أن المناطق الثلاث الاولى اصبحت اسرائيل فى حين وقعت المنطقتان الباقيتان فى نطاق سلطة العـرب فى عـام ١٩٤٨ ، وتضيع بسهولة المنطقة (٤) فى هذا الخلط (٢٦) .

واذا كانت بيترز قد صنفت المناطق الخمس بأسلوب سليم فى خرائطها ، لكان سيصبح من الواضح لاى قارىء يقظ أن :

١ ـ التغيرات الديمغرافية داخل ما أصـبح اسرائيـل كانت ستلغى تقريبا بعضها البعض ولذلك ، (٢) فان حجم الهجـرة الداخلية من منطقـة الضفة الغربية ، وغـزة كان سيصبح ضئيلا نسبيا واخيرا ، (٣) ان عـدد السكان المحليين فى الضفة الغربية ، وغزة بين اللاجئين العرب عام ١٩٤٨ كان سيصبح ايضا ضئيلا نسبيا .

واذا كانت بيترز قد استخدمت الاعداد الرومانية ١ و ٢ و ٣ لتحـديد المناطق الاساسية لاسرائيل و ٤ و ٥ لاضفة الغربية / وغـزه ، كمـا يتفق الامـر مع المنطقة ، لكان سيتم ايضـا ابراز أهمية التغيرات السكانية داخل اسرائيل فلماذا اختارت بيترز هذه الوسيلة غير الملائمة الى حـد بعيـد لتضيف اسرائيـل فى المناطق ١ و ٢ و ٤ ، والضفة الغربية / وغـزة فى المنطقتين ٣ و ٥ ، وبعـد ذلك تقسم المناطق بأسلوب يلغى التغير السكانى الهـام داخل اسرائيل ؟ ولمـاذا أدخلت بيترز المناطق « الوسطى » ، فى دراستها على الاطلاق ؟ . ولمـاذا لم تقسـم خريطة فلسـطين ببسـاطة الى المنطقة التى اصبحت اسرائيل والمنطقة التى ظلت خـارج حدودها بعد اتفاقيات الهـدنة عام ١٩٤٩ ؟ وما هـو الغرض الـذى تخـدمه المنـاطق « الوسـطى » فى دراسـة بيترز سوى اخفاء وحجب بيـانات حاسمة ؟ .



شكل (١) توضيح تخطيطى مبسط التغيرات الديمغرافية فى فلسـطين ١٩٤٧ ـ ١٩٨٣

(ـ) « عدد قليل للغايـة » من العرب المحليين ، استنادا الى تقدير عام ١٨٩٣

(+) « عدد كبير للغـاية » من العرب المحليين ، استنادا الى تقدير عام ١٨٩٣

(•) تعداد السكان عام ١٩٤٧ طبقا لتقدير عام ١٨٩٣ تقريبا

المنطقة ١ : اسرائيل + ٩٠ر١٦٨
المنطقة ٢ : اسرائيل .
المنطقة ٣ : الضفة الغربية .
المنطقة ٤ : اسرائيل — ٨٨٠ر١١٠
المنطقة ٥ : الضفة الغربية / غــزه — ١٥٠ر١٢٣ .

مقولة بيترز : ان المحليين « المفقودين » من المنطقة ٥ (الضفة الغربية / غزة) لابد انهم هاجروا هجرة داخلية الى المنطقة ١ (اسرائيل) خلال سنوات الانتداب وفروا بعد ذلك عام ١٩٤٨ .

استنتاج بيترز : حيث انهم كانوا من الســـكان المحليين فى المنطقة ٥ (الضفة الغربية / غزة) فان هؤلاء اللاجئين لا يحق لهم الادعاء بأن ما أصبح اسرائيل هو وطنهم « منذ قديم الازل » .

الخديعة : ان « العدد الكبير للغاية » من العرب المحليين فى المنطقــة ١ (اسرائيل) ربما قدموا فى الاغلب من المنطقة ٤ (اسرائيل) . غير أن هؤلاء العرب ، فور تحولهم الى لاجئين فى عام ١٩٤٨ ، يمكنهم الادعـــاء بصورة مشروعة بأن اسرائيل هى وطنهم « منذ قديم الازل » . ولهذا الســـبب جاء تزييف واخفاء بيترز للتغير السكانى فى المنطقة (٤) .

جدول ٣ — تحويل التصنيفات

منذ قـديم الازل	تعليقـــات
صفحة ٢٤٦ (طبعات ١ — ٦)	
المنطقة (١) : « مناطق رئيسية للاستيطان اليهودى ، ٩٨٪ من السكان اليهــود » .	
المنطقة (٢) : « مناطق وسطى ، غالبية من العرب وبعض اليهود » .	
المنطقة (٣) : « مناطق وسطى ، لا يوجد استيطان يهودى » .	
المنطقة (٤) : « مناطق وسطى ، لا يوجد استيطان يهودى » .	
المنطقة (٥) : « مناطق رئيسية للاستيطان العربى ، لا يوجــد استيطان يهودى » صفحة ٢٤٦ (طبعة ٧) .	

منذ قديم الازل	تعليقـــات
المنطقة (١) : «مناطق رئيسية للاستيطان اليهودى ٩٨/من السكان اليهود .	
المنطقة (٢) : « مناطق وسطى ، غالبية من العرب ، وبعض اليهود»	(المنطقتان ٣ و ٤ يضمان الآن « بعض الاستيطان اليهودى
المنطقة (٣) : « مناطق وسطى ، بعض بعض الاستيطان اليهودى	

منذ قديم الأزل

المنطقة (٤) : « مناطق وسطى ، بعض الاستيطان اليهودى »

المنطقة (٥) : «مناطق رئيسية للاستيطان العربى ، لا يوجد استيطان يهودى » •

منذ قديم الأزل

صفحة ٢٥٤ (جميع الطبعات)

توضح بيترز انها قسمت فلسطين الى (١) المناطق الفرعية التى استوطنها اليهود بكثافة أو على نحـــو كبير ،(٦٨) (٢) المناطق التى شهدت نشاطا يهوديا ضئيلا (٦٩) ، (٣) المناطق التى كان يطرد اليهـــود منها (لا توجد حاشية) •

حاشية ٦٨ تقول : « منطقتا ١ و ٢ »

حاشية ٦٩ تقول : « مناطق ٣ و ٤ و ٥»

صفحة ٢٥٥ جدول ز (جميع الطبعات)

المنطقة (١) : «مناطق رئيسية للاستيطان اليهودى »

المنطقة (٢) : « عدد قليل من اليهـــود غالبية من العرب »

المنطقة (٣) : « منطقة وسطى »

المنطقة (٤) « منطقة وسطى »

المنطقة (٥) : «مناطق رئيسية للاستيطان العربى ــ لا يوجد استيطان يهودى » •

تعليقـــات

اصبحت المنطقـــة (٢) الآن يقطنها « غالبية أو كثرة » من اليهود • وأصبحت المنطقة (٥) الآن يوجد بها نشـــاط يهودى ضئيل ، وجمعت المناطق ٣ و ٤ و ٥ معا • والفئة الأخيرة مـــن هذا التصنيف الثلاثى لا تصنف أيا من المناطق الخمس ــ فلماذا تم ادراجها ؟

المنطقة (٢) لا تتضمن الآن سوى « عدد قليل من اليهود » و «غالبية من العرب» والمنطقتان ٣ و ٤ (منطقتان متداخلتان) يتم فصلهما الآن عن منطقة (٥) (لا يوجد استيطان يهـــودى) المنطقة (٥) الآن « لا يوجد بهـــا استيطان يهودى ؟

منذ قديم الأزل

صفحة ٤٢٤ (جميع الطبعات)

منطقة (١) : « مناطق رئيسية للاستيطان اليهودى » •

منطقة (٢) « مناطق وسطى »

منطقة (٣) : « مناطق وسطى »

منطقة (٤) : « مناطق وسطى »

منطقة (٥) : « منطقة رئيسية للاستيطان العربى »

صفحة ٤٢٥ (جميع الطبعات)

المنطقة (٢) تـــدرج الآن تحت نفس العنوان الدقيق للمنطقتين ٣ و ٤ • ولا تتفق الاقواس مع تقسيم الفئات ولا مع البيانات التى قدمت فى الصفحات الأخرى من الكتاب •

(انظر اسفل)

وفقا لتقدير بيترز الجغرافى للاستيطان اليهودى كما عرض فى أشكال هذه الصفحة :ـ

(١) لم يوجد اى يهود فى المنطقتين ٢و٣ فى أى عام من الاعوام الذى توفر فيها هذا التقدير ، (٢) وقد ضمت المنطقة (٤) فى عام ١٩٤٤ ستة آلاف يهودى ، وفى عام ١٩٤٧ ٥ر٣٠٠ يهودى (٣) المنطقة (٥) ضمت ٤٠٠ر٣ يهودى عام ١٩٤٤ وعددا من اليهود اكبر من عددهم فى المنطقة ٢و٣ أو ٤ فى ١٩٤٧ (المنطقة ٢ : (٠) ؛ المنطقة ٣ : (٠) ، المنطقة ٤ : ٣٠٠ر٥ ، المنطقة ٥ : ٥٠٠ر٦) .

ان التصنيف الجغرافى والعددى الفعلى لنشاط الاستيطان اليهودى فى فلسطين يتناقض مع كافة اقسام التصنيف فى المنطقتين ٢ ـ ٥ المدرجين أعلى .

وتشير اهمية هذا الدليل الى أن « دراسة » بيترز الديمغرافية هى خدعة متعمدة ومدبرة بعناية . والا كيف يمكن تفسير لماذا « تتذكر » بيترز ، خلال حذفها البيانات من نفس ملحق الخريطة (صفحة ٤٢٥) للجدول الذى قامت بتجميعه فى صفحة ٢٥٧ ، اضافة المنطقة (٤) فى جميع الاعمدة (على سبيل المثال ، فى العمود الخاص « بالبدو » وهو العمود ب فى الملحق) غير أنها « تتغاضى اضافة المنطقة (٤) فى العمود المخصص « للمهاجرين هجرة داخلية من العرب » (العمود هـ فى الملحق(٢٧)) ؟ .

معالجة « آليات الاقتباس » :

كما يتضح الآن ، فان معظم البحث « الضخم » الذى اشاد به نقاد كتاب بيترز هو مجرد خداع للبصر . والجزء الآخر لا يثير سوى الضحك(٢٨) . ومع ذلك فانه من الصعوبة بمكان عدم التأثر بما يسمى بالتقارير المصورة الغامضة،والمصادر العويصة التى يبدو أن بيترز قد غاصت فيها لتوثيق وضع فلسطين فى الفترة التى سبقت مباشرة الاستعمار الصهيونى . غير أن اعجاب المرء المشروع بمثل هذا الاجتهاد سيتلاشى بالتأكيد بمجرد العلم بأنها لم تقم بقراءتها .

ويصبح ذلك واضحا عندما يقارن المرء نص بيترز (صفحة ١٥٨ ـ ١٥٩) باقتباسات ارنست فرانكشتاين من نفس المصدر فى بحثه المتحيز على نحو صريح بعنوان « العدالة لشعبى » (نيويورك ١٩٤٤) صفحة ١٢٢ ـ ١٢٤ . ويورد جدول (٤) ادناه الفقرات المعنية مقابل كل منها الأخرى .

ولعل الأسهام الجديد الوحيد لبيترز هنا بخلاف التلاعب فى الفقرات المقتبسة ـ هو وضع تقدير تعداد سكان سوريا فى حاشية كتابها فى حين يضعه فرانكشتاين فى صميم النص .

وعنـدما لفتت هـذه « المصادفة » الملحوظة نظر آرون آشير الذى يعمل فى دار نشر هاربر آندرو ، قال لمجلة « ذى نيشن » (١٣ اكتوبر عـام ١٩٨٤) ان « ما يسمى بالانتحال » هـو « زوبعة فى فنجان » . ولو انـه كان قد عرف بـه ، فربما كان قـد قال ، كمحرر لها ، ان بيترز تعالج « اليات الاقتبـاس » بصورة مختلفـة . واوضح آشير ايضا انه تلقى تأكيدات بـأن بيترز لديهانسخا من جميع الاقتباسات ذات الصلة بموضوعها فى ملفاتها . وذلك يشير الى انها حتى اذا كانت لم تقر بالفضل لفرانكشتاين ، فانها قـد فحصت مصادره الاصليـة .

ومع ذلك ، ففى جزء آخر من كتابها (صفحة ١٩٧) ، تنقل بيترز عـن تقرير مصور آخر ، هو قمة بعثة الولايات المتحدة الى نهر الاردن والبحر الميت للكاتب و.ف لينش (لندن ١٨٤٩) كما يلى : « فى عام ١٨٤٤ سجلت « البعثـة الامريكية برئاسة لينش « وجود » اتراك » يقل عددهم عن ثمانية آلاف فى يافا ، التى كان يصل عدد سكانها الى ثلاثة عشر الف نسمة (عبارات التأكيد مـن استخدامى) .

جـدول ــ ٤

بيتـرز	فرانكشتايـن
أظهر كاتب آخر ، يصف«سوريا» (وفلسطين) بعد حوالى ستين عاما فى عام ١٨٤٣ ، انه فى عهد فولنى ، « لم تصل الارض تماما الى آخـر مستوى متنبأ به من العـزلة ونزوح السكان » (١) .	يوضح باكينجهام ، الذى زارالبلاد فى عام ١٨١٦ ، أن يافا « تتسم بكافة مظاهر القرية الفقيرة ، وكل جـزء شاهدناه منها كان يتسم بحقـارة متماثلـة » (١) .
(ويختلف المراسلون من مكان لآخر غير ان التقارير لا تختلف : فقـد وصف جـ.س. باكينجهام زيارتـه فى عام ١٨١٦ الى يافا، التى « اتسمت بكافة مظاهر القرية الفقيرة ، وكل جزء شاهدناه منها يتسم بحقارة متماثلة(٢) . ووصف باكينجهام الرملـة « حيث بدا الجزء المدمر ، كما هى الحال فى الجزء الاكبر من فلسطين ، اوسـع من الجزء المأهول بالسكان (٣) .	وزار باكينجهام الرملة (حيث بدا الجزء المدمر ، كما هى الحال فى الجزء الاكبر من فلسطين ، اوسع من الجزء المأهول بالسكان .. (٢) وبعـد ذلك ذلك تدهورت الاحوال اكثر . ويكتب كيث فى عام ١٨٤٣ (فى عهد فولنى) (٣) ان الارض لم تصـل تماما الى آخر مستوى متنبأ بـه مـن العزلة ونزوح السكان . وان عـدد السكان (وعلى سبيل المثال سوريا بأكملها) ، الذى قدره فولنى بمليونين ونصف مليون نسمة ، يصل الآن الى نصف هذا العدد .

وبعد زيارة فى عام ١٩١٧ — ١٩١٨ ، ذكر المسافرون انه لم يكن يوجد هناك « قارب واحد من اىنوع فى بحيرة (طبريه) (٤) .

ووصفت فلسطين ، فى احدى دوائر المعارف الالمانية فى عام ١٨٢٧ ،بانها « مهجورة وتطوف بها عصابات اللصوص العربية (٥) .

وخلال القرن التاسع عشر كانت حالة النزوح والوضع الموحش للارض تدعو للحزن . وفى عام ١٨٤٠ أعرب احد المراقبين ، الذى سافر هناك ، عن اعجابه (بالجنس السورى الذى يتميز بسلوك متحضر) والذى(يتناقص عدده (٦)) ولاحظ الكاتب ، الذى كان يسخر من فكرة الاستعمار اليهودى ، أن المنطقة التى كانت فى وقت من الاوقات مأهولة بالسكان بين الخليل وبيت لحم اصبحت الآن مهجورة ومخربة و « مدنها مهدمة » (٧) . وقد كانت القدس تتكون من « عدد كبير من المنازل ... فى حالة تهدم وخراب » و « ويبدو أن الجماهير لا تقوم بأى عمل منتظم » .

تتطابق هذه العبارة مع ملاحظات المسافرين الآخرين ، مثل اولين (١٨٤٠) وهو شاهد عيان ذو قيمة خاصة حيث انه يبدى اعجابه بالسكان الفسطينيين (السوريين) (جنس من البشر يتحلى بسلوك متحضر) ويسخر من فكرة الاستعمار اليهودى (٤) .

ووفقا له ، فان (عدد السكان فى انخفاض) (٥) . وفى الخليل هناك العديد من المنازل فى حالة دمار وغير مأهوله ، والمنطقة بين الخليل وبيت لحم التى كانت مأهولة بالسكان فى وقت من الاوقات اصبحت « الآن مهجورة ومخربة »و « مدنها مهدمة»(٦) وفى القدس ، (هناك عدد كبير من المنازل فى حالة تهدم وخراب ، ويبدو أن الجماهير لا تقوم بأى عمل منتظم (٧) وتصف احدى دوائر المعارف الالمانية فى عام ١٨٢٧ فلسطين بانها « مهجورة وتطوف بها عصابات اللصوص العربية (٨) ولم يجد اربى ، الذى زار البلاد فى الفترة من ١٨١٦ — ١٨١٨ ، (قاربا واحدا من اى نوع فى بحيرة (طبرية)(٩).

حاشـــــية

١ — أ . كيث ، أرض اسرائيل (أدنبره ١٨٤٣) صفحة ٤٦٥ . (ان السكان فى سوريا) ، الذين قدر فولنى عددهم بمليونين ونصف مليون نسمة ، يقدر عددهم الآن بنصف هذا الرقم .

حاشـــــية

١ — ج . س . باكينجهام ، رحلات الى فلسطين ، لندن ، ١٨٢١ صفحة ١٤٦

٢ — نفس المصدر صفحة ١٦٢

٣ — أ . كيث ، أرض اسرائيل، أدنبره ١٨٤٣ ، صفحة ٤٦٥ .

حاشية بيترز

٢ — جـ . س . باكينجهـام ، رحلات الى فلسطين (لندن ، ١٨٢١) صفحة ١٤٦ .

٣ — نفس المصدر

٤ — جيمس ما نجلز والمبجـل س . ل . اربى ، رحلات الى مصر والنوبة (لندن ١٨٢٣) صفحة ٢٩٥

٥ — بروكهلوس . دائرة المعارف الالمانية الطبعة السـابعة (ليبزج ١٨٢٧) المجلد الثامن صفحة ٢٠٦ .

٦ — س . اولين ، رحلات الى مصر ، والبتراء العربيـة والارض المقدسة (نيويورك ١٨٤٣) المجلد الثانى ، صفحة ٤٣٨ — ٤٣٩ .

٧ — نفس المصدر ، صفحة ٧٧ — ٧٨ .

حاشية فرانسكتاين

٤ — س . اولين ، رحلات الى مصر ، والبتراء العربيـة والارض المقدسة ، نيويورك ١٨٤٣ مجلد ٢ صفحة ٤٣٨ .

٥ — نفس المصدر صفحة ٤٣٩

٦ — نفس المصدر ص ٧٧ ، ٨٨ .

٧ — نفس المصدر صفحة ١٣٥ ، ١٣٨ .

٨ — بروكهاوس دائرة المعـارف الالمانية .

٩ — جيمس مانجـلز المبجـل س . ل . اربى ، رحـلات الى مصر والنوبة ، لندن ، ١٨٢٣ ص ٢٩٥ .

ويشير فرانكشتاين ايضا الى هذا المصدر (صفحة ١٢٧ — ١٢٨) ، فى عام ١٨٤٤ وجدت البعثة الامريكية برئاسة لينشى عددا اقل من ثمانيـة آلاف « تركى » فى يافا بين سكان يصل تعدادهم الى ثلاثة عشر الف نسمة (عبـارات التاكيد من استخدامى) . وبالرجوع الى تقرير لينشى ، نقـرا ما يلى : (يصل تعداد سكان يافا الآن الى حوالى ١٣ الف نسمة ، منهم ثمانية آلاف تركى وآلفا يونانى واذا كنت قد قرات مصـادر فرانكشتاين ، فما السبب وراء وضع علامتى تنصيص حول عبارة (البعثة الامريكية برئاسة لينشى) التى لم تظهر فى نص لينشى بل فى نص فرانكشتاين ؟ وكيف يمكن ايضا تفسير تكرارها لخطأ فرانكشتاين البسيط بشأن عدد الاتراك (اقل من ثمانية آلاف) فى يافا(٣٩) ؟ .

وينبغى على القراء ، الذين لا يمكنهم مقاومة الوقوع تحت تأثير عمل بيترز البحثى عندما يتعلق الامر بالأرقام والاحصاءات ، اخذ ما يلى بعين الاعتبار . ففى صفحة ٢٤٤ — ٢٤٥ ، تزعم بيترز أنها حسبت وفقا لتقديرات احصاءات فيتال كوينت لعـام ١٨٩٥ و ... « دليـل موراى للمسافرين الى سـوريا

وفلسطين » ، الذى اعيد طبعه فى الموسوعة البريطانية ، الطبعــة الثامنة ، ١٨٦٠ ، المجلد العشرين صفحة ٩٠٥ ، (صفحة ٥٢٣ ، هوامش ٤٠ ، ٤١) عدد السكان المسلمين « المستوطنين » فى فلسطين خلال عام ١٨٨٢ (فى الفترة التى سبقت مباشرة الاستعمار اليهودى الحديث وعام ١٨٩٥ . وليس هذا انجازا بسيطا بأى حال من الاحوال ، حيث ان فلسطين لم تكن قد وجدت بعد كيان قومى مميز ، ومن ثم كان يتعين فحص الاحصائيات الجزئية المتفرقة . وتقارن بيترز بين الرقمين (١٨٨٢ : ١٤١ ألف نسمة ، ١٨٩٥ : ٢٥٢ ألف نسمة) وتتوصل الى الآتى : « انه حتى اذا افترضنا حدوث زيادة طبيعية تصل نسبتها السنوية الى ٥ر١ فى المائة خلال فترة الثلاثة عشر عاما ، فان زيادة عدد السكان لم تكن ستصل الى ما يزيد على ١٧٠ الف نسمة ... والتفسير الوحيد المقبول هو أن ... (الهجرة العربية) قد تزامنت على وجه الدقــة مع وقت بدء التطــور اليهودى » (٢٤٤ — ٢٤٥) وهكذا يصل بوضوح العمل الاحصائى الدال على براعة بيترز الى نتيجة بالغــة الابتكار(٣٠) . — غير أن بيترز لم تكن فى حاجة الى الخوض فى كافةهذه المشاكل . فقد استخدم ارنست فرانكشتاين نفس المصادر على وجه التحديد (حتى نفس طبعة دليل موراى) ، وأجرى نفس الحسابات ، وتوصل الى أرقام متطابقة . ويأتى استنتاجه مثل استنتاج بيترز كلمة بكلمة : « انه حتى اذا — اعترفنا بامكانية حدوث زيادة طبيعية تتراوح ما بين ٢٠ و ٢٥ فى المائة خلال فترة الثلاثة عشر عاما تلك (يحول فرانكشتاين نسبة ٢٠ و ٢٥ فى المائة الى ٥ر١ فى المائة فى العام ، وهى النسبة التى استخدمت فى نص بيترز ، فى فقرته التالية) ... فانه لا يمكن فى الاغلب أن يتجاوز المسلمون المستوطنون فى عام ١٨٨٢ والبالغ عددهم ١٤١ الف ، بالزيادة الطبيعية ، الرقم الذى يتراوح ما بين ١٧٠ الفا الى ١٧٥ الفا . وهنا لذلك نواجه ... بهجرة كبيرة من جانب أشخاص يتحدثون اللغــة العربية تتزامن مع تطــور المستوطنات اليهودية . « صفحة ١٢٨(٣١) » .

وتقدم لوسى دافيد وفيتش ، العالمة المتخصصة فى تاريخ المحرقة ، فى دعايتها المثيرة للاشمئزاز لكتاب « منذ قديم الازل » تهنئتها لبيترز على قيامها » بالتعمق فى جذور الدعــاية المتراكمة طوال نصف قرن وبالقائها الضوء على الحقيقــة التاريخية بشأن الشرق الأوسط . غير أن ما فعلته بيترز بالفعل هو التنقيب فى جذور منشورات الدعاية المتراكمة الموالية للصيهونية واكتشاف واحدة منها مثيرة للسخرية ، وشرعت منها فى انتحال آراء الغير على نطاق واسع(٣٢) .

تذييــــــل :

مع نهاية عام ١٩٨٤ ، كان قد صدر من كتــاب « منــذ قــديم الازل » ثمانى طبعات (مجــلدة) ، وكتب عنــه حوالى مائتى تقرير موجــز ، تتراوح بين الابتهــاج به والخــوف منه ، فى الولايات المتحدة . وكانت النغمــات

الوحيدة « الناشزة » فى هذه المجموعة من منشدى المديح ، تتردد فى مجلة « الدراسات الفلسطينية » ، التى نشرت مقالا نقديا رفيع المستوى بقلم بيل فاريل ، والمجلة الاسبوعية الصغيرة ، التى تتخذ من شيكاغو مقرا لها ، « ان ذيس تايمز » ، التى نشرت دراسة موجزة للنتائج التى توصلت اليها ، والكسندر كوكبورن ، الذى كرس سلسلة رائعة من الاعمدة فى مجلة « ذى نيشن » لفضح هذا الاحتيال . وفيما عدا ذلك ، ثبتت استحالة فتح باب أية مناقشة للكتاب . فقد رفضت جوان بيترز ، عن طريق ناشرها ، على نحو باتت النتائج التى توصلت اليها على انها (عديمة القيمة) ، ودافعت دار نشر هاربر آندرو عن حق بيترز فى عدم الرد على الانتقادات المنشورة حول كتابها ، بصرف النظر عن طبيعتها أو مصدرها . ورفضت المجلات الدورية ، التى نشرت بها بالفعل مقالات نقدية تشيد بكتاب منذ قديم الازل ، نشر اية رسائل نقدية عن الكتاب (على سبيل المثال ، « النيوريبابليك » و « اطلانتيك وكومنتترى ») . ورفضت المجلات الدورية التى لم تكن قد نشرت بعد نقدا للكتاب ، مخطوطى على انه ذو قيمة ضئيلة أو عديم القيمة (على سبيل المثال ، « ذى فيلدج فويس » ، و « ديسينت » و « النيويورك ريفيو أوف بوكس ») . وفى غضون أربعة أشهر ، منح كتاب « منذ قديم الازل » جائزة الكتاب اليهودى القومى المرموقة . ولم تجد أية صحيفة قومية واحدة أو كاتب عمود جرى الاتصال به أنه أمر ذو أهمية اخبارية أن يكون كتاب من أكثر الكتب مبيعا وحائز على جائزة ، ويضم دراسة حظيت بمديح مبالغ فيه بشأن نزاع الشرق الاوسط ، هو مجرد خدعة مبتذلة .

غير أنه فى أوائل عام ١٩٨٥ ، بدأت محاولة تحريف المعلومات فى الانحلال حين ظهر كتاب بيترز فى طبعته البريطانية . وكانت المقالات النقدية فى انجلترا مدمرة . ورفض المستشرق الكبير فى جامعة اوكسفورد ، البرت حورانى ، كتاب « منذ قديم الازل » فى صحيفة « الاوبزرفر » على انه « مثير لاسخرية وعديم القيمة » . وأعد ايان وديفيد جيلمور ، فى مجلة « لندن ريفيو اوف بوكس » ، دراسة شاملة مكونة من ثمانية آلاف كلمة للكتاب ووصفته بانه « مناف للعقل » . وربطت مجلة « سبيكتاتور » التى تصدر فى لندن بينه وبين « السيرة الذاتية » لهاورد هيوز بقلم كيلفوردا يرفينج . ودخل الاسرائيليون ايضا فى المسألة ، ولم تكن قد ظهرت بعد الطبعة العبرية من الكتاب . وربطت صحيفة « دافار » الناطقة بلسان حزب العمل ، كتاب منذ قديم الازل بممارسات الدعاية القديمة الاكثر مدعاة للاسف فى اسرائيل ، ونشرت مجلة « كوتيريت راشيت » الليبرالية ، عرضا مفصلا لتغطية وسائل الاعلام الامريكية للكتاب ، وأدان افيشاى مارجاليت ، رئيس قسم الفلسفة فى الجامعة العبرية ، « مؤامرة خداع » بيترز .

وبالعودة الى الولايات المتحدة ، اخـذت مسألة بيترز تتحـول سريعا الى مسألة غاية فى الاحراج حيث بدأ الحديث فى الانتشـار بانه يجـرى اخفاء فضيحة ادبيـة ــ سياسية كبرى . ففى فبراير عام ١٩٨٥ ، كلفت مجـلة « نيويورك ريفيو اوف بوكس » فى النهـاية يهوشوا بوراث الباحث الاسرائيلى الشهير باعـداد مقـال مطول بشأن كتاب منذ قديم الازل ، وتلقته منـه فى أوائل مارس . واسقط بوراث ، الذى نشر مقاله بعد تسعة اشهر ، من حسابه « فرضيات » بيترز ، وان كان قد تجنب على نحو مثـير للشكوك ذكر ايـة اشـارة الى دراستها الخادعة ، حيث ثبت عدم جدوى اية محاولة لاثارة هذه المسألة الحاسمة بصـورة واضحة فى اعمدة الرسـائل فى مجلة « ريفيو ». وفى شهر اكتوبر وجـه الاستاذ ادوارد سعيد نقـدا لاذعـا وبليغـا لبيترز ومعاونيهـا على صفحات مجلة « ذى نيشن » . وفى شهر نوفمبر ، وبعد ما يزيد على عام من التردد ، نشرت صحيفة « النيويورك تايمز » فى نهـاية الامـر تحقيقا عن « الخـلاف » ــ فى (غير) عدد عيد الشكر ، فى صفحة المسرح ، دون ادراجه حتى فى الفهرس . ونقل عن بوراث قوله أن كتـاب « منذ قديم الازل » (هو تزييف بحت) ، وان « الكتاب قد رفض فى اسرائيل على الاقل ، وفى جميع الاحوال تقريبا ، على انه محض هـراء ، ربما فيما عدا اعتبـاره سلاحا للدعاية ، بينما واصلت المؤرخة بربارا توشمان اصرارها على أن الشعب الفلسطينى هو مجرد قصـة خياليـة وزعم مارتن بيريتز ، رئيس تحـرير مجلة « النيوريبابليك » أن الهجوم على بيترز هو جزء من مؤامرة يسـارية محسـودة ورفضت بيترز نفسها ، فى الوقت المناسب ، اجراء اية مقابلات صحفية وفى يناير عام ١٩٨٦ ، خصص انتونى لويس من صحيفة « النيويورك تايمز عمودا كاملا الخدعة ، تحت عنوان ، مناسب بقدر كاف ، « لم يكن هناك هنود »، وخصصت فىعددى يونيو واكتوبر من مجلة « كومينترى » ، حوالى ثـلاثين صفحة للدفاع عن بيترز ضد الهجوم المتصاعد على كتابها ولكن ، للأسف ، لم يكن هناك عند هذه المرحلة شىء يمكن انقاذه من الحطام . وذكر عدد الخامس من يونيو عام ١٩٨٦ من صحيفة « هاآرتس » الاسرائيلية ان جميع المشاركين فى مؤتمر دولى بشأن الدراسات الاحصائية للسكان الفلسطينيين عقد فى جامعة حيفا ، قد سخروا جميعا بالفعـل من فرضيات ، بيترز الديمغرافية ، وان البروفيسور يهوشوا بن آريه ، أكثر المشـاركين فى المؤتمر احتراما ، وهو استاذ فى الجامعة العبرية ، قد أدان عمل بيترز لتشويه « القضية الصهيونية».

ومن بين المشيدين الأصليين بكتاب بيترز لم ينأ حتى الآن (ديسمبر ١٩٨٦) سوى دانيال بايبس ورونالد ساندورز علنا بنفسيهما عن بحث بيترز ان لم يكن عن « آرائها » .

هوامش :

١ ـ اكتمل المقال التالي ونشر على نطاق واسع في ديسمبر عام ١٩٨٤ · وقد نشر الانتقاد الجوهري الوحيد لمحتواه الذى أعلمه في عددى يونيو واكتوبر عام ١٩٨٦ من مجلة كومينتري · وقد انتهزت هذه الفرصة للرد على المقالة النقدية الأخيرة . وعلى اية حال لم يتم تغيير النص . وأود توجيه الشكر الى سيروس فيسر واسرائيل شاهاك ، وموظفى قسم العلاقات العامة فى المكتبة العامة فى مدينة نيويورك لمساعدتهم وتشجيعهم · وأوجه شكرى الخاص الى نوام كومسى الذى قدم العون لى فى نواح عديدة لا يمكن حصرها ·

٢ ـ استشهدت بيترز بنتائج عدد من هذه النصوص المستشهد بها فى صفحة ٢٢٣ ـ ٢٢٥ و ٣١٣ ، وهامش ١٩ . ولاعادة توضيح وجهة النظر التقليدية مؤخرا ، انظر دوف فريد لاندر وكالفين جولد شايدت ، « سكان اسرائيل » ، نيويورك ١٩٧٩ ، حيث كتب المؤلفان يقولان ان زيادة عدد السكان العرب خلال فترة الانتداب البريطانى (قد جاء فى حكم المؤكد نتيجة الزيادة الطبيعية المرتفعة ـ أى ارتفاع نسبة المواليد وانخفاض نسبة الوفيات) (صفحة ١٧) · ويعمل فريد لاندر استاذا مساعدا فى قسمى الديمغرافيا والاحصاء ومدير معهد ليفى اشكول للدراسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى الجامعة العبرية · ويرأس جولد شايدر قسم الديمغرافيا فى الجامعة العبرية ·

٣ ـ اسندت بيترز هذا الرأى الى جون هوب سيمبسون ، غير انه لا يوجد شيىء فى النص الذى كتبه يشير ولو من بعيد الى مثل هذا الاستنتاج · وفى صفحة ١٧٠ ، تزعم بيترز بأن هناك « مجموعة كبيرة من الادلة » على أن فلسطين » لم تكن مأهولة « فى الفترة التى سبقت مباشرة الاستعمار الصهيونى

٤ ـ تستنتج بيترز (فى صفحتى ٢٥٢ ـ ٢٥٤) انه حتى فى الفترة من عام ١٨٧٨ الى عام ١٨٩٣ ، ربما يكون آلاف المهاجرين العرب من الخارج ومن الداخل قد دخلوا أفواجا الى المستوطنات اليهودية فى فلسطين بسبب « مزاياها الاقتصادية والاكثر من ذلك أنه وفقا للاحصاءات الاساسية فى دراستها الديمغرافية (صفحة ٢٥٥ جدول ز) ، اجتذبت المستوطنات الصهيونية ، ليس آلافا بل ما يقرب من نصف مليون من المهاجرين العرب خلال هذه السنوات · ومع ذلك ، فانه وفقا لوالتر لاكوير فان مستوطنات الموجه الاولى التى انشئت عام ١٨٨١ مستوطنات فقيرة · فى ذلك الحين لم تصبح حتى « محط اهتمام » حتى العقد الاول من القرن العشرين (تاريخ الصهيونية » نيويورك ، ١٩٧٦ » صفحة ٧٩) ·

ويكتب نيفيل ماندبل فى دراسته الجديرة بالثقة عن هذه الفترة ، يقول (لم يكن يشعر سوى عدد محدود من القرويين العرب وعدد قليل من البدو

العابرين ، بصورة مباشرة بوجود المستوطنين اليهود خلال السنوات التى سبقت عام ١٩٠٨) (العرب والصهيونية قبل الحرب العالمية الاولى ،) (باركلى ، ١٩٧٦) صفحة ٣٤ .

٥ — ان تناول بيترز للارقام فى جميع اجزاء الكتاب لا يبعث على الثقة الكبيرة . وسيكون لدى الكثير مما أقوله بخصوص هذا الموضوع فيما بعد ، ولكن اسمحوا لى أن أقدم هنا مثالا واحدا . اذ تستشهد بيترز بخمسة أرقام (رسمية) (فى صفحات ٢٢٣ و ٢٤٢ و ٢٤٤ و ٢٤٥ و ٥٢٣ وهامش ٣٨) ، خاصة بعدد السكان العرب الفلسطينيين فى الفترة التى سبقت مباشرة الاستيطان اليهودى الحديث ، تتراوح بين أقل من ١٥٠ الف و ٦٠٠ الف نسمة ، ويبدو أنها لم تدرك التناقض الكبير بينها . وعلى سبيل المثال ، يقوم احد أهم الحسابات التى تقدمها بيترز . أو بالاحرى ارنسست فرانكنستاين (أنظر أهم ٥٧ — ٦٠) — عن هذه الفترة المبكرة (فصل ١٢ صفحتى ٢٤٤ — ٢٤٥) على أساس تقديرات ضعيفة لا يمكن الدفاع عنها . ولو كانت بيترز قد استخدمت ، أيا من الارقام المقتبسة الاعلى ، لما كانت قد تمكنت من تدعيم وجهة نظرها فى الفصل الثانى عشر (والذى يتناقض على اية حال مع النتائج التى توصل اليها جميع هؤلاء مؤرخى هذه الفترة) .

٦ — تفترض بيترز أن نسبة الزيادة الطبيعية للسكان العرب فى منطقة الاستيطان اليهودى ليست أعلى من النسبة التى حسبتها للمناطق التى يقطنها غالبية من العرب فى فلسطين .

٧ — غير أن ذلك ليس بالغ الاصالة . ولو كان النقاد الذين تناولوا كتاب بيترز قد أمضوا وقتا اقل فى ابداء الحماس لاهمية بحثها وكرسوا وقتا قليلا للتحقق من مصادرها ، لكانوا قد اكتشفوا أن بيترز تعتمد اعتمادا كبيرا على — وتنتحل آراءها على نطاق واسع من — ارنست فرانكنشتاين ، الذى حاول اثبات نفس الراى منذ ما يزيد على أربعين عاما . وفى ندوة عقدت فى القدس عام ١٩٧٥ ، سخر المستشرق الاسرائيلى يهوشوا بوراث من هذا الموضوع المبتذل الخاص بالهجرة العربية الكبيرة على أنه « اسطورة لا اساس لها » (مستشهد به فى كتاب نوام كومسكى « نحو حرب باردة جديدة ») (نيويورك ١٩٨٢) (صفحة ٤٤٠ ، هامش ٧٤) .

٨ — تعد القصاصات القليلة من المواد الارشيفية (الاصلية) التى تستشهد بها بيترز لتدعيم وجهة نظرها ، لا قيمة لها ، وتأمل الامثلة التالية :

(أ) من اجل توثيق (انتشار الهجرة العربية غير المشروعة الى فلسطين) ، تنسخ بيترز (صفحة ٢٧٠) مجموعة من المذكرات الداخلية لدولة الانتداب . وعلى سبيل المثال ، تنقل بيترز الامر « العاجل » التالى الذى أرسل فى عام ١٩٢٥ الى « مفوض الاقليم الشمالى » من « مراقب التصاريح » :

الموضـــــوع : لاجئون من سوريا :

... الى الضابط المسئول فى راس الناقورة ... نرجو التفضـــل بتزويده فى أسرع وقت ممكن بكمية منسوخة من التصاريح الخالية من الكتابة ، (جميع الفقرات الناقصة فى نص بيترز) .

وتقدم بيترز هذا (الدليـــل) دون اى سياق أو تعليق .

(٢) فى فصل كتابها الذى يحمل عنوان : « الحركة الخفية : الهجـــرة العربية غير المشروعة » ، تخصص بيترز ثمانى عشرة صفحة (٢٧٨ — ٢٩٥) للرسائل المتبادلة بين مختلف المسئولين البريطانيين بشأن كيفيـــة منع تدفق (المحرضين) العرب خلال الثورة العـــربية ١٩٣٦ — ١٩٣٩ . وســـوف يكتشف القراء الذين يتمعنون فى هذه الصفحات المضجرة ، فى النهـــاية ، أن هذه الرسائل المتبادلة ليست لها علاقـــة أيا كانت بالرأى الذى نفترض أن بيترز تحـــاول اثباته : اذ لا يوجـــد اى دليـــل فى المذكرات يشـــير الى الاستنتاج بأن هؤلاء (المحرضين الخارجيين) اعتزموا الاستيطان أو استوطنوا بالفعل فى فلسطين .

٩ — تعترف بيترز بهذه النقطة الحاســـمة ، لكن بطريقتها الخاصـــة : « وفقا لكافة تقارير هذه الفترة ، فان الهجرة العربيـــــة « المســجلة » الى فلسطين كانت ذات معدل أدنى وعرضية ولا يمكن قياسها » (صفحة ٢٢٦) . وقد « اخطأت » بيترز على نحو واضح من ناحيتين :

(١) ان التقديرات البريطانية لم تقتصر على نحو واضـــح على الهجرة « المسجلة » .

(٢) لم يوضح اى تقرير على الاطلاق ان الهجرة « المسجلة » « لا يمكن قياسها » .

ومن الضرورى ان بيترز قد حصلت على تقدير كامل لهذا الاسهام الرائع لعلم الديمغرافية .

٢٠ — حددت حكومة الانتداب حصة الهجرة اليهودية (جدول العمل) على أساس قدرة فلسطين على اســتيعاب عمـــال دائمين جدد . وتشير « الممارسة الراهنة » الى السياســـة البريطانيـــة بتخفيض رقم معين من شهادات الهجرة من جدول العمل توقعا للهجرة غير المشروعة .

١١ ــ جدول ــ ٥ اعداد ا المعاد تصنيفهم من المسافرين كمهاجرين بصورة مشروعة فى سنوات مختارة (أ) .

	يهـــود	مسلمون	مسيحيون(ب)
١٩٢٦	٦١١	١٤٩	٣٠٠
١٩٢٧	٧٠٥	٨٥	٤٣٠
* ١٩٢٨	١٢٨٧	١٤٣	٤٣٦
** ١٩٣٢	٢٧٣٠	١٠٩	٧١٩
** ١٩٣٣	٢٤٦٥	٦٣	٣٤٤

	يهـــود	غير يهود(مسلمين ــ مسيحيين،الخ)
١٩٣٤	٤١١٤	٧٥٢
١٩٣٥	٣٨٠٤	٦٢٥
١٩٣٦	١٨١٧	٤٦٧
١٩٣٧	٦٨١	٤٣١
١٩٣٨	١٤٢٧	٤٢١

---

* يشمل الاجمالى (المسافرين وغيرهم ممن تلقوا اذنا بالاقامة) .

** يشمل الاجمالى (الاشخاص الذين دخلوا فلســـطين كمسافرين أو بدون تصريح) .

(أ) مصـــدر : التقارير البريطانية السنوية الى عصـــبة الامم التى استشهد بها فى مراجع بيترز .

(ب) فى عالم بيترز الخاص ، « العربى — المسيحى » هو تناقض فى الالفاظ ، و « زعم عربى دعائى » (صفحة ٢٥٠) .

وعلى اية حال ، فان مصدر ما يقرب من ثلثى المهاجرين المسيحيين الى فلسطين فى اى سنة محددة هو العالم غير العربى .

١٢ — وفقا لبيترز (صفحة ٤٢٥) حدد البريطانيون عدد العرب المهاجرين بصورة مشروعة والمسجلين بما يصل الى ٢٧٫٣٠٠ مهاجر .

١٣ — انظر صفحة ٤٣١ ، من نص بيترز الخاص بتقديم صورة طبق الأصل من الوثيقة البريطانية ذات الصلة بالموضوع . ولاحظ السطر الثالث : « بما فى ذلك اشخاص دخلوا كمسافرين وسجلوا فيما بعد كمهاجرين » .

١٤ — فى هذه الصفحات (وصفحات أخرى) من نصها ، تستخدم بيترز التعبير الاكثر غموضا (الاراضى التى يستوطنها اليهود) لتحديد منطقة فلسطين التى أصبحت اسرائيل بعد اتفاقية الهدنة عام١٩٤٩وتوضح بيترز على نحو جلى هذا الاستخدام الغامض فى اجزاء أخرى من نصها (قارن صفحة ٢٦٤ — (ما اصبحت الآن اسرائيل ، على سبيل المثال مناطق الاستيطان اليهودى ») .

١٥ — يبدو أن المدافعينعن بيترز لا يعون أنه اذا كانت تشير فىالحقيقةالى المنطقة —١ فقط ، فان«كشفها» «يعد حشوا لا معنى له.وان المقارناتالديمغرافية الوحيدة ذات الصلة بالموضوع هى بين السكان العرب واليهود فى جميع انحاء فلسطين ، وعلى نحو جدلى ، بين السكان العرب واليهود فى منطقة فلسطين التى أصبحت فيما بعد اسرائيل . وحتى اذا كانت ارقام بيترز دقيقة (وهى ليست كذلك) ، وحتى اذا كانت تشير الى المنطقة — ١ فقط (وهى لا تشير) فان كل ما كانت « ستثبته » هو أن اليهود يمثلون اغلبية فى مكان يتمتعون فيه بأغلبية .

١٦ — قبل عـــام ١٩٣٠ ، جمعت هذه الجـــداول فى فصـــل بعنوان : « المهـــاجرون والعمل « أو » المهـــاجرون والســـفر » فى التقارير البريطانية السنوية .

١٧ — من غير المجدى مقارنة معالجة بيترز لهذه المادة بالطريقة التى عالج بها مؤلف آخر ، على نفس درجة التحيز ، هذه المادة . وفى منشوره الدعائى السياسى التبريرى على نحو صريح : « العدالة لشعبى » (١٩٤٤) لم يلاحظ ارنست فرانكشتاين الا أن لجنة الانتداب قد ناقشت فى عام ١٩٣٥ ؛ اعلان حاكم حوران (السورية) بانه فى علم ١٩٣٤ ، وفى غضون اشهر قليلة دخل

ثلاثون الفا من الحورانيين فلسطين واستوطنوا هناك » . (صفحة ١٢٨ ـ ١٢٩ ، وتأكيداتي) . ولايشوه التسجيل الوثائقي حتى في كتاب مجرد من اى ادعاءات بحثية ، على نحو افترائي الى حد ما ، كما هي الحال في كتاب بيترز . وقد ركز بالفعل جميع النقاد الذين هللوا « للبحث الضخم » و « العمل الكشفي الرائع « الذي قامت به بيترز ، الانتباه على استشهادها بجلسة استماع لجنة الانتداب بشأن التدفق الواسع للحوارنيين ويبدو ان اكتشاف بيترز لم يكن جديدا بصفة خاصة ولا كان صعبا لدرجة لا يمكن تعقبها . وبخصوص معرفة بيترز العميقة بعمل فرانكشتاين ، أنظر صفحتي (٥٧ـ٦٠) .

١٨ ـ لاحظ ايضا ، تقرير لجنة بيل عام ١٩٣٧ الذي يوضح أن « نائب المفتش العام لادارة التحقيقات الجنائية قد قدر مؤخرا أن عدد الحورانيين في البلاد في الوقت الراهن يصل تقريبا الى ٢٥٠٠ » .

١٩ ـ تؤكد أن الحورانيين الذين غادروا فلسطين كان « عددهم أقل » من العدد الذي كان قد دخلها في وقت سابق ، غير انها لا تقدم دليلا واحدا يؤكد زعمها . قارن ملاحظات مسح فلسطين التي تم الاستشهاد بها من قبل .

٢٠ ـ في صفحتي ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، تجادل بيترز قائلة بأن احصاء عام ١٨٩٣ للمنطقة ـ ١ ربما يضم هو نفسه ما يقدر بـ ١١ الفا من المهاجرين والمتنقلين العرب (من اجزاء اخرى من فلسطين) الذين استوطنوا في هذه المنطقة في الفترة ما بين عامي ١٨٧٠ و ١٨٩٣ ، وفي هذه الحالة « فان ما بين ٤٥ الف و ٣٥٠ الف » من العرب الذين يعدون سكانا محليين في المنطقة ـ ١في عام ١٩٤٧ ربما كانوا ايضا الى حد ما من الذين هاجروا أو انتقلوا اليها مؤخرا مع عائلاتهم . ومع ذلك فان حاصل ضرب الرقم ٢ر٧ في الرقم ١١ الف يساوي ٢٩ر٧٠٠ . ولا تقدم بيترز اى تفسير لتقديرها الغريب الذي يتراوح ما بين ٤٥ الف ر ٣٥٠ الف . وبخصوص الهجرة العربية والتنقل العربي الى المنطقة ـ ١ قبل بداية هذا القرن ، أنظر هامش ـ ٤ .

٢١ ـ تخصص بيترز تعبير « هجرة داخلية » لحركة العرب الفلسطينيين المحليين من اى جزء آخر من فلسطين الى منطقة الاستيطان اليهودي . ويعد تناولها لهذه الفكرة ـ غير شديدة التعقيد في غير محله على نحو واضح . انظر ، بين اشياء أخرى ، صفحة ٢٤٥ (وهي نفس الصفحة التي يظهر فيها تعريفها) حيث ترجع بيترز الزيادة الشاذة (المزعومة) في اجمالي عدد السكان العرب في فلسطين في الفترة ما بين عامي ١٨٨٢ و ١٨٩٢ ، الى الهجرة والهجرة الداخلية العربية ، وصفحة ٣٧٦ ، حيث تدين ما يزعم بأنها « السياسة الأنانية » لبريطانيا في فلسطين ، « التي دخل بموجبها مهاجرون عرب بصورة غير مشروعة دون انتباه اليهم مع المتنقلين العرب ، واعتبروا جميعا « كمحليين » الا في الحالات « الصارخة » ، وفي

صفحة ١٥٧ ، حيث تخمن بيترز انه بافتراض أن « الانخفاض الحـــاد » فى سكان فلسطين قد حدث قبل الاستيطان اليهودى الحديث ، فانه «لا يمكن ان تكون قـــد حدثت زيادة ضخمة الا من خـــلال الهجرة والهجرة الداخلية « تأكيداتى » .

٢٢ — وفى ملحق (صفحة ٤٢٧ — ٤٢٨) يؤكد فيليب هوسر ، خبير السكان « الذى وجهت بيترز اليه الشكر ، « لتصحيح ومراجعة واعادة مراجعة » (صفحة ٩) الدراسة الديمغرافية ، على صحة جميع بياناتها بخصوص المنطقة — . « وهوسر هو المدير السابق لمركز احصاءات السكان بالولايات المتحدة ، والمدير الفخرى لمركز ابحاث السكان فى جامعة شيكاغو) . وفى مقال نشر مؤخرا فى مجلة كومنترى (اكتوبر ١٩٨٦) يزعم اريك ورائيل جين اسحق اننى استخدمت العامل الخطــأ للزيـــادة الطبيعيـــة . ويزعمـــان أن المضـــاعف الصحيح هـــو ٢ر٧٩٥ . ومـــع ذلـــك ، فانـــه فى نص بيترز لا يشير مضـــاعف ٢ر٧٩٥ الى عامـــل الزيـــادة الطبيعـــية فى الفتـــرة مـــا بـــين عـــامى ١٨٩٣ الى ١٩٤٧ ، بـــل الى العـــامل الـــذى بمرجبـــة زاد اجمـــالى عدد السكان العرب الفلسطينيين ما بين عامى ١٨٩٣ و ١٩٤٨ ، بما فيهـم على سبيل المثال ، العرب الذين هاجروا الى فلسطين خلال هذه السنوات .

١ر٣٠٢ر٨٠٠ (اجمالى عدد السكان العرب علم ١٩٤٧) = ٢ر٧٩٥

٤٦٦ر٤٠٠ (اجمالى عدد السكان العرب عام ١٨٩٣) .

٢٣ — فى احد الهوامش قبل حوالى ٢٥٠ صفحة (صفحة ١٦) ندرك أن الرقم ٤٣٠ الف الذى تستخدمه بيترز بصورة متكررة كتقدير أولى يشمل فقط « اللاجئين الحقيقيين » على سبيل المثال ، الذين أصبحوا فى حاجة الى اغاثة بعد عام ١٩٤٨ .ويقدر المصدر الذى نقلت عنه هذا الرقم ، اجمـــالى عدد اللاجئين فى عام ١٩٤٨ بما يصل الى ٥٣٩ الف لاجىء .

٢٤ — وفى مقالهما فى مجـــلة كومنترى (أنظر هامش — ٢٢) يقـــدم الاخوان اسحق اساسا منطقيا ساذجا لهذا الحذف : ان بيترز ليست فى حاجة لان تضع المنطقة — ٤ فى الاعتبار حيث ان الدليل التاريخى يشير الى الاستنتاج بأنه « من المستبعد » ان العرب هاجروا من المنطقـــة .ولكن للاسف اذا كنا سنصدق دراسة بيترز الديمغرافية ، فان ذلك بالتحديد هو ما فعلاه . فاما أن (١) استنتاجات الاخوين اسحق التاريخية صحيحة ، وفى هذه الحالة تصبح دراسة بيترز مخادعة أو أن (٢) تقدير بيترز للمنطقة — ٤ صحيح ، وفى هذه الحالة يصبح استنتاجها مخادع . ولا يوجد هناك احتمال ثالث .

٢٥ — فى مقالهما فى مجلة « كومنترى » ، يزعم الاخوان اسحق اننى قـــد اخطأت فى الحساب وان الرقم الذى توصلت اليه بيترز صحيح . ومع ذلك فان طريقة بيترز (صفحة ٢٥٦) تفضى الى النتائج التالية بخصوص المنطقة — ٤:

٨٧٤٠٠ (السكان عام ١٨٩٣)

٢ر٧ (عامل الزيادة الطبيعية)

٢٣٥ر٩٨٠ (عدد السكان المتوقع عام ١٩٤٧)

١٢٥ر١٠٠ (عدد السكان الفعلى عام ١٩٤٧ مخصوما منه عدد المهاجرين والبـــدو)

—١١٠ر٨٨٠ (صافى الهجرة من المنطقة — ٤)

ولا يمكن أن يكون هنك شك بشأن اسلوب الحساب حيث انه ، بالنسبة للمنطقة — ١ ، قد افضى الى الرقم الدقيق الذى شهد بصحته فيليب هوسر فى ملحق — ٤ ، صفحة ٤٢٨ :

٩٢ر٣٠٠ (عدد السكان عام ١٨٩٣)

× ٢ر٧ (عامل الزيادة الطبيعية)

٢٤٩ر٢١٠ (عدد السكان المتوقع عام ١٩٤٧)

٤١٧ر٣٠٠ (عدد السكان الفعلى عام ١٩٤٧ مخصوما منه عدد المهاجرين والبـــدو)

+ ١٦٨ر٠٩٠ (صافى الهجرة الى المنطقة — ١) .

٣٦ — تلقت بيترز نسخة من نتائج بحثى بخصوص دراستها الديمغرافية فى يونيو عام ١٩٨٤ . وفى سبتمبر عام ١٩٨٤ ، اصدرت دار نشر هاربر آندرو الطبعة السابعة من كتاب « منذ قديم الازل » ، تضمنت عددا من (التصريحات الطفيفة) فى الدراسة الديمغرافية (نفس تعبير آرون آشير محرر كتاب بيترز فى دار نشر هاربر آندرو) . وعلى وجه التخصيص ، صححت بيترز مفتاح الخريطة فى صفحة ٢٤٦ . وحيث كانت تزعم فى الاصل انه لا يوجد هنـــاك « استيطان يهودى » فى المنطقتين — ٣ و ٤ ، فقد اكتشفت بعد ذلك أن هناك « بعض الاستيطان اليهودى » فى المنطقتين . ويقابل الآن مفتاح الخريطـــة صفحة ٢٤٦ عمليا المناطق المحصورة بين اقواس فى المفتاح صفحة ٤٢٤ غير ان.

(١) هذا التصحيح مازال لا يفسر سبب تمييز المناطق ١ — و ٢ — و ٣ عن المنطقتين — ٤ — و — ٥ ، كما (٢) يتناقض مفتاح الخريطة صفحة ٢٤٦ مع البيانات الواردة فى الجداول صفحة ٤٢٥ . فالمنطقة — ٥ التى ادرجت فى صفحة ٢٤٦ على انها « خالية من الاستيطان اليهودى » كانت ما تزال تضم

٦٥٠٠ يهودى فى عام ١٩٤٧ وفقا للجداول ، والمنطقتان ــ ٢ و ــ ٣ اللتان ادرجتا على أن بهما « بعض الاستيطان اليهودى » فى صفحة ٢٤٦ لم يكن بهما اى من اليهود فى اى من السنوات المصنفة فى الجداول . وقد وضحت بيترز بوضوح ، من اجل اخفاء البيانات فى المنطقة ــ ٤ ، بالتماسك الداخلى . وتخضع المنطقتان ــ ٢ و ــ ٥ فى دراسة بيترز الديمغرافية لسلسلة غير عادية من التغيرات المشوهة فى صفحات كتاب « منذ قديم الازل » .

٢٧ ــ باستبعاد المهاجرين « من » المنطقة ــ ٤ من حساباتها ، تتوصل بيترز الى رقم للسكان العرب المحليين عام ١٩٤٨ داخل ما اصبح اسرائيل وهو حوالى ١١٠ آلاف نسمة لا يصل الى الرقم الحقيقى . واستنتج من هذا الرقم ، حاصل جمع خاطىء ثانى (انظر عمود بعنوان « السكان العرب المستوطنين » فى جدول جـ ، صفحة ٢٥٧) . وبعد ذلك تم تكرار هذه الارقام المزيفة فى اجزاء أخرى من النص (انظر على سبيل المثال ، صفحة ٢٦٢) . وللتأكد من الرقم الصحيح ، انظر جدولى رقم ٢ عمود (ب) : (منطقة ــ ١) ٢١٠ر٢٤٩ + (منطقة ــ ٢) ٣٠٠ر١٠٥ + (منطقة ــ ٤) ٩٨٠ر٢٣٥ = ٢٢٠ر٥٩٠ . والرقم الاساسى المزيف لبيترز هو ٤٨٣ الف (واستنتج منه رقم مزيف ثانى) .

٢٨ ــ ان المناقشة الكاملة « للادوات البحثية » لكتاب «منذ قديم الازل» سوف تبعدنا كثيرا عن نطاق هذا المقال . ولذلك أقتصر على بعض الملاحظات القصيرة : ــ

(١) يتسم كتاب « منذ قديم الازل » بكافة العلامات المميزة لاسلوب « القص واللصق » لكن مع العيوب الاضافية التى تتمثل فى « القص » المتكرر للعبارات المقتبسة من مصادر غير ذات صلة بالبحث . وتكون النتيجة سلسلة متوالية من الادلة التى يتم « توثيقها » بصورة واسعة بالرغم من انه لا اساس لها على الاطلاق .

(٢) يبدو أن بيترز ، فى بحثها المزعوم ، تجهل حتى التطورات الفاصلة فى التاريخ السياسى الاسرائيلى ، وعلى سبيل المثال « مذبحة لافون » (انظر صفحتى ٤٩ و ٤٥٨ وهامش ١٢٥) .

(٣) تذكر بيترز ستين اشارة واضحة الى كتاب « التاريخ » الشعبى لفلسطين عام ١٩٣٤ لجاكوب دى هاآس ، وثمانى اشارات الى مدخل فى طبعة عام ١٩١١ من الموسوعة البريطانية ، وتسع اشارات الى منشور « العدالة لشعبى » الصادر عام ١٩٤٢ لارنست فرانكشتاين ، وثمانى اشارات الى (اعمال) الرئيس السابق للجنة الامريكية المسيحية الفلسطينية (كارل هيرمان نوس) ، واحدى وعشرين اشارة الى كتاب صامويل كاتز : ارض

المعركة : الحقيقة والخيال فى فلسطين ، الخ . وتحظى هذه « المصادر » بالوزن البحثى الكامل لكتاب هزلى كلاسيكى .

٤ ــ لم يحظ كتاب يهوشـوا بورات المكـون من جـزأين بشـأن جـذور القومية الفلسطينية ، بأية اشـارة فى كتاب لم يخصص سوى صفحات قليلـة لهذا الموضـوع . ولم تذكر بيترز أية اشارة الى بحث ارسكين شيلدرز الكلاسيكى الخاص بنزوح العرب الفلسطينيين عام ١٩٤٨ من اسرائيل ، خلال معالجتها لهذا الموضوع . وتتناقض النتائج التى توصـل اليهـا كلا الكاتبين تمـاما مـع النتائج التى توصلت اليها بيترز ــ وهى نتائج ليست فى الحقيقة سـوى افراغ لاقدم وأكثر الاعمال التى تدافع عن العقائد الصهيونية فى قالب جـديد لا تقدم اى دليل جـديد يدعمها .

٥ ــ فى تعريف بكتاب « منذ قديم الازل » ، يقدم آرثر جولد برج اسهامه المتواضع فى اسطورة بحث بيترز « الضخم » قائلا : ان كتاب « منذ قديم الازل »، على حد معلوماتى ، هو أول كتاب صـدر باللغة الانجليزيـة يروى قصـة طـرد اليهود من الدول العربية .. واذا كان جولدبرج قـد أجهـد نفسـه بالرجـوع الى هوامش بيترز ، لكان قد اكتشف أن مناقشتها الشاملة لهـذا الموضوع تقوم على أساس كتاب لجوزيف شيشتمان وكتيبين ، وأن المؤلفـات الثلاثة من هذه المصادر صدرت باللغة الانجليزية .

٢٩ ــ بخصوص مثال هزلى آخر على انحراف بيترز ، لالتزامها الى حـد بعيد للغاية بخط فرانكشتاين ، انظر عمود اليكسندر كوكبورن فى عـدد مجـلة « نيشن » الصـادر فى الثالث عشر من اكتـوبر عـام ١٩٨٤ ، حيث يلاحظ ان : « تعترف بيترز فى مختلف اجزاء الكتاب بفرانكشتاين ، ولكن ليس فى معظم الاحيـان بطريقة تدعم مصداقيتها أو مصداقية مرشدها . وتكتب فى صفحة ١٦٩ : « وصل الاكراد والتركمان (كـذا) ومستعمرون آخـرون الى فلسطين فى نفس الوقت تقريبا الذى بدأت فيه موجـات الهجرة اليهودية . وقد جرى بصـورة مستمرة جلب ثمانية عشر الف (خيمة) من التتـار (٢٠٧) ، و « جيوش من الاتراك والاكـراد » . وترى باكملها استوطنها فى القرن التاسع عشر بوسنيون ومغاربة و « جراكسة » و « جـزائريون » ومصريون الخ ــ لاستيطان أرض ما يسمى بفلسطين . ويفيد هامش ٢٠٧ : « المقريزى ، تاريخ السـلاطين المماليك ، الجزء الثامن صفحة ٢٩ ــ ٣٠ ، جـاء الاستشهاد به فى منشـور فرانكشتاين « العدالة لشعبى « صفحة ١٣٢ » . واذا رجعنـا الى كتاب أ . ر . نيكولسـون التاريخ الادبى للعرب ، نكتشف أن المقريزى ولـد عـام ١٣٦٤ وتوفى فى عام ١٤٤٢ . ولذلك فهـو مصـدر مشكوك فيـه بشأن أمـور نشـاط السكان فى القرن التاسع عشر ، رغم ان كتابه عن هجـرة قبائل التتار فى القرون الوسطى هو دون شـك فوق مستوى الشبهات . وفى

ضوء تاكيد بيترز بشأن المادة التى استشهدت بها فينبغى علينا تصـــور انها وفرانكشتاين على حـــد سواء قد ارتكبــا أخطـــاء فادحة ومتطابقة تمـــاما حول تاريخ واستخدام كتاب المقريزى .

٣٠ ــ رغم انهـــا تتناقض مع كل دراسة تاريخية وديمغرافية جادة عن هذه الفترة . قارن هامش ــ ٤ وهامش ـــ ٥ أعـــلاه .

٣١ ــ تكرر بيترز ببســـاطة كلمات فرانكشتاين عندما تلاحظ أن المسألة مازالت قائمة ، حتى اذا كان من المفترض وجـــود معدل مرتفع بصـــورة غير عـــادية للزيادة الطبيعية . ومع ذلك ، فانه فى احدى اشاراتها غير المباشرة الى فرانكشتاين (صفحة ٢٤٥ و ٥٢٣ هامش ٤٢) ، تجـــد بيترز أن لديها الجـــرأة لتكتب : (١) ان فرانكشتاين هو الذى يفترض نســـبة مرتفعة بصورة غير عادة للزيادة الطبيعية فى هذه الفترة و (٢) واذا كان افتراضه « غـــير المحتمـــل » موثوق به ، فان الدليل الذى توصلت اليه بشأن الهجرة العربيـــة فى الفترة ما بين عامى ١٨٨٢ و ١٨٨٥ يعتبر عـــديم الجدوى .

٣٢ ــ لمزيد من الأدلة على انتحال آراء الآخرين قارن صفحتى ١٧ ــ ١٩ من نص بيترز بكتاب جوزيف شبشتمان « اللاجىء فى العالم » (نيويورك ١٩٦٣) صفحات ٢٠٠ ــ ٢٠٨ ، ٢٤٨ ــ ٢٤٩ .

الاذاعـــــات

بقـــلم : كريستوفر هيتشـــنز

لعله من قبيل الامـــان القول بأنه ليس ثمـــة أحـــد لديه اهتمام كاف بالشرق الاوسـط ، وسمع حتى بالصدفة مناقشـة حـوله ، يمكن أن يكون غريبا عن قصـــة « الاذاعات » . فالدعـــاية الاسرائيلية وهى تواجـــه تهمـــة تشـتيت العرب الفلسطينيين بالقـــوة عام ١٩٤٨ ، تلجـأ بشـــكل منتظم الى ترديد الادعاء القـــائل بأن الفلسطينيين فروا فى واقع الامر ، وانهـــم قدمـــوا على تلك الخطوة بتحريض وحث على ذلك من جـــانب قيادتهم . اذ أن المنشـــور الرسمى للحكومة الاسرائيلية الخاص بمسألة اللاجئين الذى صدر أول الامـــر عام ١٩٥٣ على سبيل المثال ، يذكـــر صراحة ان الهجرة الفلسطيبية الجماعية جاءت فى أعقاب أوامر عاجلة اذاعها رئيس اللجنـــة التنفيذية العربيـــة العليـــا (المفتى) . وقد تردد نفس الادعـــاء أمام الامم المتحدة ، وعلى لســـان عـــدد لا يحصى من الدبلوماسيين الاسرائيليين فى بـــلدان عـــديدة ، وبواسطة منظمات صهيونية أجنبية ، وأكاديميين وصحفيين موالين لاسرائيل ، وكذلك مئات الآلاف من المشـايعين المخلصين للقضية الاسرائيلية الذين يؤمنون بهـــا ايمانا خالصا فى جل كافة الاحتمـــالات .

ان البحث فى مسألة ما اذا كان الفلسطينيون قد فروا بناء على أوامـــر صدرت اليهم أو تحت « ضغط » من منظور أى مســـتوى اخلاقى ، يعتبر مســـألة ثانوية . فمهما كان الدافع وراء فرارهم ، فانه كان من حقهم أن يتوقعوا العودة الى ديارهم بعد انتهاء الاعمال العدوانية وليس ثمة أمـــر آخر حتى الآن لديه الجراة لانكار ان هذا الحق قد نزع منهم . ولكن للأســف فان الحديث عن اللاجئين الفلسطينيين لا يجرى بأسلوب رفيع . ولذلك فان الســـؤال البسيط وهو هل فروا أم جرى طردهم يتخـــذ أهمية خاصة بـــه . وللتعبير عن ذلك بشكل أبسط فان جانبا اخلاقيا كبيرا قد ضـــاع فى المناقشة . وقد أصبح الادعاء بان تعليمات « اذاعية » صدرت لحث الفلسطينيين على الفرار رمزا مقدسا فى الحقيقة يتم التعلق به بحماس يكاد يكون عصبيا فما الدليل عليه ؟

فى شهر يناير عام ١٩٨٦ ، نشر الدكتور بينى موريس مقالا ذا أهمية خاصة فى مجلة دراسات الشرق الاوسط . وكان الدكتور موريس قد حصل على نسخة من تقرير أعده فرع مخابرات قوات الدفاع الاسرائيلية تحت عنوان هجرة عرب فلسطين خلال الفترة من ١٩٤٧/١٢/١ الى ١٩٤٨/٦/١ . فقد شهدت تلك الشهور ترك حوالى نصف اللاجئين لديارهم ، وبذلك قد تعتبر

«نموذجا » • وأجرت مخابرات قوات الدفاع الاسرائيلية دراســـة دقيقة عن رحيل أولئك الـــ ٠٠ر٣٩١ فلسطيني وذكرت ثلاثة أسباب رئيسية بحسب ترتيب أهميتها :

١ ـــ عمليات يهودية عدوانية مباشرة ضد المستوطنات العربية .

٢ ـ تأثير عملياتنا العدوانية على المستوطنات المجاورة ٠٠٠٠ خصوصا سقوط مراكز مجاورة كبيرة •

٣ ـ عمليات المنشقين •

وينبغي أن أوضح أنه عندما يستخدم التقرير ضمير الملكية « او كلمة يهودى فانه يقصد بشكل واضح الجيش الاسرائيلى أو جماعة الهاجاناه التى كان يراسها بن جوريون ، كما أن لفظ المنشقين يعنى بشـــكل واضح ايضـــا عصابتى الارجون وشتيرن : وهما تشكيلان عسكريان صهيونيان غير رسميين كان ينتسب اليهما سياسيا كل من بيجين وشامير • ويقسم التقرير المسئولية عن الفرار بقوله فرار خمسة وخمسين فى المائة على الأقل من جملة النازحين كان بسبب عملياتنا وتأثير تلك العمليات ، فى حين تسببت جماعتا أرجون وشتيرن بشكل مباشر فى نزوح خمسة عشر فى المائة من مجموع النازحين . وذكر التقرير أن من بين الاسباب الأخرى لفرار الفلسطينيين «عمليات ترويع الاشاعات اليهودية الرامية الى ترويع السكان العرب الى جانب أوامر الطرد النهائى الصادرة من الجيش والهاجاناه ويقال ان تلك الاخيرة تسببت فى نزوح نحـــو اثنين فى المائة فى كل مرة ، وهو اجمـــالى يعتبره الدكتور موريس منصفا الى حد ما ، ويعزوه الى اتجاه قد يكون مفهوما نحـــو التقليل من الدور الذى لعبته أوامر الطرد المباشر فى حدوث جانب من النزوح الفلسطينى • ولكـــن على الرغم من شعور القلق الذى سيطر على معدى التقـــرير فى هذا الصـــدد فان ما قدموه من دليل يبين أن اثنين وسبعين فى الـ ئة من اللاجئين الفلسطينيين فى تلك الفترة الحاسمة تم طردهم بالقـــوة العســـكرية الاسرائيلية ولعل هذا الاعتراف من جانب قوات الدفاع الاسرائيلية يستحق الاعلان عنه على نطـاق واسع مما حدث حتى الآن .

كذلك الحال بالنسبة لذلك الفصل من االتقـــرير الذى يتناول الاذاعات فكما يقول الدكتور موريس ، فان التقرير يخرج عن مساره ليؤكد أن الهجـــرة الجماعية جاءت على عكس الرغبات السياسية الاستراتيجية لكل من اللجنـــة العربية العليا وحكومات الدول العربية المجاورة . وقد وجدت مخابرات قوات الدفاع الاسرائيلية أن المؤسسات العربية حاولت أن تناضل ضد ظاهرة الفرار والرحيل وان تحـــد من موجات الهجرة وكان ثمة بعض الأذاعات ، ولكن كمـــا بين الدكتور موريس بمساعدة التقرير ، قررت اللجنة العربية العليا فرض قيود ، ووجهت تهديدات ، وانزلت عقوبات ، واستخدمت أسـ ـيب الدعاية فى

الاذاعة العربية أو من خلال أية وسائل أخرى الى الفلسطينيين لكي يجلوا عن ديارهم وقراهم ولو ان مثل هذا الامر قد صدر لكان قد ذكر او استشهد به فى تلك الوثيقة بدون شك ، فقد كان جهاز مخابرات الهجاناه وفرع مخابرات قوات الدفاع الاسرائيلية يتابعان عن كثب ما تبثه الاذاعات وتقوله الصحافة العربيـــــة .

وعلى ضوء هذا الدليل ، فان النتيجة التى توصل اليها الدكتور موريس تكاد تكون عديمة الجدوى . فتقرير مخابرات قوات الدفاع الاسرائيلية ، كما يقول ، يقوض تماما « التفسير » الاسرائيلى الرسمى التقليدى لحدوث فـرار على نطاق واسع بناء على أوامر أو « تحريض » من القيادة العربية لاســـباب سياسية استراتيجية ."

ان هذا التأكيد الصادر من مؤرخ اسرائيلى يستخدم المصادر الاسرائيلية الأكثر دقة والتى تحظى بالثقة الى حد كبير ، يسمح للمرء فى نهاية الأمر أن يضع نهاية لجـدل ظل مستمرا على مدى ربع قرن . وأنا لا أتحدث هنا عن الجدل الذى يدور حول لاجئى عام ١٩٤٨ والذى بدأ بطبيعة الحال منذ اليوم الأول للشتات الفلسطينى . بل أننى أشير الى الحوار الطويل وغير المعروف كثيرا بين ارسكين ب . شيلدرزو جون كيمشى . وارسكين شيلدرز دبلوماسى وصحفى ايرلندى ، وهو حفيد مؤلف كتاب « لغز الرمال » ، ونجل رئيس جمهورية أيرلندا ، وكلاهما يحمل نفس الاسم . أما جون كيمشى فهو صحفى ومؤرخ اسرائيلى بارز كان فى تلك الفترة رئيسا لتحـرير صحيفة « جويش أوبزرفر » اللندنية .

وقد شرح الدكتور شيلدرز فى مقـــال نشر فى صحيفـــة « سبكتاتور » اللندنية بتاريخ ١٢ مايو ١٩٦١ حيرته فيما يتعلق بالادعاء المعروف جيـــدا للدعاية الاسرائيلية والقائل بأن الفلسطينيين العرب قد حثوا على الفـــرار بواسطة قادتهم بقوله :

عندما قمت بفحص كل بيـــان اسرائيلى رسمى حول هجـرة العرب الجماعية ، فوجئت بحقيقة انه لـم يكن ثمة دليـــل اولى على صدور أيـــة اوامر بالرحيل . وادعت اسرائيـــل أن الاتهام كان موثقا ، ولكن أين الوثائق ؟ ان هنـــاك ادعـــاء بأن أوامر صدرت عبر اذاعات عربيـــة الى الفلسطينيين بالرحيل ، غير أنه لـم يستشهد بالتواريخ أو أسماء المحطات أو نصـــوص الرسائل . وعندما كنت فى اسرائيل فى عـــام ١٩٥٨ ، ضـيفا عـــلى وزارة الخارجية ، ومن ثـم كنت آمل كثـــيرا فى الحصول على مساعدة جادة ، طلبت أن أطلع على الادلة . وقـــد أكدوا لى وجودها ووعدونى بالاطلاع عليها . الا انـــه لـــم تقدم لى أى منها عندما رحلت ، ولكنهم أكدوا لى مرة أخرى . وطلبت ارسال الادلة وما زلت فى الانتظار .

ومع كل ، فانه خلال وجودى فى اسرائيل ، التقيت بالدكتور ليوكوهين، وهو أستاذ للعلوم السياسية بالجامعة العبرية ومستشار لوزارة الخارجية الاسرائيلية بدرجة سفير . وكان قد كتب احدى النشرات الرسمية الأولى عن اللاجئين العرب . وطلبت منه أن يطلعنى على دليل ملموس على الاوامر التى صدرت للعرب بالرحيل . فرد الدكتور كوهين محتدا بقوله : دليل ؟ دليل ؟ اى اكثر من هذا تريد ؟ ثم رفع نشرته . واشار الى نص قائلا انظر الى تقرير « الايكونومست » هذا ، انك لن تدعى بالتأكيد أن « الايكونومست » جريدة صهيونية . ؟

والنص واحد من حوالى خمسة نصوص تظهر فى كل خطبة ونشرة اسرائيلية ، وتستخدم بدورها فى كل تحليل متعاطف . وهى تبدو مؤثرة للغاية : اذ تشير الى هجرة العرب الجماعية من حيفا ، والى امر اذاعى عربى باعتباره سببا رئيسيا لتلك الهجرة الجماعية .

وكان الدكتور شيلدرز قد خدع بما فيه الكفاية بحيث انه طلب الاطلاع على اصل المقال الذى ورد فى صحيفة « الايكونومست » بتاريخ الثانى من اكتوبر عام ١٩٤٨ . وقد ثار الشك لديه فى أول الامر لاستخدام كلمة « حادثة » لوصف المذبحة البشعة التى تعرض لها السكان العرب فى قرية دير ياسين . واثبت المزيد من الفحص او التقرير الذى نشرته « الايكونومست » والذى تضمن اشارة غامضة الى « بيانات عبر الاثير » صادرة عن اللجنة العليا العربية ، كان قد كتبه من قبرص أحد المراسلين الذى نقل عن مصدر اسرائيلى غير مؤكد وكان من الصعب اعتبار ذلك دليلا ، ناهيك عن اعتباره شهادة مباشرة .

وقد اثيرت شكوك اخرى حول الادعاء ، الذى ورد ايضا فى النشرات الاسرائيلية الرسمية ، بأن الاسقف الكاثوليكى اليونانى للجليل قد وجه نداءات الى اتباعه يحثهم فيها على الرحيل . وقال شيلدرز لقد كتبت الى سماحته . ولدى رسائل موقعة منه ، مع تصريح بالنشر ، ينفى فيها بشكل قاطع انه ادعى أن اوامر صدرت للعرب بالرحيل ، وذكر أن مثل تلك الاوامر لم تصدر . ويقول ان اسمه قد أسيء استخدامه لسنوات وأن العرب قد فروا نتيجة للذعر والطرد الاجبارى وبالرغم من ذلك ، فان ابا ايبان ذكر أمام اللجنة السياسية الخاصة التابعة للامم المتحدة أن نفس الاسقف كان قد « اكد تماما أن العرب حثوا على الفرار من قبل زعمائهم » .

وقرر شيلدرز ان الحل العلمى الوحيد يتمثل فى فحص الاتهام غير الموثق الذى يمكن لحسن الحظ ، على حد قوله ، تنفيذه على الوجه الاكمل نظرا لان هيئة الاذاعة البريطانية كانت تقوم بالتقاط كافة اذاعات الشرق الاوسط خلال عام ١٩٤٨ وكانت نصوص تلك الاذاعات وكذلك نصوص مؤكدة

لها من وحـــدة التقاط أمريكية موجودة فى المتحف البريطانى . وقد اطلع شيلدرز على تلك النصوص واستشهد هنا بما توصل اليه :

« لم يكن ثمة أمر أو نداء أو اقتراح واحـــد بالرحيل عن فلســـطين صادر من اية محطة اذاعة عربية داخل فلسطين او خارجها فى عام ١٩٤٨ . بل ثمة تسجيل جرى التقاطه بصفة متكررة لنداءات واوامر عربية صريحة الى أهالى فلسطين بأن يلزموا أماكنهم ولا يبرحوها » .

وذكر الدكتور شيلدرز ، كنوعية بسيطة لذلك الاكتشـــاف التاريخى ، (الذى لم يصـــادف مطلقا أى تحد له ، ناهيـك عن دحضه ، أن الاذاعات الاسرائيلية باللغـــة العبرية وكذلك العـــديد من الصحف اليهودية نقلت نفس تلك النداءات الموجهة للعرب الفلسطينيين بالالتزام بأماكنهم وعدم مبارحتها .

وفى الثانى من يونيو عام ١٩٦١ ، انضم جون كيمشى الى المعـــركة . فكتب يقول « على خـــلاف السيد شيلدرز ، كنت موجودا فى معظم المراحـــل الحاسمة « للهجـــرة الجماعية » للعرب الفلسطينيين ، وقد أمضيت منذ ذلك الحين عدة سنوات فى بحث ورفض ليس الدليل فحســـب بل ايضا ما يدعى بمصادره وقدم كيمشى ثلاث نقـــاط كانت أولها فى صيغة تلميح حين قال :

« من المهم أن نعرف كيف تحقق السيد شيلدرز من كافة اذاعات الشرق الاوسط ، ومن قام بالتقاطها وأين ، وماذا كانت هناك فى الحقيقـــة ثغـــرات فى عمليات الالتقاط تلك لكافة اذاعات الشرق الاوسط فى عام ١٩٤٨ .

ثانيا ، أن السيد كيمشى خرج قليـــلا على النص الاسرائيلى الرسمى عندما قال :

« ان القول بأن القضية الاسرائيلية تعتمـــد على الدليل المتمثل فى أمر مذاع صادر من الزعمـــاء العرب الى الفلسطينيين يعد خرافة ابتدعها واستغلها البروفيسور وليد خالدى الذى يبدو أن السيد شيلدرز قد استند الى أبحاثه . ولكن البروفيسور خالدى كان قد ذكر لنا من قبل (فى عدد مجلة « ميدل ايست فورم » الصادر فى شهر ديسمبر عام ١٩٥٩) أن الاتصـــال بين الزعمـــاء العرب واللجنـــة القومية فى حيفا ظل قائما ، ليس عن طريق الأذاعات ولكن « من خلال الرسل والمحادثات الهاتفية التى أظن أن السيد شيلدرز لم يستطع التحقق منها . وقد انتهيت فى واقع الامر منذ بعض الوقت الى أن ذلك ليس بالامر الذى يمكن التثبت [illegible] ورقة مكتوبة » .

ثالثا : وردت اشارة الى ورقة مكتوبة فيما يلى :

« يوجد الآن جبل من الأدلة المستقلة التى تثبت إن المبادرة لهجرة العرب الجماعية جاءت من الجانب العربى وليس من جانب اليهود . فمثلا تحتوى ملفات

مقر المخابرات البريطانية فى حيفا على سلسلة كاملة من التقارير حـــــول الموقف ما بين السادس والعشرين من ابريل ونهاية الشهر . ولأنهى حديثى بالاســـتشهاد بجملة من التقرير الصادر فى الثامن والعشرين من ابريل عام ١٩٤٨ . وتقول تلك الجمـــــلة أن اليهود ما يزالون يبذلون كل جهـــد لاقنـــــاع السكان العرب بالبقاء وان يستقروا فى معيشتهم العادية فى مدينتهم .. والتقرير موقع عليه باسم أ.ج بكدميد رئيس الشرطة غير أن الزعماء العرب اصروا على ضرورة ترحيل السكان العرب وأن تزودهم السلطات العسكرية البريطانية بوسائل النقـــــل اللازمـــــة » .

وربما كان من الغرابة أن يستشهد السيد كيمش بمسألة حيفا ، حيث ان الموقف هنك كان قد تناوله شيلدرز فى مقاله الاصلى . وكان شيلدرز قد كتب عن النداء اليهودى الى العرب بالبقاء يقول :

« ثمة مثال واحد مسجل عن وجود مثل هذا النداء . فليس ثمة خلاف حتى لدى العرب ، على ان عمدة حيفا المهذب الراحل شابتاى لفيى كان يتوسل والدموع تنهمر من عينيه الى عرب المدينة أن يبقوا . غير أنه فى أماكن أخرى من حيفا كان الصهاينة الاخرون يرهبون العرب . فقد كتب أرثر كوستلر فى كتابه أن مكبرات الصوت فى سيارات الهجاناه واذاعتهم كانت تعد بمرافقة سكان المدينة العرب الى « منطقة عربية » وكانت تلمح بعواقب وخيمة فى حالة ما اذا تجاهلوا التحذيرات الموجهة اليهم » .

وقد اختار كيمشى عدم قبول هذا الدليل الذى قدمه كوستلر ، وهو أحد أكثر شهود الصهيونية تشددا ، حتى وان كان دليل كوستلر بمثابة دافع لمطالب العرب « بمرافقة » بريطانية (وهو الاصطلاح الذى يستخدم بما ينطوى عليه من مغزى هام فى كلتا الحالتين ،) . اذ ربما لم يكونوا يتخيلون أن تقوم الهجاناه بمرافقتهم؟ ولم يسأل كيمشى أو شيلدرز عن السبب الذى كان يدعو العـــــــرب لان يطلبوا مرافقتهم على الاطلاق ، اذا ما كان الاسرائيليون حريصين على بقائهم .

وقد بعث شيلدرز برسالة تالية الى مجلة « سبكتاتور » التى صدرت فى التاسع من يونيو ١٩٦١ تناول فيها النقاط بنفس الترتيب الذى عرضت به تقريبا وجـــــاء فيهـــــا :

« انه يشك فى احتمال أن اجهزة الاستماع الخاصة بهيئة الاذاعة البريطانية لم يفتها بعض الاذاعات العربية فى عام ١٩٤٨ ، حيث اننى وجدت أن تسجيلاتها لم تكن تحتوى على أوامر مذاعة موجهة الى الفلسطينيين تدعوهم الى الرحيل . وان قلقه حول هذا الامر قد يكون أكثر اقناعا وانه لم يحجم عن ذكر الحقيقة المثيرة الاخرى التى ذكرتها بأن تسجيلات الاذاعات الملتقطة تثبت انه كانت هناك اذاعات عربية متكررة تأمر الفلسطينيين وتناشدهم عـــدم الرحيــــــل وتعلن عن اجراءات عديدة لمنع الهجرة الجماعية والقضاء عليها . فهل نصدق فى الحقيقة أن

اجهزة الاستماع زودت هذا التسجيل ؟ اننى استطيع أن استشهد له بصحف واذاعات صهيونية فى فلسطين فى عام ١٩٤٨ ، أو ردت تلك الاجراءات المعارضة لترحيل العرب .

غير أن السيد كيمشي يغطى نفسه بطريقة حكيمة بادعائه التالى بأنه على أية حال فان التفسير الاسرائيلى للهجرة الجماعية لم يستند مطلقا على « وجود أمر مذاع من القادة العرب » — فهو خرافة على حد قوله ، من اختراع الدكتور خالدى . ربما لا شك فيه أن الدكتور خالدى انما يكتب لنفسه من برينستون . ومن ثم فاننى أكتفى بأن أحيل السيد كيمش الى مثال واحد فقط على اعتماد اسرائيل بشكل محدد للغاية فى قضيتها على تلك الرواية الاذاعية : فقد زعمت نشرتها الرسمية الصادرة فى عام ١٩٥٣ عن اللاجئين العرب أن الهجرة الجماعية جاءت فى أعقاب أوامر عاجلة أذاعها رئيس اللجنة التنفيذية العربية العليا .

وماذا بعد ذلك ؟ ان السيد كيمشي يغطى نفسه بعد ذلك بقوله انه استنتج أن سبب الهجرة الجماعية ليس بالامر الذى يمكن التأكد منه عن طريق قصاصة مكتوبة . حسنا : فانه يجوز لنا ان نصدق حينئذ أن السيد كيمش ، وهو محرر ومؤلف صهيونى لكتاب قدم له السيد بن جوريون ، يدحض كافة الادعاءات الاسرائيلية بوجود أدلة وثائقية على الاوامر المزعومة للعرب بالرحيل .

ومضى شيلدرز فى دحض المزاعم والمزاعم الاخرى المضادة التى قدمها كيمشي حول السبب الذى دعى العرب الى الرحيل بالفعل ،وليس المجال مناسب لها فى هذا المقال . وتساءل فى نهاية رده بشيء من الاحتقار قائلا :

« رأى شيء آخر من « حيل » السيد كيمشي ؟ كيف نفذت «مبادرته العربية » المزعومة ؟ انه يستغل اشارة اوردها الدكتور خالدى عن اتصال جرى بين حيفا وقادة عرب عن طريق الهاتف والرسل . ومن المفروض من خلال ذلك ان نصدق قيام ٦٥٠,٠٠٠ مواطن ، كانوا مقيمين فى ديارهم ، بالفرار طواعية من فلسطين بناء على أوامر صدرت اليهم من قادة عرب ، ولم تصلهم مذاعة او مكتوبة ، بل يزعم انها ابلغت اليهم بواسطة الرسل والهاتف فى جميع انحاء البلاد : وان هؤلاء المواطنين فروا على الرغم من حقيقة ان نفس هؤلاء القادة العرب كانوا يوجهون اليهم نداءات عبر الاذاعة تدعوهم الى عدم الرحيل !

وفى السادس عشر من يونيو عام ١٩٦١ ، انضم البروفيسور ليوكوهين الى الحلبة (وهو نفس ليوكوهين الذى استشهد به شيلدرز فى مقاله الاول). وقد نشرت مساهمته بعد وفاته نظرا لانه توفى خلال الفترة بين كتابته للمقال واليوم الذى نشر فيه . وحاول المقال ان يسجل مرة اخرى قضية حدوث هجرة جماعية بين ظل رعاية عربية ، او اعتبار أن الهجرة الجماعية جرت تحت رعاية عربية . وتم اقتباس فقرة اساسية فيما يلى :

« ثمة ثروة من الادلة ايضا (كتب كوهين ، وهو يهبط الى حد ما من فوق « جبل » كيمشى) من مصادر عربية تثبت ان الجامعة العربية فى مرحلة مبكرة للحملة ، انتهجت سياسة ترحيل السكان العرب الى البلدان المجاورة ، اقتناعا منها بأن غيابهم سوف يكون لفترة قصيرة وأنه سوف يسهل العمليات العسكرية المرتقبة : وان هذه الهجرة الجماعية كانت راجعة من ناحية الى ايمان العرب ، الذين شجعتهم صحافة عربية غير واثقة ومتباهية الى جانب تصريحات مشهورة من جانب بعض القادة العرب ، بأن الامر لا يمكن أن يستغرق أكثر من بضعة أسابيع قبل أن يمنى اليهود بالهزيمة » .

من « العرب » بقلم ادوارد عطية أمين مكتب الجامعة العربية فى لندن سابقا ، كتب بنجوين (١٩٥٥) الصفحة ١٨٣ .

وقد رد شيلدرز على ذلك فى مقالة مصاحبة نشرت فى نفس الاسبوع قال فيها :

« اعتقد انه يجب على أن اشرح سبب قيامى بالتعليق ، دون اية موانع ، على مقال الراحل الدكتور كوهين . فالمقال كتب ليس لصالحه وانما لصالح اسرائيل ، وليس كشهادة شخصية ولكن بالاستعانة بمواد منشورة . وهو يتعلق بمصير ٠٠٠ر٦٥٠ انسان . وليس فى مقدورى بأمانة تناول التفسير السابق لمصيرهم بشكل مختلف على الرغم مما تردد عن وفاة الدكتور كوهين .

ولقد ذكرت فى مقالى ان اسرائيل فشلت على مدى عشر سنوات فى تقديم ما يشبه من بعيد الدليل على صدور أوامر للعرب بالرحيل ، وهو ما تدعيه دائما . وقد كانت لدى الدكتور كوهين كل امكانات حكومة اسرائيل الا أن رده لا يتضمن دليلا من أى نوع . فهو يكرر التأكيد بأن ثمة ثروة من الادلة على سياسة الترحيل التى كانت تتبعها الجامعة العربية . وهو لا يذكر فى رده — ومن ثم لا تستطيع اسرائيل هى الاخرى أن تذكر — متى اتخذ القرار او كيف نفذت تلك السياسة المزعومة » .

وفى الثالث والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٦١ كتب ادوارد عطية نفسه ، الذى استشهد به البروفيسور كوهين ، تعليقا على النص الذى كان قد نسب اليه . وكانت نقطته الأساسية كما يلى :

« تم حذف الجملة التالية التى كتبتها والتى تقول » ولكن كان ذلك ايضا يرجع الى حدكبير وفى أجزاء عديدة من البلاد ، لسياسة الارهاب والطرد المتعمد من جانب القادة اليهود فى المناطق التى احتلوها ، والتى بلغت ذروة وحشيتها فى المذبحة التى وقعت فى دير ياسين .

وتعليقى الثانى انه ليس ثمة اشارة باى شكل من الأشكال فيما كتبته الى أن الهجرة الجماعية التى قام بها اللاجئون العرب كانت نتيجة لسياسة

ترحيل السكان العرب · ان ما قلته هو شيء يختلف تماما عن الادعاء الصهيوني بأن اللاجئين العرب قد أمروا او أبلغوا من زعمائهم بالرحيل ، وهي النقطة الأساسية في الجدل كله ·

وفي نفس الأسبوع ، دافع جون كيمشي عن نفسه مرة أخرى · وقد هبط خطابه لمسافة ابعد أسفل جبل الأدلة التي افتتح بها المناقصة . فكتب الآن يقول :

« ان الهجرة الجماعية للعرب (دون استخدام علامتي التنصيص لكلمة هجرة جماعية كما حدث في خطابات سابقة) كانت مسألة معقدة ومربكة وليس بالامكان القطع بقبولها بأسئلة بلاغية عديمة المعنى مثل هل كانت هناك أوامر مذاعة على العرب او لم تكن هناك ؟ انني لم اقل ابدا انه كانت هناك أوامر ·»

وفي نفس الخطاب أكد كيمشي أنه :

« ليس ثمة تفسير ، في الحقيقة ، لهجرة العرب الجماعية من فلسطين فخلال تلك المرحلة الأولية ، كانت مسئولية الادارة البريطانية جزئية بينما كانت مسئولية القيادة العربية كبيرة — وكان من عليهم ان يكونوا قدوة ، هم أول الراحلين . وبعد ذلك اصبحت المسئولية تقع بصفة جزئية على الجيوش العربية المغيرة وعلى الاسرائيليين الذين شجعوا ، وفي بعض الحالات أرغموا العرب على الرحيل . ولكن بوجه عام ، كان نمط الدعاية المبدئية الذي وضعه القادة العرب هو الذي خلق حالة الذعر كلما ظهر الاسرائيليون وادى الى الفرار بلا تمييز وتلك في الحقيقة ، كما يتضح من الدعاية ، قصة متضاربة الى حد كبير وليس من السهل سردها ·

وبعد أن تنازل كيمشي كثيرا (حيث أن وضع كلمة « شجع » بين شولتين قد كلفه فيما يبدو بعض الشيء) اتخذ موقفا نهائيا حول القضية التي بدأ بها الجدل :

« وبالنسبة للتقارير الاذاعية التي قام البروفيسور خالدي والسيد شيلدرز بفحصها بعناية في المتحف البريطاني ، فانني أقترح عليهما نسيان كل شيء عنها . فهي تقارير ناقصة بشكل يدعو للسخرية مما يتعذر معه اعتبارها دليلا . وهي لا تعطي حتى نسبة عشرة في المائة من المذاعات . ومن ثم فهي لا تثبت شيئا » .

ولم يذكر السيد كيمشي ما اذا كان قد قام بفحص التقارير الاذاعية أو انه عمل على فحصها وربما قد واجه أيضا حرجا ، بوضعه المزدوج كمؤرخ لتلك الفترة وكمحرر لصحيفة موالية للصهيونية في لندن ، وذلك من جراء كلمة التاها ديفيد بن جوريون أثناء عملية تبادل الخطابات تلك . ففي الثامن

عشر من مايو عام ١٩٦٣ نقلت صحيفة التايمز اللندنية عن بن جوريون نفيه في الكنيست أمس قيام الحكومة الاسرائيلية بطرد اى مواطن عربي واحد منذ قيام دولة اسرائيل ، وقوله أن المنظمات السرية اليهودية قبل قيام الدولة الاسرائيلية كانت قد اعلنت أن اى عربي يستطيع البقاء حيث يعيش وأضاف ان الهاربين فروا بناء على أوامر من القادة العرب .

وذكر شيلدرز ، في الجولة الأخيرة من المراسلات ، أن كيمشي « سلم بمسألة الاذاعات كلها » . كما اشار الى ان فكرة الهجرة الجماعية التي صدرت أوامر بهـا بالهاتف وعن طريق الرسـل ، يبدو انها قد افلتت كما اكد بقدر كبير ، أن تسجيلات الاستماع بوكالة المخابرات الامريكية الخاصة بما أذيع عن الشرق الاوسط في عام ١٩٤٨ ، والتي عرضت للفحص في جامعة برينستون ، كانت تحمل نفس طابع التسجيلات التي تحتفظ بها هيئة الاذاعة البريطانية .

وكان لجون كيمشي الكلمة الأخيرة ، وذلك في خطاب مقتضب للغاية نشر في الرابع من اغسطس عام ١٩٦١ . فقد لخص وجهة نظره الخاصة على نحو يدعو الى الدهشة بكلمات مستعرية مرموقة حيث يقول :

« ان ما يهم هو ما قاله سير جون جلوب : ما الذى سيحدث للاجئين ماذا سيعمل لهم الآن ؟ » .

انه سؤال جيد . فقد كتبت من قبل انه لن يهم كيف أو لماذا رحل اللاجئون اذا كان قد سمح لهم بالعودة . وحتى كيمشي يعترف في خطابه بتاريخ الثالث والعشرين من يونيو بأن اسرائيل قامت بالفعل بطرد العديد من العرب بعد الحرب ، على الرغم من أنه لا يزال مترددا في الاعتراف بأنها قامت بطردهم قبل ذلك . انني اشك في أن ما لدينا هنا هو دليل بديهي على ضمير سيىء للغاية يتحول بشكل عصبى من ادعاءات غاضبة بوجود « جبال من الادلة » على أن أوامر صدرت للفلسطينيين العرب بالفرار الى استشهادات عاطفية بالسيرجون جلوب . والمرء مضطر للتصديق بأن ثمة نوعا من الرفض يثار هنا . فنحن نقرأ في تاريخ كيمشي الخاص عام ١٩٤٨ كيف انطلق موشي ديان وجنوده في الحادي عشر من يوليو عام ١٩٤٨ « بكل سرعة داخل مدينة اللد حيث اخذوا في اطلاق الرصاص وخلق حالة من الفوضى والذعر بين السكان .. وأدى ذلك الى ان سكان المدينة العرب البالغ عددهم ٣٠٫٠٠٠ اما فروا او سيقوا على الطريق الى رام الله . وفي اليوم التالى استسلمت الرملة أيضا ، وواجه سكانها العرب نفس المصير . وقام الاسرائيليون المنتصرون بنهب المدينتين » .

وليس بمقدور السيد كيمشي تجاهل تلك الحادثة والعديد من الحوادث المماثلة غير انه ليس باستطاعته ان يتحمل ارجاع فرار الفلسطينيين بشكل

جماعى الى هذا النوع من السلوك . ولذلك يصبح لزاما عليه (حتى وان كان مستحيلا على أساس الدليل) أن يتخيل وجود قيادة عربية عليا ، تصدر اوامرها بشكل غامض (ومتنوع للغاية) الى الفلسطينيين بأن يتركوا أملاكهم ويتجمعوا من جديد فى مكان آخر .

وبالرغم من أن حجة الأوامر « المذاعة » سخر منها ودحضت مرات عديدة ، الا أن تلك الحجة مستمرة فى الظهور فى المطبوعات . وقد يكون سبب ذلك انها ذكرت مرات عديدة لدرجة أنه ليس بالامكان التنصل منها دون حرج . كما قد يكون السبب ، شأن أكاذيب عديدة ، انه لكى نقول فان ذلك لا يستغرق وقتا ، فى حين انه لكى تفضح فان ذلك يستغرق وقتا كبيرا . وكما أشرت من قبل ، فان ارضاء بعض الحاجة النفسية قد يحتاج الى التنصل من المسئولية ومما لا شك فيه أنه توجد عناصر من الأسباب الثلاثة مجتمعة . ولا تزال الحقيقة قائمة ، والمتمثلة فى أنه حتى وقت متأخر وهو اكتوبر ١٩٨٦ ، استطاع ديفيد جيلمور ضبط احد خبراء الدعاية الاسرائيلية على صفحات مجلة « ميدل ايست انترناشونال » . فقد كتب هذا الخبير فى عام ١٩٨١ يقول أن اللجنة العربية العليا اصدرت أوامرها الى العرب فى حيفا بأن يرحلوا من المدينة . وأوضح جيلمور ان تقريرا سابقا لنفس المؤلف كان قد اتهم الجامعة العربية — وهو كيان مختلف ومميز للغاية — بأنها أصدرت الأوامر . وخبير الدعاية هذا يدعى جون كيمشى .

كما قام جيلمور بعرض كتاب يحمل اسم « ميدان القتال » تأليف صمويل كاتز ، أوصت جماعات الضغط الاسرائيلية لكافة اعضاء البرلمان البريطانى باعتباره « مرجعا قيما للغاية » ، وأنه يقدم فهما عميقا للغاية للموقف فى الشرق الاوسط . ويذكر كتاب كاتز بهدوء أن اللاجئين العرب لم يطردهم أحد من فلسطين . وأن الغالبية العظمى رحلت ، سواء بارادتها الحرة او بناء على أوامر أو حث على الرحيل صادر من قادتهم ؟ وحتى فى الوقت الذى كنت فيه أنهى هذا الفصل ، لاحظت اعلانا منشورا على صفحة كاملة بصحيفة « ذى نيو ريببلك » من قبل هيئة تطلق على نفسها اسم « كاميرا » ، وهو اختصار للجنة التدقيق فى نقل اخبار الشرق الاوسط : من هم ، ما هى القصة ؟ استهل الاعلان بقوله :

« فى عام ١٩٤٨ ، يوم اعلان قيام دولة اسرائيل ، قامت خمسة جيوش عربية بغزو الدولة الجديدة من كافة الجوانب . وفى نداءات اذاعية مخيفة ، حثوا العرب الذين يعيشون هناك على أن يرحلوا ، حتى يتسنى للجيوش الغازية ان تعمل بدون تدخل .... » .

وقـــد كتبت الى تلك اللجنة فى العشرين مـــن فبراير عـــام ١٩٨٧ ، اطلب منها تزويدى بصورة رســـمية من تلك النداءات ، ســـواء كانت مخيفة أو غير ذلك . غير أنـــه لم يصلنى حتى أول شهر اغسطس اى دليل .

وبالرغم من أن احدا لـــم يشهد ابدا بأنه قـــد سمعها ، وبالرغم مـــن انه لـــم يتم العثور على اى تسجيل لبثها ، فاننا سنظل نسمع عن تلك الاوامر والنداءات المذاعة مرات ومرات .

الحقيقـة التى تعيش بهـا الامـم

بقـلم : بيرتز كيدرون

لقد كان اول ظهور لى كمؤلف من الباطن بمحض الصدفة ففى عام ١٩٧٤ بعد وقت قصير من ممارسة الكتابة كمهنة — فى مجالى الصحافة والترجمة بصفة أساسية — قام صديق لى بتقديمى الى بن دنكلمان ، وهو يهودى كندى كان وقتئذ فى زيارة الى اسرائيل حيث كان يحاول الحصول على مساعدة فى كتابة مذكراته . وكان دنكلمان ، وهو الان رجل أعمال ثرى فى سن التقاعد ، قد صنع لنفسه فى صباه اسما كضابط فى القوة الكندية التى حاربت فى فرنسا ابان الحرب العالمية الثانية . وتطوع فيما بعد للخدمة فى الجيش الاسرائيلى ابان حرب عام ١٩٤٨ التى تصادف وقوعها مع اعلان استقلال اسرائيل ومن الواضح أن دنكلمان ، بحياته الحافلة خلفه كانت لديه قصة شيقة ليرويها ، وبالرغم من ادعائى عدم الخبرة كمؤلف ، فقد توليت عن طواعية تلك المهمة .

وفى خريف نفس العام ، توجهت للاقامة فى منزل دنكلمان الكائن على مشارف تورنتو ، حيث اقمت وعملت على مقربة كبيرة من « موضوعى » وكان ذلك ترتيبا مريحا للغاية . وحيث انه لم تكن لدى مادة مكتوبة اعتمد عليها فقد اعتمدت فى عملى على جلسات مطولة مع بن — اذ سرعان ما زالت الكلفه بيننا — حيث شرع يطوف بذكرياته حول الأحداث البارزة فى حياته . وكنت بعد ان الم بمغزى قصة أو حادثة معينة ، اعتكف فى الحال فى مكتبى حيث أقوم بتسجيلها كلما أمكننى ذلك ، محاولا بكل ما استطيع ان التزم الأمانة فى الاسلوب والمادة بما قد سمعته مؤخرا من فم الجواد . وعندما كنت اكمل مسودة فصل على النحو الذى يرضينى تقريبا ، كنت أعرضه على بن ليعلق عليه ويصححه ونظرا للمساعدة التى حصلت عليها نتيجة للفورية التى اتسم بها الموقف ، فانه لابد وأننى قد قمت بعمل مقبول تماما نظرا لشعور الرضا الذى اعرب عنه دنكلمان بوجه عام تجاه ما كتبته نقلا عنه . وكانت التعديلات التى أجراها طفيفة وفى معظمها ضئيلة . وبعد أن حظى الفصل بموافقة بن النهائية ، قام بتمريره الى زوجته الاسرائيلية المولد يائيل لكتابته على الآله الكاتبة . (وقد نشرت النسخة الخطية فيما بعد بشكل مختصر الى حد ما بواسطة دار نشر ماكميلان تحت عنوان « ولاء مزدوج » كما ترجمت الى اللغة العبرية وقامت باصدارها دار نشر شوكين).

وقد اثبت دنكلمان أنه راوية بارع ، وكنت مفتونا برواياته . ولكننى وجدت بطبيعة الحال اعظم التشويق فى رواياته حول حرب عام ١٩٤٨ لاننى كنت على دراية بهذا الموضوع من خلال قراءاتى الموسعة ومن الروايات الشخصية التى

وصلت الى اسماعى من الذين اشتركوا فى تلك الحرب . ونظرا لاننى استقريت فى اسرائيل بعد ثلاث سنوات فقط من الحرب ، فقد شعرت بأننى قريب من مكان منزلى . وعندما كان بن يروى هذا الجزء من ذكرياته ، كشف عن أمر مروع .

وتلخيصا لروايته : فانه عندما وصل الى اسرائيل فى وقت كان فيه الجيش الاسرائيلى يعانى من نقص شديد فى عدد الضباط ممن لديهم خبرة قتالية ، وجد دنكلمان نفسه بسرعة وقد عين فى منصب كبير نسبيا ، وهو منصب قائد لواء حيث عهد اليه بمهمة طرد القوات العراقية التى احتلت موقعا منيعا فى الجليل الأوسط والأعلى . وبعد بعض المناوشات الأولية قـــرر دنكلمان التقدم نحـــو الناصرة ، أكبر المدن العربية فى الجليل والتى تعد هدفا استراتيجيا رئيسيا . وعليه ، فقد قاد لواءه السابع ووحدات الامداد الخاصة به فى عملية كماشـــة على طول طريق خلفى خال من اية دفاعات صوب الناصرة وبعد مقاومة رمزية محدودة ، استسلمت المدينة . وقد سجل الاستسلام فى وثيقة رسمية تعهدت فيها الشخصيات البارزة فى المدينة بوقف الأعمال العدوانية فى حين تعهـــد الضباط الاسرائيليون بقيادة دنكلمان تعهدا جادا فى مقابل ذلك بعدم المساس بسكان المدينـــة .

وبالنسبة لما حدث بعد ذلك ، فانه من الأفضل تقديمه على نحو ماتم تسجيله على مدى ساعات الاستماع للرواية على لسان دنكلمان الذى قال :

« بعد يومين من وضع الهدنة الثانية موضع التنفيذ ، صدرت الأوامر الى اللواء السابع بالانسحاب من الناصرة . وقد ابلغنى افراهام يافى ، الذى كان قائدا للكتيبة الثالثة عشرة اثناء الهجوم على المدينة ، اوامر صادرة من موشيه كارمل بأن يتولى منى منصب حاكمها العسكرى . وانصعت للامر ، ولكن فقط بعد أن أعطانى افراهام كلمة شرف بانه لن يفعـــل اى شىء من شأنه الاضرار بالسكان العرب او طردهم وقد كان طلبى يبدو غريبا ولكن كان لدى سبب وجيه يجعلنى اشعر بالقلق حول هذا الموضوع .

وقبل ذلك بساعات قليلة فقط ، كان حاييم لاسكوف قد جائنى باوامر تبعث على الدهشة : فقد تقرر ترحيل سكان مدينة الناصرة . وكان وقع تلك الاوامر على نفسى وقع الصدمة واصابنى بحالة من الذعر فقلت له اننى لن افعل شيئا من هذا القبيل ـــ نظرا لما وعدنا به بتأمين سلامة سكان المدينة ، وان مثـــل هذا الاجراء لا داعى له كما انه ضار وذكرته أنه منذ اقل من يوم واحد ، وقعت انا وهو باعتبارنا ممثلين عن الجيش الاسرائيلى على وثيقة الاستسلام ، التى تعهدنا فيها تعهدا جديا بعدم القيام باى شىء من شأنه الاضرار بالمدينة او سكانها وعندما وجد حاييم اننى ارفض اطاعة الامر انصرف .

ولم يكد يمضى على ذلك اثنتا عشرة ساعة ، حتى جاءنى افراهام يافى ليبلغنى انه تقرر ان تحل كتيبته محل اللواء الذى اقوده ، وايقنت أن هذا الأمـــر

صدر بسبب موقف التحدى الذى اتخذته من أمر الترحيل . ولكن بالرغم من انه قد تم انسحابى من الناصرة ، فانه يبدو ان عصياتى ترك بعض الأثر . اذ يبدو أنه أتاح للقيادة العليا الوقت لاعادة النظر ، الأمر الذى ادى بهم الى استنتاج انه سيكون من الخطأ فى واقع الأمر طرد سكان مدينــة الناصرة . وحسب معلوماتى . لم تجر على وجه الاطلاق اى أحاديث اخرى عن خطة للترحيل ، وقد ظل سكان المدينة العرب يعيشون فيها منذ ذلك الحين .

وقد ضمنت هذا الجزء فى مسودة الفصل الذى يصف حملة الجليل التى قام بها اللواء السابع ، وسلمته الى بن لدراسته والتعليق عليه . وقــد أعاده الى فى اليوم التالى . واذكر أنه لم يقل شيئا ، ولكن عندما القيت نظرة على النص ، لفت نظرى الجزء السابق حيث فوجئت برؤية التعليق التالى مدونا بالقلم الرصاص فى الهامش : اريد بحث ما اذا كان ينبغى على تضمين هذا الجزء أم لا

وقد أصابتنى اعادة بن لنظره بخيبة أمل . وبحثت الأمر معه فى جلستنــا التالية ، محاولا اقناعه بأنه ينبغى تسجيل هذا الجزء كشهادة تاريخية هامة . ولم يبذل بن جهدا فى شرح دواعى تغييره لموقفه ، الأمر الذى يتناف مع ما يتصف به شخص يتحلى بقناعاته القوية — مما جعلنى اشك فى أن الفكرة لم تكن فكرته وان ياثيل مارست عليه نفوذها للغاية . ومهما يكن من أمر ، فاننى عندما وجدت ان رأيه كان يتجه فى الحقيقة نحــو عدم ضم هذا الجزء تخليت عن محاولتى ، وقلت لنفسى بعد ذلك ان تلك هى قصته ، وهو صاحب الحق فى ان يقرر مايقوله وما يحذفه . (وينبغى أن اذكر بالمناسبة ، أنه باستثناء حادث بذىء واحــد تورط فيه ببراءة ضابط كندى صديق ، فان تلك كانت الحالة الوحيدة التى اذكر أن بن قد أعاد النظر فيها حول رواية قام بسردها لتضمينها فى النسخة الخطية).

وفى الوقت الذى قمت فيه بتلبية رغبات دنكلمان فيما يتعلق بحذف الجــزء الخاص بالهجوم . وجدت نفسى فى حيرة شديدة . فقد كنت مقتنعا بأهمية نشر الحادث ، الذى تناول واحدة من اكثر المسائل حساسية وتفجرا فى الصراع

فلسوف يذكر أن حرب عام ١٩٤٨ قد انتزعت مئات الآلاف من العرب الفلسطينيين من ديارهم . وعندما انتهى القتال توقع اللاجئون الذين اقاموا بصفة مؤقتة فى مخيمات ، أن يسمح لهــم بالعودة الى ديارهم التى تقع الآن داخل الاراضى الاسرائيلية . غير أن السلطات الاسرائيلية رفضت بشــــدة السماح لهم بالعودة ، متصدية للضغط الدبلوماسى ومتجاهلة قرارات الأمم المتحدة الخاصة باعادة التوطين . وقد نوقشت بالتفصيل الدواعى الكامنة وراء هذه السياسة ، ولن اتناول هذا الجانب من المســــألة . ولكن من المهم أن السلطات الاسرائيلية دافعت عن رفضها بصفة جزئية بادعائها أن مشــــكلة اللاجئين هى مشكلة من صنع العرب انفسهم ، زاعمة أن السكان هجروا ديارهم

بناء على أوامر قادتهم الذين يقال انهم حثوهم على اخلاء الطـــريق للجيوش العربية كي تلقى اليهود في البحـــر • وقد أكد المتحدثون باسم اللاجئين ان القوات الاسرائيلية انتهجت سياسة تعمد الطرد على نطاق واسع مستخدمة في ذلك العنف والتهديد بقصد احداث هجرة جماعية بالقوة غير أن السلطات الاسرائيلية نفت بغضب وباستمرار تلك المزاعم • واصبح التفسير الاسرائيلي الذى عرض بحماس ومهارة شديدين هو المقبول ليس فقط داخل اسرائيل ولدى الرأى العام اليهودى في الشتات ، بل ايضا لدى الدوائر التى تزعم درايتها بالنزاع في الشرق الاوسط •

ومن هنا جاءت اهمية رواية دنكلمان • فاذا كانت روايته دقيقة ، بأنه تلقى أوامر واضحة من رؤسائه بطرد المدنيين العزل الذين كانوا قد استسلموا رسميا والقوا بأنفسهم تحت رحمة القوات الاسرائيلية • ان الفضل كله بطبيعة الحال يرجع الى دنكلمان في أنه ، التزاما بتعهده الجاد قاوم الأمر الصادر اليه ، وبفضله ظلت الناصرة مدينة عربية) • وحسب معلوماتي ، كانت تلك أول شـــهادة تتعلق بمثل هذا الأمر تأتي من شخص كان يشغل منصبا كبيرا في القيـــادة الاسرائيلية • وترجع أهمية الحادث الى أنه يتحدى النطاق المحلى المحض ، فمن المنطقى أنه كان قبل هذا الامر قد صدر فيما يتعلق بالناصرة ، فان توجيهات مماثلة ربما قد صدرت فيما يتعلق بمراكز سكانية عربية أخرى يدعى « فرار» سكانها •

وهذا هو السبب الذى جعلنى أرى أنه من الأهمية اعلان شهادة دنكلمان وأنه اذا كان قد أحجم عن ذلك ، فان الأمر متروك لي بالتأكيد •

وبالرغم من هـــذا الاقتناع فانني ، كنت مدركا على نحـــو مؤلم لعـــدة تحفظات فبالرغم من رتبة دنكلمان الكبيرة من ناحية ، فان روايته كانت تفتقر الى الأدلة المدعمة لها ، فهي تعتمد كلية على ذكرياتها الشخصية عن الاحداث التى وقعت منذ ربع قرن تقريبا • فهل تستطيع شـــهادته أن تصمد أمـــام الاحتجاجات الاجماعية من جانب القيادتين العسكرية والسياسية الاسرائيلية التى دأبت على نفى التصرف على النحو الذى أشار اليه دنكلمان في روايته ؟

كما كانت هناك موانع شخصية ومهنية • فبالرغم من أن علاقتي مع بن تكاد تكون علاقة طبيب أو محامى ، الا انني أؤتمنت على روايته حسبما تقضى ظروف المهنة : فهل من قبيل الاخلاق أن أفضح عن رواية طلب مني بوضوح عـــدم الافصـــاح عنها ، لقد كانت المشكلة تتعدى الشكليات المهنية • فقد كان بن يعاملنى طوال تلك الفترة باحترام وكرم عظيمين افلا يكون انتهاك ثقته نكرانا للجميل يتسم بالخسة ؟ وكان الاعتبار الآخر يتمثل في قلقى على مستقبلى فاذا ما اكتسبت سمعة الحماقة أو الطيش أخلن أجد نفسى متحاشيا من قبل العملاء المحتملين ؟

ولما كنت في حيرة بين الالتزام السياسي والأخلاقيات الشخصية والمهنية وكذلك المصلحة الشخصية ، فانني لم أتوصل الى حل لا لبس فيه • ومن ثم اتجهت الى البحث عن حل وسط حتى تكون الخيارات أمامي مفتوحة . وعندما انتهيت من عملي — الذي أمضيت فيه ستة أسابيع لاستكمال النسخة الخطية قمت بتنظيف مكتبي والتخلص من اكوام — الورق والمسودات والمذكرات شبه المكتملة . غير أنني أخذت الصفحة التي تتضمن الجزء الخاص بالناصرة — الذي صدق عليه بن بتعليقه الذي خطه بالقلم الرصاص ، وهو التعنيق الذي يؤكد ضمنيا صحته ، وحفظته بعناية ضمن حاجياتي الشخصية . وقد شعرت ببعض وخز الضمير بسبب سلوكي الاحتيالي تجاه بن ، على الرغم من أنني أستطيع القول ، نظرا للنكبة الأليمة التي حلت بمئات الآلاف من اللاجئين الذين شردوا قد يساعد نشر شهادته تضيتهم أنه كان هنلك ما يبرر سوء تصرفي الشخصي •

وعندما عدت الى اسرائيل في أواخر شهر ديسمبر عام ١٩٧٤ ، رجعت الى ممارسة أنشطتي الروتينية ، التي تضمنت المشاركة في أنشطة اليسار الراديكالي • وقد كانت تلك هي فترة الركود التي أعقبت حرب يوم كيبور (الغفران) وبالرغم من الآمال التي كانت تراود الكثيرين من أصدقائي في ان يؤدي الاضطراب الذي حدث في عام ١٩٧٣ الى فتح عيون اسرائيل والاتجاه نحو خيارات السلام التي ينادي بها اليسار — خصوصا فيما يتعلق بالتوصل الى تفاهم مع الفلسطينيين — فاننا شهدنا في الحقيقة تطورات ادت بعد عامين الى فوز الجناح اليميني الليكود برئاسة مناحم بيجين في الانتخابات • ولكن في عام ١٩٧٥ كانت السلطة ما زالت في ايدي مؤسسة العمل التي حكمت اسرائيل منذ البداية وبعد احتلال للضفة الغربية وقطاع غزة دام ما يقرب من عشر سنوات كان أسلوب التعامل الوحيد للسلطات الاسرائيلية مع الفلسطينيين هو أسلوب القمع المستمر •

وكان اليسار الاسرائيلي منقسما وفي حالة من الفوضى الشديدة وقد حضرت بصفة منتظمة العديد من الاجتماعات والمؤتمرات ، غير أنني لم اجد الجماعة التي أستطيع الاندماج معها بشكل فعال • ووجدت نفسي بشكل متزايد أقوم بدور المراقب ، على الرغم من اشتراكي بين الحين والآخر في المناقشات التي لا تنتهي حول الصواب والخطأ في الصراع العربي الإسرائيلي وعندما كان اليمينيون يطرحون مقولاتهم القديمة — التي كانت تتضمن الزعم الحتمي بأن مشكلة اللاجئين هي مشكلة خلقها العرب أنفسهم — كانت لدى ميزة القدرة على الاعتماد على معلوماتي الشخصية التي استقيتها من بن دنكلمان . ومع كل ، فكما هو معتاد في المواجهات الايديولوجية ، تؤثر الحقائق تأثيرا ضئيلا على الاعتقاد القوى الراسخ • وفيما يتعلق بنشر رواية دنكلمان كنت اشك في جدواها لعدم وجود منظمة سياسية تستطيع تبني القضية .

وخلال تلك الفترة ، كنت أعيش من مهنة الترجمة ــ باللغتين العبرية والانجليزية ، واكتسب مهارة متزايدة فى مجال يفوق فيه الطلب العرض وسرعان ما وجدت نفسى غارقا فى العمل . وكانت معظم الاعمال التى قمت بها ترجمات الى الانجليزية لكتب عبرية ذات اهتمام موضوعى وسياسى مثل « العملية سوزانا » حول شبكة تجسس اسرائيلية فى مصر ، وسيرة ديفيد بن جوريون تأليف مايكل بارزوهار واعمال اخرى . وكان احد تلك الكتب اول كتاب مذكرات لعزرا وايزمان ، الذى كتبه بمساعدة الصحفى رؤف جولد شتين . وقد كان عن طريق جولد شتين ان تم الاتصال بى بعد ذلك لترجمة مذكرات اسحق رابين (التى قام جولد شتين بتأليفها بالمثل) .

وفى أواخر عام ١٩٧٨ أو أوائل عام ١٩٧٩ ، كان لدى رابين ، الذى خسر منصب رئيس الوزراء مؤخرا ، وقتا كبيرا لتأليف كتابه . كما كانت لديه مادة وفيرة يستعين بها فى تلك المهمة . وكان رابين قائد لواء فى عام ١٩٤٨ ، وقد بلغت حياته العسكرية قمتها فى منتصف الستينات بتعيينه رئيسا للاركان حيث قاد القوات الاسرائيلية الى انتصارها المذهل فى عام ١٩٦٧ . وبعد ذلك عمل لبضع سنوات سفيرا لبلاده فى واشنطون . وبعد حرب عام ١٩٧٣ التى اساءت بشدة لسمعة الحرس القديم لحزب العمل ، تم استدعاؤه من الولايات المتحدة ، وسرعان ما وجد نفسه رئيسا للوزراء حتى سقوطه فى عام ١٩٧٧ .

وعندما بدأت العمل فى مخطوطة رابين ، لفت نظرى عقبة بسيطة وهى أن المادة التى سلمت الى لترجمتها لم تكن نهائية ، وانه بالرغم من أن الرقابة العسكرية سمحت بها ، الا أنها كانت تحتاج لمراجعة من قبل لجنة وزارية خاصة (طبقا للقانون الاسرائيلى ، تلزم مثل تلك الرقابة الاضافية بالنسبة للاشخاص الذين يشغلون مناصب عسكرية أو سياسية كبيرة) . وعلى ذلك صدرت الى تعليمات بالمضى فى الترجمة ، وأن اى تغيير أو حذف تأمر به اللجنة الوزارية سوف أبلغ به فى الوقت المناسب .

وكنت قد قطعت شوطا فى النسخة الخطية (التى وجدت انها طويلة وجافة على نحو متعب) عندما تلقيت مكالمة من جولد شتين ، أخبرنى فيها ان اللجنة الوزارية أعلنت حكمها أخيرا ، ومضى يملى على سلسلة من أرقام الصفحات والفقرات لتحديد المحذوفات .

وحال انتهاء المكالمة ، وقد سيطر على شعور بأننى تعرضت لخدعة كبيرة أسرعت الى فحص النسخة الخطية ، لمعرفة ما اعتبره الوزراء بحكمتهم غير مناسب للنشر بتوقيع رئيس وزراء سابق . وكانت قائمة مفيدة الى حد كبير فعلى الرغم منموافقة الرقيب العسكرى على النسخة ــ ما يشير الى انها لم تحتو على أى شىء ضار بالأمن القومى ــ اصرت اللجنة الوزارية على حذف فقرات

هامة . فمثلا ، امروا بحذف رواية رابين عن الهجوم الاسرائيلى على سفينة التجسس الامريكية « ليبرتى » خلال الساعات الاولى لحرب الايام الستة فى عام ١٩٦٧ على الرغم من أن رواية رابين تؤيد بشدة ادعاء اسرائيل بأن الهجوم كان محض خطأ ولم يكن له دافع خارجي . وبنفس الشدة ، قامت اللجنة الوزارية بحذف اية اشارة ، مهما كانت بعيدة ، لبرنامج التطوير النووى لاسرائيل ، وهو البرنامج الذى كانت لرابين علاقات متقطعة به فى مناصبه المتعاقبة كرئيس للاركان وكسفير ثم كرئيس للوزراء . (وهذا الغطاء من السرية يعد ذا أهمية اضافية فى الوقت الحاضر بالنظر الى التصريحات المثيرة التى أدلى بها موردخاى فانونو حول الترسانة النووية لاسرائيل) .

وعندما قمت بمراجعة قائمة المحذوفات ، توقفت عند واحدة جعلت نبض قلبى يدق بسرعة . فقد كان فى جزء من النسخة الخطية يصف حرب عام ١٩٤٨ ، حينما كان رابين يقود لواء هاريل . فبعد أن قام لواء هاريل بدور نشط فى القتال داخل القدس وحولها ، تم نقله الى الجبهة الوسطى حيث اشترك فى « عملية لارلار » (التى سميت بهذا الاسم طبقا للحروف الاولى لاهدافها وهى : مدن اللد والرملة واللطرون ورام الله العربية) . وقد أدى نجاح المرحلة الأولى للعملية الى قيام القوات الاسرائيلية باحتلال اللده (وهى الآن اللد) ورام الله . ووردت الاحداث التى تلت ذلك فى مخطوطة رابين (فى الترجمة الركيكة بعض الشىء التى قمت بها وقتئذ والتى لم تنفتح مطلقا) اذ قال :

« فى الوقت الذى كان فيه القتال مايزال مستمرا ، وكان علينا أن نواجه مشكلة متعبة وهى : مصير سكان اللد والرملة الذين يبلغ تعدادهم خمسين الف مواطن . ولم يكن حتى بن جوريون يستطيع تقديم اى حل لتلك المشكلة . وخلال المناقشات التى دارت فى مقر العمليات ، التزم بن جوريون الصمت ، كما كانت عادته فى مثل تلك المواقف . ومن الواضح ، أنه لم يكن فى استطاعتنا ان نترك خلفنا جماهير اللد المسلحة والمعادية لنا والتى كانت تتقدم نحو الشرق لتعريض طريق امداداتنا الى يفتاح للخطر .

ومشينا الى الخارج ، يرافقنا بن جوريون . وكرر آلون سؤاله وهو . « ما الذى سنفعله مع السكان ؟ » فلوح بن جوريون بيده فى حركة تعنى طردهم ! وقد تشاورت مع آلون فى المسألة . ووافقت على أنه من الضرورى طرد السكان واقتدناهم سيرا على الاقدام نحو طريق بيت هورون ، على افتراض أن الفيلق سوف يضطر لرعايتهم ، وبذلك يتحمل مصاعب التموين والاعداد التى تشكل عبئا على قدراته القتالية ، مما يجعل الامور أيسر بالنسبة لنا .

ان كلمة طرد لها وقع فظ . ومن الناحية النفسية كانت تلك واحدة من أكثر الاعمال التى قمنا بها صعوبة . ذلك أن سكان اللد (اللده) لم يغادروها بمحض ارادتهم . ولم يكن ثمة سبيل لتجنب استخدام القوة والطلقات التحذيرية حتى

نجعل المواطنين يسيرون مسافة عشرة الى خمسة عشر ميـلا الى النقطة التى يلتقون عندها بالفيلق .

وقد راقب سكان الرملة الوضع ، واستوعبوا الدرس ، وقبل زعماؤهم ان يتم ترحيلهم عن طواعية ، شريطة ان يتم الترحيل بواسطة عربات واقلتهم حافلات الى اللطرون حيث قام الفيلق بترحيلهم منها . وعلى الأشخاص الذين اشتركوا فى عملية الطرد معاناة شديدة . فقد كان من بين جنود لواء يفتـــاح خريجو الحركات الشبابية ، الذين تم تلقيتهم فيها مثل الاخاء الدولى والانسانية وتعـدت عملية الطرد المفاهيم التى كانوا قد اعتـادوا عليها . وقد رفض الزملاء الاشتراك فى عملية الطرد . وكانمن اللازم القيام بانشطة دعائيـــة طويلة الامد بعـد العملية ، لازالة المرارة التى عانت منها جماعات الحـــركة الشبابية تلك وشرح السبب الذى من أجله اضطررنا الى اتخاذ مثل هـــذا الاجراء الفظ والقاسى .

واليوم ، وبنظرة الى الوراء ، اعتقد أن الاجراء كان ضروريا . فابعـــاد هؤلاء العرب الخمسين ألفا كان مساهمة فى أمن اسرائيل ، فى واحدة من اكثر المناطق الحساسة التى تربط السهل الساحلى بالقدس . وبعـــد حـرب الاستقلال ، سمح لبعض السكان بالعودة الى ديارهم .

ان هذه الرواية اعادت الى الذهن بطبيعـة الحـال رواية بن دنكلمان فيما يتعلق بالامر الذى صدر باخـلاء الناصرة من سكانهـا . وبمراجعـة ملفاتى ، وجدت الصفحة الثمينة التى كنت قـد احضرتها من تورنتو ، وقمت على الفور بمقارنة النصـين . وكانت نقاط التشابه مثـيرة . فالحادثان وقعا خلال أيـام قليلة تفصل بين الواحد والآخـر . وفى كلتـا الحالتين ، احتلت القـوات الاسرائيلية المتقـدمة مراكز سكانية عربيـة كبيرة . وفى كلتـا الحالتين ، صدرت أوامر لطرد المواطنـين بالقوة . وفى كلتـا الحالتين ، صدر الامر بصفة شخصية دون الاحتفاظ باى سـجل مكتـوب .ويؤيـد سـلوك بن جوريون كما أوضحه رابين — وهـو الحركة الصامتة باليـد — رواية دنكلمان الشفهية (التى لم اذكرها فى المسودة ، ولكنى اتذكرهـا بوضـوح) بانه عندما طلب تفويضامكتوبا من بن جـوريون فان أمر الطرد لم ينفـــذ . وباختصـــار ، فقد اثبت الوصفان ، خصوصـا عند الجمع بينهما ، بما لا يدع أى مجـال للشك انه كانت هناك توجيهات على مستوى عال بالقيام بعمليات طرد جماعية للسكان العرب وأن صانعى القرار ، الذين كانوا يدركون الطبيعة المشينة وغير القانونية لمثل تلك السياسة ، كانوا حريصـــين على عدم تـرك أى دليل يدينهم عن مسئوليتهم الشخصية والسياسية . وقـد وجـدت نفسى

الآن املك دليلين أصليين وموثوق فيهما بدون شـك حـول أصول مأسـاة اللاجئين الفلسطينيين . وتبددت تماما شكوكي حـول رواية دنكلمان التي لم تكن مدعمة بالدليل بعد أن اطلعت على رواية رابين .

لقد تبددت شكوكي ، ولكن حيرتي لم تنته . بل على العكس ، فـان محاولاتي الصعبة لنشر رواية دنكلمان اصبحت الآن مقيـدة بادراكي بأن شهادة رابين تتعـرض لمنع النشر من جانب لجنة وزارية قانونية . فلو انني قمت بنشر الجزء المحذوف ، لتعرضت لخطر مقاضاتي لانتهاكي الصارخ للرقابة . ومع ذلك ، فانني حين كنت احاول ايجاد حل للمشكلة ، اخذت الاحتياط بتصـوير نسخة من الجزء ذي العلاقة في مخطوطة رابين . وعندما انتهيت من الترجمة واعدت الاصـل العبري ، قمت بحفظ النسخة المصورة التي أعددتها .

وحيث أنني لم احتفظ بسجل زمني للاحداث وقتئذ ، فانني لا اتذكر على وجه الدقة طول الفترة التي عانيت خلالها بسبب حيرتي ، ولكن تلك الفـترة ربما امتدت شـهورا وليس اسابيع . وفي نهاية الامر ، وبعـد أن أنتهيت في شهر سبتمبر او شهر اكتوبر عام ١٩٧٩ ، الى ان أي سبيل آخـر سـوف يكون بمثابة جبن وضيع وتهرب من مسئوليتي الشـخصية والسـياسية ، قررت أن أنشر واتحمل اللعنـة . وقمت ، وجسـدي يرتجف بعض الشيء ، بالاتصال بمراسل صحيفة « نيويورك تايمز » في القدس ديفيـد شـيلر . عندما التقينا ، اعطيته نسـخا من الجزأين الممنوع نشرهما ، وقدمت تقريرا كاملا وأمينـا حـول كيفيـة حيازتي لهما . ولمـا كنت قد تنبـأت بأن رواية رابين سـوف تكون اكثر الروايتين اثارة — وانها ستؤدي تبعـا لذلك الى محاولات يقوم بها المسئولون الاسرائيليون لنفيها بدعوى أنها لا أسـاس لها من الصحة فوضت شيلر بأن يستخدم اسمي فيما يتعلق بكشـف الامر . ولما كان من المعروف أنني المترجم ، فان اسمي سوف يكون موضع ثقة ، وبذلك قد يحول دون نشـوب خلاف لا أساس له حول تلك النقطة ، ويمهد الطريق لمناقشة أمينة لجوهر الرواية .

وبعد أن القيت زهر الطاولة ، جلست انتظر النتائج . غير ان الأيام مرت ولم يحدث شيء . وشـعرت بمزيج من الفشل وبداية النهاية . اذ من الواضح أنني بالغت في الطابع المتفجـر لمـادة الرواية . فاذا كان شيلر أو محـرروه قد وجدوا أن المـادة ليست جديرة بالنشر ، فان محاولتي المضنية للبحث عن الحقيقـة قد صدمتني باعتبارها جهـدا فاشلا فيما لا علاقة له بالامر . ولما كان أملي قد خاب بعـد أن تحولت تذيفتي الى فرقعة مثبطة للهمة ، وحيث كان لدي فسحة من الوقت ، فقد غادرت البلاد في زيارة لانجلترا .

وكنت اقيم في بيت داخلي في لندن على مدى عدة اسابيع تالية ، عندما تلقيت مكالمة هاتفية يغلب عليها الانفعال من اسرائيل جاء فيها أن « الخشـة

اصابت المروحة » . وقد فعلتها بالفعل . وكانت صحيفة « النيويورك تايمز » فى عددها الصادر فى ٢٣ أكتوبر عام ١٩٧٩ قد نشرت الرواية (اسرائيل تمنع رابين من رواية طرد العرب عام ١٩٤٨) . والتى اعيد طبعها على وجه السرعة تحت عناوين رئيسية فى الصحف الاسرائيلية (بمقتضى القانون الاسرائيلى ، فان اجهزة الاعلام المحلية لديها حرية النشر لأية مادة تم نشرها فى الخارج ، حتى ولو كان قد سبق أن منع موظفو الرقابة الاسرائيلية نشرها) .

وكما علمت فيما بعد ، فان نشر تلك المعلومات أثار حالة هياج كبير فى اسرائيل ، حيث قامت أجهزة الاعلام بالتعليق عليها على نطاق واسع وصدرتبعض حالات نفى ضعيف من قبل شخصيات فى المؤسسة الحاكمة . (فقد كذب ايجال الون ، الذى استشهد به رابين على انه كان موجودا عندما أعطى بن جوريون امر الطرد ــ كذب صراحة رواية رابين) . وكما هو أمر طبيعى فى مثل تلك الظروف ، تردد اسمى على نحو سيىء مقرونا بالحماقة والطيش واعترف رابين بانه اهمل « أمن الميدان » عندما عهد بروايته الى شخص له مثل أفكارى .

ومع كل ، فكما هو مألوف فى مثل تلك الحالات ، سرعان ما انتهت الاثارة ، وبدات موضوعات اخرى تحتل العناوين الرئيسية للصحف . ونظرا لأن صحيفة « النيويورك تايمز » كانت قد ركزت بصفة خاصة على روايات رابين حــــول (اللده) والرملة ، دون ذكر لرواية دنكلمان بشأن المحاولة الفاشلة لاخـــلاء الناصرة من سكانها ، فقد قدمت تلك القصة فيما بعد الى صحيفة « هاعولام هازية » الاسبوعية الاسرائيلية ، التى قامت بنشرها فى يوليو عام ١٩٨٠ . وفى نفس الوقت ، قمت بالأتصال بتوفيق زياد عضو الكنيست الشيوعى وعمدة الناصرة . وقد طلبت من زياد أن ينتهز موضوع النشر المرتقب للرواية لتقـــديم استفسار فى الكنيست وطلب تفسير رسمى للأمر الصادر يجعل مدينته « لجــام فرس عربى » . غير انه للمرة الثانية لم يحظ الامر باكثر من اهتمام علم عابر .

وتعتبر هذهالرواية غير كاملة اذا لم تذكر التطورات اللاحقة التى تعكس قدرا كبيرا من المفارقة . فالى حد ما ، كان لكشف الأمر بعض التأثير الدائم . فمنذ نشر الرواية فى « النيويورك تايمز » ، والدعاية الاسرائيلية تتخلى الى حد كبير عن الادعاء بأن الهجــرة الجماعيـــة للفلسطينيين فى عام ١٩٤٨ كانت نابعة من ذاتهم . وتقر الدوائر الرسمية ضمنيا بأن السكان العرب فروا نتيجة للتصرفات الاسرائيلية ــ سواء كانت مباشرة كما هو الحال بالنسبة للد والرملة أو غير مباشرة ، بسبب حالة الذعر والتصرفات المماثلة (مثل مذبحة دير ياسين) التى حدثت فى المراكز السكانية للعرب فى جميع أنحاء فلسطين . ومع كل ، فبالرغم من أن السجل التاريخى قد صحح على نحو تشـــوبه الضغينة ، فان المؤسسة الاسرائيلية مازالت ترفض قبول مسئوليتها المعنوية أو السياسية عن مشكلة اللاجئين التى خلقتها هى أو المؤسسات السابقة على نحو فعال .

وكان التأثير السياسى الاوسع مخيبـــا للامال بنفس الدرجة . فقـــد كان يحدونى الأمل فى أن التعرف على الحقائق سوف يجعل الرأى العام الاسرائيلى يعيد النظر فى موقفه تجاه الفلسطينيين ـــ وخاصة لاجئى عام ١٩٤٨ ـــ وأن يتبنى باعترافه بادانة اسرائيل فى تلك المأساة وجهة نظر أكثر وعيـــا تجاه الاحقـــاد والدعاوى الفلسطينية . ولكن خابت بالفعل تلك الآمال التى كانت أبعد ما تكون عن الحقيقة . ويصعب سواء فى مناقشة عامة أو محادثة خاصة ، تبين الشعور بالندم حول معاملة اسرائيل للفلسطينيين فى عام ١٩٤٨ . بل على العكس من ذلك ، فان اليمينيين كثيرا ما يميلون الى نوع من الاخلاقيات العكسية فمع التسليم بأن اسرائيل هى التى دبرت الهجرة الجماعية للفلسطينيين عام ١٩٤٨ ، فانهم تبعـــا لذلك يشيرون ضمنا ـــ أو يعلنون صراحة الى انه لا يمكن أن تكون هناك قيود معنوية على طرد الكثيرين من السكان العرب أو جميعهم المتبقين فى اسرائيل أو فى الأراضى المحتلـــة .

وكما بدت أمالى السياسية متفائلة على نحو يتسم بالسذاجة ، فقد اصبحت توقعاتى الشخصية متشائمة بدون داع . وقد قمت ، قبل عودتى الى اسرائيل من لندن فى عام ١٩٨٠ ، بالاتصال بمحام معروف يدعى أفنون زفرونى ، طالبـــا مشورته فى منهجى فى الدفاع اذا اتهمت بانتهاك قانون الرقـــابة (فيما يتعلق بمخطوطة رابين) . ولدهشتى ، فان زفرونى رد قائلا انه ليس هناك ما يدعونى للخوف ، حيث أننى لم انتهك القانون ! فالمادة التى قمت بنشرها كانت الرقابة العسكرية قد سمحت بنشرها ، وهى المانع القانونى الوحيد الذى كنت أتعرض له : أما الحذف الذى قامت به اللجنة الوزارية فهو ملزم رابين وحده . وباعتبارى مواطنا عاديا ، فاننى لا أخضع لحكم اللجنة ، ومن ثم لا يمكن مقاضاتى .

وفى حين أن تأكيدات زفرونى أدخلت فى نفسى شعورا بالارتياح فقد ظللت قلقا على مستقبلى المهنى . حيث أصبح معروفا بوجه عام أننى قمت بتسريب معلومات سرية حصلت عليها أثناء عملى ، ومن ثم توقعت أن يتحاشى العملاء المحتملون بسبب تجاهلى للاخلاقيات . فكيف سأعيش ؟ .

ولكننى لم أضع فى اعتبارى أن تسريب المعلومات الى أجهزة الاعلام يعتبر أحد الملامح الأساسية للحياة العامة فى اسرائيل . فالوزراء يتنافسون مـــع الجنرالات وكبار المسئولين فى الكشف عن المعلومات ذات الطابع البالغ السرية . كلما كان ذلك يتناسب مع أغراضهم الشخصية أو السياسية . اذ أن تسريب المعلومات عملية سياسية يومية تتم فى اطار قيود قليلة . وعلى عكس تنبؤاتى الكئيبة ، فاننى لم التق بأحد أبدى استياءه منى بسبب انتهاكى للثقـــة . وبطبيعة الحال ، ليست لدى الوسيلة لمعرفة ما اذا كان الطيش السياسى الذى اقترنت به سمعتى كان حائلا دون قيام بعض العملاء المحتملين باستخدامى . ولكن حسب معلوماتى فاننى لم أصب بأى ضرر مادى . فأنا مازلت أعمل فى مهنتى كما انه

اننى مكلف بالقيام بترجمة اعمال من كافة الانواع ، بما فى ذلك كتب لشخصيات بارزة فى المؤسسة السياســية أو الصحفية ، دون استثناء البعض من أقصى اليمين ! وباختصار ، فان المسألة كلها كانت ابعد ما تكون عن كونها انهيــارا ارضيا أو نذير شــؤم ــ ســواء من ناحيــة الاثر الســياسى أو الشخصى ــ مما تنبأت بــه .

وعلى ذلك ، فان نصيحتى الشخصية لاى شخص لديه معلومات سرية يرى ان ضميره يحتم عليه أن يضعها فى الاطار العام ، أن أفضــل تعبير عنها يتمثل فى السطر الخالد الذى جاء على لسان الراحل زيرو موستيل فى كتابه « المنتجون » حيث قا ل: عندما يشاهد فتاة شقراء ترتدى ملابس باهظة الثمن تخرج من سيارة ليموزين فاخرة ، فانه يخرج رأسه من النافذة ويصيح بعــلو صوته : هذا عين الصواب يافتاة ــ مادمت حصلت عليها ، تباهى بها .

ولكن لتجنب الآمال المفرطة فى ان مثل ذلك الكشف سوف يغير مجــرى تاريخ العالم ، فانه من الحكمة تذكر ما كتبــــه ثورو : « ان قول الحقيقة يلزمه شخصان ــ شخص يتكلم والاخر يسمع » .

ارهاب الشرق الأوسط والنظام الايديولوجي الامريكى
بقلم : نوام كومسكى

فى السابع عشر من اكتوبر عام ١٩٨٥ ، اجتمع الرئيس ريجان فى واشنطون بشيمون بيريز رئيس وزراء اسرائيل الذى أبلغه أن اسرائيل مستعدة لاتخـــاذ خطوات جريئة فى الشرق الأوسط ومد « يد السلام » الى الأردن . « وتأتى زيارة السيد بيريز فى وقت انسجام أمريكى — اسرائيلى غير عادى » هذا ما قاله ديفيد شيلر فى صحيفة « النيويورك تايمز » نقلا عن مسئول بوزارة الخارجية وصف العلاقات بين الولايات المتحدة واسرائيل بأنها وثيقـــة وقوية بشكل غير عادى . وفى الواقع ، فان بيريز لقى ترحيبا حارا من جانب وسائل الاعلام الامريكية باعتباره رجل سلام ، كما امتدح لالتزامه الصريح بتحمل ثمن السلام أفضل من تحمل ثمن الحرب كما قال فى تصريحاته . وقد صرح الرئيس الامريكى بأنه ناقش مع السيد بيريز نكبة الارهاب اللعين التى أسفرت عن ســقوط عــدد كبير من الضــحايا الاسرائيليين والامريكيين والعرب ، وعن خلق مأساة لكثيرين آخرين ، مضيفا أننا اتفقنا على أن الارهاب يجب ألا يعوق جهودنا لتحقيق السلام فى الشرق الأوسط(١) .

ان الأمر يتطلب مواهب رجل مثل جوناثان سويفت للحكم بانصاف على هذا اللقاء بين اثنين من كبار قادة الارهاب فى العالم ، اللذين يستبعد مفهومهما المشترك «للسلام» كنية احدى المجموعتين التى تطالب بحق تقرير المصير الوطنى فى فلسطين السابقة : السكان الاصليون ان سياسة ارفض التى يتبعها ريجان وبيريز بلغت من التطرف حدا يجعل من غير المسموح به للفلسطينيين اختيار ممثليهم فى مفاوضات نهائية — كما تنكر عليهما اجراء انتخابات بلدية أو أية أشكال ديمقراطية أخرى تحت الاحتلال الاسرائيلى . وان فكرة منحهم حقوقا مماثلة لحقوق المستوطنين الذين قاموا بطردهم مستبعدة بداهة ، مع التأييد الكامل لهذا الموقف من جانب رأى عام واضح فى الولايات المتحدة . ولقد اعلن شيمون بيريز رجل السلام ، أثناء جولة له بين المستوطنات الاسرائيلية فى علم ١٩٨٥ أن وادى الاردن هو جزء لا يتجزأ من دولة اسرائيل ، متمشيا مع موقفه الصلب بأن الماضى ثابت لا يتغير وان الانجيل هو الوثيقة ، الحاسمة فى تحديد مصير ارضنا ، وأن قيام دولة فلسطينية من شأنه تهديد وجود اسرائيل ذاته . ان مفهومه للدولة اليهودية الذى امتدح كثيرا فى الولايات المتحدة لاعتداله ،لا يهدد وجود الشعب الفلسطينى بل هو يبيده . غير أن تلك النتيجة تعتبر قليلة الاهمية ، فهى على اسوا افتراض تشكل خللا بسيطا فى عالم لا يتصف بالكمال .

ولم يتحرك بيريز ولا أى زعيم اسرائيلى آخر ، خطوة واحدة عن الموقف الذى أعلنه حاييم هرتزوج رئيس الدولة الحــالى فى عـــام ١٩٧٢ من ان

الفلسطينيين لا يمكن على وجه الاطلاق أن يكونوا شركاء بأى حال فى أرض ظلت مقدسة لشعبنا على مدى آلاف السنين ، على الرغم من أن « الحمائم » يفضلون استبعاد مناطق الضفة الغربية المزدحمة بالسكان العرب عن الدولة اليهودية لتجنب ما يسمونه بعبارة لطيفة « بالمشكلة الديمغرافية » . ويرى شلومو جازيت المدير السابق للمخابرات الاسرائيلية والذى كان مسئولا كبيرا فى الادارة العسكرية خلال الفترة من عام ١٩٦٧ الى عام ١٩٧٣ ، أن مبدأها الاساسى يتمثل فى ضرورة منع سكان الأراضى) المحتلة (من المشـاركة فى صياغة المستقبل السياسى للمنطقة ، وأنه ينبغى عدم رؤيتهم كشريك يتعامل مع اسرائيل ، ومن ثم كان المنع المطلق لأى تنظيم سياسى ، اذ انه كان مفهوما بوضوح لدى كل شخص انه اذا سمح بنشاط وتنظيم سياسى ، فان زعمـاءه سوف يصبحون شركاء محتملين فى الشئون السياسية وتتطلب تلك الاعتبارات القضاء على كل مبادرة وكل جهد من جانب سكان الاراضى من شأنه أن يؤدى الى اجراء مفاوضات وأن يشكل طريقا أمام الزعامة العربية الفلسطينية خارج الأراضى . واختتم جازيت حديثه بقوله ان السياسة الاسرائيلية هى » قصة نجاح « . لأن تلك الأهداف ، التى لا تزال قائمة حتى اليوم ، قد تحققت . فموقف اسرائيل ، مع تأييد الولايات المتحدة لا يزال نفس موقف رئيس الوزراء (وزير الدفاع حاليا) اسحق رابين عندما عرضت منظمة التحرير الفلسطينية والبلدان العربية اقتراحا على الامم المتحدة يقوم على أساس وجود دولتين ، فى شهر يناير عام ١٩٧٦ وهو : ان اسرائيل ترفض أية مفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية حتى وان اعترفت باسرائيل وتخلت عن الارهاب ، وأنها لن تدخل فى مفاوضات سياسية مع الفلسطينيين ، سواء مع منظمة التحـرير الفلسطينية أو مع غيرها . ولم يبـد بيريـز ولا ريجـان استعدادهما للنظـر فى المقترحـات الواضحـة التى طرحتهـا منظمـة التحرير الفلسطينية — التى يعـرف كلاهمـا انهـا تتمتـع بتأييـد سـاحق بين الفلسطينيين كمـا أن لهـا نفس القـدر من الشرعيـة مثلما كان للمنظمة الصهيونية فى عام ١٩٤٧ — لاجراء مفاوضات تؤدى الى الاعتراف المتبادل فى اطار تسوية تقوم على أساس وجود دولتين طبقا للاجماع الدولى الواسع الذى وقفت الولايات المتحدة واسرائيل فى طريقه سنوات عديدة .

ان تلك الحقائق السياسية الحاسمة تشكل الاطار اللازم لاية مناقشـة « لنكبة الارهاب اللعين » التى تشير فى المصطلحات العنصرية المستخدمة فى الحوار الأمريكى الى الأعمال الارهابية التى يقوم بها العرب وليس اليهـود ، حيث ان « السـلام » يعنى التوصل الى تسـوية تحترم حـق تقـرير المصير القومى لليهود وليس للفلسطينيين .

وقد وصل بيريز الى واشنطن ، كى يتحدث عن السلام والارهاب مع شريكه فى الجريمة فى أعقاب ارسال قاذفاته لمهاجمة تونس حيث قتل عشرون

تونسيا وخمسة وخمسون فلسطينيا طبقــا للانبــاء التى بعث بها الصحفى الاسرائيلى امنون كابليوك من مسرح الاحداث . ولم يكن الهدف الذى هاجمته القاذفات حصينا ، بل كان عبارة عن منتجع به عدة عشرات من المنـــازل ، وأكواخ لتمضية الاجازات ، ومكاتب تابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية ، وهى تتاخم بعضها البعض وتتداخل على نحو يصعب معه حتى عن قرب تمييزها . وكانت الأسلحة التى استخدمت أكثر تقدما من تلك التى تستخدم فى بيروت وهى « قنابل سمارت » فيما يبدو ، التى أحالت أهدافها الى كومة من التراب ان الأشخاص الذين كانوا داخل المنازل التى قصفتها القاذفات قد تشوهوا على نحو يصعب معه التعرف عليهم . وقد اطلعونى على مجموعة من صور القتلى وقيل لى « تستطيع الاحتفاظ بها » . وقد تركت الصور فى المكتب. ان ايــة صحيفة فى العالم لا يمكنها نشر صور رعب مثل تلك الصور وقيل لى أن صبيا تونسيا كان يبيع الشطائر بالقرب من مقر المنظمة تحول الى أشلاء وأن والده تعرف عليه عن طريق ندبة على كاحله . وقد قال لى مرشــدى ان « بعض الجرحى انتشلوا من تحت الانقاض وهم أصحاء وغير مصابين على ما يبدو . وأنهم بعد نصف ساعة انهاروا وهم يلتوون ثم توفوا . فقد دمرت على ما يبدو اجهزتهم الداخلية من شدة الانفجار » .

وكانت تونس قد قبلت اقامة الفلسطينيين فى اراضيها بنــاء على طلب ريجان بعد أن تم طردهم من بيروت على اثر عملية غـــزو ساندتها الولايات المتحدة وأسفرت عن مقتل عشرين ألفا وتدمير مناطق كثيرة فى لبنان . وصرحت شخصية كبيرة فى البنتاجون وهو جنرال على دراية بجيش الدفاع الاسرائيلى وعدة جيوش أخرى فى المنطقة ، صرحت لزئيف شيف ، وهو مراسل عسكرى بأنكم قد استخدمتم مطرقة لقتل دبابة . فقد أصبتم العديد من المدنيين بدون داع . وكنا فى دهشة لموقفكم من المدنيين اللبنانيين ، وهو شعور شارك فيه جنود وعدد من كبار الضباط الاسرائيليين الذين اســـــتولى عليهم الرعب لوحشية الهجـــوم ولمعاملة المدنيين والأسرى - على الرغم من أن التأييد فى اسرائيل للعدوان ولفريق بيجين - شارون زاد بشكل متوازى مع الاعمـــال الوحشية ، وبلغ ذروته بعد قصف بيروت فى شهر أغسطس . وقد التـــزم شيمون بيريز ، رجل الســـلام والشخصية المحترمة فى الدولية الاشتراكية ، التزم الصمت حتى بدأت التكاليف التى تتحملها اسرائيل تتزايد بعد الحرب مع مذابح صبرا وشاتيلا والخسائر التى كبدتها المقاومة اللبنانية ، مما أدى الى تقويض خطة اسرائيل لاقامة نظام جديد فى لبنان تسيطر فيه اسرائيل على مناطق كبيرة فى الجنوب ، فى حين يتولى حلفاء اسرائيل والكتائب وصفوة منتقاة من المسلحين حكم المناطق المتبقية .

ويقول كابليوك انه مما لا شك فيه أن عرفات كان هدف الهجـــوم على تونس . وفى مكتب منظمة التحرير الفلسطينية الذى أخذ اليه ، توجد صورة

لعرفات وهو يقف وسط الحطام وكتبت اسفل الصـورة عبارة تقول « انهم يريدون قتلي بدلا من التفاوض معي » • وقد أبلغ كابليوك أن منظمة التحرير الفلسطينية ترغب في التفاوض ، لكن اسرائيل ترفض أي نقاش ـ وهي حقيقة بسيطة تقوم أجهزة الاعلام الأمريكية باخفائها بشكل فعال ، أو ما هو أسـوأ ترفضها باعتبارها ليست ذات علامة ، الأمر الذي يعكس فرضيات عنصرية •

كما انه ما من شك في وجود تواطؤ امريكي في الهجوم الاسرائيلي على تونس • اذ لم تقم الولايات المتحدة حتى بتحذير الضحايا ـ وهم حلفاء أقوياء لأمريكا ـ بأن القتلة في الطريق • وان من يصـدق الادعاء الامريكي بأن الاسطول السادس ونظام المراقبة الأمريكي الواسع النطاق في المنطقة لم يتمكن من كشف الطائرات الاسرائيلية وهي تتزود بالوقود واثناء تحليقها فوق البحر الابيض المتوسط ينبغي أن يطالب باجراء تحقيق في الكونجرس لعدم الكفاءة الكاملة للعسكرية الأمريكية ، الأمر الذي يجعلنا وحلفاءنا معرضين بالتأكيد لاي هجوم يشنه العدو علينا •

« ان التقارير الصحفية تنقل الآن عن مصادر حكومية قولها ان الاسطول السادس الأمريكي كان بدون شك على علم بالهجوم المتوقع . ولكنه قرر عدم ابلاغ المسئولين التونسيين » ، هذا ما قالته صحيفة « لوس أنجيلوس تايمز » مستشهدة ببرقيات لاسلكية. غير ان ذلك البيان الهام للغاية لم يرد في الصحيفتين الكبيرتين في الساحل الشرقي الامريكي وهما صحيفتا « النيويورك تايمز » و « الواشنطون بوست » ، ولم يرد ايضا في الصحف الامريكية الاخرى كما لم يرد في الخدمة الخارجية فيما وراء البحار لوكالة الاسوشيتدبرس ووكالـة اليونيتدبرس ، وهو ما ذكره جود نرى جانس مراسل صحيفة « الايكونومست» اللندنية في الشرق الأوسط مضيفا ان تواطؤ الولايات المتحدة السلبي كان مؤكدا تماما (٧) .

وكان من بين ضحايا قصف تونس محمود المغربي ، وهو من مواليـد القدس عام ١٩٦٠ ، وكان قد اعتقل اثنتى عشرة مرة قبل ان يبلغ عمره ستة عشر عاما كما كان احد المخبرين الصحفيين لصحيفة « الصنداى تايمز » اللندنية في موضوع فضح أعمال التعذيب التي تجرى في اسرائيل (١٩ يونيو عام ١٩٧٧). وقد استطاع أن يهرب الى الأردن بعد ان أمضى سنوات من العيش على هامش الحياة في ظل ظروف متدهورة بشكل مستمر تحت الاحتلال العسكرى ، وذلك طبقا لما جاء في مذكرات اصدقاء يهود اسرائيليين رفضت الرقابـة العسكرية الاسرائيلية مرارا نشرها في الصحف العربية التي تصدر في القدس الشرقية . ان تلك الحقائق بطبيعة الحال لا تعنى شيئا في الولايات المتحدة ، اذا كان سبب ذلك وحده استبعادا ـ الى حد كبير ـ للدراسة التي اعدتها صحيفة «الصنداى تايمز » كعمل صحفي ، بالرغم من ان الأمر ذكر في صحيفة « النيوريبلك »

الليبرالية ، جنبا الى جنب مع دفاع واضح عن تعذيب العرب لم يثر اى رد فعل من جانب الجمهور .

وقد رحبت الولايات المتحدة رسميا بالقصف الاسرائيلى لتونس كرد فعل شرعى للهجمات الارهابية . وأكد جورج شولتز وزير الخارجية الامريكية هذا الموقف لاسحق شامير وزير الخارجية الاسرائيلية من خلال مكالمة هاتفيـــة ، أبلغه فيها أن الرئيس الأمريكى وآخرين قـد تعاطفوا تعاطف كبيرا مع العمل الذى قامت به اسرائيل ، وهو ما ذكـرته الصحف . وتراجعت الولايـات المتحدة عن مثل هذا التأييد العلنى ، بعد حدوث رد فعل عكسى على المستوى العالمى غير أنها امتنعت وحدها كالمعتاد عن ادانة هذا العمل العدوانى المسلح فى الأمم المتحدة ، والذى يعد انتهاكا صارخا لميثاق المنظمة الدولية والقانون الدولى وقواعد السلوك المتعارف عليه . وينعكس المناخ الفكرى والثقافى فى الولايات المتحدة فى حقيقة أن الامتناع عن التصويت قد لقى ادانة مريرة باعتباره مثالا آخر على اتخاذ موقف مؤيد لمنظمة التحرير الفلسطينية ومعاد لاسرائيل ورفض توجيه ضربة شديدة ضد العناصر الارهابية التى يتم اختيارها بعناية .

وقد يقول قائل ان القصف الاسرائيلى لا يدخل فى نطاق الارهاب الدولى لأنه مثال على جريمة « العدوان » التى تعد اكثر خطورة حسبما تراءى لمجلس الامن او قد يرى شخص ما انه من غير الانصاف ان نطبق على اسرائيل تعريف الارهاب الدولى ، الذى يتولى تدبيره آخرون. ولمواجهة الشكوى الأخيرة، فانه يتعين بحث مبادئها ، كما صاغه السفير بنيامين نيتانيا وهو فى مؤتمر دولى عن الارهاب . فقد شرح ذلك بقوله ان العامل المميز فى الارهاب هو القتل المتعمد والمنظم وتشويه (المدنيين) بقصد اثارة الخوف ومن الواضح ان الهجـــوم الاسرائيلى على تونس وكذلك الأعمال الوحشية الاسرائيلية الأخرى على مدى الســنين تدخل ضـــمن هذا التعريف ، بالرغـــم من أن ذلك لا ينطبق على معظم أعمـــال الارهاب الدولى ، بما فى ذلك الهجمـــات الارهابيـــة بالغة العنف ضـــد الاسرائيليين معلوت ، مذبحـة ميونخ ، عمـلية الطريق الساحلى الوحشية فى عام ١٩٧٨ التى كانت الذريعة لغزو لبنان وما الى ذلك). أو حتى القرصنة الجوية أو الاحتفاظ بالرهائن بوجه عام ، وهو نفس موضـوع المؤتمـــر الذى كان يحضره .

وثمة زعم بأن الهجوم على مقر منظمة التحرير الفلسطينية التى يرأسها عرفات جاء ردا على قتل ثلاثــة من الاسرائيليين فى لارناكا بقبرص على يــد معتدين القى القبض عليهم ويواجهـون المحاكمــة على جريمتهم . ويشــك الخبراء الدبلوماسيون الغربيون فى شئون منظمة التحرير الفلسطينية فى أن عرفات كان على علم بالمهمة المدبرة ، كما أن الاسرائيليين اسقطوا أيضا ادعاءهم الأصـــلى بأن عرفات كان ضــالعا فى الأمر . ويقف المدافعون عن الارهـــاب

الاسرائيلى هنا ، الذين يؤكدون لنا أن الغارة الاسرائيليــة على تونس كانت تستهدف بدقة الأشخاص المسئولين عن أوجه النشاط الارهابى — يقفون موقف عدم التأثر موضحين أنه مهما كانت الحقائق فان المسئولية الادبيــة الأكبر عن الأعمال الوحشية ... هى مسئولية ياسر عرفات بالكامل ، لأنه كان ولا يزال الأب المؤسس للعنف الفلسطينى المعاصر . وقد ذكر المدعى العام ادوين ميس فى خطاب القاه فى جماعة اللوبى الاسرائيلى (ايباك) أن الولايات المتحدة تعتبر ياسر عرفات مسئولا عن أعمال الارهاب الدولى بوجه عام ، وهى حقائق فيما يبدو ليست ذات علاقة . ومن ثم فان اى اجراء يتخذ ضد منظمــة التحـــرير الفلسطينية — وهى تشكل قطاعا عريضــا للغاية ، كما توضح الســجلات التاريخية — يعد اجراء مشروعا .

ان الهجوم الاسرائيلى على تونس يتفق مع الأسلوب الذى تتبعه اسرائيل منذ الايام الاولى لقيام الدولة : فالانتقام يوجه ضد اولئك الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وليس ضد مديرى الأعمال الوحشية كما أن التنديد الذى يوجه الى منظمة التحرير الفلسطينية يقوم على أساس انه بدلا من قيام الفلسطينيين بمهاجمة أعداء لديهم عقلية أمنية مثل اسرائيل فانهم يهاجمون اهدافا اسرائيلية اقل منعة فى ايطاليا والنمسا وأماكن اخرى وهى علامة اخرى تشير الى طبيعتهم الشريرة التى تتسم بالجبن . ويختفى الاسلوب الاسرائيلى المماثل ، الذى بدأ منذ أمد طويل وعلى نطاق أوسع كثيرا ، وسط المديح العام للبطولة والكفاءة العسكرية الاسرائيلية . وتثير فكرة الرد او الانتقام اكثر من مجرد بضعة أسئلة وهى مسألة نتوجه لبحثها مباشرة .

فمع قرب انتهاء عام ١٩٨٥ ، استعرضت الصحافة سجلا عاما حافلا بالارهاب الدولى الدموى ، تضمن حوادث قتل فى لارناكا فى الخامس والعشرين من سبتمبر وحادث اختطاف السفينة أكيلى لورو وقتل سائح أمريكى فى السابع من اكتوبر . ولم يدرج فى القائمة الهجوم الذى شنته اسرائيل فى اول اكتوبر . وتذكر صحيفة « النيويورك تايمز » باختصار فى عرضها المطول للارهاب فى نهاية العام القصف الاسرائيلى لتونس كمثال على الانتقام وليس الارهاب ، واصفة اياه بانه عمل من أعمال اليأس كان له تأثير ضئيل على العنف الفلسطينى وأثار استنكار الدول الاخرى . وقد ذكر الان درشوتيز استاذ القانون بجامعـــة هارفارد ، مدينا ايطاليا لتواطئها فى الارهاب الدولى باطلاقها سراح الشخص الذى يدعى انه المدبر لعملية الخطف ، ذكر أن الولايات المتحدة سوف تقـــوم بالتأكيد بتسليم اى ارهابى اسرائيلى قام بعمل من أعمال العنف ضد مواطنى دولة أخرى — اريل شارون أو اسحق شامير أو مناحم بيجين على سبيل المثال وقد ظهر هــذا التصريح فى نفس اليوم الذى كان يكرم فيـــه شيمون بيريز فى واشنطون فى أعقاب قصف تونس ويمتدح بتعهده بالسلام . وهذا يعتبر شيئا طبيعيا تماما فى ظل المناخ الثقافى السائد .

وتتردد وتتناقش تصريحات ريجان حول الارهاب بجدية واضحة فى نفس الاتجاه العام ، بيد أن القليل من النقاد يبدو ملاحظات عابرة حول نطاق أولئك الذين يهاجمون الارهاب الدولى فى الوقت الذى يقومون فيه بارسال جيوشهم العميلة للقيام بأعمال القتل والتشويه والتعذيب والتخريب فى نيكاراجوا ، وذبح عشرات الآلاف فى السلفادور — التى لا تذكر كثيرا حيث أن تلك الاعمال تعد نجاحا كبيرا . فبعد الحوار الذى تم بين ريجان وبيريز حول السلام والارهاب بوقت قصير ، عادت مجموعة طبية تضم ١٢٠ طبيبا وممرضة وموظف صحة ، موفدة من قبل رابطة الصحة العامة الامريكية ومنظمة الصحة العالمية ، فقدمت تقريرها عن الدمار الذى لحق بالعيادات والمستشفيات ، وقتل موظفى الصحة ونهب الصيدليات فى المناطق الريفية مما ادى الى نقص خطير فى الأدوية وتوقف برنامج التطعيم ضد شلل الاطفال ، وهو جزء صغير من حملة العنف التى تدبر فى مراكزالارهـــاب الدولى فى واشـــــنطن وميامى . ويشبه مراسلو صحيفة « النيويورك تايمز » فى نيكاراجوا زملاؤهم فى صحيفة « البرافدا » العاملين فى افغانستان ، فى حماسهم من أجل كشف الادلة القوية على الاعمال الوحشية التى تقوم بها جماعة الكونترا وقد تجاهلت صـــحيفة « الوقائع » هذا التقرير شأنه شأن تقارير اخرى عديدة .

ان الغارة التى وقعت بالقرب من تونس تكشف عن قـــدر من النفـــاق من السهل دائما ادراكه . فلنفرض أن نيكاراجوا قامت بعمليات قصـــف فى واشنطن استهدفت ريجان وشولتز واخرين من افراد العصابة ، وأسفرت عن مقتل نحو مائة الف شخص « بطريق الصدفة » . ان ذلك سيكون انتقاما له ما يبرره تماما بالمقاييس الامريكية ، اذا كان معدل خمسة وعشرين الى واحد مقبولا حقا كما حدث فى عملية التبادل فى لارناكا وتونس ، على الرغم من اننـــا قد نضيف للدقة انه فى تلك الحالة على الاقل سيكون الجناة هم المستهدفـــون ولا محل للسؤال عمن بدأ بالارهاب ، وربما يتعين مضاعفة العـــدد المناسب للقتلى عدة مرات حسب الحجم النسبى للسكان . لقد أعلن الرئيس ريجان أن الارهابيين ومن يساندونهم ســـوف يتحملـــون المســـئولية ، وبذلك يوفر الأســاس الأدبى لأى اجراء انتقامى ، مع تأييد كامل له من جانب اشد منتقديه فى الصحف التى تســـير فى الاتجاه العام .

وقد برز بيريز بالفعل « كرجل سلام » فى لبنان فبعد أن أصبح رئيسا للوزراء تم تكثيف برامج اسرائيل « لمقاومة الارهاب » ضد المدنيين فى جنوب لبنـــان المحتـــل وبلغت قمة وحشيتها : بعمليات القبضـــة الجديدية التى جرت فى مطلع عـــام ١٩٨٥ ، والتى حملت طابع فرق القتل فى أمريكا اللاتينية ، عـــلى حد تعليق كيرتس ويلكى ، مؤكدا التقارير التى بعث بها صحفيون آخرون من مسرح الأحداث . ففى قرية زراريا على سبيل المثـــال قامت قـــوات الدفاع الاسرائيلية ، تطبيقا لدعواها التى اطلقت عليها اسم « طهارة الأيدى » بعملية

فى المنطقة الواقعة شمال خط الجبهة الاسرائيلية وتنتذ . وبعد قصف شديد للقرية ولثلاث قرى أخرى قريبة استمر عدة ساعات ، قامت قوات الدفاع الاسرائيلية باعتقال سكان تلك القرى من الذكور وقتلت عددا يتراوح ما بين ٣٥ الى ٤٠ قرويا ، بعضهم قتل وهم بداخل سيارات سحقتها الدبابات الاسرائيلية ، فى حين تعرض آخرون للضرب أو مجرد القتل ، واطلقت قذيفة من دبابة على موظفى هيئة الصليب الاحمر الذين وجهت اليهم التحذيرات بالبقاء بعيدا ، فى حين أفلت الجنود الاسرائيليون ولم يصابوا بأية اضرار أثناء المعركة التى وصفت رسميا بأنها كانت مع فدائيين مدججين بالسلاح وفى اليوم السابق ، كان اثنا عشر جنديا اسرائيليا قد قتلوا أثناء هجوم انتحارى بالقرب من الحدود ، غير ان اسرائيل نفت أن يكون الهجوم على زراريا من قبيل الانتقام . وهذا الادعاء من جانب اسرائيل يقدم على النحو الواجب تقديمه كحقيقة من قبل المدافعين عن اسرائيل هنا ، الذين يوضحون ذلك بقولهم ان المخابرات أكدت أن البلدة أصبحت قاعدة للارهابيين ... اذ أن أربعة وثلاثين فدائيا شيعيا على الاقل قتلوا أثناء معركة بالرصاص ، كما ألقى القبض على أكثر من مائة ، وتم ترحيلهم للتحقيق معهم — من احدى القرى الصغيرة (اريك بريندك) مما يبين حجم شبكة الارهاب الشيعى . وقد لاحظ المراسلون فى مسرح الاحداث أن الجنود الاسرائيليين ، الذين يجهلون سياسة الحزب قاموا بكتابة شعار « انتقام قوات الدفاع الاسرائيلية » باللغة العربية على جدران البلدة .

وفى مناطق اخرى ، قام الجنود الاسرائيليون باطلاق النار على المستشفيات والمدارس والقوا القبض على المشتبه فيهم ، ومن بينهم مرضى على اسرة المرض فى المستشفيات وغرف العمليات لاستجوابهم (ويتم فى بعض الاحيان اطلاق الرصاص على المعتقلين اثناء محاولتهم الهروب بالطريقة المألوفة) او نقلهم الى معسكرات الاعتقال الاسرائيلية ضمن أعمال وحشية اخرى عديدة وصفها دبلوماسى غربى يسافر كثيرا داخل المنطقة بأنها تتدنى الى أعماق جديدة من الوحشية المحسوبة والقتل المتعمد .

وقد صرح رئيس وحدة الاتصال لقوات الدفاع الاسرائيلية فى لبنان وهو الجنرال شلومو اليا ، بأن السلاح الوحيد ضد الارهاب هو الارهاب وان اسرائيل لديها بدائل غير تلك التى تستخدم بالفعل « للتحدث باللغة التى يفهمها الارهابيون » . والفكرة ليست جديدة ذلك ان عمليات الجيستابو فى أوربا المحتلة كان هناك ايضا مبرر لها باسم مكافحة « الارهاب » ؛ وقد عثر على احد ضحايا كلاوس باربى قتيلا وقد علقت بصدره قصاصة من الورق كتب عليها عبارة « مقاومة الارهاب بالارهاب » . وهذا هو الاسم الذى استخدمته فيما بعد احدى الجماعات الارهابية الاسرائيلية ، وكان عنوان قصة الغلاف فى صحيفة « دير شبيجل » حول القصف

الارهابى الامريكى لليبيا فى شهر ابريل عام ١٩٨٦ . وقد استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو ضد قرار مجلس الامن الذى يدعو الى ادانة الاعمال والاجراءات الاسرائيلية ضد المدنيين فى جنوب لبنان على اساس ان القرار « يطبق معايير مزدوجة » . وقد أوضحت جين كيركباتريك ذلك بقولها أننا لا نعتقد أن قرارا غير متوازن سوف ينهى عذاب لبنان .

وقد استمرت عمليات اسرائيل الارهابية كلما اضطرت قواتها الى الانسحاب بواسطة المقاومة . ونذكر حالة واحدة فقط ، وهى قيام القوات الاسرائيلية وجيش جنوب لبنان التابع لها بوضع نهاية « لعام الارهاب الدولى الدامى » فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٨٥ عندما اقتحموا قرية المسلمين الشيعة (قرية كونين) فى جنوب لبنان ، وارغموا كل سكانها البالغ عددهم حوالى ٢٫٠٠٠ على مغادرة القرية ، ونسفوا بعض المنازل واشعلوا النار فى البعض الآخر ، واعتقلوا اثنين وثلاثين شابا . كما تردد ان شيوخ ونساء واطفال القرية سمح لهم بالانتقال الى بلدة تقع خارج منطقة الامن الاسرائيلى يوجد بها مركز قيادة تابع لقوات الامم المتحدة .

وقد صدر هذا التقرير ، الذى جرى اعداده من اقوال لشهود استجوبهم البوليس اللبنانى ، ولصحفى من صحيفة « النهار » البيروتية المحافظة ، ولحركة أمل الشيعية ، صدر من بيروت . ومن القدس يقدم جويل جرينبرج رواية مختلفة ، لا تستند الىمصادر معروفة ولكنها تقوم على حقيقة بسيطة مؤداها : أن سكان القرية الذين خشوا من انتقام جيش جنوب لبنان فروا من قرية كونين الشيعية بعد مقتل اثنين من جنوده داخل القرية . والاختلاف بين الروايتين هو اختلاف نمطى تماما ويتسم بالطابع التوجيهى . فالدعاية الاسرائيلية تفيد — الى حد كبير — من حقيقة أن وسائل الاعلام تعتمد اعتمادا رئيسيا علىالمراسلين المقيمين فى اسرائيل . وتتمخض عن ذلك ميزتان حاسمتان : أولا أن الانباء تقدم الى الجمهور الامريكى من خلال اعين اسرائيلية ، ثانيا ، أنه فى الحالات النادرة التى يكتب فيها المراسلون الامريكيون شيئا ما ينطوى على نقد بدلا من مجرد الاعتماد على مضيفيهم الكرماء ، فان نظام الدعاية الاسرائيلية . والأنظمة الامريكية التابعة لها تستطيع ان تشكو بشدة من التغاضى عن الجرائم العربية فى حين تخضع جرائم اسرائيل لفحص دقيق بحثا عن أى عيوب بسيطة ، وسط الكم الهائل من الاخبار التى يجرى تبليغها .

ان عدم القدرة على معالجة الاخبار بهذه الطريقة تخلق مشاكل فى بعض الاحيان كماحدث خلال حرب لبنان عام ١٩٨٢ عندما لم يكن أمام اسرائيل من سبيل للتحكم فى تقارير شهود العيان التى كان يرسلها الصحفيون المقيمون فى لبنان . وقد أثار ذلك احتجاجات ضخمة ضد المتاجرة بالوحشية والتلفيق المزعومين فى شكل حرب نفسية واسعة النطاق تشن ضد اسرائيل الصغيرة

التى تستحق الشفقة وهى دلالة اخـرى على معاداة الرأى العـام العالمى للسامية على نحو متأصل ، واصبحت اسرائيل هى الضحية وليست المعتدى ومن السهل اثبات أن الاتهامات كاذبة وأنها فى كثير من الاحيان تثير السخرية ليس الا ، وأن وسائل الاعلام تميل الى النظر الى الخلف لرؤية الأشياء من وجهة النظر الاسرائيلية — ولكنها ليست مسألة سهلة بالنسبة للصحفيين الذين يحاولون النجاة من عمليات القصف الارهابيـة الاسرائيلية وفى الحقيقة ، فان شهادة المصادر الاسرائيلية كانت فى كثير من الأحيان أكثر قسـوة مما ورد فى الصحف الامريكية وأن ما ظهر فى الجرائد الامريكية كان فى كثير من الاحيان نسخة مخفضة الى حد كبير لما لاحظه الصحفيون بالفعل . غير أن الاتهامات تؤخذ على محمل الجـد الشديد بالرغم من سخافتها الواضحة ، فى حين يتم كالعادة التجاهل التام للنقـد الدقيق الموجه لوسائل الاعـلام لتبعيتها لوجهة النظر الامريكية الاسرائيلية واخفائها للحقيقة غير المقبولة . وتتضمن دراسة انتحليلات المنشورة لتغطية وسائل الاعلام للحرب فى لبنان عام ١٩٨٢ بشكل نمطى اتهامات متعددة للصحافة لاتخاذها موقفا بزعم بأنه معاد لاسرائيل الى جانب حالات دفاع قليلة لوسائل الاعلام ضد تلك الاتهامات ، ولكن دون مجرد الاشارة الى حقيقة أن هناك تحليلات نقدية للغاية وواسعة للظاهرة العكسية تماما . وفى نطاق القيود الضيقة للمناخ الفكرى الامريكى الايديولوجى للغاية يمكن فقط مجرد الاستماع الى النقد السابق .

ان عمليات القبضة الحديدية ، التى تسعد القيادة الاسرائيلية أن تصفها « بالارهاب » لها غرضان رئيسيان . أولهما ، حسبما يرى جون كيفنر (من لبنان) تأليب السكان ضد الفدائيين عن طريق جعل ثمن تأييدهم باهظا للغاية. وباختصار ، جعل السكان رهينة فى حالة حدوث هجوم ارهابى ، ما لم يوافقوا على التدابير التى تعتزم اسرائيل فرضها بالقـوة . والغرض الثانى تصعيد الصراعات الداخلية فى لبنان وتنفيذ تبادل عام للسكان بعد كل صراع طائفى ؛ ويبدو أن الكثير من تلك الصراعات كان المحتل هو المحرض عليها منذ علم ١٩٨٢ بالاسلوب الكلاسيكى . ويرى جيم موير المراسل المقيم فى لبنان ان ثمة أدلة عديدة علىأن الاسرائيليين ساهموا فى اشعال نار الصراع وتشجيعه بين المسيحيين والدروز فى منطقة الشوف . وفى الجنوب ، صرح مسئول كبير فى المعـونة الدولية بأن ادارة المخدع القذرة التابعة لهم فعلت كل ما فى وسعها لاثـارة الاضطراب ، غير أنها لم تنجح ، لأن سلوكهم شرير ، وهى وجهة نظر لاتشارك فيها هيئة الاغاثةالدولية كلها . وقد ذكر شهود عيان محليون ان الجنـود الاسرائيليون اطلقوا النار مرارا على المخيمات الفلسطينية من مناطق مسيحية قريبة فى محاولة لتحريض الفلسطينيين ضد المسيحيين ، فى حين ذكر سكان القرى المسيحية أن الدوريات الاسرائيلية كانت تجبر المسيحيين والمسلمين ، تحت تهديد السلاح ، على ان يضرب كل منهم الاخـر ضمن أشكال أخرى من « الاذلال

الغريب » . وقد نجحت تلك الاساليب فى آخر الأمر . وقام حلفاء اسرائيل المسيحيون بمهاجمة المسلمين بالقرب من صيدا باسلوب يضمن حدوث رد فعل من جانب عناصر أكثر قوة ، مما أدى الى بدء دائرة دامية من العنف ادت فى النهاية الى فرار عشرات الآلاف من المسيحيين واتجاه الكثيرين منهم الى المناطق التى تسيطر عليها اسرائيل فى الجنوب فى حين تم ابعاد عشرات الآلاف من الشيعة الى الشمال بواسطة عمليات القبضة الحديدية .

وكان الزعم فى الولايات المتحدة هو ان اسرائيل كانت دائما تخطط للانسحاب وان الارهابيين الشيعة ينغمسون فى أعمال العنف من أجل العنف الذى يرضى العرب عادة ، الأمر الذى يؤخر الانسحاب المقرر . غ ير ان جيم موير يصحح هذا الزعم بقوله ان من الحقائق التاريخية التى لا جدال فيها أن الاسرائيليين لن ينسحبوا الآن ما لم توجد الهجمات والخسائر التى يتسببون فيها . وان حدة المقاومة هى التى ستحدد مدى الانسحاب .

وقد ذكرت القيادة العليا الاسرائيلية ان ضحايا عمليات القبضة الحديدية كانوا ارهابيين من سكان القرى ، وهكذا فهم ان ثلاثة عشر شخصا منهم قتلوا على أيدى رجال الميليشيات لجيش جنوب لبنان وذلك فى الحادثة التى أثارت تلك الملاحظة . وذكر يوسى آولمرت ، وهو أحد العاملين فى معهد شيلواه للدراسات الاستراتيجية فى اسرائيل ، أن اولئك الارهابيين يعملون بتأييد من معظم السكان المحليين . وشكا أحد القادة الاسرائيليين من ان الارهابى ... لديه عيوب كثيرة هنا ، لأنه المكان الذى يعيش فيه ، فى حين وصف المراسل العسكرى لصحيفة « الجيروز اليم بوست » المشاكل التى تواجه عند التصدى للمرتزقة الارهابيين فقال أنهم جماعة من المتعصبين كرسوا أنفسهم جميعا بدرجة كافيةلقضاياهم ، وهى المخاطرة بالتعرض للموت أثناء العمل ضد جيش الدفاع الاسرائيلى الذى يتعين عليه أن يحافظ على النظام والامن علىالرغم من الثمن الذى يتعين ان يقدمه المواطنون ، الذين يثيرون أعجابه للطريقة التى يستخدمونها فى القيام بعملهم . وقد شرح ليون ويسلتير الاختلاف بين الارهاب الشيعى فى مواجهة جيش الاحتلال والارهاب الفلسطينى ، وأن كلا منهما مظهر من مظاهر الشر الذى يكمن فى الطبيعة العربية بقوله : ان الفلسطينيين لديهم القتلة الذين يريدون الموت ، حيث يقومون بأعمال مستوحاة من طلب عقائدى للعالم الذى لا يمكن ان يتحقق فيه مجرد الشعور بالرضا السياسى أو الدبلوماسى — وليس هناك ابسط من طرد الجيش المحتل من أرضهم . بل ان « جيشهم السرى » أمل قد كرس لتدمير اسرائيل منذ تاسيسه فى عام ١٩٧٥ — وكل هذا ، بلا شك ، محض هراء يتجاوز كثيرا خيال القائمين عليه .

ونفس الفكرة عن الارهاب يستخدمها على نطاق واسع المسئولون والمعلقون الامريكيون . ولذلك ، فان الصحافة تذكر دون تعليق أن قلق وزير

الخارجية الامريكية شولتز بشأن الارهاب الدولى أصبح هاجسه بعد القصف الانتحارى الذى تعرض له مشاة الاسطول الامريكى فى لبنان فى أكتوبر عام ١٩٨٣ ؛ وهى القوات التى كان الكثيرون من السكان يرونها ، بطبيعة الحال ، قـــوة عسكرية أجنبية أرسلت لفرض « النظام الجديد » الذى اقامه العدو الاسرائيلى . وكتب بارى روبين يقول ان أهم عمل للارهاب المؤيد من جانب سوريا داخل لبنان ينحصر فى فرض انسحاب القوات الاسرائيلية ومشاة الاسطول الامريكى ، فى حين تؤيد كل من ايران وسوريا « النشاط الارهابى » للجماعات الشيعيـــة المتطرفة فى جنوب لبنان، مثل الهجمات التى تشنها تلك الجماعات جيش جنوب لبنان الذى تسانده اسرائيل . وفى نظر المدافع عن الارهاب الرسمى ، فان مقاومة جيش الاحتلال او المرتزقة المحليين التابعين له يعد ارهابا يستحق الانتقام العنيف . ويصف توماس فريد مان مراسل صحيفة « النيويورك تايمز » ى اسرائيل يصف بشكل روتينى الهجمات التى تحدث فى جنوب لبنان ضد القوات الاسرائيلية بأنها « عمليات قصف ارهابية » او « ارهاب انتحارى » ويؤكد لنا انها ناتجة عن « ضعف نفسى أو حماس دينى » وهو يذكر أن سكان « منطقة الامن » التى حددتها اسرائيل ، الذين ينتهكون القواعد التى فرضها المحتلون يطلق عليهم الرصاص فورا فى حين توجه الاسئلة فيما بعد . وكان بعض الذين اطلق عليهم الرصاص متفرجين ابرياء . غير أن هذا العمل لا يعتبر ارهابا رسميا . كما يذكر أن اسرائيلحرصت على الحد من تدفق الانباء خارج المنطقة . ولم يسمح للصحفيين بأن يغطوا نتائج الهجمات الانتحارية ، ولم تصدر فى الحقيقة أية معلومات عنها وهذه الحقيقة لا تمنعه من أن يتحدث بمزيد من الثقة عن الظروف والدوافع وراء أولئك الذين يصفهم المحتلون « بالارهابيين » .

وفى الوقت الذى كان فيه ريجان وبيريز يهنىء كل منهما الآخر بموقفهما المبدئى ضد «شر الارهاب » أمام جمهورهما المعجب بهذا الموقف ، نقـلت الصحف أخبار عمل ارهابى آخر فى جنوب لبنان : « الارهابيون يقتلون ستة أشخاص ويهدمون محطة الاذاعة المسيحية التى تملكها الولايات المتحدة فى جنوب لبنان » ، كانت تلك هى العناوين الرئيسية للصحف فى نفس اليـــوم. فلماذا يقوم الارهابيون اللبنانيون بتدمير محطة اذاعة « صوت الامل » التى تديرها الارساليات المسيحية الامريكية ؟ وقد اثير السؤال بصراحة ، ولكن لنمعن النظر فيه ، من أجل ايضاح مفهوم كل من الارهاب والانتقام .

انّ من بين الاسباب أن محطة الاذاعة « تتحدث باسم جيش جنـــوب لبنان » ، وهو قوة عميلة انشأتها اسرائيل فى جنوب لبنان لارهاب السكان فى « منطقة الامن » الخاصـــة بها . وموقع المحطة ، وهو بالقـــرب من قريـــة خيام ، جدير بالملاحظة أيضا . فالقرية لها تاريخ غير معروف هنا . وقـــد أشار زئيف شيف الى هذا التاريخ وسط عمليات القبضة الحـــديدية التى كان بيريز يقوم بتنفيذها . كما لاحظ أنه عندما قامت اسرائيل بغزو لبنـــان

عام ١٩٨٢ . كانت قرية خيام « خالية من السكان » بالرغم من انه يوجد بها الآن عشرة آلاف مواطن ، وأن بلدة النبطية اللبنانية كان يوجد بها خمسة آلاف مواطن فقط أما الآن فيوجد بها خمسون ألفا واستطرد شيف قائلا أن أولئك وكذا آخرين سوف يرغمون مرة أخرى على التخلى عن ديارهم اذا سمحوا للمتطرفين فى مجتمعهم او للفلسطينيين بمهاجمة المستوطنات الاسرائيلية . فذلك سوف يكون مصيرهم اذا ما حاكوا قوات الدفاع الاسرائيلية التى كانت وقتئذ تهاجم القرى اللبنانية وتقتل بصورة عشوائية المدنيين وتهدم منازلهم أثناء تصديها « للارهاب الذى لم يختف » ، اذ كان « الجنود الاسرائيليون يتعرضون للمضايقات المستمرة فى جنوب لبنان يوميا » .

وبالنسبة للبنانيين الذين وجه اليهم التحذير ، وكذا بعض العناصر حسنة الاطلاع من جمهوره الاسرائيلى على الاقل ، لم يكن شيف مضطرا لان يشرح السبب الذى من أجله انخفض عدد سكان النبطية الى خمسة آلاف وفرغت قرية خيام من سكانها فى عام ١٩٨٢ . فالسكان كان قد تم طردهم ، وقتل المئات منهم من جراء القصف الارهابى الاسرائيلى منذ مطلع السبعينيات ، والقلة التى تبقت فى القرية ذبحت أثناء غزو لبنان عام ١٩٧٨ تحت بصر لواء الجولانى المتميز ، على يد ميليشيات حداد التابعة لاسرائيل والتى « نجحت فى اقامة سلام نسبى فى المنطقة وحالت دون عودة ارهابيى منظمة التحرير الفلسطينية » ، حسبما ذكر رجل السلام (٣٤) . كما أن قرية خيام تعتبر موقع « سجن سرى » تحتفظ به اسرائيل وحلفاؤها من الميليشيات المحلية فى جنوب لبنان ... حيث يعيش المعتقلون فى أحوال مرعبة ويتعرضون ومسئولو الاغاثة الدولية فى المنطقة « وقد ذكر الصليب الاحمر » أن الاسرائيليين يديرون المركز . وأن قوات الدفاع الاسرائيلية رفضت السماح لهم بالدخول (٣٥) .

وربما كان هناك ما يقال أكثر من ذلك وقتئذ حول الهجوم الارهابى الذى قام به « المتعصبون » فى قرية خيام فى ١٧ أكتوبر عام ١٩٨٥ ، اذا كانت مثل تلك الامور مناسبة لان تصبح جزءا من الذكريات التاريخية الى جانب الاعمال الارهابية الاخرى ذات الفائدة الايديولوجية الاكبر .

وثمة قصص أخرى عن النبطية أيضا يمكن حكايتها . فقد كتب اثنان من مراسلى صحيفة « الجيروزاليم بوست » ، كانا يقومان بجولة فى جنوب لبنان فى محاولة للتوصل الى أدلة حول ارهاب منظمة التحرير الفلسطينية وما تقوم به من أعمال وحشية ، ولم يعثرا الا على القليل ، بالرغم من وجود أدلة كثيرة على الارهاب الاسرائيلى وآثاره ، كتبا عن فرار ثمانين فى المائة من سكان النبطية بسبب الخوف من القصف (الاسرائيلى) فى الغالب(٣٦) ومن بين عمليات القصف تلك العملية التى جرت فى الرابع من نوفمبر عام

١٩٧٧ ، عندما تعرضت النبطية لنيران المدفعية الثقيلة من المواقع المارونية اللبنانية (التى تدعمها اسرائيل) وكذلك من البطاريات الاسرائيلية على جانبى الحدود ــ بما فى ذلك ستة معاقل اسرائيلية داخل الاراضى اللبنانية. وقد استؤنفت الهجمات فى اليوم التالى ، واسفرت عن مقتل ثلاث سيدات وجرح عدد آخر . وفى السادس من نوفمبر أطلق فدائيو فتح صاروخين أسفرا عن مقتل اسرائيليين فى نهاريا ، مما أدى الى نشوب معركة بالمدفعية وهجوم صاروخى أسفر عن مقتل اسرائيلى واحد « ثم جاءت غارات جوية اسرائيلية بلغ عدد ضحاياها سبعين شخصا جميعهم تقريبا من اللبنانيين » (٣٧) . وقد استشهد الرئيس المصرى السادات بهذا التبادل لاطلاق النار الذى بداه الاسرائيليون ، والذى هدد بنشوب حرب كبيرة ، باعتباره أحد أسباب العرض الذى قدمه للقيام بزيارة للقدس بعد ذلك بأيام قليلة (٣٨) .

وقد دخلت تلك الأحداث ذاكرة التاريخ بشكل مختلف ليس فقط فى مجال الصحافة بل وفى مجال الدراسة أيضا . فقد كتب ادوارد هانى دون أن يستند الى أى دليل يقول أنه فى محاولة لوقف التحرك نحو عقد مؤتمر للسلام ، قامت منظمة التحرير الفلسطينية باطلاق صواريخ كاتيوشا على قرية نهاريا الاسرائيلية الشمالية فى السادس والثامن من شهر نوفمبر مما أسفر عن مقتل ثلاثة أشخاص وأدى الى « الانتقام الاسرائيلى الحتمى » فى التاسع من شهر نوفمبر الذى أسفر عن مقتل مائة شخص أثناء الهجمات التى شنها الاسرائيليون « على صور وحولها وعلى بلدتين صغيرتين فى الجنوب(٣٩) وكما هى القاعدة فى التاريخ المصحح ، يقوم الفلسطينيون بأعمال الارهاب ويقوم الاسرائيليون بالرد عليها بعد ذلك ربما بأشد قسوة . وفى دنيا الواقع ، فان الحقيقة كثيرا ما تكون مختلفة الى حد كبير . وتلك الحقيقة المضطربة الى حد كبير ، هى التى يتعين مواجهتها قبل أن نستطيع استيعاب المعنى الكامل للارهاب فى الشرق الأوسط .

ان الصحافة الغربية نادرا ما كانت تتحدث عن الآلام التى كانت تعانى منها النبطية بالرغم من وجود استثناءات قليلة . وقد وقعت احدى تلك الهجمات الاسرائيلية فى الثانى من ديسمبر عام ١٩٧٥ عندما قام سلاح الجو الاسرائيلى بقصف البلدة مما أدى الى مقتل العديد من المواطنين اللبنانيين والفلسطينيين مستخدما فى ذلك أسلحة مضادة للأفراد وقنابل وصواريخ (٤٠) . ولم تثر تلك الغارة ، التى كان الابلاغ عنها أمرا غير عادى ، اهتماما أو قلقا فى الدوائر المتحضرة ، ربما لأنها كانت فيما يبدو « انتقاما » : أى ، انتقاما من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة ، الذى كان قد وافق على تخصيص جلسة لبحث مشروع سلام تقدمت به سوريا والاردن ومصر ــ وايدته منظمة التحرير الفلسطينية التى تولت اعداده حسبما ذكر حاييم هرتزوج مندوب اسرائيل فى المنظمة الدولية وقتئذ ــ ويدعو الى التوصل الى تسوية تقوم على أساس

انشاء دولتين طبقا للحدود الدولية المعترف بها .وقد رفضت الولايات المتحدة المشروع كما كان متوقعا(٤١) . وكل ذلك جرى محوه الى حد كبير من التاريخ ، فى كل من الصحافة والدراسة(٤٢) .

وتستمر القضية اليوم ، مع بعض التغيير . ففى مطلع عام ١٩٨٦ ، وفى الوقت الذى كانت فيه عيون العالم تتركز فى رعب على الارهابيين فى العالم العربى ، ذكرت الصحف أن مدافع الدبابات الاسرائيلية صبت جام نيرانها على قرية صريفه فى جنوب لبنان ، مستهدفة ثلاثين منزلا ، زعمت قوات الدفاع الاسرائيلية أن النيران أطلقت عليها منها بواسطة « ارهابيين مسلحين » كانوا يقاومون عملياتها العسكرية أثناء قيام تلك القوات على حد وصفها بالبحث عن جنديين اسرائيليين كانا قد تم اختطافهما فى « منطقة الأمن الاسرائيلية فى لبنان . وقد حجب الى حد كبير عن الصحف الامريكية تقرير قوات الأمم المتحدة للمحافظة على السلام الذى جاء فيه أن القوات الاسرائيلية قد جن جنونها حقيقة أثناء تلك العمليات ، فقامت بعزل قرى بأكملها ، ومنعت قوات الأمم المتحده من ارسال المياه والألبان والبرتقال الى سكان تلك القرى الذين كان يجرى استجوابهم — الأمر الذى يعنى التعذيب الوحشى للرجال والنساء على أيدى القوات الاسرائيلية وعملائها المحليين . وقد رحلت بعد ذلك القوات الاسرائيلية مصطحبة معها العديد من سكان القرى ومن بينهم نساء حوامل ، وبعضهم نقل الى اسرائيل خرقا للقانون الدولى كما قامت بهدم بعض المنازل ونهب وتدمير البعض الآخر فى الوقت الذى ذكر فيه شيمون بيريز أن بحث اسرائيل عن الجنديين المخطوفين يعبر عن موقفنا تجاه قيمة الحياة والكرامة الانسانية .(٤٣)

وبعد ذلك بشهر واحد ، وفى الرابع والعشرين من مارس ، ذكر راديو لبنان أن قوات اسرائيلية ، سواء كانت قوات الدفاع الاسرائيلية أو مرتزقة جيش جنوب لبنان ، قامت بقصف النبطية مما أسفر عن مقتل ثلاثة مدنيين وجرح اثنين وعشرين آخرين اثر سقوط القذائف على السوق فى وسط البلدة عند الفجر حيث يزدحم الناس للتجارة ، وذلك بدعوى الانتقام للاعتداء الذى وقع على القوات العميلة لاسرائيل فى جنوب لبنان وقد توعد أحد زعماء جماعة أمل الشيعية بأن المستوطنات والمنشآت الاسرائيلية لن تكون بعيدة عن ضربات المقاومة . وفى السابع والعشرين من شهر مارس ، سقط صاروخ من طراز كاتيوشا على فناء احدى المدارس فى شمال اسرائيل فاصاب خمسة أشخاص وادى الى قيام اسرائيل بالاعتداء على مخيمات اللاجئين الفلسطينيين بالقرب من صيدا مما أسفر عن قتل عشرة أشخاص واصابة اثنين وعشرين آخرين بجراح ، فى حين ذكر قائد الجبهة الشمالية الاسرائيلية عبر اذاعة الجيش الاسرائيلى أن قوات الدفاع الاسرائيلية لم تحدد ما اذا كان الصاروخ اطلقه شيعة أم فدائيون فلسطينيون . وفى السابع

من شهر ابريل قصفت طائرات اسرائيلية نفس المخيمات بالاضافة الى قرية مجاورة وأسفر القصف عن مقتل شخصين واصابة عشرين اخرين بجراح بدعوى أن فدائيين أنطلقوا من تلك المخيمات وفى نيتهم قتل مواطنين اسرائيليين(٤٤) .

وكان الهجوم بالصواريخ على شمال اسرائيل من بين سائر تلك الاحداث الذى استحق تغطية تليفزيونية محزنة وحالة من الغضب العام تجاه نكبة الارهاب اللعين ، بالرغم من أن ذلك قد طغت عليه الى حد ما حالة الهستيريا الجماهيرية التى نشأت وقتئذ حول غزو نيكاراجوا لهندوراس عندما مارس جيش نيكاراجوا حقه الشرعى فى الملاحقة المكثفة للعصابات الارهابية وطردها من أراضيه وهى تلك العصابات التى ارسلها ووجهها الامريكيون فى استعراض للقوة قبيل تصويت مجلس الشيوخ على تقديم المساعدة للكونترا ، الامر الذى يذكر بأن القضية الوحيدة الخطيرة التى كانت موضع بحث فى الدولة الارهابية هى ما اذا كان فى مقدور الكونترا ان تنجح فى تحقيق أهدافها . واسرائيل بطبيعة الحال ، لم تكن تمارس حقا شرعيا بالملاحقة المكثفة فى صورة قصف للمدن ومخيمات اللاجئين كما أن أعمال الارهاب الجماعى والعدوان الصارخ التى تقوم بها فى لبنان ليست فى اطار هذا المفهوم . ولكن اسرائيل باعتبارها دولة عميلة ترث من سيدها حق الارهاب والتعذيب والعدوان ، ونيكاراجوا ، كعدو تفتقر بوضوح لحق الدفاع عن أراضيها ضد الارهاب الدولى الامريكى ، بالرغم من أنه يمكن القول بأن الاعمال الامريكية هناك تصل الى مستوى العدوان ، جريمة حرب من النوع الذى تم بسببه اعدام اشخاص فى نورمبرج وطوكيو . وتبعا لذلك ، فانه من الطبيعى أن يتم تجاهل الاعمال التى تقوم بها اسرائيل أو صرف النظر عنها باعتبارها انتقاما مشروعا ، فى الوقت الذى يندد فيه الكونجرس ، من المنظور الضيق بالماركسيين فى نيكاراجوا بسبب هذا الدليل المتجدد على انهم يشكلون تهديدا لسلام واستقرار المنطقة .

ان الغزو الاسرائيلى للبنان فى شهر يونيو عام ١٩٨٢ ، يقدم كذلك بانتظام فى شكل مصحح ومناسب . فيقول شيمون بيريزان عملية (سلام الجليل) جرت من أجل ضمان عدم قصف الجليل مرة أخرى بصواريخ الكاتيوشا. ويشرح أريك بريندل ذلك بقوله أن الهدف الرئيسى للغزو الاسرائيلى فى عام ١٩٨٢ بطبيعة الحال كان حماية منطقة الجليل ... من صواريخ الكاتيوشا وعمليات القصف الأخرى التى كانت تتعرض لها المنطقة من داخل الاراضى اللبنانية . وتطالعنا صفحات الاخبار بصحيفة « النيويورك تايمز » بان الغزو بدأ بعد ان شن فدائيو منظمة التحرير الفلسطينية

هجماتهم على المستوطنات الشمالية الاسرائيلية ، و (بدون تعليق) بأن زعماء اسرائيل قالوا انهم يريدون انهاء القصف الذى تتعرض له تلك المستوطنات بالصواريخ والاسلحة الاخرى الامر الذى تحقق على مدى السنوات الثلاث التى قضاها الجيش الاسرائيلى فى لبنان ، ويضيف هنرى كام أنه لما يقرب من ثلاثة أعوام لم ينم سكان مستوطنة كيريات شيمونة فى مخابئهم ، كما أن القلق لم يتسلل الى نفوس أولياء أمور الاطفال عندما يخرجون الى مدارسهم أو الى اللعب . وان صواريخ كاتيوشا السوفيتية الصنع التى ظلت تضرب تلك المستوطنة الواقعة بالقرب من الحدود اللبنانية خلال فترات عشوائية على مدى سنوات عديدة ، لم تسقط منذ قيام اسرائيل بغزو لبنان فى شهر يونيو عام ١٩٨٢ .
ويقول توماس فريدمان أنه (فى حالة ما اذا انهمرت الصواريخ على نطاق واسع من جنيد على الحدود الشمالية لاسرائيل بعد كل ما أنفقه على لبنان فان الشعب الاسرائيلى سوف يستبد به شعور الغضب . وأنه حتى الآن ليست هناك صواريخ تسقط فى شمال اسرائيل ... وأنه فى حالة وقوع هجمات جديدة على نطاق واسع على الحدود الشمالية لاسرائيل ، فان الاقلية (التى تحبذ الاحتفاظ بالجيش فى لبنان) من الممكن أن تصبح أغلبية مرة اخرى .

ويذكر فريد مان فى احدى الروايات الانسانية العديدة حول الجهد الذى يبذله الاسرائيليون الذين يعيشون فى معاناة ان عملية سلام الجليل (الغزو الاسرائيلى للبنان) جرت فى الاصل لحماية المدنيين من الفدائيين الفلسطينيين . وتتبنى شخصيات سياسية بصفة منتظمة نفس المبدأ فقد كتب زبيجنيو بريزنسكى يقول « ان الوجود العسكرى السورى المتزايد واستخدام لبنان من جانب منظمة التحرير الفلسطينية لشن هجمات ضد اسرائيل قد عجلا بالغزو الاسرائيلى فى العام الماضى . ويطالبنا رونالد ريجان ، فى عرض مونجى للجبن الاخلاقى بأن نتذكر بأنه عندما بدأ كل هذا (الغزو) قطعت اسرائيل ، بسبب الانتهاكات التى تعرضت لها حدودها الشمالية بواسطة الفلسطينيين ومنظمة التحرير الفلسطينية ، كل الطريق المؤدى الى بيروت حيث كان يوجد عشرة آلاف فلسطينى (!) كانوا يتحتون الدمار ببيروت ، وليست قاذفات القنابل المجنونة التى كان يؤيدها وقد غلبه شعور بالفرح والسرور(٤٥) ، ان تلك الروايات وروايات اخرى لا تحصى ، تضمن الكثير منها وصفا تتقطع له القلوب لمعاناة سكان الجليل الذين تعرضوا للقصف العشوائى بصواريخ الكاتيوشا ، تساعد على خلق الصورة المقبولة لمتعصبين فلسطينيين مزودين بأسلحة سوفيتية ، ويشكلون الجزء الرئيسى لشبكة الارهاب الدولى التى مقرها روسيا ، ويرغمون اسرائيل على غزو وضرب مخيمات اللاجئين الفلسطينيين وأهداف اخرى ، مثلما تفعل أية دولة ، للدفاع عن شعبها ضد اعتداءات ارهابى لا يرحم .

ان العالم الحقيقى بطبيعة الحال مختلف بلا شك . فقد كتب ديفيد شيبلر يقول: انه فى خلال السنوات الاربع ما بين الغزو الاسرائيلى السابق لجنوب لبنان فى عام ١٩٧٨ وغزو السادس من يونيو عام ١٩٨٢ ، بلغ اجمالى عــدد القتلى فى شمال اسرائيل تسعة وعشرين قتيلا وذلك فى كافة أشكال الهجمات التى جاءت عبر الاراضى اللبنانية بما فى ذلك عمليات القصف وعبور الحــدود بواسطة الارهابيين ، ولكن على مدى عام قبل غزو عام ١٩٨٢ ، كانت الحدود هادئة (٤٦) . ان هذا التقرير يتحلى بميزة الاقتراب من نصف الحقيقــة عــلى الاقل . ففى الوقت الذى احجمت فيه منظمة التحرير الفلسطينية عن القيام بعمليات عبر الحدود على مدى عام قبل الغزو الاسرائيلى ، كانت الحدود أبعد ما تكون عن الهدوء اذا استمر الارهاب الاسرائيلى ، فقتل الكثير من المدنيين لقد كانت الحدود هادئة فقط بالمفهوم العنصرى للحوار الامريكى . كما أن شيبلر وزملاءه لا يذكرون انه فى حــين قتل تسعة وعشرون شخصــا فى شـــمال اسرائيلى منذ عام ١٩٨٧ ، فان الآف قتلوا بواسطه عمليات القصف الاسرائيلى فى لبنان ، الامر الذى نادراً ما يذكر هنا ، والذى لايعد باى حال عملا انتقاميا .

لقد كانت عمليات القصف اعتبارا من عام ١٩٧٨ عنصراً رئيسيا فى عملية السلام الخاصة بكامب ديفيد(٤٧) وقد التزمت منظمة التحرير الفلسطينية بوقف اطلاق النار الذى قامت الولايات المتحدة بترتيبه فى شهر يوليو عام ١٩٨١،على الرغم من الجهود الاسرائيلية المتكررة لاثارة عمل ما ، يمكن ان يستغل كذريعة للغــزو المدبر ، بما فى ذلك القصف الذى حدث فى اواخر شهر ابريل عام ١٩٨٢ والذى أسفر عن مقتــل اربعة وعشرين شخصا ، واغراق زوارق صيد ، وما الى ذلك وكانت الاستثناءات الوحيدة ممثلة فى عملية انتقامية محددة فى شهو مايــو بعد القصف الاسرائيلى ، والرد على القصف الاسرائيلى المكثف والهجمات البرية فى لبنـــان خلال شهر يونيو انتقاما من محاولة اغتيال السفير الاسرائيلى فى لندن على يد أبو نضـــال ، وهو عدو لدود لمنظمة التحــرير الفلسطينية وليس لديه حتى مكتب فى لبنان ـــ مرة اخرى قصة الانتقام المألوفة . وكانت محاولة الاغتيال تلك هى التى استغلت كذريعة للغزو الذى خطط له منذ أمد طويل .

وتطالعنا صحيفة « النيوريبليك » بأن نجاح مفاوض الامم المتحدة بريان أوركهان كان نجاحا محــدودا ويمكن تناسيه بطريقة ما : مفاوضاته لوقف منظمة التحــرير الفلسطينية اطلاق النــار فى جنوب لبنان فى عام ١٩٨١ على ســبيل المثال(٤٨) . وليس من المستغرب أن تفضل الصحف الملتزمة بشــدة بالخــط السياسى للحزب « نيســان » الحقائق ، ولكن شيوع مثل تلك الهفوات المريحة للذاكرة ، يعد أمرا جديرا بالذكر .

وفضلا عن ذلك ، فان القاء نظرة على ما حدث فى شهر يوليو عام ١٩٨١ يكشف نفس النمط . ففى الثامن والعشرين من مايو كتب زئيف شيف واهود يعرى يقولان ان رئيس الوزراء مناحيم بيجين ورئيس الاركان رفائيل ايتان « اتخــذ

خطوة » اخرى من شأنها أن تقــرب بلدهما كثيرا من حرب تنشب فى لبنـــان من خلال اجراء سيؤدى بالضرورة الى هذا الهدف : فقد خرقنا وقف اطلاق النـــــار عن طريق قصف تجمعات منظمة التحرير الفلسطينية (وهو اصطلاح يشـــير الى أى هدف تختار اسرائيل ضربه) فى جنوب لبنان . وقد استمرت الهجمات جــوا وبحــرا حتى الثانى من شهر يونيو ، على حد قول شيف ويعــرى ، فى حين رد الفلسطينيون بحذر شــديد خشــية أن يؤدى رد فعل قــوى من جانبهم الى حدوث عملية برية اسرائيلية ساحقة : وتم التوصــل مرة أخــرى الى وقف اطلاق النــار ، ولكنه خرق ثانية فى العاشر من شهر يوليو مع تجــدد لعمليات القصف وهذه المرة كان هناك رد فعل فلسطينى ، على شــكل هجمــات بالصــواريخ أثارت الفزع فى الجليل الشمالى واعقبهــا قصف اسرائيلى مكثف لبيروت واهداف مدنية أخرى وبعــد اعلان وقف اطلاق النار فى الرابع والعشرين من شهر يوليــو بلغ عدد القتلى من العرب ٤٥٠ شخصا جميعهم تقريبــا من المدنيين اللبنانيين ــ وستة اسرائيليين(٤٩) .

ان كل ما يذكر من تلك القصة هو معاناة الجليل الشمالى الذى تعرض لقصف عشــوائى بصــواريخ الكاتيوشا بواسطة ارهابيى منظمة التحــرير الفلسطينية الذى ادى فى النهاية الى أن تنتقم اسرائيل بغزوها للبنان فى شهو يونيو عام١٩٨٢ وهذا يصــدق حتى على الصحفيين الجــادين الذين لا يقــدمون ببساطة أداة للدعاية الرسمية . اذ يكتب ادوارد والش يقول « ان الهجمات المتكررة بالصواريخ فى عام ١٩٨١ وضعت (كيريات شيمونة) مرة أخرى تحت الحصــار ، ويصف أولياء الأمور الذين اصابهم الذهول وحالة الرعب التى نجمت عن قصف المدفعية واطلاق الصواريخ من قواعد فلسطينية قريبة فى عام ١٩٨١ دونما كلمة اخرى عما كان يحــدث . ويكتب كيرتس وبلكى ، وهو أحــد الصــحفيين الامريكيين الاكثر تشككا وبعدا للنظر فى الشرق الأوسط ، فيقول ان كيريات شيمونة تعرضت لنيران مدمرة من جانب قوات منظمة التحرير الفلسطينية فى عام ١٩٨١ ، وكان سيل صواريخ الكاتيوشا السوفيتية الصنع من الحــدة فى احدى النقــاط بحيث ان المواطنين الذين لم يفــروا اضطروا لان يقضوا ثمانية أيام وليــال متعاقبة فى المخابىء . ومرة اخرى دون ذكر كلمة واحدة أخرى حول أسباب تلك النيران المدمرة أو عن الحالة فى بيروت ومناطق مدنية أخرى حيث قتل المئات أثناء القصف الاسرائيــلى المــدمر كما ان تلك الامــور لــم تنشــر فى مواضــع اخــرى ان هذا المثــل يعطى نظرة فاحصـــة اخــرى فى عمق مفهوم الارهاب والانتقام حسبما تم تصوره داخل النظام الايديولوجى للولايات المتحــــدة وفى اطــــار الافتراضات العنصرية ، التى كشىء متوقع ، تستبعد معاناة الضحايا الرئيسيين الذين هم عرب ومن ثم اقل انسانية .

وتتسم الرواية الرسمية القائلة بأن الهجمات بالصواريخ والقصف المدفعى على الحدود الشمالية لاسرائيل قد انتهت بفضل سلام الجليل (على حد وصف صحيفة النيويورك تايمز) بالكذب المزدوج . اولا ، ان منطقة الحدود كانت

حادثة لمدة عام قبل الغزو باستثناء الهجمات الارهابية والاستفزازات الاسرائيلية ، كما ان الهجمات واسعة النطاق بالصواريخ فى شهر يوليو عام ١٩٨١ كانت ردا على الارهاب الاسرائيلى الذى أحدث خسائر تفوق مائة مرة تقريبا ما أحدثه رد منظمة التحرير الفلسطينية فى هذه الحادثة وحدها . ثانيا ، على النقيض تماما من الفترة السابقة ، بدأت هجمات الصواريخ بعد انتهاء الغزو بفترة قصيرة ، منذ أوائل عام ١٩٨٣ ، واستمرت منذ ذلك الحين وتذكر مجموعة من الصحفيين الاسرائيليين المنشقين انه على مدى أسبوعين من شهر سبتمبر عام ١٩٨٥ ، أطلقت صواريخ كاتيوشا على الجليل وزيادة على ذلك ، فان الهجمات الارهابية زادت بنسبة ٥٠ فى المائة فى الضفة الغربية خلال الشهور التى أعقبت الحرب ، وانه بنهاية عام ١٩٨٣ زادت بنسبة ٧٠ فى المائة منذ نشوب الحرب فى لبنان وأصبحت تشكل تهديدا شديدا فى عام ١٩٨٥ — وهى نتيجة غير مفاجئة نظرا للأعمال الوحشية وتدمير المجتمع المدنى والنظام السياسى للفلسطينيين(٥١) .

ولم يكن السبب الرئيسى لغزو عام ١٩٨٢ هو التهديد الذى تعرض له الجليل الشمالى ، كما يقول التاريخ المصحح ، بل العكس كما شرح البروفيسور يهوشوا بورات الاستاذ بالجامعة العبرية وكبير المتخصصين بالشئون الفلسطينية واسرائيل (وهو معتدل كمتحدث اسرائيلى يؤيد الحل الأردنى للقضية الفلسطينية الذى يتبناه حزب العمل) ، بعد وقوع الغزو بفترة قصيرة فهو يقول أن قرار الغزو نبع من حقيقة أن وقف اطلاق النار تم الالتزام به . فتلك كانت كارثة حقيقية للحكومة الاسرائيلية ، لأنها كانت تهدد سياسة تجنب التسوية السلمية واستطرد قائلا ان أمل الحكومة يتمثل فى أن تعود منظمة التحرير الفلسطينية المضروبة والتى تفتقر الى الامدادات والى قاعدة اقليمية الى ارهابها السابق وأن تقوم بعمليات القصف فى أنحاء العالم واختطاف الطائرات وقتل العديد من الاسرائيليين وبذلك تفقد جزءا من شرعيتها السياسية التى اكتسبتها وتبعد خطر اجراء مفاوضات مع ممثلى الفلسطينيين ، الذى يهدد سياسة الاحتفاظ بسيطرة فعالة على المناطق المحتلة — وهى السياسة التى تشارك فيها المجموعتان السياستان الكبيرتان(٥٢) . والافتراض المعقول للقيادة الاسرائيلية يتمثل فى أن أولئك الذين يشكلون الرأى العام فى الولايات المتحدة — وهى الدولة الوحيدة التى لها وزن واعتبار وقد اختارت اسرائيل أن تصبح دولة عميلة تخدم مصالح ولى نعمتها — يمكن الاعتماد عليهم فى محو التاريخ الحقيقى وعرض الاعمال الارهابية الناجمة عن العدوان والأعمال الوحشية الاسرائيلية باعتبارها أعمال عنف عشوائية يمكن أن تعزى العيوب فى الشخصية والثقافة العربية ، ان لم يكن لضعف وعجز عنصرى . وتحقيق التعليقات الامريكية المتعاقبة عن الارهاب تلك التوقعات الطبيعة بدقة متناهية ، وبذلك تتحقق الاهداف الدعائية للارهابيين الرسميين فى كل من القدس وواشنطن .

ان النقاط الأساسية مفهومة جيدا فى اسرائيل . فقد ذكر اسحق شـامير رئيس الوزراء فى التليفزيون الاسرائيلى أن اسرائيل أقدمت على الحرب لأن خطرا مرعبا كان يلوح فى الأفق ... ليس عسكريا بقدر ما كان سياسيا ، الأمر الذى دفـع الكاتب الاسرائيلى الساخر ـ مايكل لأن يكتب بأن الذريعـة العرجـاء بوجود خطر عسكرى أو خطر يتعرض له الجليل لا وجود لها ، ولقد ازلنا الخطر السياسى عن طريق البدءبالهجوم فى الوقت المناسب ، والآن حمدا لله ، ليس هناك أحد نتحدث اليه . ويعلق أعرون بشار ، وهو كاتب عمود صحفى بقوله انه من السهل فهم الحالة الذهنية للقيادة الاسرائيلية . ان عرفات متهم بأنه يتحرك بانتظام فى اتجاه نوع ما من الاتفاق السياسى مع اسرائيل وهذا يعد أسوأ تهديد ممكن ، من وجهة نظر الحكومة الاسرائيلية ـ بما فى ذلك العمل والليكود .

ويلاحظ بينى موريس أن منظمة التحرير الفلسطينية أوقفت اطلاق النار على طول الحدود الشمالية لعام كامل ، وفى عدة مناسبات كانت لاترد مطلقا على الأعمال الاسرائيلية (التى كانت تهدف بصفة خاصة الى جذب نيران منظمـة التحرير الفلسطينية الى الشمال) معلقا اكثر من ذلك بقوله أنه بالنسبة لكبار ضباط قوات الدفاع الاسرائيلية ، فان حتمية الحرب تعتمد على منظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها تشكل تهديدا سياسيا لاسرائيل ولسيطرتها على المناطق المحتلة ، حيث ان آمال الفلسطينيين داخل تلك المناطق وخارجها لتحقيق امانيهم الوطنية تقوم على المنظمة وتدور حولها . وشأن كل معلق عاقل ، فانه يسخر من الحديث الهستيرى حول ما يتم الاستيلاء عليه من أسلحة ، والتهديد العسكرى الذى تشكله منظمة التحرير الفلسطينية ويتكهن بأن الشيعة فى بيروت الغربية ، واكثرهم من اللاجئين الذين فروا من القصف الاسرائيلى السابق لجنوب لبنان فى السبعينيات سيذكرون الحصار الذى ضربته قوات الدفاع الاسرائيلية لمـدة طويلة خلال الفترة من شهر يونيو الى شهر اغسطس عام (١٩٨٢) والذى كانت له أصداء طويلة الامد حول الارهاب الشيعى ضد أهداف اسرائيلية (٥٢) .

وعلى الجناح اليمينى ، علق أهود أولمرت عضو الكنيست عن الليكود بقوله ان الخطر الذى تشكله منظمة التحرير الفلسطينية على اسرائيل لا يتمثل فى تطرفها ، ولكن فى الاعتدال الزائف الذى استطاع عرفات أن يظهره دون ان يغيب عن بصره هدفه الأول وهو تدمير اسرائيل (وهذا القول يصح فى معرض المناقشة بالمعنى الذى لم يغب فيه عن بصر ديفيد بن جوريون وهو فى السلطة هدفه الأول وهو التوسع الى حدود الأمانى الصهيونية ، بما فى ذلك الكثير من البلدان المحيطة وفى بعض المناسبات « الحدود المذكورة فى التوراة » من النيل الى الفرات فى حين يتم ترحيل سكان تلك المناطق بطريقة . ويقرر البروفيسور مناحم ميلسوف حاكم الضفة الغربية السابق انه من الخطأ الاعتقاد بأن التهديد الذى تشكله منظمة التحرير الفلسطينية بالنسبة لاسرائيل هو اساسا تهـديد عسكرى ، بل هو بالاحرى تهديد سياسى وأيديولوجى . وكان أريل شـارون

الدفاع قد صرح قبل الغزو بان هدوء الضفة الغربية يتطلب تدمير منظمة التحرير الفلسطينية فى لبنان وقد علق زميله اليمينى المتطرف رئيس الأركان رفائيل ايتان بعد ذلك بقوله ان الحرب كانت ناجحة ، لأنها اضعفت بشدة « الوضع السياسى » لمنظمة التحرير الفلسطينية ونضال المنظمة من أجل قيام دولة فلسطينية ، فى حين عززت من قدرة اسرائيل على عرقلة اى هدف من مثل تلك الاهداف على تلك التصريحات ، يلاحظ المؤرخ العسكرى الاسرائيلى أورى ميلشين (وهو مؤيد للحل الأردنى الذى يتبناه حزب العمل) أن من بين أهداف الغزو فى مفهوم شارون ـ ايتان اقامة نظامجديد فى لبنـــان والشرق الاوسط وتشجيع نهج السادات فى عدة دول عربية وضمان ضم يهودا والسامرة (الضفة الغربية) الى دولة اسرائيل وربما التوصل الى حل المشكلة الفلسطينية . وعلى الجانب الآخر من المنظور السياسى يكتب افنون روبنتشتين عضو الكنيست الذى يحظى باعجاب كبير فى الولايات المتحدة لموقفه الليبرالى المعتدل ، يكتب فيقول انه حتى بالرغم من ان وقف اطلاق النار قد تم الالتزام به تقريبا فان غزو لبنان كان عمـــلا له ما يبرره نظرا لوجود تهـديد عسكرى محتمل وغير فعلى : فالاسلحة والذخيرة فى جنوب لبنـــان كانت تتجه النية الى استخدامها فى نهاية الامر ضد اسرائيل . تأمل مغزى تلك المقـولة التى تثير الدهشة فى سياق آخر ، حتى ولو كان علينا ان نأخـذ على محمل الجد المزاعم حول التهديد العسكرى المحتمل لاسرائيل من جانب منظمة التحرير الفلسطينية (٥٤) .

ولاحظ أن روبنشتين توقع المبدأ الهام الذى أعلنته ادارة ريجان فى تبريرها للقصف الذى قامت به الطائرات الامريكية لليبيا عام ١٩٨٦ دفاعا عن النفس ضد هجوم مرتقب ، وهو حق لم يدعيه حتى هتلر ، ولكن الحكومة الامريكية بلغت من الوقاحة حدا جعلها تصف هذا العمل بأنه يتفق مع ميثاق الأمم المتحدة ، الامر الذى صادف استحسانا كبـيرا من جانب نقـــاد اليسار الليبرالى لهذا الانحراف الجـديد فى اللاشرعية الدولية (٥٥) .

ويعترف المدافعون الامريكيون عن الاعمال الوحشية الاسرائيلية بين الحين والآخر بنفس الحقائق . فقبيل الغزو ، طالب مارتن بيرتز محرر « النيوريبيلك » مرددا ما سبق ان قاله شـــارون وايتان ، بضرورة أن تلحق اسرائيل بمنظمـــة التحرير الفلسطينية « هزيمة عسكرية دائمة » فى لبنان من شأنها أن توضـــح للفلسطينيين فى الضفة الغربية أن نضالهم من أجل اقامة دولة مستقلة قد منى بنكسة لسنوات عديدة ، حتى يتحول الفلسطينيون الى شعب مسحوق آخـــر مثل الافغان . وكتب مايكل والزر الاشتراكى الديمقراطى ، الذى يرى أن الحل للعـــرب الفلسطينيين ـ المقيمين داخل اسرائيل أيضاـ يتمثل فى نقل هـــؤلاء الذين يعيشون على حدود الدولة ، (وهو فى أساسه موقف الحاخام العنصرى كاهان) ، كتب فى صحيفة النيوريبيلك بعد الحرب يقول « اننى بالتأكيـد أرحب بالهزيمة السياسية لمنظمة التحـرير الفلسطينية ، واعتقد أن العملة المحـدودة

اللازمة لالحاق تلك الهزيمة يمكن الدفاع عنها على أساس نظرية الحرب المشرعة » (٥٦) .

وباختصار ، فان أهداف الحرب كانت سياسية وكان أحد اهدافها الرئيسية الاراضى المحتلة ، والهدف الآخر هو النظام الجديد فى لبنان (وربما ابعد من ذلك) . وان الحديث حول حماية الحدود من الارهاب لا يعدو كونه حيدة ابتلعتها بشغف أجهزة الاعلام الامريكية سهلة الانقياد فاذاكان بالامكان عودة الارهاب الفلسطينى ، فان ذلك يكون افضل . واذا لم نستطع أن نلقى اللوم على عرفات ، فان بالامكان على الاقل وصمه باعتباره الأب المؤسس للعنف الفلسطينى المعاصر ، حتى يمكن تجنب الجهود التى يبذلها للتوصل الى تسوية سياسية .

ان مشكلة تجنب التوصل الى تسوية سياسية لم تنته بتدمير القاعده السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، كما كان المأمول ، لذلك يتعين أن تبقى أجهزة الاعلام الامريكية على أهبة الاستعداد لمواجهة التهديد . والدفاع عن الحقيقة المبدئية القائلة بأن الولايات المتحدة واسرائيل تسعيان من أجل السلام ، لكن سياسة الرفض العربى تقف فى طريقهما . ولذلك فانه فى خلال شهرى ابريل ومايو عام ١٩٨٤ ، أدلى عرفات بسلسلة من التصريحات ، فى أوربا وآسيا دعا فيها الى الدخول فى مفاوضات مع اسرائيل تؤدى الى الاعتراف المتبادل . وقد رفضت اسرائيل على الفور هذا العرض . ونشرت صحيفة « سان فرانسيسكو اكزامنر » رواية لوكالة اليونيتد برس حول مقترحات عرفات ، كماأوردت الصحف المحلية الحقائق بشكل غير بارز . اما الصحف القومية فقد منعت نشر الرواية فى الحال باستثناء مجرد اشارة لها فى صحيفة « الواشنطن بوست » بعد ذلك ببضعة اسابيع . ورفضت صحيفة « النيويورك تايمز » نشر كلمة واحدة عنها كما منعت نشر رسائل حول الموضوع ، بينما استمرت (جنبا الى جنب مع اجهزة الاعلام بوجه علم) فى ادانة عرفات لعدم رغبته فى انتهاج الطريق الدبلوماسى . وعموماً ، فانه كلما زادت أهمية الصحيفة ، كلما زاد تصميمها على حجب الحقائق (٥٧) .

وفى مقال يتسم بالمرارة بشكل مناسب عن « انتطرف » ونجاحه فى الشرق الاوسط ، كتب توماس فريد مانمراسل صحيفة « النيويورك تايمز » فى اسرائيل يقول ان المتطرفين هم الأفضل دائما فى استغلال أحهزة الاعلام . وهو صادق تماما ، فاسرائيل والولايات المتحدة اظهرتا براعة لا تبارى فى هذا الفن ، مثلما تشير مقالاته وتقاريره الصحفية — مما يجعل البعض يتساءل عما اذا كان ينبغى تسميته بمراسل صحيفة تايمز الاسرائيلية (٥٨) فهو لا يدرج تحت اصطلاح « متطرف » اسماء أولئك المسئولين عن الغالبية العظمى لعمليات الارهاب والذين يرفضون المفاوضات المؤدية الى الاعتراف المتبادل والتوصل الى تسوية سلمية طبقا للاجماع الدولى . بل ان هؤلاء الذين يدعون الى مثل تلك التسوية

السلمية هم المتطرفون الذين يقفــون فى طريق السلام ، فى حين أن الولايات المتحدة وحليفتها اسرائيل بسياسة الرفض المتطرف التى ينتهجــانها هما بالتحــديد « المعتدلون » . ويتبنى هذا الاطــار من المفاهيم بقصد استبعاد أى تفهم ممكن للحقائق والقضايا ، تتبع صحيفة « النيويورك تايمز » بدقة اسلوب اســاتذتها الاسرائيليين مثل ، اسحق رابين أحد كبار المعتدلين الاسرائيليين فى حديثه لصحيفة « النيويورك تايمــز » ، الذى يذكر أن هدف « المتطــرفين » الفلسطينيين « منظمة التحرير الفلسطينية بصفة أساسية » هــو اقامة دولة فلســطينية ذات سيادة فى الضفة الغربية وقطاع غزة . وبطبيعة الحــال فانه عنــدما يستعرض فريد ملن « حقبتين من السعى من أجل السلام فى الشرق الاوســط » فانه يحذف المقترحات العربية الرئيسية التى رفضتها الولايات المتحــدة واسرائيل باعتبار أن تسجيلها تاريخيــا غير مناسب . وفى نفس الوقت يمتدح الزعمــاء الاسرائيليون « للبرجماتية الصحية » التى يتبعونها فى حين ينــدد بمنظمة التحرير الفلسطينية لوقوفها فى طريق السلام (٥٩) .

ان الاسرائيليين العليمين ببواطن الامور يعرفون بطبيعــة الحال موقف عرفات . فمدير المخابرات العسكرية السابق يهوشفات هاركابى ، وهو خبــير بالشئون العربية ومتشدد معروف لسنوات عديدة ، يذكر أن (منظمة التحرير الفلسطينية ترغب فى التوصل الى تســوية سلمية لانها تعرف أن البــديل مخيف وأنه سيؤدى الى الدمار الشامل) وأن « عرفات ، مثل حســين وعرب الضــفة الغربية ، يخشى من أنه اذا لم يتم التوصــل الى تسوية فان اسرائيل ســوف تنفجــر ومعها كل جيرانها بما فى ذلك الفلسطينيون » . ومن ثم ، فان « عرفات يتبى مواقف معتدلة نسبيا فيما يتعلق باسرائيل »(٦٠) .

وتبرز تلك الملاحظات عدة نقاط :

١ ــ ثمة اطار سياسى حاســم يجب أن يفهم فى حدوده الارهاب ، اذا شئنا أن نكون جادين فى الامر.

٢ ــ ان جرائم الطرف الآخــر ، وليست جرائمنا بالمقارنة ، أو ما هــو أســوأ ، هى التى تمثل « الارهاب » ــ وهى فى هذه الحــالة جرائم فلسطينية وليست اسرائيلية أو أمريكية .

٣ ــ يستخدم مفهوما « الارهاب » و « الانتقــام » كاصطلاحين للدعاية ، وليس للوصف . وبشكل حاسم ، فان الهستريا التى تثــار حول أعمال الارهاب التى يتم اختيارها بعنــاية ــ بواسطة العرب سواء كانوا فلسطينيين أو شيعة لبنانيين أو ليبيين أو ســوريين أو حتى ايرانيين ممن يمكن اعتبــارهم عــربا فيما يتعلق بهذا الهدف ــ يقصد بها تحقيق عدة أهداف سياسية معينة . واجراء مزيد من البحث حول الموضوع يعزز تلك النتائج .

وتأمل مرة اخرى مسألة الانتقام . لتدفع الهجوم الصاروخى الأول الذى شنه الشيعة على كيريات شيمونة نفسها فى شهر ديسمبر عام ١٩٨٥ ، بعد احتلال عسكرى بالغ الوحشية دام أكثر من ثلاثة أعوام وبلغ ذروته ابان عمليات القبضة الحديدية التى كان يتبناها شيمون بيريز فى مطلع عـــام ١٩٨٥ . غير ان وحشية المحتلين التى يعلن عنها بين الحين والآخر تفشل فى أن تكون شبيهه بالرواية الكاملة اذ انها تتجاهل الواقع اليومى ، ونفس الشىء يصـــدق على الاعلان بين الحين والآخر عن الأعمال الوحشية الاسرائيلية فى المناطق المحتلة التى تفشل فى أن تقدم الصورة الصحيحة للانحطاط الوحشى والقمع واستغلال الايدى العاملة الرخيصة (بما فى ذلك الاطفال) والرقابة المشددة على الحياة السياسية والثقافية والحد من التنمية الاقتصادية . وتقدم جولى فلينت صورة اكثر دلالة حيث تحكى قصة الحياة والموت فى احدى قرى الشيعة بجنوب لبنان قبل الهجوم الصاروخى بشهر فقد كانت كفر رمانة بلدة زراعية مزدهرة يبلغ تعداد سكانها ٨٫٠٠٠ نسمة وتقع بالقرب من النبطية ابان الفترة التى كان جنوب لبنان يخضع فيها الارهاب منظمة التحرير الفلسطينية ، طبقا للتاريخ الرسمى . وبعد أن تحدثت صحيفة « النيويورك تايمز » عن تحريرها من حكم منظمة التحرير الفلسطينية ، ثم تطويقها بحصنين كبيرين اقامهما الاسرائيليون ، وعملاؤهم اللبنانيون فى جيش جنوب لبنـــان ، حيث تجرى من خلفهما عمليات القنص والقصف المستمرة فى بعض الاحيان من الفجر الى الغسق ، وفى أحيان اخرى لساعات قليلة فقط ، حيث تقع خسائر عديدة فى الأرواح ، مما أدى الى فرار ستة آلاف شخص وترك ثلاثة ارباع البلدة خالية بدون سكان فى تلك القرية التى (تحتضر) حيث لا يوجد ما يدل على نشاط للمقاومة ، واحتمال ضئيل بوجود هذا النشاط بين المزارعين البعيدين عن السياسة على امتداد الأرض المنبسطة بجانب التل (٦١) . فهل كان قصف كريات شيمونة عملا ارهابيا أو انتقاميا ، حتى مع استبعاد الأعمال الوحشية الميتة لعمليات القبضة الحديدية التى كان يتبناها بيريز ورابين ؟ .

ان القاء نظرة على حياة الارهابيين تنطوى ايضا على فائدة فقد أجرت صحيفة « الواشنطون بوست » مقابلة مع احد الارهابيين فى سلسلة عن الارهاب من خمسة أجزاء .وقد تم اختياره حيث يقضى حكما صادرا ضده بالسجن ثمانية عشر عاما فى أحد السجون الاسرائيلية باعتباره « يمثل نموذجا فى نواح عديدة للارهابيين المعتقلين فى السجون من لندن الى الكويت » ففى حياته مأســـــاة شخصية (وفاة والده فى حادث انفجار قنبلة فى القدس فى عام ١٩٤٧) الى جانب اكتشـــافه لنظام عقيدة (الماركسية) تلقى به الى عالم الاغتيال السياسى العمدى وقال ان القنبلة التى قتلت والده وأكثر من تسعين شخصا آخرين كانت من وضع جماعة الارجون الصهيونية السرية برئاسة مناحم بيجين ، وذلك فى المقر العسكرى البريطانى الذى يطلق عليه الآن كما كان من قبل اسم فندق

الملك داود(٦٢) . وقد تعرف على الماركسية من خلال « واقع » الاحوال فى المخيمات الفلسطينية فى الضفة الغربية المحتلة ، ان واقع المناطق المحتلة ليس فقط فى المخيمات مرير وقاس ، على النقيض مما يتردد فى المقالات الافتتاحية بالصحف القومية حيث يمكن أن نعلم أن الاحتلال نموذج للتعاون المستقبلى وانه تجربة للتعايش بين العرب والاسرائيليين(٦٣) . ان الشرح ليس تبريرا ، غير انه من الواضح أن ثمة اسئلة تثور حول الاستخدام السهل لتلك المصطلحات كالانتقام » .

او تأمل سليمان خاطر ، الجندي المصرى الذى قتل سبعة سائحين اسرائيليين على شاطىء بسيناء فى الخامس من اكتوبر عام ١٩٨٥ فقد ذكرت الصحف المصرية أن والدته قالت انها سعيدة لقتل هؤلاء اليهود ، ووصف طبيب فى قرية بحر البقر حادث اطلاق الرصاص بانه تحذير ضد السلام الوهمى بين مصر واسرائيل . فلم رد الفعل المفجع هذا تجاه جريمة لا توصف ؟ ان قصف تونس قبل ذلك بأيام قليلة ربما كان أحد الأسباب غير أن ثمة اسباب اخرى ففى عام ١٩٧٠ قصفت الطائرات الحربية الاسرائيلية بحر البقر واسفر القصف عن مقتل سبعة واربعين تلميذا ابان حرب الاستنزاف ، عندما أدى القصف الاسرائيلى المكثف ، وبعضه كان فى عمق الأراضى المصرية الى نزوح مليون ونصف مليون مواطن من منطقة قناة السويس ، وهدد بنشوب حرب شاملة عندما اسقطت طائرات ميج سوفيتية يقودها طيارون سوفيت للدفاع عن عمق مصر بواسطة طائرات فانتوم نفاثة حصلت عليها اسرائيل حديثا(٦٤) . ان ثمة شيئا مفقودا اذن ، عندما يذكر مراسل صحيفة « النيويورك تايمز » فى اسرائيل صراحة أن خاطر تصرف بدوافع وطنية ومعادية لاسرائيل(٦٥) — وهو شىء لم يكن بالامكان تجاهله بالتأكيد لو أن الموقف كان مقلوبا .

وقد زعمت منظمة التحرير الفلسطينية أن الاسرائيليين الثلاثة الذين قتلوا على اليخت فى لارناكا كانوا مشتركين فى عمليات اختطاف اسرائيلية لسفن تتجه من قبرص الى بيروت . وعلى كل ، فان ديفيد شاهام ، وهو صحفى اسرائيلى ، يعرف بهم على أنهم حمائم اسرائيليون معروفون بتعاطفهم مع العرب (٦٦) .

ولنفترض صحة ما قاله شاهام (٦٧) ومع كل ، فانه مما لا شك فيه ان اسرائيل كانت تقوم بعمليات قرصنة واختطاف فى البحر لسنوات عديدة دون اهتمام يذكر أو دون قلق فى الولايات المتحدة حول تلك الجريمة ، التى تثير عواطف جياشة وغضبا شديدا عندما يكون مقترفوها من العرب . وقد ذكر الجنرال المتقاعد ماتياهو بيليد عضو الكنيست الاسرائيلى فى عام ١٩٦٧ ، ان البحرية الاسرائيلية بدأت فى الاستيلاء على زوارق يملكها مسلمون لبنانيون وتسليمها الى حلفاء اسرائيل المسيحيين اللبنانيون الذين كانوا يقتلون افراد أطقمها ، فى محاولة لافشال محاولات التوفيق بين منظمة التحرير الفلسطينية واسرائيل . وقد اقر

رابين رئيس الوزراء تلك الحقائق ولكنه قال ان الزوارق تم الاستيلاء عليها قبل اتخاذ تلك الترتيبات ، فى حين رفض شيمون بيريز وزير الدفاع التعليق . وبعد عملية تبادل للأسرى فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٣ ، ذكرت رواية نشرت فى الصفحة الاولى بصحيفة « النيويورك تايمز » فى فقرتها الثامنة عشرة أن البحرية الاسرائيلية ألقت القبض على سبعة وثلاثين سجينا عربيا ، كانوا محتجزين فى سجن أنصار الشهير ، أثناء محاولتهم التوجه من قبرص الى طرابلس ، شمالى بيروت ، وهى ملاحظة لم تستحق التعليق فى الصحيفة أو فى أى مكان آخر (٦٨) .

وفى شهر يونيو عام ١٩٨٤ ، اختطفت اسرائيل عبارة تعمل ما بين قبرص ولبنان على مسافة خمسة أميال من الساحل اللبنانى ، وأرغمتها على التوجه الى حيفا ، حيث تم القاء القبض على تسعة أشخاص ، ثمانية من اللبنانيين والتاسع سورى . وقد تم اطلاق سراح خمسة بعد استجوابهم واحتجاز اربعة ، من بينهم امرأة وتلميذ كانا عائدين من انجلترا لقضاء أجازة فى بيروت ، وأطلق سراح اثنين آخرين بعد ذلك بأسبوعين ، فى حين ظل مصير الآخرين غير معلوم . وقد اعتبر الأمر من التفاهة بحيث يتعين على المرء أن يبحث عن أشياء بسيطة فى الصفحات الخلفية للوصول الى معلومات عن مصير الركاب المختطفين . وقد أشارت صحيفة « الاوبزرفر » اللندنية الى وجود « دافع سياسى » لارغام الركاب على استخدام العبارة التى تعمل من ميناء جونيه المارونى بدلا من ميناء بيروت الغربية المسلم ، أو الاشارة الى اللبنانيين بأنهم « عاجزون » وينبغى عليهم أن يتصالحوا مع اسرائيل . وقد استنكرت لبنان « عمل القرصنة » هذا ، الذى وصفه جود فرى جانسن بأنه (بند آخر فى قائمة « البلطجة » الدولية لاسرائيل) . ويضيف أن « الاسرائيليين » ، استمرارا لمسلسل الارهاب البحرى ، قاموا بعد ذلك بقصف جزيرة صغيرة بالقرب من طرابلس قيل انها قاعدة للعمليات البحرية لمنظمة التحرير الفلسطينية وهو ادعاء يرفضه باعتباره « سخيفا » . وقد اعلن البوليس اللبنانى ان خمسة عشر شخصا قتلوا وأصيب عشرون آخرون بجراح ، فى حين بلغ عدد المفقودين عشرين ، جميعهم لبنانيون من صيادى الاسماك والاطفال فى مخيم للكشافة السنيين ، كان أسوأ ما ضرب من أهداف .

وتلاحظ « النيويورك تايمز » فى تقريرها عن « الاعتراض » الاسرائيلى للعبارة ، انه قبل حرب عام ١٩٨٢ ، دابت البحرية الاسرائيلية على اعتراض السفن المتجهة الى مينائى صور وصيدا فى الجنوب أو المغادرة منهما وتفتيشها بحثا عن فدائيين ، وهى كالعادة تقبل الادعاءات الاسرائيلية على عواهنها ، فى حين ان « اعتراض » منظمة التحرير الفلسطينية للسفن الاسرائيلية المدنية بنفس الذريعة يعتبر أمرا مختلفا الى حد ما . وبالمثل ، فان اختطاف اسرائيل لطائرة مدنية ليبية فى الرابع من فبراير عام ١٩٨٦ قد قوبل باتزان ، وتعرض للنقد على انه خطأ استند الى معلومات خاطئة (٧٠) . وفى الخامس والعشرين من شهر ابريل عام ١٩٨٥ ، تم اختطاف عدة أشخاص فلسطينيين من زوارق مدنية تعمل

ما بين لبنان وقبرص وتم نقلهم الى اماكن غير معلومة فى اسرائيل ، وهى حقيقة اصبحت من قبيل المعلومات العامة (فى اسرائيل) عندما يتم اجراء مقابلة مع احد فى التليفزيون الاسرائيلى مما يؤدى الى تقديم استئناف الى المحكمة العليا للحصول على معلومات ، فربما تكون هناك معلومات اخرى غير معروفة (٧١) .

ولا تثير اى من تلك الحالات ، التى يعرف معظمها من خلال التعليق العرضى فقط ،اى اهتمام او قلق، اكثر مما يحدث عندما يتردد عرضا أن الأسرى العرب، الذين اطلق سراحهم فى عملية تبادل للأسرى مع سوريا ، كانوا فى الحقيقة « مواطنين دروز من قرى تقع داخل المنطقة التى ضمتها اسرائيل اليها من مرتفعات الجولان الاستراتيجية »(٧٢) . ويعتبر امتيازا خاصا باسرائيل أن تقوم بعمليات الاختطاف والقرصنة للسفن ، حسبما تشاء ، وكذلك عمليات القصف لما تسميه « اهدافا ارهابية » بتأييد واضح من الرأى العام فى الولايات المتحدة ، مهما كانت الحقائق المتعلقة بالأمر .

ولعلنا نتوقف لحظة عند الهجوم الاسرائيلى على الجزيرة الواقعة بالقرب من طرابلس فى شمالى بيروت ، التى قتل فيها صيادون وصبية كشافة فى أحد المخيمات . ان هذا الحادث لم يأخذ سوى اهتمام ضئيل ولكن تلك هى القاعدة بالنسبة لمثل تلك الأعمال الوحشية الاسرائيلية المنتظمة والتى يعتبر فيها هذا الحادث اقل من الحوادث الأخرى الأكثر خطورة . اما الهجمات الفلسطينية فهى شىء مختلف . فليس هناك حادث يذكر يفوق فى رعبه الحادث الوحشى فى معلوت فى عام ١٩٧٤ ، الذى قتل فيه اثنان وعشرون من اعضاء مجموعة شبابية شبه عسكرية اثناء تبادل لاطلاق النار بعد ان رفض موشى ديان ، رغم اعتراض الجنرال موردخاى جور ، بحث التفاوض حول طلب الارهابيين اطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين »(٧٣) . وقد يكون هناك من يتساءل عن سبب اعتبار قتل صبية كشافة لبنانيين عملا وحشيا أقل مستوى — أو أنه ليس عملا وحشيا على الاطلاق نظرا لأن الذى ارتكبته « دولة تهتم بحياة الانسان » ، (صحيفة واشنطون بوست، التى يعتبر « هدفها الاخلاقى السامى » (مجلة تايم) موضع احترام واستحسان لا ينتهى ، دولة ، تعتبر ، طبقا لما تردده جوقة الدعاية الأمريكية المؤيدة لها « على مستوى قانونى عال ، على حد قول صحفيين عنها » (والتر جودمان)(٧٤) .

وقبل حادث معلوت بيومين ، قامت الطائرات النفاثة الاسرائيلية بقصف قرية القلير اللبنانية واسفر الهجوم عن مقتل اربعة مدنيين وطبقا لقول ادوارد سعيد ، فان حادث معلوت « سبقته قصف اسرائيلى بالنابالم على مدى عدة اسابيع لمخيمات اللاجئين الفلسطينيين فى جنوب لبنان » وأسفر عن مقتل اكثر من مائتى شخص . وفى نفس الوقت كانت اسرائيل منهمكة فى عمليات حرق الاراضى على نطاق واسع فى جنوب لبنان فى شكل هجمات جوية وقصف بالمدفعية والزوارق الحربية وعمليات كوماندوز استخدمت فيها القذائف والقنابل

والاسلحة المضادة للافراد والنابالم ، وربما بلغ عدد القتلى الآلاف (وعلى الغرب الا ينزعج ، حيث لا توجد أرقام دقيقة لعدد القتلى) وتم نزوح مئات الآلاف الى الشمال يقيموا فى أكواخ حول بيروت (٧٥) . وكان الاهتمـام بالامر ضئيلا والنشر عنه محدودا . فلم يسـجل اى من ذلك فى سجلات الارهاب كمـا أنه حتى لم يحدث طبقا للتاريخ المصحح ، على الرغم من أن الهجمات الارهابية الفلسطينية الفتاكة فى مطلع السبعينات قد أدينت بشـدة (وبحق وبطبيعـة الحـال ؛ ولا تزال تعتبر دليلا على أن الفلسطينيين لا يمكن ان يكونوا شركاء فى مفاوضـات حول مصيرهم . وفى نفس الوقت يتم التنـديد بشكل منتظم بوسائل الاعلام على اعتبار أنها تبالغ فى انتقـاد اسرائيل وأنها تسـاند منظمة التحرير الفلسطينية ، وهو انقلاب فى الدعاية ذو أبعاد كبيرة للغاية . وتكشف حقيقة أن تلك الاتهامات يمكن توجيهها دونما تهكم فى حد ذاته تكشف عن الالتزام غير العادى للمؤسسـة الفكرية الامريكية بسياسة الرفض والعنف التى تنتهجهـا الولايات المتحـدة واسرائيل .

ويمكننا أن نذكر تفسير تلك الاحداث ، والذى يقـدمه قادة اسرائيليون يكرمون هنا باعتبارهم « معتدلين » ، فعلى سبيل المثال ، قال اسحق رابين ، الذى كان سفيرا لبلاده لدى واشنطن ثـم أصبح رئيسا للوزراء خلال الفترة التى وقعت فيها أسـوأ الاعمال الوحشية الاسرائيلية فى لبنان ، قبل كامب ديفيد ، قال : « اننا لم نستطع تجاهل الكارثة التى لحقت بالسكان المدنيين فى جنـوب لبنان ... وكان من واجبنا الانسانى أن نقـدم يد المساعدة لسـكان المنطقـة ونحول دون محوها بواسطة الارهابيين المعاديين » (٧٦) ولم يجد القارىء لمذكرات رابين ، التى تظهر فيها تلك الكلمات ، اى خطأ ، وبهذه الفعالية تمت كتابة تاريخ يخدم عقيدة أيديولوجية ، والى هـذا الحد بلغ عمـق العنصرية ضد العرب فى الغرب .

ان اسرائيل ليست الوحيـدة التى تتمتع بحق القرصنة والاختطـاف فقد اتهـم تقرير لوكالة تاس يدين اختطاف السـفينة اخيلى لورو فى شهر اكتوبر عام ١٩٨٥ — اتهم الولايات المتحدة بالنفاق ، لان الشخصين اللذين قاما باختطاف طائرة ركاب سوفيتية ، وقتـلا احدى مضيفات الطائرة وجرحا عددا آخـر من أفراد طاقمها ، منحا حق اللجـوء الى الولايات المتحـدة ، التى رفضـت تسليمها (٧٧) . أن هذه القضية ليست معروفة جيدا ، ويبدو أن تهمة النفـاق ربما كانت لها فائدة معينة . وقد يذكر المرء أول حادث اختطاف طائرة فى الشرق الاوسط وهو أيضا عمل ليس مالوفا . فقد قامت به اسرائيل فى شهر ديسمبر عام ١٩٥٤ عندما اعترضت مقاتلات اسرائيلية طائرة ركاب تابعة للخطـوط الجوية السـورية وأجبرتها على الهبوط فى مطار اللد وكانت نية موشى ديان رئيس الاركان تتجه الى الحصـول على رهائن حتى يتسنى اطلاق سراح أسرانا الموجودين فى دمشق ، هذا ما ذكره موشيه شـاريت رئيس الوزراء فى يومياته

الشخصية . والاسرى المعنيون هم جنود اسرائيليون كان قد تم أسرهم أثناء مهمة تجسس داخل سوريا ، ونحن نذكر أن ديان هو الذى أصدر أوامره بعد ذلك بعشرين عاما بالقيام بمحاولة الانقاذ التى أدت الى مقتل الشباب الاسرائيليين فى معلوت الذين كانوا قد اخذوا كرهائن فى محاولة لاطلاق سراح أسرى فلسطينيين محتجزين فى اسرائيل . وكتب شاريت يقول : « لم يكن لدينا مبرر من اى نوع للاستيلاء على الطائرة » وانه لم يكن لديه مايدعو الى الشك فى حقيقة التأكيد لوزارة الخارجية الامريكية بأن الاجراء الذى أقدمنا عليه لم يكن له سابقة فى تاريخ العرف الدولى . غير أن الحادث اختفى من التاريخ ، الى حد ان مندوب اسرائيل لدى الأمم المتحدة بنيامين نيتانيا هو ظهر على شاشة التليفزيون القومى ليتهم منظمة التحرير الفلسطينية « باختراع » عمليات اختطاف الطائرة واغتيال الدبلوماسيين دون أن يخشى التناقض (٧٨) .

وفيما يتعلق باغتيال الدبلوماسيين ، فاننا يمكن ان نذكر فقط اغتيال وسيط الامم المتحدة فولك برنادوت فى عام ١٩٤٨ بواسطة جماعة ارهابية يراسها الرئيس المباشر لنتانياهو ، وزير الخارجية أسحق شامير الذى كان أحد القادة الثلاثة الذين اصدروا الاوامر بالاغتيال (الشخص الثانى ، وهو متوفى الآن ، كان معلقا محترما فى الصحف الاسرائيلية لسنوات عديدة ، ونفس الشيء بالنسبة للشخص الثالث) . وقد اعترف صديق مقرب لبن جوريون سرا بأنه كان احد الذين قاموا بالاغتيال ، غير أن بن جوريون احتفظ بالسر ، ورتبت الحكومة الاسرائيلية لهروب المسئولين عن الاغتيال من السجن وسفرهم خارج البلاد . وكتب جون كيمشى المؤرخ الصهيونى فى تقريره كشاهد عيان يقول أنه لم تكن هناك مطالبة أو تصميم على مستوى الدولة على القبض على مرتكبى الجريمة ، كما لم يكن هناك شعور يذكر بالغضب المعنوى وكان موقف الاغلبية يتمثل فى أن عدوا آخر لليهود قد سقط على جانب الطريق وادين حادث الاغتيال وتم الاعراب عن الاسف والحزن لوقوعه لأنه يلقى ظلالا على اسرائيل ، ويجعل عمل دبلوماسييها أكثر صعوبة ، ولم يكن ذلك مرجعه الى أنه من الخطأ فى حد ذاته اللجوء الى الاغتيال (٧٩) .

ان الاعمال العربية وحدها هى التى تبقى فى ذاكرتنا المنتقاة بشكل مفيد باعتبارها تجسد « نكبة الارهاب اللعين » . فبعد اختطاف السفينة أخيلى لورو انتقاما لقصف تونس ، أصبحت قضية اختطاف السفن مثار قلق كبير لدى الغرب . وقد انتهت دراسة قامت بها وكالة انباء رويتر الى نتيجة مؤداها ان عددا قليلا فقط من حوادث اختطاف السفن وقع منذ عام ١٩٦١ « واوردت الوكالة امثلة قليلة لعمليات اختطاف قام بها مسلمون ، ومن الواضح ان العمليات التى قام بها الاسرائيليون لم تكن ضمن القائمة (٨٠) .

أن الاختطاف ليس الشكل الوحيد للارهاب الذى يستثنى من هذا الوصف عندما يقوم به أصدقاؤنا . فقد ذكرت جين كير كباتريك أن نسف سفينة

حركة السلام الاخضر التى كانت تحتج ضد الاسلحة النووية بواسطة عملاء فرنسيين وراح ضحيته شخص واحد لم يكن ارهابيا . وقالت « أود أن أقول أن من الواضح أن الفرنسيين لم يكونوا يعتزمون مهاجمة المدنيين والمتفرجين وتشويههم أو تعذيبهم أو قتلهم » . وهو دفاع يمكن أن يقدمه الارهابيون الآخرون بسهولة وارتياح . وكتبت صحيفة « ذى اشيان وول ستريت جورنال » فى مقالها الافتتاحى تحت عنوان « افضل ساعة لميتران » ــ كتبت تقول أن (حملة السلام الاخضر تتسم فى جوهرها بطابع العنف والخطورة ...) وأن استعداد الحكومة الفرنسية لاستخدام القوة ضد « ذى رينبو واريور » ... يوحى بأن الحكومة لديها أولوياتها . (٨١)

ولعل جورج شولتز يستحق جائزة النفاق حول هذا الامر . ففى حين يدعو الى القيام بحملة « نشطة » ضد الارهاب ، نجده يصف الادعاء بأن « الارهابى بالنسبة لشخص » هو مناضل فى سبيل الحرية بالنسبة لشخص آخر هو ادعاء مخادع : فالمناضلون فى سبيل الحرية أو الثوار لا يقومون بنسف الحافلات التى تنقل المدنيين العزل من السلاح ، فى حين يفعل انقتلة الارهابيون ذلك . والمناضلون فى سبيل الحرية لا يغتالون رجال الأعمال الأبرياء او يختطفون الابرياء من الرجال والنساء والاطفال . فى حين يفعل القتلة الارهابيون ذلك ... ان رجال المقاومة فى أفغانستان لا يدمرون القرى أو يقتلون العزل من السلاح . ورجال الكونترا فى نيكاراجوا لا يقومون بنسف حافلات المدارس أو ينفذون الاعدام الجماعى للمدنيين . والحقيقة أن الارهابيين الذين يقودهم شولتز فى نيكاراجوا كما يعلم ، متخصصون تماما فى أعمال القتل ضد المدنيين وكذلك فى التعذيب ، والاغتصاب والتشويه ، وسجل ارهابهم البغيض محفوظا جيدا بالرغم من تجاهله ونسيانه على وجه السرعة ، وحتى انكاره من جانب المتعاطفين مع الارهابيين . كما أن رجال المقاومة فى افغانستان قاموا ايضا بأعمال وحشية من النوع الذى يدعو الى الاستنكار الشديد فى الغرب فى حالة ما اذا كانت القوات المهاجمة (التى ستدعى عندئذ « بالمحررين » الذين يقاتلون دفاعا عن النفس) امريكية أو اسرائيلية .

وبالنسبة لأصدقاء شولتز فى جبهة يونيتا بانجولا ، فانهم ، قبل حديثه ببضعة اشهر ، كانوا يفاخرون بأنهم اسقطوا طائرات ركاب مدنية ، قتل من ركابها ٢٦٦ شخصا ، وأنهم اطلقوا سراح ستة وعشرين رهنية ظلوا محتجزين تسعة أشهر ، من بينهم واحد وعشرين برتغاليا وأعضاء بعثات تبشيريه اسبانية وأمريكية لاتينية . كما أنهم اعلنوا عن « حملة جديدة للارهاب المدنى » ، على حد قول وكالة الاسوشيتدبرس فقد تحدثت الوكالة عن عملية نسف فى لواندا أسفرت عن مقتل ثلاثين شخصا واصابة أكثر من سبعين آخرين بجراح عندما انفجرت سيارة جيب محملة بالديناميت داخل المدينة . كما قاموا بأسر معلمين وأطباء وغيرهم من الاوربيين ، ذكرت الصحف أن عددهم بلغ ١٤٠ اسيرا اجنبيا،

من بينهم ستة عشر من الفنيين البريطانيين « أخذوا رهينة » ، وهو ما اعلنه جوناس سافيمبى ،الذى قال أنه لن يتم أطلاق سراحهم قبل أن تقدم تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا نوعا ما من الاعتراف بمنظمته . وقد استمرت مثل تلك الاعمال بشكل منتظم ، مثل ، نسف احد الفنادق فى شهر ابريل عام ١٩٨٦ ، وأدى الحادث الى مقتل سبعة عشر اجنبيا واصابة كثيرين آخرين بجراح . وزعمت جين كيركباتريك أن (سافيمبى هو احد الابطال القليلين الحقيقيين فى عصرنا) ، وذلك فى اجتماع لمؤتمر العمل السياسى المحافظ حيث استقبل سافيمبى بالتصفيق الحاد عندما اقسم بأن يهاجم منشآت النفط الامريكية فى بلاده وهى خطة تهدف الى قتل الامريكيين لا تقوم على أساس مبدأ « الدفاع عن النفس ضد أعتداء مرتقب » ، وهو المبدأ الذى استخدم فى قصف القذافى ، كما أنه لم يحدث قصف لجوهانسبرج بعد ان تم أسر المرتزقة التابعين لجنوب افريقيا فى شهر مايو عام ١٩٨٢ فى شمال انجولا أثناء مهمة لتدمير تلك المنشآت وقتل الامريكيين. ان الدولة الارهابية ينبغى عليها أن تمارس أحكاما تتسم بالفطنة . وفى عالم الواقع يعتبر سافيمبى فى نظر شولتز وكيركباتريك وغيرهما من كبار القادة الارهابيين والمدافعين عن الارهاب مناضلا فى سبيل الحرية نظرا لان جبهة تحرير انجولا المعروفة باسم يونيتا تحظى بتأييد واسع النطاق من جانب الجماعات العميلة لجنوب افريقيا التى تستخدم فى زعزعة الاستقرار فى الدول المجاورة حسبما يرى بارى منسلو وفيل أوكيف (٨٢) .

اما بالنسبة لجيوش الكونترا التى يؤيدها شولتز ، فان مهمتها الرئيسية هى وضع سكان نيكاراجوا المدنيين جميعهم رهينة تحت تهديد الارهاب السادى لارغام الحكومة على أن تتخلى عن أى التزام بتلبية احتياجات الأغلبية الفقيرة ، وأن تفضل بدلا منها اتباع سياسة « معتدلة » وديموقراطية تقوم على أساس تلبية احتياجات المصالح الأمريكية وعملائها المحليين مثلما يتبع على نحو سليم فى الدول التى تدور فى فلك الولايات المتحدة وتخضع لها . غير أنه فى ظل المناخ الثقافى الفاسد الذى يرتع فيه أولئك القادة الارهابيون والمدافعون عنهم ، تمر تصريحات شولتز وتصريحات أخرى مماثلة دون أن تثير أية دهشة أو تعجب .

ومن الواضح أن الاحتفاظ بالرهائن يعد عملا من اعمال الارهاب ، ومما لاشك فيه ، اذن أن اسرائيل مدينة بالقيام بعمل خطير من أعمال الارهاب الدولى عندما قامت بنقل ١٢٠٠ سجين ، معظمهم من الشيعة اللبنانيين ، الى اسرائيل خارقة ذلك القانون الدولى أثناء انسحابها من لبنان ، زاعمة أنه سيتم اطلاق سراحهم طبقا لجدول زمنى غير محدد يتم تحديده حسب الموقف الأمنى فى جنوب لبنان بمعنى الاعلان صراحة بانه سيتم الاحتفاظ بهم كرهائن ، وربط ذلك

باثبات « حسن السلوك » من جانب السكان المحليين الذين تتولى القوات الاسرائيلية وعملاؤها مراقبتهم فى منطقة الأمن بجنوب لبنان وفى المناطق المحيطة بها . وكما ذكرت مارى ماكجرورى فى تعليق لها خرج عن المألوف بوجه عام أن المعتقلين كانوا رهائن فى السجون الاسرائيلية فهم ليسوا مجرمين ولكن تم الاحتفاظ بهم كضمان ضد أى هجوم عندما ينسحب الاسرائيليون فى نهاية الأمر من لبنان والحقيقة أنه لم تكن هناك نية للانسحاب من جنوب لبنان ، حيث تحتفظ اسرائيل بمنطقة الأمن الخاصة بها ، وأن الانسحاب الجزئى كان انجازا حققته المقاومة اللبنانية . وقد تم نقل مائة وأربعين سجينا سرا الى اسرائيل فى شهر نوفمبر عام ١٩٨٣ خرقا لاتفاق الصليب الاحمر لاطلاق سراحهم فى عملية لتبادل الاسرى بعد اغلاق سجن أنصار (بشكل مؤقت كما حدث فى الواقع) الذى كان مسرحا لاعمال وحشية . وقد رفض السماح للصليب الأحمر بزيارتهم حتى شهر يوليو عام ١٩٨٤ . وصرح نعمان شائى المتحدث باسم وزارة الدفاع الاسرائيلية بأن اربعمائة من بين سبعمائة وستة وستين سجينا لا يزالون فى الحجز فى شهر يونيو عام ١٩٨٥ كان قد ألقى القبض عليهم بتهمة القيام بعمليات ارهابية — يعنى مقاومة الاحتلال العسكرى الاسرائيلى فى حين أنه ألقى القبض على الآخرين بتهمة القيام بأنشطة سياسية أقل عنفا ، أو تنظيم عمليات تستهدف تقويض وجود الجيش الاسرائيلى فى لبنان ، على حد قول السيد شائى (٨٣) .

وكانت اسرائيل قد وعدت باطلاق سراح ثلاثمائة وأربعين رهينة فى العاشر من يونيو ، غير أنها ألغت هذا الاجراء فى آخر دقيقة لأسباب أمنية لم يقدم تفسير كامل لها (٨٤) . وبعد ذلك باربعة أيام قام شيعة لبنانيون ، قيل انهم أصدقاء وأقارب للرهائن المحتجزين لدى اسرائيل باختطاف طائرة تابعة لشركة تى دبليو أيه بالرحلة رقم ٨٤٧ ، واحتفظوا برهائن فى محاولة لاطلاق سراح أولئك الذين تحتجزهم اسرائيل ، الأمر الذى أثار موجة أخرى من الهستيريا المنافقة والموجهة باحكام فى الولايات المتحدة ، تصحبها تصريحات يغلب عليها طابع العنصرية الصريحة بالاضافة للهجوم المتكرر على أجهزة الاعلام لاتاحتها الفرصة للخاطفين لشرح موقفهم ، وبذلك يتدخلون بالتأديب المتعسف الذى يعتبر مناسبا داخل نظام الدعاية . ولم يكن المختطفون الاسرائيليون فى حاجة للاتصال باجهزة الاعلام الامريكية ، التى ابدت سعادتها بنقل رسائلهم ، باعتبارها فى كثير من الاحيان « أخبارا » .

وقد استبعدت الصحف تصريحات الخاطفين بأنهم يرغبون فى ضمان اطلاق سراح الرهائن الذين تحتفظ بهم اسرائيل — والذين لم يكونوا بطبيعة الحال رهائن بالمنطق الامريكى حيث انهم محتجزون « بجانبنا وجرى فضح سخافة الادعاء الشيعى بسهولة . فاوضحت فلورا لويس بقولها انه ليس من شيمة الشيعة المناضلين ، الذين يمجدون الاستشهاد ولا يترددون كثيرا فى أخذ أرواح الآخرين ، أن يستبد بهم القلق على موعد الاسرى . وهو تفسير آخر للفكرة

المفيدة القائلة بأن المستويات الادنى لا تشعر بالالم وعرض محررو صحيفة « النيويورك تايمز » صورة عاطفية مؤداها أن اسرائيل كانت تعتزم أن تسترضى الشيعة الساخطين فى الاسبوع الماضى (أى قبل أيام قليلة من اختطاف الطائرة الامريكية تى دبلو ايه) ، غير أنها أرجأت ذلك بعد اختطاف بعض أفراد القوة الفنلندية التابعة لقوات الأمم المتحدة فى لبنان . وكانت النيويورك تايمز قد نقلت نبأ لها من تسعين كلمة الاتهام الذى تقدمت به فنلندا بانه أثناء ذلك الحادث ، الذى لم يكن له علاقة على الاطلاق ، لاحظ ضباط اسرائيليون رجال الميلشيات اللبنانيين يقومون بضرب الضباط الفنلنديين المختطفين الذين يعملون مع قوات الأمم المتحدة فى لبنان ، غير انهم لم يفعلوا شيئا لمساعدتهم ، فى حين انهم كانوا يضربون بقضبان حديدية ، وخراطيم مياه وبنادق بواسطة افراد من جيش جنوب لبنان . وارعدت صحيفة « النيويورك تايمز » باعلانها أن جرائم كثيرة تحدث هنا ، منددة بخاطفى الطائرة تى دبلو ايه وبالسلطات (لتهاونيها) وحتى الولايات المتحدة — لفشلها فى معاقبة ايران لتسترها على قتلة شخصين أمريكيين فى حادث اختطاف وقع فى العام الماضى . غير أن احتفاظ اسرائيل بالرهائن لم يكن أحد تلك الجرائم.(٨٦) .

وقد أكد برنارد لويس ، الذى تجعل سمعته العلمية من غير اللازم تقديم ادلة أو تنفيذ أدلة مضادة واضحة ، أكثر صراحة أن الخاطفين أو من أرسلوهم لابد أنهم كانوا يعرفون تماما أن الاسرائيليين كانوا يعتزمون بالفعل اطلاق سراح الاسرى الشيعة وأسرى لبنانيين آخرين ، وأن تحديا عاما من هذا القبيل يمكن فقط أن يؤخر ، لاأن يعجل باطلاق سراحهم ، وكان باستطاعتهم المضى فى تحدى أمريكا ، واذلال الأمريكيين لأنهم كانوا يعرفون أن وسائل الاعلام الخانعة سوف تمدهم بدعاية غير محددة وربما بنوع ما من التأييد . تذكر أن ذلك هو صوت مثقف محترم فىصحيفة محترمة ، وهى حقيقة تبرهن مرة أخرى على حالة السعار المضحك التى تمر بها الحياة الفكرية .

وقد استبعد محررو « النيوريببلك » الالتماس الذى قدمه الشيعة لاطلاق سراح الرهائن المحتجزين لدى اسرائيل باعتباره « محض هراء » ذلك أن عمليات القرصنة والاختطاف والقتل والذبح هى الاسلوب الذى يمارس به الشيعة والفصائل الأخرى فى لبنان عملهم السياسى ، والجميع كانوا يعلمون أن الأسرى المحتجزين لدى اسرائيل كان مقرر اطلاق سراحهم عندما تكون اسرائيل فى وضع جيد ومستعدة لذلك .

وقد صعد الرئيس ريجان حالة الهستيريا درجة أخرى ، عندما أوضح أن الهدف الحقيقى للارهابيين ليس اقل من « طرد أمريكا من العالم » ، فى حين شجب نورمان بروهورتز،فى معرض اشارته الى أن استخدام القوة من المحتمل ان يؤدى الى قتل الرهائن الامريكيين وشجب ريجان لفشله فى ان يخاطر بالحياة نفسها (أى بحياة الآخرين) دفاعا عن الكرامة الوطنية .

وقد دعا ادوارد كوش حاكم نيويورك الى قصف لبنان وايران ، واتخذ آخرون غيره ، مواقف بطولية مناسبة(٨٧) ٠

غير أن القارىء الدقيق يستطيع أن يكتشف بين طيات التقارير الاخبارية من أزمة الرهائن ، أن الفين من الشيعة اللبنانيين ، ومن بينهم سبعمائة طفل ، فروا من ديارهم تحت نيران القصف من جانب جيش جنوب لبنان ، الذى أطلق الرصاص أيضا على عربات جيب قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة ، فى الوقت الذى اكتسحت فيه قوة مشتركة من القوات الاسرائيلية والميليشيات المسيحية احدى قرى جنوب لبنان اليوم والقت القبض على تسعة عشر من الشيعة وهو ما أعلنه متحدث باسم الامم المتحدة(٨٨) ٠

وبعد حادث القرصنة الجوية ، بدأت اسرائيل تطلق سراح رهائنها طبقا لجدول زمنى من اعدادها ، وقد أسرعت فى تنفيذه على ما يبدو نظرا لأن حادث اختطاف الطائرة تى دبلوايه قد ركز الانتباه الدولى على عملية الاختطاف الاكثر أهمية الى حد كبير والتى قامت هى بها . وعندما تم اطلاق سراح ثلاثمائة شخص فى الثالث من شهر يوليو نقلت وكالة انباء اسوشيتدبرس شهادتهم بأنهم تعرضوا للتعذيب والتجويع ، فى حين لم يسمع توماس فريدمان مراسل صحيفة « النيويورك تايمز » سوى قولهم « لقد عوملنا معاملة حسنة من قبل الاسرائيليين ٠٠ » وفى نهاية الأمر ، كتب ريجان خطابا لى شيمون بيريز يقول فيه ان أزمة رهائن بيروت دعمت العلاقات بين الدولتين ، ولم يقل شيئا حول « أزمة الرهائن » الأخرى التى ليست جزءا من التاريخ الرسمى(٨٩) .

وحتى بمقاييس الانباء الغربية ، فان الأعمال الاسرائيلية يمكن اعتبارها من قبيل الاحتفاظ برهائن مالم تكن اسرائيل بوصفها دولة عميلة للولايات المتحدة ، معفاة من تلك التهمة . ولكن من المهم التأكيد ثانية على حدود مفاهيم اورويل فيما يتعلق بالحوار السياسى المعاصر الذى تؤول فيه مصطلحات مثل « الارهاب » و « الرهينة » بصورة تستبعد الأمثلة بالغة التطرف كما هى الحال بالنسبة لنيكاراجوا أو جنوب لبنان ، حيث يتم الاحتفاظ بالسكان بأكملهم كرهائن لضمان الانصياع لمطالب السيد الأجنبى . ويعتبر مثل هذا الاستخدام اجباريا ، فى ظل الطبيعة الحقيقية للارهاب الدولى والضرورة الواضحة لمنع أى استيعاب له .

وينبغى أن نعترف فى حالة التركيز على الشرق الأوسط ــ بأنه عند مستوى معين فان الامر مفهوم تماما من قبل منظمى الارهاب الدولى وقدشرح الدبلوماسى الاسرائيلى أبا ايبان الذى يعتبر من كبار دعاة السلام ، سبب الهجمات الوحشية على جنوب لبنان خلال السبعينات بقوله : « ان ثمة احتمالا منطقيا ، تحقق فى نهاية الأمر ، يتمثل فى أن يمارس السكان المتأثرين ضغطا من أجل وقف الاعمال العدوانية » . وترجمة ذلك بلغة واضحة تعنى :

أن سكان جنوب لبنان قد تم الاحتفاظ بهم كرهائن لممارسة الضغط عليهم كي يرغموا الفلسطينيين على قبول الوضع الذى حددته لهم حكومة العمل التى كان يمثلها ايبان الذى كان قد أعلن أن الفلسطينيين ليس لهم دور يلعبونه فى أية تسوية سياسية . وشرح موردخاى جور رئيس الاركـــان ذلك فى عام ١٩٧٨ بقوله اننا على مدى ثلاثين عاما ... نحارب ضد سكان يعيشون فى القرى والمدن ، مشيرا الى حوادث مثل قصف مدينة اربد الأردنية واستخدام القصف فى طرد عشرات الآلاف من سكان وادى الأردن ، ومليون ونصف مليون مواطن من منطقة قناة السويس ، ضمن أمثلة أخرى ، جميعها جزء من برنامج الاحتفاظ بالسكان المدنيين كرهائن فى محاولة لمنع مقاومة التسوية السياسية التى فرضتها اسرائيل بالقوة فى الاصل ، واستمرت فيها ، فى الوقت الذى ترفض فيه أى احتمال لتسوية سياسية (مثل ، اقتراح السادات عام ١٩٧١ الخاص بعقـد اتفاقية سلام كامل على أساس الحدود الدولية المعترف بها) . ويعكس أسلوب « الانتقام » المنتظم الذى تمارسه اسرائيل ضد أهداف مدنية عزلاء لا علاقة لها بمصدر الأعمال الارهابية (التى هى فى كثير من الاحيان انتقام لاعمال ارهابية اسرائيلية سابقة الخ) نفس المفهوم وان كان يعد خروجا عن المقولة السابقة لبن جوريون فى أوائل الخمسينات بأن رد الفعل ليس كافيا مالم يكن مركزا تماما : فاذا كنا نعرف الأسرة (فانه ينبغى) أن نضرب بلا هوادة ، بما فى ذلك النساء والأطفال(٩٠) وتتبنى القيادة العسكرية فى اسرائيل على نطاق واسع مفهوم جور لحروب اسرائيل . ففى خلال عمليات القبضة الحديدية فى مطلع عام ١٩٨٥ قرر اسحق رابين وزير الدفاع بأن اسرائيل سوف تنتهج اذا لزم الأمر سياسة احراق الأرض كما حدث فى وادى الاردن وخلال حرب الاستنزاف مـع مصر . واضاف أن لبنان تشكل مصدرا للارهاب أكثر خطورة مما كانت فى عام ١٩٨٢ ، بينما يثير الارهابيون الشيعة حالة الخوف فى غرب أوربا (لم يكونوا يفعلون ذلك قبل صيف عام ١٩٨٢ لأسباب لم يفصح عنها) . الأمر الذى يحتم على اسرائيل الاحتفاظ بمنطقة فى الجنوب « قد نتدخل فيها » . وقد برر دوبيك تامارى ، قائد قوات المظلات المخضرم ، الذى أصدر أوامره بتسوية مخيم عين الحلوة الفلسطينى بالأرض بواسطة القصف الجوى وقصف المدفعية « لانقاذ حياة » القوات التى تحت قيادته (وهى ممارسة أخرى يجدر ذكرها لأسطورة « طهارة الايدى » برر العملية بتعليق مؤداه ان دولة اسرائيل ظلت منذ عام ١٩٤٧ تقتل المدنيين ، « تقتلهم عن عمد » باعتبار ذلك هـدفا ضمن أهداف أخرى(٩١) .

واستشهد تامارى كمثال على ذلك بالهجوم على قبية فى عام ١٩٥٣ عندما قتلت الوحدة ١٠١ التى كان يقودها أريك شارون سبعين من سكان القـرية العرب فى ديارهم بدعوى الانتقام من هجوم ارهابى لم يكن لهم أية علاقة به وادعى

بن جوريون فى تصريح اذاعه راديو اسرائيل ان القتلى من سكان القرية قتلوا بواسطة مدنيين اسرائيليين كان قد استبد بهم الغضب بسبب الارهاب العربى ، معظمهم من اللاجئين ، واشخاص من دول عربيـــــة وغيرهم من الناجـــين من معسكرات الاعتقال النازية ، مستبعدا « الادعاء الوهمى » بأن القوات المسلحة الاسرائيلية كانت ضالعة وهى اكذوبة فاضحة أدت الى وضـــــع المستوطنـات الاسرائيلية تحت تهديد الانتقام . ومن الحقائق التى لا يعلمها الكثيرون انه قبل مذبحة قبية بشهر واحد ، بعث موشى ديان بالوحدة لطرد اربعة آلاف من بدو قبيلتى العظمة والطربين عبر الحدود المصرية ، وهى خطـوة اخرى فى اطار عمليات الطرد التى كانت مستمرة منذ عام ١٩٥٠ ، بعد وقف اطلاق النار بفترة قصيرة . وفى شهر مارس عام ١٩٥٤ ، قتل احد عشر اسرائيليا فى كمين لأحدى الحافلات شرقى صحراء النقب على ايدى افراد من قبيلة العظمة ، (ارهاب بدون استفزاز) الأمر الذى أدى الى وقوع غارة اسرائيلية على قرية نحالـــين الأردنية أسفرت عن مقتل تسعة من سكان القرية (انتقام) .وفى شهر أغسطس عام ١٩٥٣ قتلت الوحدة بقيادة شارون عشرين شخصا ، ثلثاهم من النساء والأطفال ، وذلك فى مخيم البريج للاجئين فى قطاع غزة ، انتقاما لأعمـــــال التسللويمكن تعقب دورة « الانتقام » (بواسطة اليهـــــود) « والارهاب » (بواسطة الفلسطينيين) خطوة خطوة ، لسنوات عديدة ، وهو اسلوب سوف يكشف بسرعة ان مفرداته تنتمى لعالم الدعاية وليس لعالم الوصف الحقيقى .

ويمكن أن نلحظ هنا أيضا كيف أنه جرى اعادة صياغة التاريخ بطريقة فعالة على نحو يخـدم الى حد كبير العقيدة الايديولوجية ولذلك كتب توماس فريدمان فى معرض عرضه لاستراتيجية « الارهاب المضاد التى تتبعها اسرائيل » كتب يقـــول ان الفترة الاولى من عـــام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥٦ ، توصف افضل ما توصف بانها فترة الارهاب المضاد ــ من خلال ــ الانتقام ، أو الـــــرد السلبى ، على الرغم من أن مالا يقـــل عن واحـــدة من تلك العمليات الانتقامية أصبحت مثار جـــدل شديد ، حيث شملت خســـائر فى الارواح بين المدنيين والاشارة مقصود بها على وجه التخمين قبية . وفى كثير من الاحيـــان نادوا ما يكون سجل الدراسة مختلفا . (٩٣) .

وكانت عمليات القبضة الحديدية للجيش الاسرائيلى فى جنوب لبنـــان فى مطلع عام ١٩٨٥ تسترشد بمنطق ايبان . وكان قد تم الاحتفـــاظ بالســـكان المدنيين كرهينة تحت تهـــديد الارهاب لضمان قبولهم للترتيبات السياسية التى تفرضها اسرائيل فى جنوب لبنان والمناطق المحتلة وتبقـــى التحذيرات ســـارية المفعول ، ويبقى السكان رهينة دون ما اهتمام من جانب الدولة العظمى التى تمـــول تلك العمليات وتحـــول دون التوصـــل الى اية تسوية سياسية ذات مغـــزى .

ان الارهاب الجماعى ، بما فى ذلك الاحتفاظ برهائن ، معفى من النقد فى اجهزة الاعلام الغربية عندما تقوم به جهة تحظى بالرضا . ونفس النفاق ينطبق على العمليات الاقل مستوى كذلك . وعلى سبيل ذكر بعض الحالات المميزة : فى نوفمبر عام ١٩٨٣ ، أوضحت اسرائيل أنها لن تسمح لقوات عرفات بالجلاء عن المدينة (طرابلس فى شمال لبنان حيث كانوا يتعرضون لهجوم قوات تساندها سوريا) طالما ظل مصير المعتقلين الاسرائيليين مشكوك فيه . ومن ثم قامت اسرائيل بقصف ما أسمته بمواقع الفدائيين ، مانعة بذلك السفن اليونانية التى كان من المقرر أن تجلى أنصار عرفات من الرحيل . وقد ذكر متحدثون باسم الدروز أن احدى المستشفيات أصيبت أثناء القصف الذى تعرض له « ما وصف بأنه قواعد الفلسطينيين » ، شرقى بيروت ، فى حين اصيبت فى طرابلس سفينة شحن اصابة مباشرة وغرقت كما انفجرت شاحنة أخرى واندلعت فيها النيران عندما أصيبت . (٩٤) ومرة أخرى تم التحفظ على السكان ، والسفن الاجنبية كذلك ، كرهائن لضمان اطلاق سراح المعتقلين الاسرائيليين الذين تم أسرهم أثناء العدوان الاسرائيلى على لبنان .

لقد دأبت اسرائيل على شن هجماتها بوقاحة واستهتار فى لبنان وفى المياه الدولية . ففى منتصف شهر يوليو عام ١٩٨٥ ، قصفت الطائرات الحربية الاسرائيلية مخيمات الفلسطينيين بالقرب من طرابلس ، وأسفر القصف عن مقتل ما لا يقل عن عشرين شخصا ، معظمهم من المدنيين ، من بينهم ستة من الاطفال تحت سن اثنى عشر عاما . وقد خيمت سحب الدخان والتراب فوق مخيمات اللاجئين فى طرابلس ، التى تأوى أكثر من خمس وعشرين ألفا من الفلسطينيين ، لعدة ساعات بعد الهجوم الذى وقع فى الساعة الثانية وخمس وخمسين دقيقة بعد الظهر ، الذى افترض بأنه كان « انتقاما » لهجومين بالقنابل وقعا على سيارتين قبل ذلك ببضعة أيام فى منطقة الامن الخاصة باسرائيل فى جنوب لبنان بواسطة احدى الجماعات الموالية لسوريا .

وبعد اسبوعين هاجمت زوارق حربية اسرائيلية سفينة شحن تابعة لهندوراس على مسافة ميل من ميناء صيدا كانت تقوم بتسليم شحنة أسمنت على حد قول قائدها اليونانى فأشعلت فيها النيران بعد أن أطلقت عليها ثلاثين قذيفة ، وأصيب عدد من المدنيين بجراح اثناء قصف الشاطىء على أثر قيام رجال الميليشيات بالرد على النيران . ولم تعبأ الصحف الموالية أن تذكر أنه فى اليوم التالى اغرقت الزوارق الاسرائيلية زورقا للصيد وأصابت ثلاثة زوارق أخرى بأضرار ، فى حين طالب نائب صيدا فى البرلمان اللبنانى الامم المتحدة أن توقف « القرصنة » الاسرائيلية التى تساندها الولايات المتحدة . وأوردت الصحف ما أسمته اسرائيل بعملية « حاسمة » ضد « المنشآت الارهابية »

بالقرب من بعلبك فى وادى البقاع فى شهر يناير عام ١٩٨٤ ، التى قتل فيها حوالى مائة شخص معظمهم من المدنيين وأصيب أربعمائة آخرون بجراح من بينهم ١٥٠ طفلا من جراء قصف احدى المدارس . وكان من بين « المنشآت الارهابية » أحد المساجد وأحد الفنادق ومطعم ومخازن ومبان أخرى فى القرى اللبنانية الثلاث ومخيم للاجئين الفلسطينيين هوجمت جميعها ، فى حين ذكرت أنباء بيروت أن هجوما آخر وقع على سوق للماشية ومنطقة صناعية أسفر عن تدمير عشرات المنازل . وقد ذكر مراسل لصحيفة رويتر فى القرى التى قصفت ان جولة ثانية من القصف بدأت بعد مضى عشر دقائق على جولة القصف الاولى ، « رافعة عدد القتلى أو الجرحى » حيث كان الرجال والنساء قد بدأوا يسحبون قتلاهم وجرحاهم من المنازل المهدمة . وقد شاهد المراسل « كثيرا من الاطفال » فى المستشفيات فى الوقت الذى ذكر فيه شهود العيان أنهم شاهدوا رجالا ونساء يندفعون الى المدارس بشكل مسعور بحثا عن أطفالهم . وقد شجب زعيم الشيعة فى لبنان « الهمجية الاسرائيلية » ، واصفا اعتداءاتها على « المدنيين الابرياء والمستشفيات ودور العبادة » بأنها محاولة « لارهاب الشعب اللبنانى » ، غير أن الحادث مر بدون تعليق فى الولايات المتحدة دون أن يؤثر بأى شكل على وضع اسرائيل كدولة تعنى بالحياة الانسانية . ولعلنا نستنتج مرة أخرى أن ضحايا ذلك القصف الحاسم كانوا فى مستوى أقل من مستوى البشر ، كما هم فى واقع الامر فى حدود الاجماع الغربى العنصرى (٩٥) .

ولعل المرء يتصور مرة أخرى ما سيكون عليه رد الفعل فى الغرب ، بما فى ذلك وسائل الاعلام « المؤيدة للعرب » فى حالة ما اذا قامت منظمة التحرير الفلسطينية أو سوريا بتنفيذ « ضربة حاسمة » ضد « المنشآت الارهابية » بالقرب من تل أبيب وما يسفر عنه من قتل مائة مدنى وجرح أربعمائة آخرين من بينهم مائة وخمسين طفلا فى عملية قصف لاحدى المدارس الى جانب أهداف مدنية أخرى .

وفى حين يتمثل التفسير المعتمد فى الولايات المتحدة فى أن العنف الاسرائيلى، الذى قد يكون متطرفا فى بعض الاوقات ، يعتبر « انتقاما » للاعمال الوحشية التى يقوم بها العرب ، فان اسرائيل ، شأن الولايات المتحدة تطالب بحقوق أوسع كثيرا تتمثل فى حق شن هجمات ارهابية لمنع حدوث أية أعمال محتملة ضدها ، كما حدث فى تبرير آمنون روبنشتين عضو الكنيست الذى يعد من دعاة السلام ، لحرب لبنان ، . فالقوات الاسرائيلية تقوم بتنفيذ ما تسميه « اطلاق نار وقائيا » أثناء قيامها بأعمال الدورية فى لبنان ، حث تنثر الارض بنيران المدافع الرشاشة ، مما أدى الى اغلاق قوات حفظ السلام الايرلندية الطريق احتجاجا على ذلك . ومن الشائع

تماما وصف الهجمات الاسرائيلية فى لبنان بأنها هجمات « وقائية وليست تأديبية » ، فمثلا قصف مخيمات اللاجئين الفلسطينيين والقرى المجاورة بواسطة ثلاثين طائرة نفاثة اسرائيلية فى الثانى من ديسمبر عام ١٩٧٥ ، مما أسفر عن مقتل سبعة وخمسين شخصا ، كان فيما يبدو ردا على قرار مجلس الامن التابع للامم المتحدة بمناقشة اقتراح قدمه العرب للسلام ، وهو اقتراح عارضته اسرائيل بشدة ومن ثم تم شطبه من التاريخ (٩٦) . وعندما هاجمت القوات الاسرائيلية المحمولة جوا والقوات البرية طرابلس فى شمال لبنان فى شهر فبراير عام ١٩٧٣ حيث قتلت واحدا وثلاثين شخصا (معظمهم من المدنيين) ،طبقا للسلطات اللبنانية ، ودمرت مدارس ومستشفيات ومبانى أخرى ، بررت اسرائيل الغارة بأن الغرض منها الحيلولة دون حدوث عدد من الهجمات الارهابية المخططة ضد الاسرائيليين فيماوراء البحار (٩٧) . فالاسلوب مألوف والمبررات مقبولة هنا باعتبارها مشروعة نظرا لان اسرائيل دولة عميلة مفيدة وضحاياها يعتبرون شبه آدميين .

وقد حدثت الحالة الاخيرة المذكورة فى نفس اليوم الذى أسقطت فيه اسرائيل طائرة ركاب مدنية ليبية ضلت طريقها وسط عاصفة رملية وهى على بعد دقيقتين بالطيران من القاهرة التى كانت متجهة اليها ، وقتل ركابها البالغ عددهم مائة وعشر ركاب . وأعربت الولايات المتحدة رسميا عن تعاطفها مع أسر القتلى ، غير أن المتحدث الصحفى « رفض أن يناقش مع الصحفيين مشاعر الحكومة الامريكية حول الحادث » . وأنحت اسرائيل باللائمة على قائد الطائرة الفرنسى ، وسارت « النيويورك تايمز » على نفس المنوال فقبلت الادعاء الاسرائيلى بأن قائد الطائرة كان يعلم أنه قد صدرت اليه الاوامر بأن يهبط ، ولكنه بدلا من ذلك لجأ الى تصرف ملتو « يثير درجة عالية من الشك » — وهو نفس التبرير الذى قدمه الاتحاد السوفيتى لاسقاط الطائرة كى ايه الـ٧ ... التابعة للخطوط الجوية الكورية (٩٨) — وعلى ذلك فان التصرف الاسرائيلى « على أسوأ افتراض يعتبر تصرفا يتسم بالقسوة التى لا يمكن أن تبررها تصرفات العرب السابقة » . وقد جاء رد الفعل الاسرائيلى الرسمى على لسان جولدا مائير رئيسة الوزراء التى قالت ان :« حكومة اسرائيل تعبر عن أسفها البالغ لفقد أرواح بشرية وتأسف لعدم استجابة قائد الطائرة الليبى (كذا) للتحذيرات التى وجهت اليه طبقا للعرف الدولى » . وذهب شيمون بيريز أبعد من ذلك فقال أن اسرائيل تصرفت طبقا للقوانين الدولية . ثم زعمت اسرائيل كذبا أن قائد الطائرة لم يكن مرخص له بقيادة طائرة نفاثة . وذكر أمير ام كوهين فى تحليل مفصل لرد الفعل الاسرائيلى (بعد حادث اسقاط الطائرة الكورية) أن الصحافة منعت نشر صور الطائرة المحطمة وكذلك صور القتلى والجرحى.

كما لم يسمح للصحفيين بزيارة المستشفى فى بير سبع والتحدث مع الاشخاص الذين نجوا من الحادث !

وقد رفضت الصحافة الاسرائيلية رد الفعل الدولى باعتباره دلالة أخرى على أن « روح معاداة السامية تزدهر فى أوروبا » ، وهو فى الحقيقة رد فعل منعكس فى الولايات المتحدة كذلك ، عندما يجرؤ شخص ما على ذكر او انتقاد أى عمل من أعمال الوحشية الاسرائيلية . واصرت الصحافة الاسرائيلية على أن اسرائيل ليست مسئولة وأن اللوم ينبغى أن يقع على قائد الطائرة (الفرنسى) . ويلاحظ كوهين أنها « صحافة معبأة » تؤيد بشدة عدالة الاعمال التى تقوم بها اسرائيل . واكدت اسرائيل ، بعد العديد من الاكاذيب ، أنه كان ثمة « خطأ فى الحكم » ووافقت على دفع مبالغ اضافية لاسر الضحايا « تقديرا لاعتبارات انسانية » فى الوقت الذى ظلت تنكر فيه أى « ذنب » او مسئولية على اسرائيل (٩٩) . وتم تمرير الحادث على وجه السرعة داخل الولايات المتحدة ، دون توجيه نقد يذكر لمقترفى الجريمة . وقد وصلت جولدا مائير بعد ذلك بأربعة أيام الى الولايات المتحدة وواجهت القليل من الاسئلة المحرجة من جانب الصحفيين ثم عادت الى بلادها حاملة معها هدايا جديدة تتمثل فى طائرة عسكرية . وكما ذكر ، كان رد الفعل مختلفا الى حد ما عندما أسقط الروس طائرة الخطوط الجوية الكورية كى ايه ٧ . . فى شهر سبتمبر عام ١٩٨٣ (١٠٠) ، على الرغم من أن هذا الحادث يمكن مقارنته بحادث اسقاط طائرتين مدنيتين فى نفس الوقت ادعى أصدقاؤنا فى جبهة تحرير انجولا المعروفة باسم يونيتا القيام به (وهكذا تطبق المعايير المتعلقة « بالارهاب الدولى ») .

ان سجل الارهاب الاسرائيلى يعود الى أصول قيام الدولة — بل فى الحقيقة قبل ذلك بكثير — بما فى ذلك مذبحة المائتين والخمسين مواطنا والطرد الوحشى لسبعين ألف مواطن آخرين من اللد والرملة فى عام ١٩٤٨ ، والمذبحة التى تعرض لها مئات آخرين فى قرية دويمة العزلاء التى تقع بالقرب من الجليل فى شهر اكتوبر عام ١٩٤٨ فى اطار عملية اخرى من « عمليات تفريغ الاراضى » العديدة التى جرت ، فى الوقت الذى كان فيه جهاز الرعاية الدولى يعلن ، وهو لا يزال يفعل ذلك ، أن العرب كانوا يفرون بناء على نداء زعمائهم ، وقتل عدة مئات من الفلسطينيين على أيدى قوات الدفاع الاسرائيلية بعد غزو قطاع غزة فى عام ١٩٥٦ ، والمذابح التى وقعت فى قبية وكفر قاسم ومجموعة قرى أخرى ، وطرد آلاف البدو من المناطق المنزوعة السلاح بعد حرب عام ١٩٤٨ وآلاف آخرين من شمال شرقى سيناء فى مطلع السبعينات بعد أن دمرت قراهم لفتح المنطقة للاستيطان اليهودى ، وغير ذلك . ان الضحايا بالتحديد هم « انصار منظمة التحرير الفلسطينية » ومن ثم فهم ارهابيون ولذلك يستطيع جيرشوم

شوكين المحرر المحترم لصحيفة « هاآرتس » أن يكتب أن آريل شارون جعل لنفسه اسما منذ مطلع الخمسينات كمناضل عنيد ضد انصار منظمة التحرير الفلسطينية ، مشيرا بذلك الى المذابح التى ادارها ضد المدنيين فى البريج وقبية فى عام ١٩٥٣ (قبل قيام منظمة التحرير الفلسطينية بوقت طويل). كما أن الضحايا فى لبنان وأماكن أخرى يعتبرون أيضا « ارهابيين » . ولابد وأن يكون الأمر كذلك ، والا لما أمكن قتلهم بواسطة دولة متمسكة « بطهارة الأيدى » و « بسيادة القانون » كما تقول الصحف الأمريكية .

وقد وصل الأمر الى حد تكريم القادة الارهابيين . فعندما تولى الارهابى الأمريكى الكبير المعاصر الرئاسة فى عام ١٩٨١ ، كان كل من رئيس وزراء اسرائيل ووزير خارجيتها مشهورا بأنه قائد ارهابى فى حين أن أعلى منصب فى الوكالة اليهودية كان يشغله رجل قتل عدة عشرات من المدنيين بعد أن احتجزهم فى أحد المساجد باحدى المدن اللبنانية اثناء عملية أخرى من عمليات تفريغ الأراضى من السكان فى عام ١٩٤٨ . وقد صدر العفو عنه على وجه السرعة ، وتم رفع اى اثر من آثار الجريمة من السجل ، ومنح ترخيصا لممارسة مهنة المحاماة على أساس أن ما قام به « لا يمكن وصمه(١٠١) » .

وحتى الارهاب ضد الأمريكيين يمكن تقبله تماما . فالاعتداءات الاسرائيلية ضد منشآت أمريكية (وهى كذلك أماكن عامة) فى مصر فى عام ١٩٥٤ فى محاولة للاضرار بالعلاقات الأمريكية ـ المصرية واجهاض مفاوضات السلام السرية التى كانت دائرة وقتئذ ، تم تجاهلها فى ذلك الوقت وقلما تذكر ، كما هى الحال بالنسبة لمحاولة اغراق سفينة التجسس الأمريكية ليبرتى فى المياه الدولية فى عام ١٩٦٧ .فقد أطلقت القاذفات وزوارق الطوربيد الاسرائيلية النار حتى على زوارق النجاة فى محاولة لضمان عدم هروب أحد ، وأسفر ذلك عن قتل أربعة وثلاثين من طاقمها واصابة مائة وواحد وسبعين آخرين بجراح . وقد اعتبرت أسوأ كارثة تعرضت لها البحرية الأمريكية فى وقت السلم على مدى قرن حتى ذاك الحين ، مجرد « خطأ » . وهو سخف واضح وتكاد تكون غير معروفة اليوم(١٠٢) . وبالمثل ، فان تعذيب الجيش الاسرائيلى لبعض الامريكيين فى الضفة الغربية وجنوب لبنان نادرا ما يرد ذكره فى أجهزة الاعلام التى تبرز انكار اسرائيل فى حين تتجاهل تأكيد السفير الامريكى لصحة ذلك(١٠٣) . ومما لاشك فيه أن كون الضحايا أمريكيين عرب يعد مبررا بمقاييس أجهزة الاعلام .

ان ما يثير الانتباه حول هذا السجل ، الذى يتضمن الكثير من الارهاب ضد اليهود كذلك منذ وقت مبكر ، أنه لا يلوث بأى حال سمعة اسرائيل لدى أمريكا ، باعتبارها سمعة لا يوجد ما يضايقها فى التاريخ . فكل عمل جديد من اعمال الارهاب ، اذا ما ذكر على الاطلاق ، يتم صرف النظر عنه ونسيانه ، أو وصفه بأنه انحراف مؤقت عن الكمال ، وتفسره الطبيعة البشعة للعدو الذى يرغم اسرائيل على الابتعاد ، حتى ولو للحظة ، عن طريق الصواب . وفى

نفس الوقت يتم التنديد المنتظم بأجهزة الاعلام لاتباعها « معيارا مزدوجا » ، بتجاهلها جرائم العرب وتطبيقها معايير مستحيلة على اسرائيل . وثمة علماء محترمون — لم تتأثر سمعتهم بمثل تلك السخافات — يقولون لنا أن « عديد من الشخصيات العامة فى الغرب وحتى عدد من الحكومات الغربية » (لا تذكر جميعها بالاسم طبعا) يشجعون منظمة التحرير الفلسطينية على تدمير اسرائيل(١٠٤) غير ان المبدأ الذى لا ينازع على المسرح السياسى فى الولايات المتحدة وبين طبقات المتعلمين فى اتساق ملفت مع بعض الاستثناءات فقط ، يتمثل فى أن ارهاب الفلسطينيين وحلفاؤهم العرب ، الذى يحث الكرملين عليه ، والتزامهم الثابت بقتل اليهود وتدمير اسرائيل ورفضهم بحث أية تسوية سياسية ، هو السبب الرئيسى للصراع الدائم بين العرب واسرائيل ، الذى تعتبر اسرائيل ضحيته بشكل يثير العطف . أما بالنسبة للولايات المتحدة ، فانها لا حول لها ولا قوة فى مواجهة « نكبة الارهاب اللعين » من أمريكا الوسطى الى لبنان الى غيرهما .

ان الحركة القومية اليهودية والدولة التى تولدت عنها لم تفتحا مجالا جديدا فى سجلهما المؤثر للاعمال الارهابية ، بصرف النظر عن الحصانة التى يتمتعان بها لدى الرأى العام الغربى المستنير . وبالنسبة للامريكيين ، فانه يكفى تذكر أن أدولف هتلر اختار أن يمتدح الولايات المتحدة ... « لحل مشكلة » الأجناس القومية(١٠٥) ، مثلما يفعل بعض أولئك الذين يعيشون متعاليم هتلر فى أمريكا الوسطى اليوم بتأييد من الولايات المتحدة . غير أن التعليقات الأخيرة عن « الارهاب » فى « البلدان المتحضرة » تحفل بالنفاق وتستحق الازدراء من جانب المهذبين من البشر .

غير أن الاحتقار ، مهما تكن قيمته ، لا يمثل رد فعل كافيا اذ من الضرورى ايضا أن نفهم دوافع واهداف حملة الدعاية حول الارهاب الدولى التى رسمتها حكومة ريجان للثمانينات والتى اقترنت بالكثير من الحماس من جانب صفوة أصحاب الرأى بوجه عام . والاسباب الداعية لاعتبار « نكبة الارهاب اللعين » القضية الرئيسية فى عصرنا هى أسباب واضحة على الرغم من كونها أسبابا يصعب التعبير عنها كالمعتاد فى نطاق النظام المذهبى ، الذى لابد وأن يتظاهر بأخذ مشاعر القلق التى يجرى التعبير عنها مأخذ الجد(١٠٦) .

لقد جاءت ادارة ريجان الى الحكم وهى ملتزمة بثلاثة اتجاهات سياسية، تم اقتراحها جميعا فى المراحل الأخيرة لادارة كارتر ، وتمت الموافقة عليها جميعا مع اختلافات طفيفة بين الأقليات المميزة التى تشترك فى النظام السياسى ، وقد حققت جميعا بعض النجاح ، وهى :

١ — نقل مصادر الثروة من الفقراء الى الاغنياء .

٢ — زيادة ضخمة فى قطاع اقتصاد الدولة بالأسلوب الامريكى التقليدى

من خلال نظام البنتاجون ، وهو وسيلة لارغام أفراد الشعب على الاستثمار فى صناعة التكنولوجيا المتقدمة عن طريق السوق الذى تضمنه الدولة لانتاج فائقد من التكنولوجيا المتقدمة (الاسلحة) وبذلك يمكن الاسهام فى برنامج الدعم العام والربح الخاص المسمى « بالعمل الحر » .

٣ ـ زيادة كبيرة فى دور الولايات المتحدة فى التدخل والتخريب والارهاب الدولى (بالمعنى الحقيقى للتعبير) .

ولا يمكن تقديم مثل تلك السياسات الى الجمهور فى اطار المفاهيم التى تهدف اليها بل يمكن فقط تنفيذها فى حالة ما اذا تعرض المواطنون بوجه عام لحالة من الخوف من وحوش يتعين أن ندافع عن أنفسنا ضدهم .

ويتمثل الأسلوب الأمثل فى اتهام تهديد الشيطان الأكبر الذى يمثل « مؤامرة محبوكة لا ترحم » تنزع الى غزو العالم فى نظر جون كنيدى ، امبراطورية الشر فى نظر ريجان غير أن الدخول فى مواجهة معامبراطورية الشر، يمكن أن يكون مسألة خطيرة ، ومن ثم فانــه من الافضـل الدخــول فى معركة مــع أعــداء أكثر أمانا تماختيارهم كنواب الامبراطورية الشر ، وهو اختيار ينطبق تماما على البند الثالث من جدول الأعمال السياسى الراهن ويتم انتهاجه لأسباب مستقلة تماما وهى : ضمان « الاستقرار » و « النظام » فى مجالاتنا الدولية وهكذا ، يتعين علينا أنندافع عن انفسنا ضد سكان نيكارجوا والسلفادور الذين يتجرأون على مقاومة العنف والتعذيب والارهاب الجماعى الذى تقوم به . وفى الشرق الأوسط ، فان الارهابيين الذين يمكن أن تتحدث عنهم اجهزة الاعلام الملتزمة باعتبارهم مجانين يعملون على تدمير الحضارة الغربية ، متوفرون بكثرة ، بفضل سياسة الرفض الأمريكية الدائمة الى حد كبير التى تحول دون أية امكانية للتوصل الى تسوية سياسية معقولة للنزاع العربى الاسرائيلى ، ولتأييد الولايات المتحدة للارهاب والعدوان الاسرائيلى .

ويرى ديفيد هيرست أن مركز الارهاب الدولى الرئيسى أو الهام بشكل حقيقى (بالمعنى الغربى المصحح للمصطلح) هو لبنان . فهو اما يفرخ الارهابيين التابعين له ، أو يكون بمثابة المأوى الطبيعى للارهابيين المستقدمين من الخارج ، سواء كانوا فلسطينيين لا يعرفون سوى القصف والقتل والذبح والتشــويه والكراهية والخوف وعدم الامان أو لبنانيين تلقى مجتمعهم ضربته الأخيرة المثلة فى العدوان الاسرائيلى الذى تسانده الولايات المتحدة وفى عواقبه ... وثمة اعتقاد راسخ فى أذهان شبان اليوم ، من تلك الجماعات ، وهو أنه فى ظل حكم الرئيس ريجان الذى وصل الى أبعاد لم يسبق لها مثيل فى تحالف بلاده التقليدى مع اسرائيل ، فان الولايات المتحدة هى المتبنى لنظام قائم بأسره لا يمكن تحمله الى حد أن أية وسيلة تبرر الآن تدميره . وقد يكون دافع الارهاب أقــوى بــين

الفلسطينيين ، غير انه يمكن أن ينطبق ذلك أيضا على اللبنانيين ، أو العرب أو — فى دلالته الأوسع كثيرا على الشيعة . وقد عبر عن النقطة الرئيسية الجنرال (المتقاعد) يهو شــافات هاركابى مدير المخابرات العســكرية السابقة بقوله : أن تقديم حل مشرف للفلسطينيين يحترم حقهم فى تقرير مصيرهم : هو الحل لمشكلة الارهاب . فعندما يختفى المستنقع ، لن يكون هناك بعوض(١٠٧) .

وقد أسهم الارهاب والعدوان الأمريكى الاسرائيلى الجماعى بالتأكيد فى خلق الموقف الذى يصفه هيرست ، على نحو ما تكهن به وربما بشكل واع ، ولعل الدولتين الارهابيتين أكثر سعادة بالنتيجة التى تقدم لهما مبررا للاستمرار فى انتهاج سياسة الرفض والعنف وزيادة على ذلك ، فان الارهاب المتقطع الذى أسهما فيه بطريقة فعالة يمكن استخدامه لخلق شعور مناسب بالخوف والتعبئة بين السكان حسبما تتطلبه أهداف أكثر عمومية . وكل ما هو مطلوب نظام دعاية يمكن الاعتماد عليه فى الصراخ مع الجوقة عند الطلب ، وفى منع أى فهم للمبادرات الامريكية ونمطها ومصادرها ، ودوافعها . ومن اجل تحقيق هذا الهدف فان صانعى السياسة ليست لديهم سوى بعض مشاعر القلق .

وتناسب ليبيا الطلب تماما . فهى دولة ضعيفة وغير محصنة وتنتعش فيها الروح العسكرية ، كما أن قتل الليبيين اذا استدعى الامر يمكن أن يتم دون عقاب . ومن السهل كراهية القذافى خصوصا فى اطار العنصرية المعادية للعرب المنتشرة فى الولايات المتحدة والالتزام الشديد من جانب الطبقات المتعلمة ، مع استثناءات نادرة فقط ، بنظام الدعاية الامريكية — الاسرائيلى — وقد أنشأ القذافى مجتمعا قبيحا وخانعا ، وهو مدان بالفعل بالارهاب ، ومسئول عن قتل أربعة عشر ليبيا حسب تقديرات محكمة العفو الدولية ، وربما كثيرين آخرين .

ومنذ شهورها الأولى فى الحكم ، قامت ادارة ريجان بترتيب مواجهات منتظمة مع ليبيا ، أو مجرد تدبير مؤامرات وأعمال وحشية ليبية حسب الدواعى المحلية ، وكان حادث خليج سرت فى شهر مارس ١٩٨٦ وما تبعه من هجــوم ارهابى امريكى على طرابلس وبنغازى والذى اسفر عن مقتل مائة شخص — وهو أول حادث تصف فى التاريخ يعرضه التليفزيون وقت وقوعه — يناسب النمط ، مثلما كان رد فعل وسائل الاعلام المستكينة .

ان تحديد مسئولية ليبيا عن الارهاب أمر بسيط ، اذا اخذنا فى الاعتبار تواطؤ أجهزة الاعلام . فالاتهامات الحكومية التى لا تدعمها أدلة يمكن تصديقها، تبرز فى عناوين رئيسية « كحقائق » ، مع السماح بعد ذلك بين الحين والآخر بنشر الاعتراض بحروف صغيرة بعــد أن يكون التأثير قد تحقق(١٠٨) . واذا تورط شخص ما فى عمل ارهابى وقام بزيارة لليبيا أو يدعى أنه تلقى تدريبــا أو حصل على مبالغ مالية منها فى الماضى ، فــان ذلك يكفى لادانة القــذافى والادعاء بأنه ينبغى القضاء عليه .

ان نفس المعايير تورط وكالة المخابرات المركزية الامريكية فى القيام بعمليات استغلال قاتلة للمنفيين الكوبيين على مدى سنوات عديدة ضمن أعمال وحشية ارهابية أخرى . وبالتركيز على عام ١٩٨٥ ، نجد ان أحد المشتبه فيهم بالقيام بنسف طائرة الجامبو النفاثة التابعة لشركة الخطوط الجوية الهندية بالقرب من أيرلندا ، والذى كان أسوأ عمل ارهابى وقع فى ذلك العام ، وأسفر عن مقتل ٣٢٩ شخصا تلقى تدريبه فى مدرسة للمرتزقة لمناهضة الشيوعية فى الاباما . وكان العمل الارهابى الذى راح ضحيته عددا كبيرا من الاشخاص فى الشرق الاوسط هو حادث نسف سيارة ملغومة فى بيروت فى شهر مارس وأسفر عن قتل ثمانين شخصا واصابة مائتين آخرين بجراح ، وقامت بتنفيذه وحدة تابعة للمخابرات اللبنانية تولت المخابرات المركزية الامريكية تدريبها ودعمها ، فى محاولة لقتل احد زعماء الشيعة كان يعتقد أنه ضالع فى الهجمات الارهابية التى وقعت ضد منشآت امريكية(١٠٩) فى بيروت . وبمعايير الادلة المستخدمة بالنسبة لليبيا ، فان الولايات المتحدة تعتبر الدولة الارهابية الرائدة فى العالم ، حتى وان استبعدنا الارهاب الجماعى الذى يعتبره نظام الدعاية غير ذى بال ، على اعتبار كشف مصدره .

وننتقل الى عام ١٩٨٦ ، فنجد أن أخطر العمليات الارهابية منذ وقت كتابة هذا المقال كان قصف الطائرات الحربية الامريكية لليبيا وعمليات القصف فى سوريا التى أسفرت ، طبقا لما أذاعته محطة اذاعة حزب الكتائب الذى يراسه أمين الجميل ، عن مقتل اكثر من مائة وخمسين شخصا فى شهر ابريل ، ووجهت سوريا اللوم عنها الى عملاء اسرائيليين يعملون من داخل لبنان دون توفر دليل على ذلك ، ولكن ليس أقل مصداقية من اتهامات أمريكية مماثلة ضد كل من يجد نفسه شرير العصر — وبشكل عارض ، لا يدخل فى اطار « نكبة الارهاب اللعين(١١٠) » .

وتتفق الأصوات الاكثر انتقادا فى الولايات المتحدة على أن تأييد العقيد القذافى العلنى للارهاب هو شر صريح وأنه ليس ثمة سبب يدعوك لأن تترك القتله يلوذون بالفرار دون عقاب اذا استطعت معرفة من وراءهم . كما أنه لا يمكن أن يكون العامل الحاسم وهو أن الانتقام سيؤدى الى قتل بعض المدنيين الابرياء ، أو ان الدولة القاتلة لن تخشى العقاب مطلقا(١١١) — وهو مبدأ يخول لعدد كبير من الاشخاص حول العالم اغتيال الرئيس ريجان وقصف واشنطن حتى وان كان هذا الانتقام سوف يؤدى الى قتل المدنيين الابرياء . ومن غير المحتمل ان تستطيع اكثر من شريحة صغيرة من الامريكيين المتعلمين استيعاب تلك الحقائق البسيطة ، كما يصعب احتمال التعبير عنها داخل النظام المذهبى .

ان حالة الهستيريا التى تثيرها الحكومة واجهزة الاعلام بنجاح فى الولايات المتحدة،والتى تجعل أشخاصا عاقلين يلغون رحلاتهم الى أوروبا (حيث سيكونون اكثر امانا من اية مدينة أمريكية) ، تعتبر ذات فائدة كبيرة للدعاية الرسمية من

حيث أنها تساعد على تعبئة التأييد لجدول الأعمال السياسى . وفضلا عن ذلك، فانه عن طريق رفع مستوى قبول العنف الأمريكى « انتقاما » للاعمال الارهابية ، فان حكومة الولايات المتحدة تترك مجال خياراتها مفتوحا لمزيد من التصعيد اذا دعت الحاجة الى ذلك ، ربما فى أمريكا الوسطى لاستئصال « سرطان » جماعة الساندينستا ، أو فى الشرق الأوسط اذا ماقامت اسرائيل بتوجيه « ضربة وقائية» ضد سوريا مصحوبة بهجوم أمريكى يظهر للغرب « كدفاع ضد الارهاب » ويقصد به أن يكون تحذيرا للاتحاد السوفيتى بألا يأتى للدفاع عن حليفته سوريا .

ان طابع الخداع والانانية الذى تتسم به حملة الدعاية حول « الارهاب الدولى » تم الكشف عنه لعدد قليل من الجماهير التى أمكن الوصول اليها من خلال الرأى المخالف فى الولايات المتحدة ، غير أن الحملة فى حد ذاتها تعتبر انجازا ملحوظا فى العلاقات العامة . فمع التزام وسائل الاعلام الجماهيرى بخدمة احتياجات نظام الدعاية الرسمى مستبعدة بشكل منظم أى تعليق قد يكشف عن المستور أمام أعين الشعب الامريكى أو أية مناقشة منطقية له ، فان احتمالات النجاح فى المستقبل تظل قوية . وتسهم تلك الخدمة المقدمة للارهاب الدولى الجماعى فى حدوث معاناة وأعمال وحشية على نطاق واسع ، وتحمل فى طياتها على المدى الأطول مخاطر جادة بحدوث مواجهة بين الدولتين العظميين ونشوب حرب نووية فى نهاية الامر . غير ان مثل تلك الاعتبارات لا تهم كثيرا بالمقارنة بالحاجة الى ضمان عدم امكانية تعرض « الاستقرار » و « النظام » للتهديد ، وعدم تحدى الامتياز والقوة . وثمة قليل هنا يثير دهشة أى دارس مخلص للتاريخ .

هوامش

١ ـ صحيفة « النيويورك تايمز » عدد ١٧ ، ١٨ اكتوبر عام ١٩٨٥ .

٢ ـ صحيفة « هاآرتس » ، عدد ٢٢ مارس عام ١٩٨٥ ، كومسكى ، المثلث المحتوم (ساوث اند ، ١٩٨٣) الصفحات ٥٤ ، ٧٥ ، ٢٠٢ .

٣ ـ يوسى بيلين ، ميشيروسيل نشوج (تل ابيب ، ١٩٨٥) الصفحة رقم ١٤٧ جلزيت ، هاماكيل فيها جيزر (تل أبيب ١٩٨٥) اقتباس « عال هشمار » ، ٧ نوفمبر ١٩٨٥ ، كومسكى ، نحو حرب باردة جديدة (بانثيون ، ١٩٨٢) الصفحتان ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، تصر اسرائيل على أن لا يعترف الفلسطينيون فقط بها بل يعترفون أيضا « بحقها فى الوجود » ، وهو مفهوم غير مسبوق فى الشئون الدولية تم اختراعه كعائق آخر فى طريق المفاوضات .

٤ ـ عندما اشير الى ريجان ، فاننى أعنى المخططين لسياسته والمسئولين عن كتابة خطبه ، وان اية جملة تبدأ بـ « ريجان يعرف ... » من المحتمل أن تكون كاذبة .

٥ ـ « يديعوت احرونوت » ، ١٥ نوفمبر ١٩٨٥ .

٦ ـ زئيف شيف ، « هاآرتس » ٨ فبراير ١٩٨٥ ، أنظر «المثلث المحتوم» للتعرف على شهادة المشاركين التى لم يعلن عنها فى الولايات المتحدة .

٧ ـ جودفرى جنثس ، « ميدل ايست انترناشونال » ، ١١ أكتوبر ١٩٨٥ استشهاد بصحيفة « لوس انجيلوس تايمز » ٣ أكتوبر .

٨ ـ تظهر فى « ضد التيار » ، يناير ١٩٨٦ .

٩ ـ تارن « المثلث المحتوم » الصفحتان ١٢٧ ، ١٧٦ .

١٠ ـ برنارد جورتزمان ، «النيويورك تايمز» عدد ٢ ، ٧ اكتوبر ١٩٨٥ .

١١ ـ بيفرلى بيست ، « لوس انجيلوس تايمز » ، تقرير حول المؤتمر الدولى للارهاب « لوس انجيلوس تايمز » ، ٩ ابريل ١٩٨٦ .

١٢ ـ ادوارد شوماشر ، « النيويورك تايمز » ، ٢٧ اكتوبر .

١٣ ـ « النيوريبيلك » (الجمهورية الجديدة) ٢١ اكتوبر ١٩٨٥ ، ٢٠ يناير ١٩٨٦ ، وكالة أسوشيتدبرس ٤ ابريل ١٩٨٦ .

١٤ ـ روبرت ماكفادين ، « الارهاب فى عام ١٩٨٥ : اعتداءات وحشية

١٥ ـ وكالة يونيتد برس انترناشونال ، « لوس انجيلوس تايمز » ، ٢٨ ديسمبر ١٩٨٥ ماكنادين ، نفس المصدر ، دير شوتيز ، « النيويورك تايمز

١٧ اكتوبر ١٩٨٥ ، انكسندر كوكبورن ، نيش (الامه) ٢ نوفمبر ١٩٨٥ ، الملاحظة الوحيدة للنفاق الواضح .

١٦ ــ روس جلبسيان ، « بوسطن جلوب » ١٦ ديسمبر ١٩٨٥ . حول الأعمال الوحشية للكونترا ، أنظر التقارير المنتظمة لامريكا ووتش وعديد من التحقيقات الأخرى تتسم بالعناية والتفصيل ، من بينها ، تقرير دونالنت - فوكس ومجموعة القوانين الخاصة بالحقوق الدولية للانسان ومكتب واشيطون حول أمريكا اللاتينية ابريل ١٩٨٥ للبروفيسور مايكل جلنون. وهما يستشهدان بمسئول على مستوى عال بوزارة الخارجية يصف الموقف الأمريكي بأنه ينطوى على « التجاهل الدولى » ، فقد تجاهلت وسائل الاعلام وأجهزة أخرى بوجه عام السجل الواسع والمرعب ، كما نفاه صراحة (دونماد ليل) بعض المدافعين المتطرفين عن الأعمــال الوحشــية الغربيــة - مثال تركيز الدعاية » لوبرت كونكويست ، « الديلى تلجراف » ، لندن ، ١٩ ابريل ١٩٨٦ ، جين كيركباتريك (بوسطن جلوب ١٦ مارس ١٩٨٦) التى تقول ليا أن رجال الكونترا لديهــم سجل عمل شاق لتجنب الاضرار بالمدنيين . وهم لم يفعلوا شيئا يقارن بالوحشية المنظمة التى تمارســها جماعة الساندنيســتا ضد المنشقين والخصوم ، وهى اكذوبة شنيعة ، تنقص من قدرها ككاتبة عمــود منتظمــة ، كما انهــا تقترن بسلسلة من التلفيقات الحكومية التى ظلما رفضت ، وان الاكاذيب المماثلة والدفاع عن الأعمال الوحشية السوفيتية لن تقبلها أجهزة الاعلام للحظة .

١٧ ــ « النيويورك تايمز » ٢٩ يونيو ١٩٨٥ .

١٨ ــ وفى اسرائيل . بعد أن وصل بيريز للسلطة ، زاد اســتخدام التعذيب فى السجون والحجز الوقائى والطرد خرقا للقانون الدولى ، وهى ممارسات كانت شائعة فى ظل حكومة العمل السابقة وحظيت بثناء كثير من جانب الرأى الأمريكى اليسارى الليبرالى ، وخفضت أو توقفت فى عهد مناحم بيجين ، دانى روبنشتين « دافار » ٤ فبراير ١٩٨٦ ، حول التعذيب ، أنظر ها آرتس » ٢٤ فبراير ١٩٨٦ .

١٩ ــ كيرتس ويلكى ، « بوسطن جلوب » ، ١٠ مارس ، جولى فيلنت « الجارديان » (لندن) ١٣ مارس ، جيم موير « ميدل أيست انتر ناشونال » ٢٢ مارس برنيدل « النيويورك تايمز » ، الطبعة النافذة فى ٢٨ مارس ، نورا البستانى ، الواشنطن بوست » ١٢ مارس ١٩٨٥ . صورة لحائط من الجرائيت نظهر فى القبضة الحــــديدية لجوزيف سيساشيا (اى دى سى ، واشنطون ١٩٨٥) .

٢٠ ــ « الجارديان » (لندن) ٢ ، ٦ مارس ١٩٨٥ .

٢١ ــ ايليا « الجيروزالم بوست » ٢٧ فبــراير ١٩٨٥ ، ما مجنوس لينكلانتر ايزابيل هيلتون ونيل اشيرسون ، الرايخ الرابع (هودر وستوختون)

لنــــدن ١٩٨٤ ، الصفحات ١١١) ، دير شبيجل » (٢٧ ابريل ١٩٨٦ ؛ « النيويورك تايمز » — ١٣ مارس ١٩٨٥ ، مجلة شبيجل تعرب عن شــكها العميق حول دعاوى الولايات المتحدة فيما يتعلق بالتورط الليبى فى حـــادث التفجير الذى وقع فى احد محلات الديسكو فى برلين الذى يدعى أنه كان السبب فى الاعتداء ، وقد نفى رئيس لجنة شرطة برلين الغربية التى تولت التحقيق فى الحادث نفى صراحة وجود مثل هذا الدليل . والواقع أن هنـــاك أسباب كثيرة تدعو الى الشـــك فى تلك المزاعم حيـ شأنه قد أعلن عنهـــا فى البيت الأبيض وقت وقوع الحادث أنظر ليبيا ، فى علم دراسة الشـــياطين لمزيد من التفاصيل . وقد امتنع الصحفيون الأمريكيون عن اثـــارة الاسئلة والعفاريت ، وهى نشرة اعلامية عن العمل السرى من تاليفى فى الطريق للصدور الواضحة المتعلقة بدعاوى الحكومة الأمريكية فى تبرير عملية القصف ، فى المؤتمر الصحفى الذى عقد فى انبيت الابيض أو منذ ذلك الحين ، أنظر على سبيل المثال جيمس رتكهام « النيويورك تايمز » ، ٣١ مايو ١٩٨٦ الذى عرض شكوكا مختلفة حول حادث تفجير محل الديسكو والذى استشهد بجانشو فى امر آ .

٢٢ — احسان حجازى «النيويورك تايمز» أول يناير ١٩٨٦ يشير حجازى الى أن التقارير الواردة من اسرائيل مختلفة .

٢٣ — صحيفة « الكريستيان سينس مونيتور » ، ٢٠ يناير ١٩٨٦ .

٢٤ — من أجل دراسة مفصلة لتلك المسالة ، انظـــر المثلث المحتوم أو قارن مثلا ما نشر فى « النيوزويك » بما يصفه تونى كليفتون رئيس المكتب فى فى لندن . أو راجع يوميات الحرب للكولونيل دوف يرميـــا ، احـــد مؤسسى كتابة « غضب الله » (كليفتون وكاثرين ليروى ، كارتيت ، ١٩٨٣) الصادر الجيش الاسرائيلى ، وقد نشر خرقا لقانون الرقابة فى اسرائيل (انظر المثلث المحتوم فى نصوص عديدة) ونشر بعد ذلك فى ترجمة باللغـــة الانجليزية (ساوث اند ، ١٩٨٣) ، غير أن أجهزة الاعلام تجاهلته تماما على الرغم من أنه يعتبر عملا على جانب كبير من الأهمية . وثمة أمثلة أخرى عديدة .

٢٥ — لاندروم بولنج ، مراسلون تحت النـــار (ويستيفو ، ١٩٨٥) ١٩٨٥) يتضمن مثلا دراسة نقدية لاجهزة الاعلام أعدتها جمعية بناى بريت لمكافحة التشهير واتهامات أخرى ترقى الى مستوى السخافة (أنظر المثلث المحتوم لتحليل تلك الوثائق) ، ولكن ليس دراسة اللجنة الأمريكية العـــربية لمكافحة التفرقة العنصرية التى تقدم دليلا على « تحيز مستمر لاسرائيل » ، فى التغطية الصحفية للحرب .

٢٦ — كيفنر ، النيويورك تايمز ، ١٠ مارس ، موير ، ميدل ايســـت انترناشونال ٢٢ فبراير ١٩٨٥ ، مارى كورتيوس ، كريستيان سيفسى مونيتور ،

٢٧ مارس ، جيم يالين ، « كريستيان سينس مونيتور » ، ٢٥ ابريل يامين انترفيو ، « ميريب ريبورتس » يناير ١٩٨٥ . ديفيد هيرست « الجارديان » (لندن) ، ابريل .روبرت فيسك ، «التايمز»(لندن) ٢٦ ، ٢٧ فيلادلفيا انكويرر ابريل روبرت فيسك ، « التايمز » (لندن) ٢٦ ، ٢٧ ابريل . فيلادلفيا انكويرر ، ٢٨ ابريل ١٩٨٥ . حول جهود اسرائيل لدعم الاعمال العدوانية فى منطقة الشوف من منتصف عام ١٩٨٢ ، انظر (المثلث المحتوم) هامش صفحة ٤١٨ .

٢٧ — ميدل ايست انترناشونال » ، ٢٢ مارس ١٩٨٥ .

٢٨ — وكالة اليونيتد برس الدولية ، بوسطن جلوب ، ٢٢ سبتمبر ١٩٨٤ اولميرت ، انترفيو ، « عال هشمار » ٢٧ يناير ١٩٨٤ . هيرش جودمان ، « جيروزالم بوست » ١٠ فبراير ١٩٨٤ . ويزلتير « النيوريبلك » ، ٨ ابريل ١٩٨٥ .

دون اوبردورفر « منهج جورج شولتز » ويستابرس « الاسبوعية » ١٧ فبراير ١٩٨٦ . روبين « النيوريبلك » ، ٢ يناير ١٩٨٦ . توماس فريدمان، « النيويورك تايمز » ، ١٦ فبراير ١٩٨٦ ، ضمن تقارير أخرى عديدة . يؤكد روبين ، مثل ويزلتير ، أن الارهاب الذى ترعاه سوريا ... ليس صرخة غضب ضد فشل الغرب فى السعى من أجل السلام بل هو محاولة لعرقلة الدبلوماسية كلية ، حيث أن أى حل يمكن تصوره يعد جريمة بالنسبة للحكومة السورية . ويعلم روبين أن سوريا ايدت الحلول الدبلوماسية التى تقترب من الاجماع الدولى ، ولكن حيث أنها بعيدة عن سياسة الرفض الامريكية ، فان تلك الحلول غير مقصودة ، ولا تعتبر اختيارات دبلوماسية ، فاصطلاح « تسوية سلمية » يخصص للمقترحات الامريكية أو الاسرائيلية لدرجة أن من لا يتبع الاوامر الامريكية يعتبر ، بالتحدد معاديا للسلام . ولمناقشة هذه الطريقة المفيدة والطرق الاخرى المشابهة لها ، انظر كتابى مراقبة الافكار فى الولايات المتحدة : فيما يتعلق بالشرق الاوسط ، نهرس حول الرقابةالصحفية يونيو ١٩٨٦ .

٣٠ — لوس انجيلوس تايمز ، ١٨ أكتوبر ١٩٨٥ .

٣١ — « النيويورك تايمز » ١٨ أكتوبر ١٩٨٥ .

٣٢ — زئيف شيف « ارهاب رابين وبرى » صحيفة « هاآرتس » ، ٨ مارس ١٩٨٥ ايضا الجنرال أورى أور قائد القيادة الشمالية لقوات الدفاع الاسرائيلية ، اذاعة قوات الدفاع الاسرائيلية ، نشرة مكتب التحقيقات الفيدرالى ، ١٥ ابريل ١٩٨٥ .

٣٣ — جيرشوم شوكين ، محرر صحيفة « هاآرتس » . الشئون الخارجية خريف عام ١٩٨٤ .

٣٤ — شيمون بيريز « النيويورك تايمز » ، ٨ يوليو ١٩٨٣ . حـــول الاعمال الوحشية فى خيـــام ، انظر نحو حرب باردة جـديدة الصــــفحتان ٣٩٦ — ٣٩٧ . المثلث المحتوم الصفحة ١٩١ . يورام هانيراحى ، « دافار ٧ يونيو ١٩٨٤ ، استشهاد بتقارير صحفيـــة فى نشرة الجبهـــة الديمقراطيـــة نيسا يون ليرتساش — ام بيلفانون : ١٩٨٢ (تل ابيب ١٩٨٣) حـــول النبطية ، انظر المثلث المحتوم الصفحتان ٧٠ ، ١٨٧ .

٣٥ — جيم موير ، « الصنداى تايمز » (لنــدن) ، ٤ ابريل ١٩٨٥ . الكريستيان سينس مونيتور ، ١٥ ابريل ١٩٨٥ جويل جرينبرج « الكريستيان سينس مونيتور » ، ٣٠ ناير ١٩٨٦ . سونيا ديان ، بول كيسلر وجيرودى لابراديل ، « لوموند دبلوماتيك » ، ابريل ١٩٨٦ . تقارير موسعة عن التعذيب بواسطة معتقلين سابقين جرى تجاهلها فى الغرب ، وتظهر فى النشرة الاعلامية رقم ٢١ لعام ١٩٨٥ التى يصـــدرها المركز الدولى للاعــــلام حول المعتقلين الفلسطينيين واللبنانيين والأشخاص المبعدين والمفقودين ، باريس .

٣٦ — بينى موريس وديفيد برنشتين « الجيروزالم بوست » ، ٢٣ يوليو ١٩٨٢ . مقارنة صحفيين اسرائيليين للحياة فى ظل منظمة التحرير الفلسطينية وفى ظل حلفاء اسرائيل المسيحية فى لبنان ، وهى صورة تختلف اختلافا كبيرا مع العقيدة المتفق عليها هنا انظر « المثلث المحتوم » الصفحة ١٨٦ . وثمة مغزى خاص للتقرير الصادر من لبنان بواسطة الصحفى الاسرائيلى عطا الله منصور وهو من أصل مارونى .

٣٧ — صحيفة « الايكونومست » ، ١٩ نوفمبر ١٩٧٧ .

٣٨ — جـــون كولى ، فى طبعات أدوارد هالى ولويس سيندر « لبنـــان فى أزمة » (سيراكوز ، ١٩٧٩) انظر نحو حرب باردة جديدة ، الصفحة ٣٢١ ، المثلث المحتوم الصفحتان ٧٠ ، ٨٤ .

٣٩ — ادوارد هالى ، القذافى والولايات المتحدة منذ عام ١٩٦٩ (برايجر ١٩٨٤) ، الصفحة ٧٤ .

٤٠ — جيمس ماركهام ، « النيويورك تايمز » ، ٤ ديسمبر ١٩٧٥ .

٤١ — انظر نحو حرب باردة الصفحتان ٢٦٧ ، ٣٠٠ ، ٤٦١ ، المثلث المحتوم الصفحتان ٦٧ ، ١٨٩ .

٤٢ — انظر « المثلث المحتوم » ومراقبة الأفكار فى الولايات المتحدة لم تذكر المبادرة العربية عام ١٩٧٦ فى العرض الذى اتسم بعناية غير عادية بقلم سيث تلمان تحت عنوان الولايات المتحدة والشرق الأوسط (انديانا ١٩٨٢) . وقد ذكر ستيفن سبيجل ذلك فى كتابه « الصراع العربى الاسرائيلى الآخر » ، (شيكاغو ،

١٩٨٥) ، الصفحة ٣٠٦ ، وهو عمل دراسي حظى بثناء بالغ ، مع بعض التعليقات الرائعة ، وكتب سبيجل يقول ان الولايات المتحدة رفضت اتخاذ القرار المؤيد للفلسطينيين كي تبرهن على أنها مستعدة للاستماع لأمانيهم ولكنها لن ترضخ لمطالب تنطوى على تهديد لاسرائيل . ولا يمكن أن يكون الالتزام بسياسة الرفض الامريكية الاسرائيلية أكثر وضوحا كما انها مقبولة فى الولايات المتحدة باعتبارها سياسة مناسبة تماما .

٤٣ — الأسوشيتدبرس ، « النيويورك تايمز » ، ٢١ فبراير . جونى فلينت « الجارديان » (لندن) ٢٤ فبراير . احسان حجازى « النيويورك تايمز » ، ٢٨ فبراير . الاسوشيتدبرس ، ٢٠ فبراير ١٩٨٦ . التقرير المفصل الوحيد فى الولايات المتحدة ، حسب معلوماتى ، كان بقلم نورا البستانى فى « الواشنطن بوست » أول مارس ، بالرغم من أن دور قوات الدفاع الاسرائيلية قد خفض بدرجة كبيرة ، ربما من جانب المحررين ، نظرا لأن المراسلين فى مسرح الاحداث كانوا يعرفون جيدا مايحدث ، مثلما أوضح البعض بصفة خاصة .

٤٤ — احسان حجازى ، « النيويورك تايمز » ، ٢٥ مارس دان فيشر « لوس انجيلوس تايمز » ٢٨ مارس . الاسوشيتدبرس ، ٧ أبريل حجازى ، « النيويورك تايمز » ٨ ابريل ١٩٨٦ .

٤٥ — بيريز ، « النيويورك تايمز » ، ٨ يوليو ١٩٨٣ . بريندل ، نفس المصدر « النيويورك تايمز » ١٦ سبتمبر ١٩٨٣ ، ٣ يونيو ١٩٨٥ كما ، « النيويورك تايمز » ٢٦ ابريل ١٩٨٥ . فريدمان « النيويورك تايمز » ٩ يناير ، ٢٠ فبراير ، ١٨ فبراير ١٩٨٥ . بريزنسكى « النيويورك تايمز » ، ١٩ اكتوبر ١٩٨٣ . ريجان ، مؤتمرات صحفية ، « النيويورك تايمز » ، ٢٩ مارس ١٩٨٤ ، ٢٨اكتوبر ١٩٨٣ . أنظر أيضا ملاحظات الحاخام الكسندر شندلر رئيس اتحاد طوائف اليهود الامريكيين (الاصلاح) : هددت منظمة التحرير الفلسطينية بتدمير ما تبقى من بيروت وليس الاستسلام ، الامر الذى حدا بمشاة الاسطول الامريكى الى العمل على ترحيلهم بدلا من السماح لاسرائيل بالقيام بالمهمة مما يعتبر بالتأكيد أحقر المهام التى قام بها مشاة الاسطول (اليونيتدبرس الدولية ، « بوسطن جلوب » ، ٢٨ أكتوبر ١٩٨٤) . تلك الأمثلة التآمرية لاستغلال الدين فى خدمة العنف الرسمى جرى حذفها من تقرير « التايمز » فى نفس اليوم .

النيويورك تايمز ٧ يونيو ١٩٨٣ .

٤٧ — يذكر وليم كوانت علاوة على ذلك ان التخطيط الاسرائيلى العملى لغزو لبنان ضد منظمة التحرير الفلسطينية (فى عام ١٩٨١ — ٨٢) يبدو أنه يتفق مع دعم معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية (الشئون العربية الأمريكية) ، خريف عام ١٩٨٥ .

٤٨ — فيليب ويس « النيوريبلك » ، ١٠ فبراير ١٩٨٥ .

٤٩ — زئيف شيف واهود يعرى ، حرب لبنان الاسرائيلية (سيمون وشوستر ١٩٨٤) الصفحة٣٥ . جون كيفنر ، « النيويورك تايمز » ، ٢٥ يوليو ١٩٨١ . يزعم شيف ويعرى أنه بالرغم من المشقة فى تحديد الاهداف وتوجيه ضربات مباشرة ، فان اكثر من ١٠٠ شخص قتلوا من بينهم ٣٠ ارهابيا ويعتبر كتاب شيف ويعرى ترجمة لاجزاء من الكتاب الاصلى الصادر باللغة العبرية . وقد تم شطب ٢٠ فى المائة من الكتاب الاصلى بمعرفة الرقيب الاسرائيلى على حد قول يعرى (كوى هار ، ٢ فبراير ١٩٨٤) وأن حوالى ٥٠ فى المائةطبقالاوجستوسنورتون أحد الدارسين الامريكيين ، مستشهدا بمراسل قد ير لا صلة له بما جاء فى (الميدل ايست جورنال) عدد الصيف لعام ١٩٨٥ الذى يكتب المؤلف فيه . وتثير الرقابة فى نيكاراجوا ، التى تتعرض للهجوم من جانب جيش يعمل لحساب الولايات المتحدة نفسها . والرقابة المتطرفة الى حد كبير فى اسرائيل موجهة ، بطبيعة الحال ، ضد العرب بما فى ذلك المدنيين الاسرائيليين . انظر المثلث المحتوى الصفحة ١٣٩ وكتابى « تحول المد والجزر » (ساوث اند ١٩٨٣ ، الصفحة ٧٢) كعينة بسيطة .

٥٠ — والش ، « الواشنطن بوست الاسبوعية » ، ٤ مارس ١٩٨٥ ، ويلكى « بوسطن جلوب » ، ١٨ فبراير ١٩٨٥ .

٥١ — المثلث المحتوم الصفحتان ٤٤٠ ، ٤٤٨ ، مستشهدة بالصحافة الاسرائيلية اخبار من الداخل «تل ابيب» أول اكتوبر ١٩٨٥ . « يديعوت أحرنوت » ٤ نوفمبر ١٩٨٣ .

٥٢ — صحيفة «هاآرتس» ٢٥ يونيو ١٩٨٢ . انظر المثلث المحتوم الصفحة ٢٠٠ لمزيد من النصوص والتحاليل المماثلة لمعلقين اسرائيليين آخرين .

٥٣ — ب. ميشيل « هاآرتس » ١٣ نوفمبر ١٩٨٣ بشار « يديعون احرونوت » ١١ نوفمبر ١٩٨٣ ٥ يونيو ١٩٨٤ .

٥٤ — اولمرت ، معاريف ، ٢٢ نوفمبر ١٩٨٣ . ميلسون ، كوترن راشيت ، ٩ نوفمبر ١٩٨٣ . شارون اقتبلس زئيف شيف « هاآرتس » ، ٢٣ مايو ١٩٨٢ . ميلشتين ، « حداشوت » ، ٢٦ سبتمبر ١٩٨٤ . روبنشتين ، « هاعولام هازيه » ٨ يونيو ١٩٨٣ . حول أمانى بن جوريون قبل وبعد قيام الدولة انظر المثلث المحتوم الصفحتان ٥١ ، ١٦٠ . شابتاى تيفيت ، بن جوريون والعرب الفلسطينيون (اكسفورد ١٩٨٥) وعرض بقلم بينى موريس ، الجيروزالم بوست » ، ١١ اكتوبر ١٩٨٥ .

٥٥ — انظر « ليبيا فى علم الشيطنة الامريكية » .

٥٦ ــ المثلث المحتوم الصفحة ١٩٩ ، استشــهاد بمقابلــة فى صحيفة « هاآرتس » ، ٤ يونيو ١٩٨٢ . المثلث المحتوم الصفحتان ١١٧ ، ٢٦٣ .

٥٧ ــ « نوفيل أويزرفتير ٤ مايو ، الاويزرخر » ، (لندن) ، ٢٩ أبريل . « جــيروز الم بوست » ١٦ مايو . سان فرانسيســكو اكزمنر ، ٥ مايو . « الواشنطن بوست » ٨ يوليو ١٩٨٤ . انظر « صناعة الموافقة » ديسمبر ١٩٨٤ اصدار زى كوميونيتى تشرش ، بوسطن ، لمزيد من التفاصيل . حول تصميم اسرائيل السابق على تجنب تسوية سلمية ، بتأييد منتظم من جانب الولايات المتحدة ، انظر المثلث المحتوم وبيلين نفس المصدر . مواد ارشيفية تم الافراج عنها مؤخرا فى اسرائيل توضح ان القصــة تعود لســنوات عديدة . فيما يتعلق بنجاح « النيورك تايمز » فى خلق تاريخ مناسب ، فى تلك المنطقــة ومناطق اخرى ، انظر كتابى « كل الاخبار المناسبة » : يوتى ان أى ريدر ، فبراير / مارس ١٩٨٦ ، و « مراقبة الافكار فى الولايات المتحدة » .

٥٨ ــ قدم فريدمان تقارير جادة ومفيــدة من لبنــان خلال حرب ١٩٨٢ ، ويفعــل ذلك بين الحين والاخر من اسرائيــل أيضا . أنظر مثلا ، تقريــره حول قطاع غزة ، ابريل ١٩٨٦ .

٥٩ ــ فريدمان ، جريدة « النيويورك تايمز » ٧ اكتوبر ١٩٨٤ « النيويورك تايمز » ١٧ مارس ١٩٨٥ . مقال افتتاحى ، ٢١ مارس ١٩٨٥ ، وتعليقــات اخرى وتقاريــر صحفية كثيرة : رابين ، مذكرات رابين (ليتل ، براون ١٩٧٩ الصفحة ٣٣٢) . تمشيا مع موقفه المعتدل ، فان رابين يعتقــد انه ينبغى نقل اللاجئين من قطاع غزه والضفة الغربية الى شرقى الاردن أنظــر نحـــو حرب باردة جديدة الصفحة ٢٣٤ للحصول على نصوص دالة على ذلك .

٦٠ ــ « هاآرتس » ، ٢٩ سبتمبر ١٩٨٥ (اقتباس امنون كبليوك) ، « لوموند دبيلوماتيك » (نوفمبر ١٩٨٥) . كوتيريت ، ٩ اكتوبر ١٩٨٥ .

٦١ ــ جولى فلينت ، « مانشستر جارديان ، الاسبوعية ، ١٩ ينــاير ١٩٨٦ .

٦٢ ــ صحيفة «البوست » لا تصف ذلك بأنه « عمل ارهابى » قام بــه قائد ارهابى » هــو منــاحم بيجين .

٦٣ ــ كريستيان وليافر ، بوب وداوارد وريتشارد هاروود « من يكونون » « الواشنطن بوست » ١٠ فبراير ١٩٨٤ . مقــال افتتاحى « النيويــورك تايمز » ١٩ مايو ١٩٧٦ . فى الواقع ، تمع بوجه عام هنا ، أنظر « نحــو حرب باردة جديدة » ، « المثلث المحتوم » .

٦٤ ــ نظرة جديدة ، تل أبيب ، اكتوبر ١٩٨٥ . دافار،١٨ يوليو١٩٨٥ . كتب يورى ميلشتين يقول انه على النقيض من التقارير المعتمدة ، فان اسرائيل

هى التى بدات الصراع الذى ادى الى « حرب الاستنزاف » حيث أطلقت المدافع نيرانها على المواقع المصرية فقتلت عشرات الجنود مونتين اغسطس ١٩٨٤ .

٦٥ — توماس فريدمان « النيويورك تايمز » ، ٣١ يناير ١٩٨٦ .

٦٦ — جون بولوش ، « ضحايا منظمة التحرير الفلسطينية هم عمـلاء الموســـاد » ، « الديلى تلجراف » (لندن) ، ٣ اكتوبر ١٩٨٥ ، شاهنم الفجر ، ٢٩ نوفمبر ١٩٨٥ .

٦٧ — ادعاء منظمة التحرير الفلسطينية يفتقر للمصداقية فى هذه الحالة ولشاهام سجل رائع كصحفى مسئول .

٦٨ — المثلث المحتوم الصفحة ٧٧ . ديفيد شيبلر ، « النيويورك تايمز » ٢٦ يناير ١٩٨٤ ، الفقرة الأخيرة .

٦٩ — « النيويورك تايمز » ، ٣٠ يونيو ، أول يوليو . « ميدل ايست ربورتر » (بيروت) ، ٣٠ يونيو . « الأوبزرفر » (لندن) ، أول يوليو جنس « ميدل ايست انترناشونال » ، ١٣ يوليو ١٩٨٤ .

٧٠ — توماس فريدمان « النيويورك تايمـــز » ، ٥ فبراير . أمتنعت الولايات المتحدة عن الحكم على التصرف الاسرائيلى « النيويورك تايمز » ، ٥ فبراير . ايضا نورمان كمبستر ، لات ، ٥ فبراير ١٩٨٦ .

٧١ — انباء من الداخل (القدس) ، أول نوفمبر ١٩٨٥ .

٧٢ — « لوس انجليوس تايمز » « — بوسطن جلوب » ، ٢٩ يونيـو ١٩٨٤ . حول القمع الشديد فى الجولان ، انظر المثلث المحتوم الصفحة ١٣٢ .

٧٣ — انظر أورى ميلشتين ، مونيتين ، اغسطس ١٩٨٤ للاطلاع على تقـــرير حـــديث .

٧٤ — « الواشنطن بوست » ، ٤ يونيو ١٩٨٥ . « التايم » ، ١١ اكتوبر ١٩٨٢ . جودمان « النيويورك تايمز » ٧ فبراير ١٩٨٤ .

٧٥ — المثلث المحتوم الصفحة ١٨٨ .

٧٦ — رابين ، مذكرات رابين الصفحتان ٢٨٠ — ٢٨١ .

٧٧ — « النيويورك تايمز » ، ١٢ اكتوبر ١٩٨٥ . فى نفس الوقت تنـدد « النيويورك » بايران ، التى يتعين عليها أن تقوم بتسليم او معاقبة الاشخاص الذين قاموا باختطاف طائرة ركاب كويتية وقتل اثنين من الامريكيين فى ديسمبر ١٩٨٤ ، وتطالب بأن يقاطع الغرب ليبيا اذا ما استمر القذافى فى ايواء المختطفين مقال افتتاحى فى « النيويورك تايمز » ، ١٤ مايو ١٩٨٦ . ان عليها ان تقول اى

شيء مماثل أو أى شيء على الاطلاق حول الاشخاص الذيــن ياوون مختطفى طائرة الركاب السوفيتية ، أو حول السجل الطويل للاختطاف والقرصنة بواسطة عملائنا الاسرائيليين .

٧٨ ــ ليفارو كاح ، ارهاب اسرائيك المقدس،دراسة تستند على مذكرات شخصية لموشية شارت (اى اى يوجى ، ١٩٨٠ ، الصفحة ٢٠) ســـــتون دقيقة ، سى بى اس ، السابعة بعد الظهر ١٩ يناير ١٩٨٦ .

٧٩ ــ سون برسون ، التوسط والاغتيال (لندن ، ١٩٧٩) . ميشل بارزوهار ، بن جوريون : سيرة حياة (ديلاكورت ، ١٩٧٨) ، الصفحة ١٨٠ ، ستيفن جرين ، التحيز (مورو ، ١٩٨٤) الصفحة ٣٨ كيمش ، سبعة أعمـــدة ساقطة . (سيكر ووربورج ، ١٩٥٣) الصفحتان ٢٧٢ ــ ٢٧٣ .

٨٠ ــ جلوب وميل (تورونتو) ٩ اكتوبر ١٩٨٥ .

٨١ ــ « النيويورك تايمز » ٢٧ سبتمبر ١٩٨٥ صورة أسفلها تعليـــق بدون قصة أى دبلو اس جى ٢٢ أغسطس ، اقتباس الكسندر كوكبرن ، الأمـ ٢ سبتمبر ١٩٨٥ .

٨٢ ــ شولتز ، « بوسطن جلوب » ، ٢٥ يونيو ١٩٨٤ . « النيويورك تايمز » أول ابريل ١٩٨٤ « . انترناشونال تريبيون » ٥ مايو ١٩٨٦ . كولين نيكرسون ، « بوسطن جلوب » ، ٣ فبراير ١٩٨٥ ، حول المؤتمـــر . افريكاســـــيا ، يوليـــــو ١٩٨٥ ، للحصول على تفاصيل حـــول رجـــــال الكومانـــدوز التابعـــــين لجنـــــوب افريقيـــــا الأسرى ، وهـــو موضـــوع تـــم تجاهلــــــه الى حـــد كبـــير هنـــا . مونسلـــو وأوكـــيف ، شـــيردور لدكوار ترلى يناير ١٩٨٤ . حول طائرات الخطوط الجوية ، انظر « بوســـطن جلوب » « النيويورك تايمز » ، « واشنطن بوست » ١١ نوفمبر ١٩٨٣ .«بوسطن جلوب » ، ٢١ فبراير ١٩٨٤ . تلك الاحداث التى نادرا ما يشار اليها حـــدثت وسط حالة من الهستيريا الجماعية حول اسقاط الاتحاد السوفيتى لطائرة شركة الخطوط الجوية الكورية كى اى ال ٧ .. التى حظيت بسبع صفحات كاملة فى الفهرس المزدحم لصحيفة « النيويورك تايمز » فى شهر سبتمبر ١٩٨٣ وحده .

٨٣ ــ دان فيشر ، « لوس انجيلوس تايمز » ، ٢١ يونيو . مكجروري ، « بوسطن جلوب » ، ٢١ يونيو . ديفيد أدامز ، « نيونستاتسمان » ، ١٩ ابريل « النيويورك تايمز » ، ٢١ يونيو ١٩٨٥ .

٨٤ ــ « لوس انجيلوس تايمز » اول يوليو ١٩٨٥ .

٨٥ ــ ديفيد اينجاتيوس ، « وول ستريت جورنال » ١٨ يونيو ١٩٨٥ .

٧٦ ــ « النيويورك تايمز » ، ٢١ يونيو ١٨ يونيو ، أول يوليو ١٩٨٥ .

٨٧ ــ برنارد لويس ، « نيويورك رفيو » ، ١٥ أغسطس.« النيوريبلك »

٨ يوليو . ريجان ، خطاب الى نقابة المحامين الامريكية ، ٨ يوليو « بوسطن جلوب » ، ٩ يوليو بوت بورتز لوس أنجليوس تايمز ٢٦ يوليو نيويورك تايمز ٢ يوليـــو ١٩٨٥ .

٨٨ ــ توماس فريدمان ، « النيويورك تايمز » ، ٤ يوليو . « بوسطـــن جلوب » ، ٤ يوليو ١٩٨٥ .

٨٩ ــ المثلث المحتوم ، الصفحة ١٨١ .

٩٠ ــ رابين ، يتحدث الى الكنيست ، حداشوت ، ٢٧ مارس ١٩٨٥ . تامارى ، انترفير ، مونيتين ، اكتوبر ١٩٨٥ .

٩١ ــ روكاح ، نفس المصدر . أورى ميلشتين ، « عال همشمار » ، ٢١ سبتمبر ١٩٨٣ . كيفيت لوف السويس (ماكجروهيل ، ١٩٦٩) الصفحات ١٠ اف ، ٦١ ــ ٦٢ .

٩٢ ــ « النيويورك تايمز » ، ٤ ديسمبر ١٩٨٤ ، حول السجل الدراسى انظر مثلا ، « نحو حرب باردة جديدة » الصفحة ٢٣١ ، مناقشة ناداف سفران، اسرائيل : الحليف المستعد للقتال (هارفارد ١٩٧٨) .

٩٣ ــ « لوس انجيلوس تايمز » ، ٢٤ نوفمبر . بوسطن جلوب ، ١٩ ديسمبر « النيويورك تايمز » ، ٢٠ ديسمبر . « بوسطن جلوب » ، ٢٠ ديسمبر ١٩٨٣ .

٩٤ ــ جلوب وميل ، ١١ يوليو . « بوسطن جلوب » ، ٢٤ يوليو . « بوسطن هيرالد » ، ٢٥ يوليو ١٩٨٥ . « النيويورك تايمز » ٥ ، ٦ ينايـــر ١٩٨٤ .

٩٥ ــ جيمس ماركهام ، « النيويورك تايمز » ، ٣ ديسمبر ١٩٨٥ تتضمن تقديرات للخسائر من مصادر لبنانية وفلسطينية .

٩٦ ــ « النيويورك تايمز » ، ٢٣ مارس ١٩٨٥ . « النيويورك تايمز » ٣ ، ٤ ديسمبر ١٩٧٥ . « التايم » ، ٥ مارس ١٩٧٣ . « النيويورك تايمز » ٢٢ فبراير ١٩٧٣ تتضمن عدد القتلى وهو خمسة عشر .

٩٧ ــ ليس هناك دليل تأييد بالنسبة لمسألة الطائرة النفاثة الليبية غير ان الادعاء السوفييتى قد يكون صحيحا ، بالرغم من انه الواضح انه لا يقدم تبريرا للعملية الوحشية . انظر ار . دبلو جونسون ، اسقاط ، (نيكنـــج ، ١٩٨٦) وهى دراسة شيقة بصفة خاصة لقيامها بتنفيذ اكاذيب الحكومـــة الأمريكية .

٩٨ ــ « النيويورك تايمـــز » ، ٢٢ ، ٢٣ فبراير . مقال افتتاحى ٢٣ فبراير ٢٥ ، ٢٦ فبراير ١٩٧٣ . أميرا كوهين ، هوتام ، ١٠ فبراير ١٩٨٤ .

نكر الحادث بصورة مقتضبة خلال مسألة طائرة الخطوط الجــــوية الكورية ويتضمن ادعاءات كاذبة من جانب المدافعين عن العنف الاسرائيلى بأن اسرائيل قبلت على الفور تحمل المســئولية « ودفعت تعويضـــات » . مايكل كيرتس خطاب ، « النيويورك تايمز » ٢ اكتوبر . مارتن بيريز ، نيوريبلك ، ٢٤ اكتوبر ١٩٨٣ .

٩٩ — انظر الحاشية ٩٨ . لمقارنة رد الفعل للحادثين ، انظر روبرت شير مانشستر جارديان « الاسبوعية » ٢٥ سبتمبر ١٩٨٣ . لمناقشة حوادث مماثلة اخرى لم تحظ باهتمام هنا مع ذكر العملاء ، انظر كتابى ١٩٨٤ : اورويل ونحن ، توروكوارترلى ، شتاء ، ربيع ١٩٨٤ وحواش حول مشكلة اورويل فى معرفة اللغة (برايجر ، ١٩٨٦) .

١٠٠ — حول عمليات الطرد من اللد والرملة ، انظــر بينى موريس ، « ميدل ايست جورنال » ، شتاء عام ١٩٨٦ . حــــول الحالات الاخرى ، انظر المثلث المحتوم ، كتابى تحول المد (ساوث اند ، ١٩٨٥) ، والمصـــــادر المقتبس عنها . شوكن ، الشئون الخارجية ، خريف ١٩٤٨ حول الجهــــود لاغتيال الزعامة السياسية الفلسطينية فى عام ١٩٤٨ ، بتدمير موشى ديان ، انظر اورى ميلشتين ، « عال هشمار » ،٢١ سبتمبر ١٩٨٣ . « حداشوت »، ١١ يناير ١٩٨٥ . ويستنتج تقرير للمخابرات الاسرائيلية فى ٣٠ يونيو ١٩٤٨ تم اكتشافه مؤخرا أن من بين الـ ٣٩١٫٠٠٠ لاجىء عربى (خصص ١٥٢٫٠٠٠ لاجىء من خارج المنطقة لاسرائيل فى التوصـــية الخارجية بالتقسيم المقدمة من الامم المتحدة) ، قام ما لا يقــل عن ٧٠ فى المائة بالفرار نتيجــة للعمليــات العسكرية اليهودية (التى قامت بها أساسا عناصر الهجانة وقوات الدفـــاع الاسرائيلية) من بينها الطرد المباشر ، وهو ما ذكره بينى موريس فى تحليله . كما يذكر التقرير أن ذلك حدث فى مواجهة جهود محتدمة من جانب القيـــادة العربية لوقف التدفق . وهو يذكر أيضا أن « ظروف النصف الثانى من الهجرة الجماعية » من يوليو الى أكتوبر « تعتبر رواية مختلفة » . « فبعد يونيو » ٤٨ جرى العديد من عمليات الطرد المخطط لها . (« ميدل ايسترن ستديز » (لندن) يناير ١٩٨٦ ، مقابلة مع حاييم جارام كوى هالبر ، ٩ مايو ١٩٨٦) .

١٠١ — التفسيرات الاسرائيلية المختلفة لهذا الحادث تجعل قراءته عملا شيقا . وللاطلاع على بعض هذه التفسيرات (بما فى ذلك التقرير الوحيــــد الذى ظهر فى جريدة امريكية كبيرة ، وهى عملية تغطية مشينة قام بها زئيف شيف وهيرش جودمان فى الاطلانطك مانثلى) ، انظر جيمس انس ، (ذى يواس اس ليبرتى : باك ان ذى نيوز) ، الشئون الامريكية العربية ، شـــتاء ١٩٨٥ — ٦ . وربما كان الاكثر دهاء ما قاله اسحق رابين الذى كان وقتئـــذ رئيسا للأركان . الذى يصف الاعتداء على السـفينة بأنه أكثر تطـورات فى

الحملة كلها مدعاة للقلق ، عندما تعرض « كمحض أرهاب » ثم يمضي فيحدد بعناية تاريخ الحادث بأنه ٧ يونيو (وكان ٨ يونيو) وهو خطأ لا يمكن تصوره ، ويمكن فقط فهمه على أنه محاولة لاخفاء السبب الواضح للاعتـــداء : وهو اخفاء الغزو المدبر لسوريا بعد وقف اطلاق النار عن الولايات المتحـــدة . مذكرات رابين الصفحة ١٠٨ .

١٠٢ ـــ حول مسألة جنوب لبنان ، انظر مارك بروزونسكى « ميـــدل ايست انترناشونال » ، ١٦ مايو ١٩٨٥ . كذلك « بوســـــطن جلوب » ، ١٥ ابريل . ديفيد شيبلر ، « النيويورك تايمز » ١٦ ابريل ١٩٨٦ انظر هوستون كرونيكل (الاسوشيتدبرس) ١٨ مايو ، (النيويتدبرس انترناشونال) ٢١ مايو ١٩٨٤ ، حول مسألة رجل الأعمال من نيومكسيكو مايك منصور ، المعتقل لمدة ٢٢ يوما وتعذيبه وارغامه على حد قوله على التوقيع على اعتراف ينكره .

١٠٣ ـــ روبرت توكر ، كومينترى ، اكتوبر ١٩٨٢ .

١٠٤ ـــ دار يوفرنانديز ـــ موريرا ، تاريخ الافكار الأوربية ، ١٩٨٥/٤/٦

١٠٥ ـــ حول هذه المسائل انظر « نحو حرب باردة جديدة » ، الصفحة ٤٧ . والفصل الذى كتبته فى كومسكى ، جوناثان ستيل وجونجيتنجر « صدام الدول الكبرى » (بنجوين ، ١٩٨٢ ، طبعة منقحة ، ١٩٨٤ . انظر على وجه الخصوص ادوارد ـــ اس . هيرمان شبكة الارهاب الحقيقية (سوث انير ، ١٩٨٢) .

١٠٦ ـــ هيرست ، « المانشستر جارديان الأســـــبوعية » ، ٢٠ ابريل ١٩٨٦ . هاركابى ، اقتبلس أمنون كابليوك « لوموند ديبلوماتيك » ، فبراير ١٩٨٦ .

١٠٧ ـ اعدام القذافي للمنشقين الليبيين ، وأعماله الارهابية الكبيرة المسجلة ،ربما أيضا جرى منعها طبقا لمحللين فى المخابرات الامريكية والاسرائيلية ولكن مع احتمال أن يكون نتيجة ذلك الكشف عن أن الشفرة الليبية (التى تبدو واضحة تماما) قد حلت . وقد عبر أحدالمحللين الاسرائيليين عن ذلك بوضوح أكثر بقوله « لماذا نكشف مصادرنا وأساليبنا من أجل بعض الليبيين ؟ فرانك جريف ، فيلاد لفيا انكويرر ، ١٨ مايو ١٩٨٦ .

٨٠١ ـــ انظر « ليبيا فى علم الشيطنة الأمريكية » من أجل الأمثلة والمناقشة

٩٠١ ـ « النيويورك تايمز » ٢٧ يونيو ١٩٨٥ ، ذكر المدعى العام ادوين ميس بعد ذلك بعام أثناء زيارة للهند أن (الولايات المتحدة تتخذ خطـــوات

للسيطرة على المعسكرات الخاصة التى ادعت الهند أنها تقوم بتدريب المتطرفين السيخ) « كرستيان سينس لونيتور » ٢٥ مارس ١٩٨٦) . بوب وودوارد وشارلس آر . بابوك ، « الواشنطن بوست » ١٢ مـــايو فيليب شينون ، « النيويورك تايمز » ، ١٤ مايو ١٩٨٥ ، عن انكار وكالة المخابرات المركزية الأمريكية للتورط ، وهو ما أثاره بعض المسئولين فى الادارة بالكونجرس الذين ذكروا أن الوكالة كانت تعمل مع المجموعة وقت قصف لبنان .

١١٠ ــ احسان حجازى ، « النيويورك تايمز » ، ٢٠ ابريل ١٩٨٦ .

١١١ ــ أنطونى لويس ، « النيويورك تايمز » ، ٢١ ابريل ١٩٨٦ .

الارهابي الاساسي

بقلم : ادوارد و • سعيد

اكتسب « الارهاب » ككلمة وكمفهوم وصفا غير عادي في لغة الحديث العام الامريكي ، وحل محل الشيوعية بوصفه عدو الشعب الأول ، على الرغم من أن هناك العديد من المحاولات للربط بينهما • وقد نجمت عنه استخدامات مخيفة للغة والخطابة والحوار بمقدورها تعبئة الرأى العام والحصول على الشرعية ، واثارة أنواع مختلفة من أعمال القتل . كما أنه جلب واقر ايديولوجية تكمن اصولها في صراع بعيد ، وتخدم هنا غرض اضفاء الطابع الرسمي على انكار وتجنب التاريخ • وباختصار ، فان تصعيد الارهاب الى درجة تهديد الامن القومي (بالرغم من ان عدد اكبر من الامريكيين يغرقون في أحواض الاستحمام أو تضربهم العواصف الرعدية او يموتون في حوادث المرور) يصرف الانتباه عن امعان النظر بدقة في سياسات الحكومة الداخلية والخارجية • ويمكن ارجاء النظر فيما اذا كان هذا الانحراف في الاهتمام سيستمر طويلا أم سيبقى مؤقتا ولكن مع وجود التصديق ، الذى يكاد يكون غير مشروط ، من قبل وسائل الاعلام والمثقفين وصناع السياسة بانتشار الارهاب ، فان فرص العودة الى مظهر التعقل تعتبر غير مشجعة •

وعلى أية حال فانني أبادر باضافة أمرين مشجعين ، وهما ان الاجماع الصاخب على مغامراتنا في ليبيا ، يبدو أنه ليس على قدر كبير من القوة • فقد كانت الاصوات القليلة المعارضة لها ، أكبر أثرا من ناحية اثارة المناقشة والتأمل (وان كانت لا تستطيع في حد ذاتها بكل أسف الحيلولة دون وقوع الدمار الذى يمكننا اطلاق العنان له) مما كان يتوقع المرء . وقد وقع مؤخرا حدث صغير يدل على ما أعني وذلك خلال البرنامج التلفزيوني الذى قدمه « فيل دوناهو » والذى كان موضوعه الغارة على ليبيا في الرابع عشر من ابريل عام ١٩٨٦ • وقد بدأ « دوناهو » هذا البرنامج بسؤال الحاضرين عن رأيهم • وكانت الاجابة التي تلقاها تشير الى موافقة ، بل وحماس الجميع تقريبا ، على « ضربتنا » التي لها ما يبررها • وكان من ضمن الحاضرين « سانفورد اونجار » و « كريستوفر هيتشينز » ، اللذان عملا بسرعة وقد حضرا البرنامج ، على تحويل دفة المناقشة الى ما هو ابعد من الافتراضات التي يسلم بها الحاضرون . ومن الكلمات الوطنية الطنانة التي يرددونها • وبعد مرور ساعة ، كان يبدو ضرب ليبيا ، انتقاما من الارهاب ، عملا أقل قبولا ، واكثر مشقة مما كان عليه عند بداية البرنامج •

ويتصل مصدر التشجيع الثاني بالمصدر الأول . فالموقف الواضح الذى يتم اتخاذه ضد العنف الكريه والاضطرابات التي يتسبب في احداثها اليائسون

وغاليا المخدعون من الناس ، لا يتمتع بالقوة الكافية عندما يشمل الأمر شبكات الارهاب الكبيرة ، أو مؤامرات الدول الارهابية أو الارهاب كشر مجرد • ذلك أن الفطرة السليمة لا تعترض فقط على قلة أدلة النظريات المنافية للعقل ، ولكن فى لحظة ما (ليست قريبة بعد) تصبح القـــوة الدافعة للخوف من الارهاب عارية من الناحية السياسية والفكرية • وحقيقة الأمر أن معظم الدول ، ان لم يكن كلها ، تستخدم وسائل دنيئة ، من الاغتيالات والقنـــابل الى الابتزاز (ونتذكر هنا عملية السيارة الملغومة التى اشرفت عليها المخـــابرات الامريكية والتى اودت بحياة ثمانين مواطنا فى غرب بيروت فى بداية عـــام ١٩٨٤) • وينطبق نفس الشيء على الوطنيين المتطرفين ، بالرغم من اننا نتجاهل الاعمال المحظورة التى تقوم بها الجماعات التى نؤيدها • وعلى أية حال ، فان كل ما يتردد من تفاهات فى الوقت الحاضر عن الارهاب يمكن أن يؤدى الى حـــدوث اخطار رهيبة لا تحمد عقباها •

وهناك فرق مثير بين دراسات الباحثين وترهات الخبراء الزائفـــة التى تنتشر حاليا عن الارهاب وبين الأعمال التى كانت تتناول حركات التحرر الوطنية فى العالم الثالث منذ عقدتين . فقـــد كانت معظم الأعمـــال السابقة تخضع لاجراءات أكثر بطئا ومن ثم أكثر حرصا فى اصدارها . فلكى تصدر دراسة عن الفيتكونج مثلا ، فانه كان يتعين عليك الاطلاع على التاريخ الفيتنامى والرجوع الى الكتب واستخدام الهوامش — ومحاولة اثبات نقطة معينة بمناقشة قضية كاملة . ولم يكن مثل هذا البحث العلمى اقل تحيزا بســـبب مروره عبـــر تلك الخطوات ، ولم يكن اقل اهتماما بالحرب ضد أعداء « الحرية » ، ولا أقل عنصرية فى افتراضاته ، ولكنه كان ، أو يدعى على الاقل ، نوعا من المعرفة . أما حديث اليوم عن الارهاب ، فانه يعتبر نوعـــا من الأمـــور الموجهة تماما . فأبحاثه هى صحف الأمس أو نشرة أخبار الشبكة الكبلية اليوم . وكهنته — من امثال « كلير ستير لنج » و « مايكل لدبين » و « أرنود دى بور شجريف » — هم صحفيون تتسم خلفياتهم بالغموض وعدم الوضوح وتتسم معظم الكتابات التى تتناول الارهاب بالاختصار والبلاغة ، وتفتقر بالكامل الى المقاييس العلمية مال الدليل والبرهان والجدل . ويتمثل النموذج الذى تعتمد عليه ، فى لقاءات التليفزيون ونشرات الأخبار والقناعة الفورية التى يربطها المرء بنشرة أخبـــار البيت الأبيض المسائية والمعروفة باسم « وقت الحقيقة » .

ويسوقنا ذلك الى الكتاب الذى بين أيدينا وهو كتاب « الارهاب : كيف يستطيع الغرب الانتصار ؟ » الذى حرره وعلق عليه ، كالاعشاب الضـــارة فى تكاثرها ، « بنيامين نتانياهو » سفير اسرائيل فى الأمم المتحدة . ويضم هذا الكتاب مجموعة من المقالات أعدها ما يقرب من أربعين كاتبا ممن تدور حولهم الشبهات بشكل معتاد مثل جورج شولتز ، وجين كير كباتريك واللورد شالفونت

وكلير سترلنج ، وارثر جوله برج ، وميدج ديكتير ، وبول جونسون ، وادوين ميس الثالث ، وجان فرانسوا ريفيل ، وجاك كيمب ، وبول لاكسالت ، ولبسيك كولا كونسكي وغيرهم . وهو عبارة عن سجل لمؤتمر عقد منذ عامين في معهد جوناثان في واشنطن . وجوناثان نتانياهو ، شقيق بنيامين ، هو الاسرائيلي الوحيد الذى أصيب في غارة عنتيبي الشهيرة في عام ١٩٧٦ . (وجدير بالذكر أن بقايا الارهاب مثل نتانيا هو وليون كلينجوفر تطلق أسماؤهم على المراكز والمؤسسات ، ناهيك عن الاهتمام الواسع بهم من قبل الصحافة ، في الوقت الذى يموت فيه العرب والمسلمون وغير البيض دون الاشارة اليهم أو نعيهم أو التنويه بهم من « جانبنا ») .

وتسير الاجزاء المقسم اليها الكتاب على وتيرة سريعة مطردة : ففصول « تحدى الديمقراطيات » و « الارهاب والشمولية » يعقبها (بالطبع) فصل عن « الارهاب والعالم الاسلامي » وتليه فصول عن « الشبكة الدولية » و « الارهاب والاعلام » . ويعقب هذه الاجزاء « الأسس الشرعية للحرب ضد الارهاب » و «الحرب الداخليـــة » ، ويقود ذلك في النهاية الى آخر وأكبر وأهم جزء ، وهو « المعركة العالمية » . وبمقارنة هذا العمل ببعض الأعمال السابقة التى تناولت نفس الموضوع (مثل كتاب « الارهاب » لوالتر لاكير) فان هذا الكتاب يتجاهل كل المحاولات الهادفة الى التعرف على المنظور التاريخى والسـياق الحضارى . فالارهاب قد أصبح الآن كيانا محدد المعالم يتسم بالقليل أو الكثير من التعقل والحكمة .

وهناك بعض الجوانب الغريبة والمتدنية في هذا الكتاب والتى يتعـين ملاحظتها بشكل سريع . فهناك جهود قليلة للغاية لاقناع القراء بما يقـال : حيث لا يوجد اى ذكر للمصادر والأرقام ، وتسوده نزعة التجريد والتعميم . وباستثناء المقالات الثلاثة التى تتناول الاسلام ، فان العرض التاريخي يقتصر على قضية واحدة ، وهى ان الارهاب لم يشكل من قبل مثل هذا التهـديد « للنظم الديمقراطية » . ولقد ذهلت ايضا من أن الفعل في عنوان الكتاب ، وهو « كيف يستطيع الغرب الانتصار » ، لا يشير الى المفعول به . ويتساءل المرء عن الانتصار على اى شيء . وعدد المساهمين في اعـداد الكتاب كبير للغاية ، وتسيطر عليه نبرة الوعظ وروح الثقـة المفرطة والجزم بالأمور لدرجة انه لا يبقى في ذهنك ، في النهاية ، الا القليل مما قيل ، الا التمسـك بفكرة محاربة الارهاب كما يقول نتانياهو .

وليست هناك غرابة اذن ، في أن « ماريو كيومو » ، وهو أحد المسئولين في احدى الحكومات الأجنبية والذى يتشاور مع « نتانياهو » في شئون السياسة الخارجية ، كتب على غلاف الكتاب كلمة يحث فيها « رؤساء الدول ورؤسـاء الوزارات والحكام والعمد » ، على قراءة الكتـاب لأهمية « الدروس القيمة »

التى وردت به والمتمثلة فى « أن الارهاب العالمى الذى تقره الدول ارهاب موجه وذو طابع تآمرى ، وان الأنظمـة الديمقراطيـة فى العـالم أصبحت أهدافا للارهاب » . واذا كان وجود كيومو ضمن هذه المجموعة الموقرة يهدف الى تمكينه من الظهور فى صورة جادة وقيادية فلابد له من اعادة النظر مرة أخرى ، لأن الكتاب كله يعتمد على افتراض ان الأنظمة الديمقراطية فى المغرب وقادتها تتسم بالسذاجة والضعف والغباء ، وان الحل الوحيد أمامها يكمن فى تخليها عن جوعرها الغربى « واللجوء الى العنف والشدة والقسوة . هذا بالاضافة الى الى انه اذا امكن قيادتها عن طريق عائلة « نتانياهو » و « اسحاق رابين » و « موشى أرينز » وكلهم من المسـاهمين فى كتاب كيف يستطيع الغـرب الانتصـار) فانه سيكون من المضمون تحولها بشكل ناجح . ولكن عند هذه النقطة ، هل ستكون لماريو كيومو الليبرالى أية فرصة على الاطلاق ؟ .

وفى الحقيقة ، فان كتاب (الارهاب : كيف يستطيع الغرب الانتصار) يتناول السياسة الامريكية المعاصرة من منظور واحد فقط . كما يتناول أيضا اسرائيل المعاصرة كما تمثلها أكثر أصواتها عنادا وقبحا ، وسيلاحظ القـارىء اليقظ بالتأكيد مضمون الكتاب منذ البداية عندما يؤكد نتانياهو ، الذى تستحوذ عليه تملما أفكار محددة ، ان الارهاب الحديث ينبع من « حركتين اخذتـا مكانة عالمية بارزة فى النصف الثانى من القرن العشرين وهما الشيوعيةالشمولية والتطرف الاسلامى (والعربى) . ويفسر ذلك فيما بعد بأنه يتمثل بشكلأساسى فى المخابرات السوفيتية (كى . جى . بى) ومنظمـة التحرير الفلسطينية وان كانت الأولى أقل خطرا من الثانية ، يربط « نتانياهو » بينها وبين كافـة حركات غير البيض وغير الأوربيين المعارضة للاستعمار ، والتى تقف بربريتها على النقيض الكامل من سمو ونقاء اليهود ، والمسيحيين المناضلين من أجـل الحرية الذين يؤيدونهم .

وعلى خلاف هؤلاء الذين يكتفون فقط بادانة الارهـاب دون طرح اى تعريف له ، يقدم « نتانياهو » تعريفه بجرأة بقوله : « ان الارهاب يتمثـل فى القتل والتشويه وتهديد الأبرياء بشكل منظم ومتعمد من اجل زرع الخوف فى النفوس لتحقيق أهداف سياسية » . ولكن هذه الصياغة الفلسفية القـوية يجانبها الصواب شأنها شأن كافة التعريفات الاخرى ، ليس فقط لانها يكتنفها الغموض بشأن الاستثناءات والحدود ، ولكن لان تطبيقها وتفسيرها فى كتب نتانيا هو يعتمد بداهة على مقولة : « اننا » لسنا ارهابيين مطلقا ، وانمـا الارهابيون هم المسلمون والعرب والشيوعيون .

وهكذا نرى أن وجهة النظر هذه بسيطة للغاية ، وترجع اصولهـا الى الانكار الاساسى والمبدئى فى التاريخ الاسرائيلى للحقيقة الدفينة بـأن اسرائيل نشأت كدولة فى عام ١٩٤٨ نتيجة لنزع ملكيات الفلسطينيين واعتقدأن فترة بداية السبعينات قـد شهدت اعترافا فى اللاوعى من جانب القـادة

الاسرائيليين بأنه ليس هناك اى خيار عسكرى تقليدى فى مواجهة الفلسطينيين الذين كان يقدر تعدادهم فى اسرائيل بـ ٦٥٠ر٠٠٠ نسمة وفى غزة والضفة الغربية بـ ١ر٣ مليون نسمة ، بالاضافة الى مليونين فى المنفى . ومن ثم فانه يتعين التخلص منهم بوسائل اخرى . وقد كان هذا الاعتراف بالتأكيد نتيجة لظهور القومية الفلسطينية فى اعقاب عام ١٩٦٧ كقوة مقاومة لاحتلال اسرائيل لفلسطين التاريخية بكاملها .

وتكمن أصول مبدأ « الكفاح المسلح » فى حق المقاومة الممنوح فى كل انحاء العالم للشعوب التى تعانى من الاضطهاد القومى . غير أن الفلسطينيين مثل باقى الشعوب (بما فيها الشعب اليهودى) كانوا يلجأون أحيانا الى القيام بعمليات هجومية مثيرة لاضفاء طابع درامى على صراعهم ، ولخلق الشعور بالألم لدى العدو الدائم . ولقد اعتقدت دائما ان هذه العمليات تعد خطأ سياسيا وان لها نتائج معنوية هائلة . ومن المؤكد ان العنف الاسرائيلى الموجه ضد الفلسطينيين كان دائما ، وبشكل لا يقارن ، أكبر فى حجمه وفى ضرره . ولكن الموقف الثابت ، بشكل مؤسف تجاه « الكفاح المسلح » الذى يتم القيام به من المنفى ، والتجاهل النسبى للعمل والتنظيم السياسى الجماهيرى فى داخل فلسطين ، عرض الحركة الفلسطينية مع بداية السبعينات لهجوم نظام عسكرى واعلامى اسرائيلى اكثر تفوقا ، واستطاع تضخيم حجم العنف الفلسطينى بشكل اكبر مما هو فى الواقع . ومع نهاية العقد ، اختارت اسرائيل انتهاج سياسة أمريكا ، واستغلت مخاوف اليهود من تكرار عمليات الابادة ، واثارت المشاعر اليهودية والمسيحية الكامنة ضد الاسلام .

ويقول الصحفى الاسرائيلى (امنون كابليوك) فى مقالة هامة نشرت فى عدد شهر فبراير من مجلة « لوموند ديبلوماتيك » (ان السياسة الاسرائيلية كانت تهدف بشكل متعمد فى منتصف السبعينات الى القضاء تماما على شرعية القومية الفلسطينية عن طريق وصف المعبر الرئيسى عنها — وهو منظمة التحرير الفلسطينية — بأنها منظمة ارهابية ، والعمل على تجاهل مطالبها التى لا يمكن انكارها تجاه اسرائيل) . وكانت النتيجة الرئيسية لهذه السياسة بالطبع هى غزو اسرائيل للبنان فى عام ١٩٨٢ . وكان الهدف المعلن لهذا الغزو هو القضاء على الارهاب ولكنه فى الحقيقة كان يهدف الى تسوية مشكلة الضفة الغربية وغزة ، خاصة اذا اخذنا فى الاعتبار حقيقة ان منظمة التحرير الفلسطينية حرصت بدقة على احترام وقف اطلاق النار فى الفترة الواقعة بين يوليو ١٩٨١ الى يونيو ١٩٨٢ .

وقد كانت احدى مشاكل غزو عام ١٩٨٢ ، أنه أظهر للغرب جانبا من دولة اسرائيل كان يتم دائما اخفاؤها . وحتى يتم محو صورة مذبحة صابرا وشاتيلا من الأذهان ، كان على اسرائيل أن تقوم بشن حرب أيديولوجية وثقافية شاملة ضد الارهاب . وتمثل هدفها الاساسى أولا فى ضربها لاهداف

منتقاة (« فنحن » لسنا ارهابيين مطلقا بغض النظر عما فعلناه ، و « هم » ارهابيون دائما وسيظلون ارهابيين) . وتمثل هدفها الثانى فى طمس التاريخ وحتى السلطة الزمنية نفسها . ذلك أن أهم ما فى الامـــر هو عزل عـــدوك واخراجه من حيز الزمن ، ومن الاحداث الجـــارية ، وحـــرمانه من اتخـــاذ المبـــادرة ، ومن ثم تصـــويره على انه يهتم بانزال الدمـــار فقط . وبالتالى فانه اذا كان بمقدورك اظهار ان الليبيين والمسلمين والفلسطينيين والعـــرب بصفة عامة لا يعيشـــون الا فى واقع يؤكـــد حقيقة جوهـــرهم الارهابى كليبيين ومسلمين وفلسطينيين وعرب فانك تستطيع الاستمرار فى مهاجمتهم ومهاجمـــة دولهم « الارهابيـــة » ، وتستطيع تجنب كافة الاسئلة المتعلقة بســـلوكك اوبدورك فى مصيرهم الحالى . وقد قال بنيامين نتانياهو .

لا يمثل السبب الاساسى للارهاب فى أوضـــاع الظلم ، ولكنـــه يتمثل فى النزعة لممارسة العنف بشكل مطلق . ومن الممكن ارجاع ذلك الى النظـــرة العالمية التى تؤكـــد على ان بعض الاهـــداف الايديولوجية والدينية المعينة تبرر ، بل وتستلزم طرح كافة الموانع الاخلاقية جانبا . وفى هـــذا السياق ، فان ملاحظة أن السبب الاساسى للارهاب انما يرجع الى الارهابيين أنفســـهم ليست اكثر من حشـــو زائد .

ان تفسير كافة جوانـــب التاريخ المضطرب الـــذى يربطنا بالارهابيين (أو الذى يربط الاسرائيليين بالفلسطينيين) بالاعتمـــاد على مقـــولة « نظرية المظالم » التى تتسم بالتفاهة والازدراء للكاتب ميدج ديكتر يعنى الاســـتمرار فى خوض الحرب السياسية ضد تاريخنا وتاريخهم ، وترك مشـــكلة الارهاب بـــدون حـــل .

ويمكننا الآن تقييم هذا الجانب « الانتقائى » الصـــارم الذى يميز هـــذا المنهج . وقد وصف جولى فاينت المحرر بصحيفة « الجارديان) الصادرة بلندن ، تدخل اسرائيل فى لبنان فى بداية شهر مارس من عام ١٩٨٦ فى نفس الفترة التى كان فيها « فرار شتراوس » يعد فيها كتاب « نتانياهو » للبيع . وذكر فى تقريره أن وحـــدة عسكرية اسرائيلية دخلت مـــع رجال جيش لبنان الجنوبى (من عملاء اسرائيل) الى قـــرية « شـــقراء » للبحث عن جنديين اسرائيليين مفقودين . وذكر المحرر الصحفى « فلينت » ان الاسرائيليين كانوا يقـــومون طول ايام الاسبوع منذ الفجر باقتياد سكان القرية الى ساحة احدى المدارس المحلية للتحقيق . وقد ذكر له السيد ناصر (وهو تاجر صغير من المدينة كان قد عاد لتوه من الخارج بعد غياب عدة سنوات) لقد قضينا طـــوال الوقت جالســـين على الارض واذا وقفنا فاننا كنا نضرب . ويستمر تقرير فلينت فى تقديم تفاصيل مرعبة . وسأقتبس منه بشكل مطول حيث انه لن يظهر فى الغالب فى اية مطبوعة امريكية لان هناك قيودا شديدة للغاية على نشر اية مادة تدين

الاسرائيليين بشكل واضح وتكشف موقفهم الارهابي ولابد من مقارنة هذا التقرير بالموضوعات التي تقدمها اجهزة الاعلام الامريكية بشكل منتظم لعرض وجهة النظر الامريكية الاسرائيلية تجاه الارهاب ، مثل التقارير التي تقدم لتوماس فريدمان المحرر بصحيفة النيويورك تايمز ، ويقوم باعدادها بالصورة الواجبة لصحيفته (وهناك مثال صارخ على ذلك ، وهو قيام الصحيفة في ١٦ فبراير من عــام ١٩٨٦ بوصفنا بأننا خارجون عن العرف الاجتماعي طبقــا لفكــرة المخابرات الاسرائيلية . ويقوض دليل ما حدث في شقراء على الاقــل تعريف نتانيا هو للارهاب الذي يطبقه فقط على منظمة التحرير الفلسطينية وجهاز المخابرات السوفيتية (كي . جي . بي) : « حاولت القوات الايرلندية التابعة للامم المتحدة أن ترسل المياه واللبن والبرتقال ، ولكن الاسرائيليين ورجــال جيش لبنان الجنوبي ألقوا بها جميعا على الارض تــم تغير النظام يوم الجمعة وتــم جمع الرجال والنساء والاطفال والرضع ـــ وكان اصغرهم يبلغ عمره يوما واحدا في الساحة . وتم التحقيق معهم في فصلين بالمدرسة ويقول القرويون ان الجنود الاسرائيليين أجروا التحقيق الاول ، وان سفاحي جيش لبنان الجنوبي اجروا التحقيق الثاني وقد جرت التحقيقات في حجرة كانت بقع الدم ما تزال ظاهرة على ارضها وعلى مناضد المدرسة . وكانت هناك اشياء مبعثرة على ارض الحجرة الصغيرة ، ويقول القرويون انها استخدمت اثناء التحقيق . وكانت هذه الاشياء هي أرجل الكراسي وعصي الخشب ، وبقايا سجائر في منافض موضوعة على مواقد كهربائية ، وســلاسل كهربائية ، ومسامير استخدمهــا المحققون في خرق الآذان . ولم يتم السمــاح طــوال اليوم للايرلنديين برؤية المعتقلين ، بالرغم من انه كان من الممكن سماع الصراخ ورؤية الاشــخاص المصابين في ساحة المدرسة . وفي فترة ما بعد الظهيرة ، تم القاء خمسة رجال الى الشارع خارج المدرسة ، وكانوا يبكون ، وكان بعضهم غير قادر على الوقوف . وتم نقلهم الى المستشفى . وبالرغم من ان قوات اليونيفيل لم تناقش في تقريرها الطبي الدليل الوثائقي الكامل ، فان المحررين الصحفيين الذين زاروا الاشخاص الخمسة ، شاهدوا انهم تعرضوا للضرب الوحشي وللحرق باعقاب السجائر في ظهورهم . وقال اصدقاء «رضوان عاشور » الطالب الذي كانت هناك كسور مضاعفة بيديه ، ان الذين حققوا معه داسوا عليهما بالاحذية العسكرية . وهناك رجل آخر احرق عضوه التناسلي بولاعة سجائر . وبالقرب من المدرسة تم تجميع الشباب بما فيهم السيد ناصر في المساء بالقرب من بركــة القرية . وقال هؤلاء الشباب أنه تم القاؤهم وتغطيتهم في الوقت الــذي كانت فيه ايديهم مكبلة بالاغلال من الخلف . واجبروا على الاستلقاء على ارض احد المحلات غير مكتملة البناء حتى الفجر . وعندما طلب المحققون من ناصر اخبارهم بكل شيء عن القرية قال ناصر انا لا اعرف شيئا . وقد أتيت لتوى من ليبريا وعندما غادر الاسرائيليون في النهاية المدينة يوم السبت ، في اعقاب فشلهم في العثور على المطلوب اعتقالهم ، اظهر التقرير الامنى الذي تتم اعداده عــن

« شقراء » ان رجلا وست نساء ، وكانت احداهن حاملا قد تم اعتقالهم وانـه تم نسف ثلاثة منازل بالديناميت وتحطيم العديد غيرها ، بعد كسر ابوابهـا بالقنابل . كما تمت سرقة عشرات السيارات .

ويتمثل مغزى هذا الحادث البسيط (الذى يوضح ما يتعرض له المدنيون الابرياء الذين تعشق الولايات المتحدة الدفاع عنهم) ليس فى تكراره بشكل يومى او فى ان مثل هذا السلوك اصبح مميزا لدولة اسرائيل منذ نشأتها (كما يتضح من اقوال مؤرخين اسرائيليين ممن عدلوا عن مواقفهم مثل توم سيجيف وبيبى موريس وغيرهما أو انه يتزايد استخدامه كوسيلة زائفة لمكافحـة الارهـاب « ولاضفاء الطابع الشرعى على حالات التعذيب والاعتقال وتدمير المنازل وسلب الاراضى والقتل وانـزال العقوبات الجماعية والترحيل ، والرقابة واغـلاق المدارس والجامعات ، وانما يكمن المغزى فى أن مثل هذه الاحداث يكاد يكتسحها تماما ، الحماس المبرر اخلاقيا لادانة « ارهاب » العرب والمسلمين وغـير البيض .

ويلعب الخبراء المتخصصون فى شـئون العالم الاسـلامى دورا كبيرا فى اشعال هذا الحماس . ونلاحظ هنا انه على خلاف الباحثين فى شئون امريكا اللاتينية وافريقيا واسيا الذين تدفعهم سذاجتهم الى التعبير عن تضامنهم مع الشعوب التى يجرون الدراسات حولها ، فانه يبدو أن طائفة المستشرقين المتخصصين فى شئون الشرق الأوسط لم تفرز الا امثال برنارد لويس ، وايلى كيدورى ، وبى . ج ، فاتيكيوتيس ــ الذى ياتى فى المرتبة التاسعة من البلحثين ممن يساهمون بشكل او بآخر فى التصديق على الاكاذيب التى يروجها « نتانياهو » وبغض النظر عن القاء الضوء على مجالات تخصصهم (التى يرتزقون منهـا) والتى يمكن ان تدعم التفاهم والمودة او التعاطف فان هؤلاء المرتزقة يؤكدون على ان الاسـلام دين ارهابى ، وقـد رفض جـون جروس المحرر بصحيفة « النيويورك تايمز » الاعتراف بهذا الموقف المناقض للحقيقة وغير المقبول انسانيا عند عرضه ولكنه قال « انه ليس هناك اى شىء فى الاسلام كدين يحض على ممارسة الارهاب » ولكن اذا كان جروس قد قرأ الفقرة الثانية من مقال لويس لكان قد اكتشف ان هذا الرجل العظيم يقول « انه من المناسب استخدام الاسلام كمصطلح للتعريف والتصنيف عند مناقشة الارهاب فى الوقت الحاضر » .

ان جروس ولويس يمثلان عرضين من اعراض تشويه العقل واللغة الذى افرزه « الارهاب » . ويعانى جروس من تناقض ايديولوجى خطير فى وجهة نظره ، اذ انه يعتقد من جهة انه ليس من الممكن ان يصدر باحث محترم احكاما عنصرية ، ومن جهة اخرى فانه يعتقد انه بمقدور المرء قول اى شىء عن الاسلام والعرب اذا كانيرغب فى ان يكون باحثا محترما ولذلك يجب قراءة جـروس

دون استخدام الحس النقدى . يحظى لويس حاليا بثقـــة غير عـــادية من جانب صحف مثل « النيويورك تايمز » ، و «ريفيو اوف بوكس » « وذى النيويورك ريبيليك » ، وكومنتارى « ، وأصبحت كل هذه الصحف تقريبا تحت تصرفه .
ويقدم لويس فى مقاله اكذوبة وراء أخرى ، ويكتفى بتقديم نصف الحقيقة .
ويقول لويس ان الاسلام دين سياسى ، وانه بهذا فريد فى نوعه . ويضيف انه فى حين ان المسيح ضحى بنفسه على الصليب ، وان موسى مات قبل دخول ارض الميعاد ، فان محمدا (الرفيق البارع) أقام دولة وتولى حكمها . ومـــن المفترض ان هذه الحقائق التاريخية الثلاث قد حددت مجرى التاريخ والثقافة المسيحية واليهودية والاسلامية منذ ذلك الحين وليس من المهم ان القادة المسيحيين واليهود حتى يومنا هذا اقاموا وحكموا دولا أو ان اليهود والمسيحيين (متجاهلين تماما سماحة المسيح ومحبة موسى ; خاضوا حروبا باسم المسيحية واليهودية ، وكانت هذه الحروب شأنها شأن اية حروب اخرى . ويقول لويس أن مايهم فى الوقت الحالى هو ان هناك « اعاده تأكيد على الربط بين السياسة والاسلام » وكأنه ليس من الواضح ان اسرائيل هى أصدق حالة على الربط بين الديـــن والسياسة فى العالم المعاصر وكأنه ليس من الواضح ايضا ان جيرى فالويل ورونالد ريجان يربطان دائما وبشكل متكرر بين الدين والسياسة كـــلا ، على الاطلاق ، فالمسلمون وحدهم هم الذين يربطون باصرار بين السياسة والدين كما فعل النبى محمد ، وهم مذنبون لعودتهم الى صفات الأسلاف .

ومن ثـــم ، فان كتاب الارهاب : كيف يستطيع الغرب الانتصـــار ، يحرض على العنف ضـــد العرب والمسلمين . ويخلق مناخا يبـــدو فيـــه من الطبيعى أن تخصص صحيفة « النيويورك تايمز » عمودا مســاحته ١٠٤٣ بوصة لنشر خـــبر وفاة « ليسون كلينجوفير » الذى قتـــل بشكل وحشى ، وان تخصص عمودا مساحته ١٤ بوصة فقط لنشر خبر وفـــاة « اليـــكس اوديه » الذى قتـــل ايضا بوحشية فى نفس الوقت فى ولاية كاليفورنيـــا ، رغم انه ليس مواطنا امريكيا أقل مستوى فهـــل أصبحنا لا نبالى بحيـــاة مـــلايين العرب والمسلمين ، ونعتـــبر انه ليس هنـــاك ما يدعو للاهتمام بمســـألة ما اذا ماتوا على أيدينـــا أو على أيدى حلفائنا المفضلين من اليهود والمسيحيين وهل نعتقـــد حقا ان الارهاب يجرى فى عروق العرب والمسلمين ؟

ان اسوأ جانب فى مسألة الارهـــاب يكمن من الناحية الفكرية فى وجود مقاومة ضئيلة للغاية للادعاءات التى يتـــم تضخيمها على نطاق واسع وللمزاعم غـــير الموثقـــة ، وللتكرار والحشو الـــذى ليس له ما يبرره . وحتى اذا سلمنا بالقول بأن الصـــحافة التى تخاطب الرجل أو المرأة ينتابها العـــديد من الافكار التافهة المتعلقـــة بالقيمة الاخبارية والاثارة الصحفية ، والقوة الى الحـــد الذى لا تستطيع فيه التمييز بين الاعمال الفردية اليائسة التى ليس لها اهمية

سياسية وعمليات الابادة الجماعية المنظمة ، فانه يظل من الصعب معرفة الكيفية أو السبب الذى يجعل العالمين ببواطن الامور لا يقولون شيئا أو ينحازون الى الطرف الاقوى . وهناك مجموعة قليلة فقط من الافراد مثل « نوام كومسكى » واليكسندر كوكبرن تبدو على استعداد للتساؤل علانية عن الاسباب التى تحول دون مناقشة الحقائق ، وكيف أصبح من المعتاد تقييم الحقائق بالكامل على أساس جنس أو هوية أو عقيدة من يقدمها . واذا قلت أن الولايات المتحدة الامريكية قد أمدت اسرائيل بالقنابل العنقودية التى تستخدم لقتل الاطفال الفلسطينيين فى بيروت فان مقولتك لن تكون صحيحة ليس لان مقولتك غير حقيقية ولكن لانك متحدث فلسطينى (أو عربى او مسلم) . ، وكأن هذه الحقيقة قد جعلت منك على الفور شخصا مروجا للاكاذيب الارهابية . وفى نفس الوقت فانه ليس هناك من يقول « لكلير سترلينج » « وجيليان بيكر » أن مزاعمها غير الصحيحة المتعلقة بوجود « معاهدات ارهابية دولية » « واتفاقيات ارهابية » ليس هناك اى دليل عليها ، ولا ينتقد باقى المستشرقين برنارد لويس وكادور — ى لترويجها بشكل منتظم كل هذا الهراء عن الثقافة العربية أو الاسلامية ، مما يعد تهمة فى العنصرية والتحيز فى أية مواطن أخرى .

وبصرف النظر عن الغارات التى تم شنها فى الماضى والتى ستقع فى المستقبل ، وان جنون الارهاب خطير للغاية لانه يزيد من قوة روح النرجسية الوطنية الهائلة والجامحة التى نعمل نحن على ازدهارها . أليس هناك حد لتلك الحماقة التى تقنع عددا كبيرا من الامريكيين بأن السفر لم يعد الآن مأمونا والتى تخفى عنهم فى نفس الوقت حقيقة الالم والعنف الذى يتعين أن يتحمله الكثير من السكان فى افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ؟ لمجرد أننا رأينا انه بمقدور الظلمة المحليين الذين نسميهم بالمقاتلين من أجل الحرية ، الاستمرار فى القتل باسم معاداة الشيوعية ومعاداة الارهاب ؟ أليس هناك من سبيل للمشاركة فى السياسة مع تجاوز تكرار الشعارات الجاهزة ؟ ماذا حدث للدقة العلمية وحسن التمييز والروح الانسانية السامية التى نفخر بأنها تميز التعليم الليبرالى والميراث الغربى ؟

لا تحاول الاجابة على هذه الاسئلة مباشرة . وبدلا من ذلك ، يمكنك ان تقرأ اى بحث أومقال أو نص تليفزيونى او اية مقالة افتتاحية أو اعلان عام عن كتاب عن الارهاب (ويكفى أى واحد منها لان معلوماتها متبادلة) وان تطرح أسئلتك على المؤلف ، وستجد انك كمن تسأل شخصا يجادل بأن كل امور هذا الكون كان يسيرها مكتب يقع بداخل الهرم الاكبر وان مشاكل العالم ومشاكلنا لن تختفى مطلقا : ولكنها ستظهر بوضوح مثلما هى ظاهرة الآن بدعوى الارهاب . ولا تتمثل مهمة المثقفين الامريكيين فى تأييد الهجوم

على ليبيــا أو ادانـــة الشيوعية السوفيتية ، ولكنها تتمثــل فى اظهار كيفية استخدام قــوة هــذه البلاد الهائلة فى أغراض التعايش السلمى مــع باقى المجتمعات الاخرى وعــدم اللجوء الى استخدام العنف ضـــدها . ومن المؤكد انه ليس من الممكن انجاز هــذه المهمة عن طريق المتاجرة بالافكار الميتافيزيقية المجردة واصدار التعليمات للعالم ، وكأننا الشعب الوحيد الذى يتمتع بالاعتبار . وليصبح من الممكن انجــاز هذه المهمة عن طريق الاعـــلان باننــا نعيش فى حالة دائمة من الحصـار ، وأننا شركاء فى هذا الجنون المستمر من جانب الرافضين المعاندين بالشرق الاوسط .

الجـــزء الثـــالث

البـــديل « الليـــبرالى »

كتـــاب الخـــروج والثورة لمايكل فالتزر

قراءة كنعانيـــــة

بقلم : ادوارد سعيد

يعد كتاب « ســفر الخــروج والثورة » (المنشـــور فى سلسلة كتـب اساسية) للمؤلف مايكل فالتزر ، فى الاساس ، قراءة أو رؤية معاصرة لقصـــة العهد القــديم ولكنه يمس أيضا قضـــايا السياسة الثورية والتفسير القصصى للعهد القديم ، ويشير الى العــلاقة بين العــالمين العلمانى والدينى ، وبين « النماذج » والاحــداث الفعلية ، وبين التاريخ اليهودى بصفة خاصة والتاريخ الغربى بشكل عام وقد تبــدو كل هذه الامور بمثابة عبء ثقيل على كتاب صغير ومتواضـــع الحجم ولكن ذلك يمثل جزءا رئيسيا من اهمية الكتاب ، ومن براعة فالتزر كمؤلف اذ انه يعرض الامور بشكل مبســط جذاب فى الوقت الذى يشير فيه الى قضايا متعددة وأكثر تعقيدا بشكل عام بالنسبة لمثل هذا الكتاب ، غير انى أسارع باضافة ان هذا الكتاب يثير فى القارىء حاسة النقد بشـكل حــاد ، مما يدل بالتأكيد على الطابع المثير للمــادة التى يتناولهـــا . ويذكــر فالتزر الخطوط الاساسية لنقاشه بشكل سريع . ويقول فالتزر انه على خــلاف القصص الاخــرى التى تعتمد على التزيد والتكرار ، فان قصــة الخــروج تسير فى خط مستقيم واحد ، وتنتقل من العبودية والاضطهاد فى مصر الى التجــول بسينـــاء حتى الوصول الى أرض الميعـــاد . وموسى ليس مثـــل اوديس الذى عاد الى الوطن وانما هو بطل شعبى — وان كان دخيـــلا — لقوم يتحملون المشاق وينتصرون فى تحقيق التحـــرر القـــومى ومن ثم فاننـــا نجــد فى الخروج « الصيغة الاصلية للتاريخ التقـــدمى » . ويضيف فالتزر انه فى الوقت الذى لم تؤد فيـــه ثورات العبيد فى القـــدم الى اقامـــة أى نظـــام سياسى جديد أو مؤثر « فانه من الممكن تعقب سلسلة التاريخ المستمر منـــذ الخروج حتى السياسة الراديكالية فى عصرنا الحاضر » .

وتتخلل عرض فالتزر اشـــارات الى احـــداث لاحقة والى مفكرين متأثرين بسفر الخروج . ولا يشعر قراء كتابه الاول « الثورة والقديسون » بالدهشة من ان بعض قادة الفكر البروتستانتى الراديكاليين فى القرن السابع عشر تتم الاشارة اليهم مرة أخرى فى كتاب « الخروج والثورة » بالاضافة الى العـــديد من القادة الامريكيين السود الذين يتزعمون حـــركة الحقوق المدنية ، والى

العديد من قادة اللاهوت الذين ينادون بالتحرر فى أمريكا اللاتينية وهناك سمتان رئيسيتان لهذه المجموعة المتالقة سياسيا . السمة الاولى هى انهم جميعا يعتمدون على القوة الالهية لتحقيق « التحول الجذرى » بالرغم من انهم يؤكدون على أهمية المحاولات الدنيوية ايضا . والسمة الثانية هى انه ليس هناك أحد منهم له فكر منظم أو ثورى بشكل حقيقى . ولكن فالتزر يقول ان هذه السمات تعتبر عن التزامه « بالرؤية اليهودية للخلاص ونظرية التحرر السياسية » .

وبخصوص هذين الامرين فان فالتزر يعيد تفسير العهد مع الله ، الوارد ذكره فى العهد القديم ، ويرى أنه « فعل انشائى » يخلق شعبا ، ويهيىء امكانية وجود سياسة لا مثيل لها من قبل فى تجربة هذا الشعب ومن أهم هذا العهد ان يصير ذلك الشعب قوة أخلاقية . ولذلك فان هذا الشعب ملتزم أخلاقيا بالتضامن مع المستضعفين . غير أن من الامور غير المستساغة (وغير سهلة التفسير) هى حاجة هذا الشعب المعلنة بوضوح لهزيمة الثورة المضادة — والمتمثلة فى عبدة العجل الذهبى ، وفى سكان ارض الميعاد الاصليين سيئى الحظ الذين ليسوا من شعب الله المختار . وتتمثل النقطة الرئيسية لدى فالتزر فى أن تتويج الخروج بالوصول الى أرض الميعاد ، يعد حقا بمثابة ولادة دولة جديدة يتمتع أفرادها بحق المشاركة فى المجالات السياسية والدينية . وليس من الواضح اطلاقا طبيعة الدور الايجابى الذى يمكن للرب أن يقوم به فى هذه المجالات بعد أن تصبح فى أيدى أفراد المجتمع فى الدولة العلمانية . ومن الغريب حقا ان فالتزر لا يهتم بهذا الجانب ، ولكن المرء يستطيع على الاقل فهمه .

ويسلم فالتزر بان من شأن سياسة سفر الخروج — ونقتبس هنا جملته التى يستخدمها لتوضيح أسلوب ونظرة سياسية متميزة — ان تؤدى كما حدث فى التاريخ اليهودى والمسيحى الى عصر الخلاص والسعادة . غير ان هذه الحركات الالفية من الاضطرابات تعتبر بعيدة كل البعد عن الافكار الرزينة والجذابة التى يروج لها المؤمنون بهذا النوع من السياسة فى سفر الخروج والذى يقدمه فالتزر . ويسلم فالتزر ايضا بان أفضل جزء فى تجربة الخروج يكمن فى بدايته حيث تحدث الكثير من المشاكل الذاتية التى تقيد بل حتى تلغى الوعد الذى تم تقديمه فى البداية وعلى أية حال فانه وفقا لفالتزر فان من حقنا رفض أى شىء يفيد ان سفر الخروج يدور حول مجرد الصراع على الارض ، حيث أن ما يهم هنا هو « القول الاعمق » بأن « الحق » (وليس الاستيلاء على أرض الميعاد) هو الضمان الوحيد للنعم . وعند تطبيق هذه الافكار على الصهيونية الحديثة ، فان فالتزر يبدو مؤيدا لهؤلاء الاسرائيليين الذين يرغبون فى التوصل الى حل وسط بشأن الاراضى التى احتلتها اسرائيل فى عام

١٩٦٧ . ويقتبس فالتزر أقوال « جرشوم شــوليم » فى سياق تاييده لوجهــة النظر القائلة بان الصهيونية ليست حركة خلاص دينى ، ولكنها تحرر تاريخى بشكل مناقض للمفهوم الدينى . ويقدم فالتزر فى هــذا الصدد عددا من الرؤى التى توضح وتلقى الضوء على السرد القصصى السريع نسبيا بالعهد القديم . ويقدم على سبيل المثال تفسيرا لحالات « التذمر » والقلق والمصاعب والتمــرد فى أوساط اليهود الذين اجبروا على القيام بأعمــال تتجاوز حــدود التسامح العادى يعتبر من اكثر التفسيرات جدة وفهما ولكن فى هذا العمل الذى يقــدر حجمه بمائة وخمسين صفحة ، فان المرء يأمــل فى وجــود المزيــد مــن التفصيل والاسهاب بشأن رأى الكاتب فى اساليب الســياسة الراديكاليــة الحديثة ، وخاصة عندما يتحدث عن الفروق الشاسعة بين جماعة اللاويين التى كانت مع موسى وبين حزب لينين الطليعى باعتبار ان كلا من هذه الجماعة وهذا الحزب يمثل قيادة حركة شعبية مستنيرة . ويرى أنه من الممكن « قراءة » الاولى على انها تجسيد لفكرة القيادة الاشتراكية — الديمقراطية ، أما الثانى فان من الواضح أنه ليس كذلك . (وذلك على خــلاف لنكولن ستيفنز الــذى يرى ان اللينينية وسفر الخروج يعضد احدهما الآخــر) والدليل الــذى يقدمه لمثل هذا النــوع من القراءة المترفقة ضعيف للغاية وليس من شأنه اقنــاع المرء بان سماحــة موسى لم تكرمه بتقــديم الشريعــة أمران كافيــان لقيامه فيما بعد بتحريم اراقة الدماء والتعصب الدينى . غــير أنــه على الارجح أن يجارى قراء فالتزر فى البداية الكثير من ارائه الموحيــة وغير المتعمقة لانها فى رأيى مشوقة فى حد ذاتها .

وقد علق رونالد دوركين على احــدى كتب فالتزر السابقة بقوله ان « رؤية الكتاب تتسم بالتحرر والبساطة المفرطة » . وتتضح نفس الرؤيــة فى فى كتاب « الخروج والثورة » . وتضفى على الكتاب روح البساطة ، والمساواة بين الخير والايمان وانه بمقدور الانسان العمل على تحسين العالم . ويتضح هذا الامر فى آخر جمل الكتاب التى ورد بها بايجاز .

ان سفر الخروج يعلمنا بادىء ذى بدء أو أنه من المعروف أنه يعلمنــا ايضا صيغتها المناسبة والمتمثلة فى : —

أولا : اينما كنت تسكن فان المكان غالبا هو مصر .

ثانيا : ان هناك مكانا افضل ، وعالما اكثر جاذبية .. وأرض ميعاد .

ثالثــا : ان « طريق الوصول الى الارض يمر عبر أرض قاحلة » وانه ليس هنــاك اى طريق للوصــول من هنا الى هنــاك ســوى العمل معــا والسير سويا .

وعندما تقرأ عمل فالتزر فانك تفكر مليا فى استنتاجاته وتأكيداته المتنــوعة والمقبــولة وتعجب كيف أصبح العالم مكانا يتمتــع بمثل هذه المرونة والقابلية

للحيـــاة فيه . ولا يقول فالتزر بالفعـــل ان العـــالم مكان قابل للعيش فيه وانما على العكس ، فانه يصر دائما على تعقـــده وصعوبته . ولعل ما يسبب الازعاج هو رؤية فالتزر للعـــالم ، والحيز الكلامى الذى تأخذه مناقشــــاته وتحليلاته ، والمناخ السياسى الذى يعزله التفكير وطرح الافتراضات . ولكنك سرعان ما تدرك حجم القيود والاشـــياء التى تم حذفها وبترها حتى يقـوم هذا العالم الحضـــارى الهادىء فى كتاب فالتزر وفى حقيقة الامر فانه ليس من الممكن الاستغناء عن استراتيجية الحذف والبتر . ويتعين على كل كاتب يزعم انه يتمسك بالعقلانية أن يستبعد ويوجز بعض الاشياء حتى يتمكن من السيطرة على موضـــوعه ولكن اذا كانت كل هذه الامور تحـــدث بعيدا عن أعين القراء فانها سرعان ما تنكشف عند تعرضها للنقـــد ومن ثم فانها تتطلب فحصـــا وبحثـــا متمنعا اذا كنـــا نرغب فى أن تكون مفهومة فهما كاملا .

ان كتاب فالتزر الذى « تطغى عليه روح تبسيط الامور » ناجم فى اعتقادى عن حالة غير عادية من الفضـــولية والتعقيـــد والتناقض . واذا كان المؤلف يتبنى فى بعض الاحيان موقفا صارما غير قابل للمساومة تجاه بعض القضـــايا ، فانه لا يهتم ببعض القضايا الاخرى ، وعلى استعداد لتبنى موقف متســـاهل تجاهها . ولنأخذ على سبيل المثال مجموعة الصفات التى يضفيها المؤلف على سفر الخروج ، انه يصف الكتاب بانه غربى ، يهـــودى ، ويدعو للتحـــرر ، وانه ذو طابع عالمى ، ويســـير فى خط واحـــد مستقيم ، وواضح واذا قارنـــا هذا الكتاب بكتـــاب « الايديولوجية والايديولوجيون للويس فوير » (والذى أشار اليه فالتزر فى احـــدى ملاحظاته ، فاننا سنجد أن دراسة فالتزر عن سفر الخـــرج محدودة للغـــاية . ويهتم فوير باظهـــار وجود أسطورة الخروج ، كما يسميها فى أية ايديولوجية ثورية ، غربية وغير غربية ، وتقدمية ورجعيـــة على حد سواء ، مما يسهل كثيرا كشف عيوبها المضاعفة ، ولكن الاسس التى يعتمد عليها فالتزر عند تأكيده على السمات المتميزة والايجابية فى ســـفر الخروج يكتنفها الغموض ، واعتقـــد انه لم يتم تمحيصها . يعتبر سفر الخروج « غربيا » مثـــلا ؟ ولمـــاذا هو مفيـــد لمفكرى القرن السابع عشر الثـــوريين الانجليز ؟ ولبعض قادة التحرر فى أمريكا اللاتينية وليس لغيرهم ؟ ولبعض القادة السود دون غيرهم ؟ ولا يقـــدم فالتزر اية اجابة مقـــدمة ســـوى حشـــو لا طائل من ورائه . اذ لا يثير فالتزر حتى مثل هذه الاسئلة .

ويتمثل تأثير الاسلوب غير المتكلف الذى يستخدمه فالتزر فى نزع سلاح هؤلاء الذين قد يبحثون عن الدليل والحجة وما شابه ذلك لتبرير ما يقوله هذا الكاتب ــ خاصة وأنه قد وجه من قبـــل انتقادات عديدة الى ميشـــيل فوكولت (المتوفى فى نهاية عام ١٩٨٣) ، وكان من بين هذه الانتقـــادات ان دراسات فوكولت « ليست ذات أثر من الناحية العملية لانها تفتقـــر الى تقديم

الحجة ، والنقاش المفصل ، والاخـذ بوجهات النظر البديلة » . وليس من الممكن ايضا النظر الى كتاب « الخـروج والثورة » على أنه تناول شـعرى أو مجـازى من خلال نص العهـد القـديم . كما ان دراسـة فالتزر السياسية والاخلاقية موجهة الينـا « فى الغـرب » ، ونثره زاخر بضمائر المتحدث مثل « نحن » و « نا » فى « طابع غربى » ، وبشـكل نثرى مزخرف ، وتتمثل النتيجـة النهائية فى استخدام مجمـوعة من التفاسير التى تعتمد فى توضيحها على نص مقـدس ينظر اليه على أنه أساسى وصادق وهام فى اعطـاء شكل دائم للمعتقدات اليهودية عن الزمن . ويضيف أنه يقـدم شكلا اساسيا حتى للمعتقـدات غير اليهودية ايضا . وتلعب كلمـة اساسيا فى هـذه الجملة دورا حاسما وتكتيكيا ، شأنها شـأن استخدام صيغة الجمع فى « المعتقـدات اليهودية عن الزمن » . ويشـير ايضـا الى أن هناك فى الحقيقة المزيد من القضـايا التى ليس من الممكن تناولها هنا ، ولو كان لدينـا الوقت لكان من الممكن أن نكتشف أساسا مدى اهمية سفر الخروج كنموذج بالنسبة لوجهات النظر غير اليهودية حول الصفات الزمنية .

ودعنى هنا اطلق على هذا التكتيك اسم تكتيك « التضمين المؤجـل » الـذى يعقبه التجنب لاحقا . ولابد من أن نذكر هنـا أنه فى نفس الوقت الذى يستخدم فيه فالتزر هذه الوسائل فانه يتحدث عن الثورة والتقدم والشعبية والسياسة والاخلاق . وهو يقوم بذلك وكأنه لا يتجنب الدخول فى بحث القضايا ويحاول ارجاءها . وفى الحقيقـة فان أسلوبه النثرى يزيد من غمـوض تلك المشاكل التى يتضمنها نقاشه والتى يتم تجنب بحثها وارجائها قبل أن تخلق هذه المشاكل اية صعاب . ولعل أكبر وأهم تحاشى هو تجنب التـاريخ نفسـه — تاريخ النص الذى يعلق عليه ، وتاريخ اليهـود ، وتاريخ الشعوب المختلفة التى استخدمت سفر الخروج والتى لم تستخدمه ، وتاريخ النماذج والنصوص والانماط والمدن الفاضلة فى علاقتها بالاحداث الحقيقية ، وتاريخ غيرها من الامور التى يمكن أن تمثل مواثيق ونصوصا أساسية .

ولا يهتم فالتزر اطلاقا بالاسباب التى جعلت اليهود يأتون الى مصر كما هو وارد (فى سفر التكوين) . ولا يهتم أيضا بقدر الغنى والقوة الذى حققـوه فيها بفضل يوسف . ولذلك فانه من قبيل التضليل الاكتفـاء بمجرد الاشـارة الى أنهم كانوا مضطهدين فى حين أن الاصحاحين الـ ٤٦ ، ٤٧ يذكران بشىء من التفصيل أنهم « كانت لهم ممتلكات فيها وانها نمت وتزايدت » ويعطى العهد القـديم انطبـاعا قويا بـأن اليهود أتوا الى مصر ، التى كانت من قبل أرضا للميعـاد ، بنـاء على دعـوة فرعون لهم للسعى فى أرزاقهم كمستشارين اقتصاديين . وعندما واجهت مصر ظروفا صعبة تعرض لها اليهود أيضـا ، ولانهم كانوا اجانب فقد كانوا هدفا للغضب والاحبـاط فى الداخل . وليس من الممكن مقارنة هذا التاريخ بتاريخ الامريكيين الـسود أو التاريخ المعـاصر

لسكان أمريكا اللاتينية وأشك فى أن فالتزر يستخدم أساليب حركات التحرر المعاصرة لابراز بعض جوانب تاريخ العهد القديم ، وللتقليل من اهمية جوانب أخرى .

وتتمثل اكثر الجوانب تعقيدا بالطبع فى وصية الله لليهود بالقضاء على خصومهم ، وهى وصية تنزع طابع التحرر القومى التقدمى الذى يضيفه فالتزر على سفر الخروج . وقد ذكر « ج.اى مدى سانت كروا » الذى يعمل بكلية نيوكوليج فى اكسفورد والذى يعد اعظم خبير فى تاريخ سياسة الطبقات فى العالم القديم – فى دراسته القيمة عن الصراع الطبقى » فى العالم الاغريقى القديم : – « لا أرغب فى اعطاء الانطباع بأن الرومان كانوا اكثر الشعوب قوة ووحشية بين كافة القوى الاستعمارية فى العالم القديم ولا استطيع تحديد اية أمة فى العالم القديم تستحق أخذ هذا اللقب حيث انه ليست لدى كافة البراهين . ولكن على أساس الدليل الذى أعرفه فانه يمكننى القول بأننى أعرف شعبا واحدا فقط شعر بأن بمقدوره التأكيد على أن لديه بالفعل أمرا الهيا بالقضاء على جميع سكان الدول التى يغزوها واعنى به شعب اسرائيل . ونادرا ما يهتم المسيحيون واليهود فى الوقت الحاضر بالتفكير فى ضراوة وقسوة الاله « يهوه » الواردة ليس فى المصادر المعادية ولكن فى المصادر التى يعتبرونها انفسهم مقدسة لديهم . والحقيقة انهم ما زالوا يتجاهلون دائما وجود هذه المادة التى تدين الاجرام .

ولا يرفض فالتزر فقط مواجهة هذه الحقائق ولكن القليل الذى يقوله يتلافى ذكرها ، كما سنرى بعد قليل . ولا يضع فى اعتباره المادة الواردة فى سفرى اللاويين والعدد (وهما امتداد لسفر الخروج) واللذين نجد فيهما الاله « يهوه » يحث بغضب على انزال عقوبات محددة على كل من يخرجون عن شريعته . ويبدو لى انه ليس من الممكن تجنب حقيقة انه فى لحظات الحماس الثورى فان كل الاديان التى دعت الى التوحيد طالبت بانزال عقوبات لا ترحم وغير متسامحة على أعدائها الحقيقيين أو الخياليين ، وان هذه العقوبات صاغها أشخاص متشددين دون تحت اسم الاله الواحد . وينطبق هذا الامر على المسيحية فى عهد بولس وعلى سفر الخروج . ان مجرد تجاوز كل هذه الحقائق والدخول فى عالمجديد يسمى « سياسة الخروج » لن يجنب المرء المشكلة وبمعنى آخر ، انه ليس من الممكن توقع وجود توافق بين ذلك النوع من السياسة العلمانية والرصينة التى يستخرجها فالتزر من سفر الخروج مع السلطة الالهية ومشتقاتها ، ولكن من الممكن أن يحدث توافق مع السلطة الفعلية لبنى البشر الذين يفوضهم الاله . وهذا هو ما يزعمه فالتزر ويزعم ايضا بشكل ضعيف أن وصايا مثل « انك ستقوم بتدميرهم » يجب عدم الالتزام بها بشكل حرفى ، ويؤكد أيضا « أن الغزو الرئيسى واحتلال » الارض يلعب فقط « دورا صغيرا » فى سياسة سفر الخروج . ومن الصعب هنا معرفة

البيورتانيين (المتطهرين) الذين قتلوا الهنود فى نيو انجلند والبوير فى جنوب أفريقيا الذين يسيطرون على مساحات واسعة من الاراضى التى يقيم فيها السود وقد يكون صحيحا (بالرغم من ان فالتزر لا يقدم الدليـل) « أن غزو كنعـان كانعبارة عن تسلل تدريجي أكثر من كونه حملة ابادة منظمة » . ولكن يبدو انه لا يشعر بأى قلق تجاه مسألة أن الكنعانيين بالنسبة لليهود مستبعدون تماما من عالم الاهتمام الاخلاقى.ولا يدل هذا الأمرعلى نموذج راق لأية سياسةحقيقية وليس من الواضح كيف يمكن أن يكون تجريد كل من يقف فى طريق شريعة موسى من الصفات الانسانية أقل بشاعة من مواقف البيوريتانيين القتلة أو من مؤسس سياسة التفرقة العنصرية . أن الزعم بأن وصية « انك ستدمرهم بالكامل » لا تدخل فى اطار التفسير ، وان مفسرى التطور والعصور الوسطى قد أبطلوها واخرجوها من اطار التطبيق فى المستقبل ، يؤسفنى القول بأنه لا يضع فى الاعتبار التاريخ الذى اعقب هدم المعبد والذى لم يكن فيه اليهود كجماعة فى وضع يتيح لهم تنفيذ هذه الوصية . ولذلك فاننى اعتقد أن فالتزر هو المخطىء وليس « الجناح اليمينى الصهيونى » فى اسرائيل اليوم والذى يتهمه فالتزر بأنه بالغ التطرف . ذلك أن نص سفر الخروج يدعو اليهود المنتصرين بشكل واضح الى التعامل بشكل لا يعرف التسامح مع اعدائهم من السكان الاصليين لارض الميعاد . فبغض النظر عما اذا كان قد تم الدخول عن طريق « تسلل تدريجي » او عن طريق « حملة ابادة منظمة » فان الموقف الاساسى فى كلا البلدين واحد ، ويتمثل فى التخلص من السكان الاصليين بشكل عملى . وعلى أية حال فان السـكان غير اليهود المعادين لاسرائيل يتم استبعادهم من عالم الاهتمـام الاخلاقى وبالتالى فانهم محرومون من الحقوق المتساوية مع اليهود .

ولا يبدى فالتزر أية اعتراضات تفصيلية وواضحة ومبدئية على الجانب الطائفى الذى لا يمكن تجاهله فى سفر الخروج ، ولا يهتم فالتزر أيضا بفكرة ان يهوه ، الالهالمتعطش للدماء ، يدافع عن اليهود . ويتقبل فالتزر تلك الحقائق المؤلمة وغير البسيطة بشكلها الوارد فى النص ، ثم يقول انه فى سفر الخروج نموذجا علمانيا واقعيا للسياسة « الراديكالية » . ولا يستطيع الشخص غير المؤمن والملحد مثلى والذى ليس ذا طبيعة ازدواجية مثل فالتزر تقبل هذا العنصر الجديد الغريب الذى يدمج بين الجانبين المقدس وغير المقدس . ومن الناحية الايجابية ، فانه ليس هناك ما يدعو للدهشة عند معرفة أن « أوجست كونت » ذكر ان موسى هو اول من أقام دولة معتمدة على الدين . ولكن ، لان فالتزر يؤمن بأهميةالجانب العلمانى ، فانه يؤكد مرارا وتكرارا على أن سفر الخروج سفر علمانى وتقدمى . وانه يدعو للتحرر ولمقاومة الاضطهاد وعلى حد اعتقاده ، فانه ليس هناك اى نص يتمتع بمثل أولوية وقوة نص الخروج ، ويكرر القول « بانه من الممكن تتبع التسلسل التاريخى منذ وقت سفر الخروج حتى السياسة الراديكالية فى عصرنا الحالى » .

وكما راينا فان الخطوط العامة والمستمرة لفالتزر تتضح بعد ازالة العديد من الحقائق غير المناسبة والانحرافات التى تحيط بهذه الخطوط ، ويعد تجاهله لكفاح عبيد اسبرطة ضد أسيادهم مثالا على عدم اهتمامه بمثل هذه الحقيقــة التى تقلل من اهمية الطابع التحررى لسفر الخروج . ويقول فالتزر أن هؤلاء العبيد لم يتركوا « لنـــا » سجلا عن مفهومهم للخلاص ، وكأن ترك « سجل » فى حد ذاتهيؤهل للدخول فى سجلات الشرف . أما اليهود فانهم وحدهم الذين سجلوا مفهومهم للخلاص فى سفر الخروج ، ومن ثم فان هذا السفر كاف لان يكون نموذجا للسياســة الراديكالية . وعلى اية حال فان دى ســانت كروا المناهض القوى للكهنوتية يمكننا من رفض مثل هذه المقارنة المبالغ فيها وعدم الاخذ بها ، كأساس تاريخى مناسب ليس فقط بالتأكيد على أن هؤلاء العبيد كانوا أسوأ « عبيد الدولة » حظا من أى شعب قديم آخر ، ولكن أيضا بالقول بأنهم كانوا قوما اسطوريين فى العصور القديمة وما بعدها لانهم عبــــروا عن نضالهم الموحد « ليكونوا كيانا حرا مستقلا » .

وعندما تبدأ فى تصنيف كافة الاستثناءات التى تنطبق على مزاعم فالتزر بخصوص سفر الخروج ، فانه لا يتبقى سوى القليل من نقاشه الهادف الى اظهار مدى أهمية سفر الخروج بالنسبة لحركات التحرر فى المستقبل . وعلى سبيل المثال فان فيكو ، وماركس ، وميشيليت ، وجرامسكى ، وفــــانون لا يشيرون اطلاقا الى هذا السفر الا عرضا . ويذكر الكتاب الكثير من القادة السود والمنظرين فى امريكا الوسطى ، ولكن الغالبية لا تشير اليه . ومن المؤكد ان سفر الخروج له علاقة مجازية بمفهوم الخلاص ، ولكن ليس هنــــاك اى شىء « غربى » بالسفر ـــ وليس هناك اى « شىء غير غربى » أيضا بخصوص التحرر من الاضطهاد ، وليس هناك اى شىء تقدمى من الممكن الخروج به من مضمونه الغربى المزعوم . ويميل كل المضطهدين الذين يحلمون بالتحـــرر الى البحث عن الاساليب البلاغية لتعبئة انفسهم لمعركة التحرر ، ويحلمون بمستقبل افضل ، ويبررون لانفســـهم الاخذ بالثار ليس فقط من أسيادهم الســـابقين ولــكن من اذنابهم ايضا فى المستقبل .

وبالنظر الى التاريخ الحديث فقد كان المرء يتصور ان يعيد فالتزر النظر فى مسألة السياسة النابعة من الوحى الالهى ، وأن يخرج منها باستنتاجات اكثر عقلانية أو حتى اكثر سخرية من تلك التى خرج بها ، وهناك العديد من الامثلة التى تظهر مدى سيطرة القيادات الدينية المجنونة على الحركات السياسية فى اسرائيل ولبنان وايران (وتعتمد كل هذه القيادات على مصادرها الدينية الداعية للتوحيد للقضاء على كل القوى المعارضة لها) فهل يمكن له أن يوصينا بشكل

جدى بالنظر الى سفر الخروج على انه سفر « واقعى » أو « تقدمى » ؟ نعم ، انه يمكن ذلك . فربما يكون الفن القصصى فى سفر الخروج قد جعل فالتزر يقدر سفر الخروج كعمل فنى . واذا كان الأمر كذلك فانه لا يقول شيئا جديدا عن هذا الجانب الذى بحثه من قبله — بشكل فنى افضل — العديد من أصحاب النظريات الادبية مثل يورثروب فراى ، وفرانك كيرمود ، وبول ريكور ، وهايدن هوايت ، وهم أساتذة تتسم استخداماتهم للكتاب المقدس بالروعة من الناحية الفنية والجمالية .

ولكن كتاب فالتزر يتيح لمؤلفه فرصة التأكيد على اهمية النص باعتباره امرا مؤكدا ومقنعا ولا يحتاج الى التدليل والبرهان . ويشير فالتزر بشكل شديد الايجاز الى العلاقة بين سفر الخروج ومن استخدموه فيما بعد . ولا يناقش حتى المسألة النظرية المتعلقة بالعلاقة بين النصوص الايديولوجية مثل سفر الخروج والاحداث المعاصرة ، (انظر على سبيل المثال مقال جرامسكى المشهور الذى نشر فى عام ١٩١٧ والذى تناول فيه ثورة البلاشفة ، وعنوانه « الثورة ضد رأس المال ») . وفيما يتعلق بتمسك فالتزر الايديولوجية البيوريتانية التى ظهرت فى القرن السابع عشر والتى يقتبسها كوسيلة لاظهار مدى قوة سفر الخروج العادلة ، فان فالتزر يخرج هذه الظاهرة من اطار ظروفها الشائعة فى القرن السابع عشر ، وهى الفترة التى اتسمت بحب السامية على المستوى السياسى ، ودرسها مؤخرا ديفيدس كاتز فى كتاب عنـوانه . حب السامية ودخول اليهود الى انجلترا ١٦٠٣ — ١٦٥٥ (كلاريندون بريس — اكسفورد ١٩٨٢) ويتجاهل فالتزر ايضا المواقف السلبية الشديدة التى تميز كتابات بعض قادة البيوريتانية تجاه شخصية موسى وسفر الخروج، كما يتجاهل تأليه شخصية موسى فى اعمال بعض كتاب القرن الثامن عشر مثل القسيس فاربورتون . وفوق كل ذلك ، فاننى أعتقد أن كتاب فالتزر يهبط بفكرة وجود خيار سياسى علمانى حقيقى الى العدم . فهو يبدو وكانه يقول انه من الممكن ان تؤدى بعض التحولات المفيدة فى سفر الخروج الى ظهور سياسة تقدمية متكاملة تقضى على التطرف ، والطائفية ، والانظمة الديكتاتورية ، وكافة تقلبات الاحداث التاريخية . وعند قراءة فالتزر ، فان المرء لا يستطيع تجاهل حقيقة أن الاعمال الادبية الايديولوجية الراديكالية ، الغربية وغير الغربية ، قد قدمت ملايين الافكار المشابهة والتى يتجاهلها المؤلف . فما هى الاسباب التى تجعل فالتزر لا يلتزم بمنهجية البحث ويفرط فى تبسيط الامور ويتجنب التاريخ ويقلل من اهمية الاحداث ؟ ان الاجابة الأولى هى انه ليس كذلك فى واقع الأمر . ذلك أن مايقوله فى كتاب « الخروج والثورة » له دلالات اكثر تباينا وتعقيدا مما يبدو من القراءة السطحية .

وبادىء ذى بدء ، فان فالتزر معاد للماركسية بصورة عميقة ومرضية فهو لا يوافق على نظرية قيمة العمل او علاقات الانتاج ، أو على المادية التاريخية . ونتيجة لمعرفتنا باعتناقه لما يسميه بالمفاهيم اليهودية (أى الدينية) عن الزمن ،

فانه ليس من الصعب فهم موقفه المعادى للماركسية . ولكن فالتزر لا يفتأ يؤكد على راديكاليته وعلى تمسكه « بالسياسة العلمانية والواقعية » التى يجد اساسها فى سفر الخروج .

وليس هناك اى شىء فى كتاب « الخروج والثورة » يوحى بأن فالتزر يتبنى موقفا تقدميا تجاه الدراسات اليهودية المعاصرة ــ وعلى حد علمى بمجال الدراسات اليهودية المتأثرة بمساهمات جرشوم شوليم والذى له علاقة بمجال النقد الادبى فانه لايبدو لى ان فالتزر يحاول المساهمة فى هذا المجال او العمل مع باقى الباحثين فيه . واقول كل هذا بشكل غير نهائى ، لأن فالتزر لا يقدم لقرائه ،من ناحية ، رؤية واضحة لاهتماماته الرئيسية فى مجال المشاكل التوفيقية المتعلقة بالنصوص المقدسة ولانه من ناحية أخرى يستخدم العادة اليهودية فى اطار سياسى (وليس فى اطار فلسفى) . فهو لايكف عن استخدام العديد من الكلمات والتعبيرات السياسية مثل : تقدمى ، واخلاقى ، وسياسة راديكالية ، وتحرير قومى واضطهاد .

واذا قيمنا كل هذه التعبيرات فسنجد ان سفر الخروج ليس مصدرها ، فقد دخلت هذه التعبيرات مجال المفردات السياسية الامريكية والاوروبية بعد الحرب العالمية الثانية ، ويتم استخدامها عادة فى سياق الحديث عن الحروب الاستعمارية ضد حركات التحرير القومية وتنبع قوة كلمات مثل « التحرر » و « الاضطهاد » فى اعمال المؤلفين المناضلين بالعالم الثالث مثل كابرال وفانون ، اللذين كانا من قادة الحركات المعادية للاستعمار ، وأنها اصبحت مفاهيم اكتسبت فيما بعد شرعيتها عندما استخدمها كتاب العالم الاول المعادين للاستعمار . وتكمن أهمية بعض الكتاب مثل سارتر وديرى وكومسكى فى ان كتاباتهم لم تكن مجرد صدى للحركات المعادية للامبريالية فى افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية وانما تكمن فى أنهم كانوا مفكرين يكتبون من داخل ــ وضد ــ المعسكر الاستعمارى .

وبالرغم من أن معظم المعلقين يعترفون بأن تلك الفترة قد انتهت الآن بالفعل (لان الحركات التحررية قد انتصرت) فقد كان هناك القليل من الاهتمام بالآثار الايديولوجية لهذه الحركات فى اوربا وامريكا . وكان هناك تأكيد على أهمية « العودة » الى القيم اليهودية والمسيحية . وكان التأكيد على أهمية الدفاع عن الحضارة الغربية مصحوبا بالهجــوم على الارهاب والاصولية الاســلامية والشيوعية وظهر فى نفس الفترة العديد من قادة الفكر العدوانيين مثل نورمان بودهورتيز ، وجين كيركباتريك ، وجورج ويل ومايكل نوفال . وركزت العــديد من التحليلات عن الماضى الاســتعمارى على مســاوىء الدول المســتقلة حديثا ــ مثــل الفســاد والطغيان اللذين يتسم بهما حكم هذه الدول ، والوعود الزائفة لثوراتها ، والثقة الخاطئة التى وضعتها فيها الدول الاوربية المؤيدة لها وكانت اكثر الشخصيات رجعية كونــور كروس اوبرين (الذى يترأس الى حد

معين جماعة نيابول) والذى يتحمس للاستماع الى مساوىء الطغاة ومحاسن الامبريالية البيضاء . ويكتفى بعض الذين كانوا يقاومون الاستعمار فى الماضى مثل جيرارد شالياند بتأريخ فشلهم فى تحقيق آمالهم .

ويعد احياء استخدام اللغة المعادية للامبريالية والتحررية فى المناقشات المتعلقة بنيكاراجوا وجنوب افريقيا استثناء لهذا النمط ، ويتمثل الاستثناء الرئيسى الآخر فى الأساليب الخطابية التى يستخدمها المؤيدون الليبراليون لاسرائيل . وانا اتحدث هنا عن مجموعة صغيرة ولكنها قوية التأثير وذات اهمية كبيرة ، وتمكنت من ادارة شئونها — من منظور دارسى الاساليب الخطابية — بشكل تكتيكى مرن للغاية . وبالرغم من وجود أدلة تثبت عكس آراء هذه المجموعة فان اعضاءها حاولوا الحفاظ على صورة اسرائيل كدولة تقدمية تستحق الاعجاب .

وقد تعاطفت جماعات التحرر القومى فى العالم الثالث مع الفلسطينيين الذين طردوا من اراضيهم وسلبت املاكهم ، ووضعت اسرائيل فى صف الاستعمار . ومن الناحية التاريخية ، فان الكتاب الصهاينة لم يصفوا حركتهم بشكل عام بانها حركة تحرر قومى ، ولكنهم استخدموا تعبيرات تتصل برؤيتهم الخاصة للتاريخ — فى بداية القرن العشرين . وبينما تضمنت رؤيتهم عناصر علمانية هامة ، الا أنها كانت فى الاساس دينية واستعمارية . وقد كانت مفاهيم شعب الله المختار ، والعهد مع الله ، والخلاص ، وارض الميعاد ، والله جزءا اساسيا منها ، فأعطت هوية لشعب متفرق فى الشتات ، وافادت فى الحصول على تأييد أوربا الحاسم وفى اقامة الصندوق القومى اليهودى وكانت كما يحدث فى مثل هذه الأوضاع — بؤرة اهتمام المناقشات الساخنة ، والتشيع الحاد ، والنظريات السياسية المتنازعة . وفى اعقاب الحرب العالمية الثانية كان نداء الصهيونية لحزب العمال البريطانى ، والاشتراكية الدولية او لأى عدد من المؤيدين الليبراليين — الذين كانت بين صفوفهم للغرابة شخصيات معادية للامبريالية مثل سارتر ومارتن لوثر كينج — قد تحدد بالتعاطف الأوربى مع الاتجاه السائد داخل الصهيونية والذى مثله وايزمان وبن جوريون (وليس مع الاتجاه المتطرف الذى مثله جابوتنكس وبيجن) . وقد تم اظهار هذا الاتجاه على أنه اشتراكى تقدمى ومقبول اخلاقيا وبشكل يستطيع الاوربيون والامريكيون فهمه . وعندما تحدث ر.هـ .اس جروسمان وبول جونسون او داينهولد عن الصهيونية (وفيما بعد اسرائيل) فقد كان ذلك يرجع الى الوجود اليهودى فىفلسطين على انه امتداد للحياة فى أوربا ، والأهم من ذلك انه تعويض عن مظالم معاداة أوربا للسامية . وفى المقابل ، كان ينظر الى العرب على انهم فاسدون ومتخلفون وليست لهم اية اهمية .

وبعد عام ١٩٦٧ ، كان من الصعب تصوير احتلال الجيش الاسرائيلى لغزة والضفة الغربية وسيناء ومرتفعات الجولان على انه دعم لتجربة

اجتماعية عظيمة . ولم يلاحظ كثيرا مدى غرابة المفارقة التاريخية وسخرية القدر الذى اتاح فرصة ظهور وضع استعمارى شاذ وجديد فى نفس الفترة التى كان فيها الاستعمار التقليدى يتلقى الهزيمة تلو الأخرى فى كل انحاء العالم. ويتمثل سبب الغرابة فى انه بينما كانوا مستعمرين مستوطنين مثل الفرنسيين والبريطانيين فى افريقيا ، فان وضع اليهود الاسرائيليين كان مختلفا من نواح عديدة فقد كانت لهم علاقة تقليدية بالأرض ، وكان لهم تاريخ من المعاناة ليس من الممكن تصوره ، ولم يكونوا بأى حال من الاحوال امتدادا عبر البحار لأية قوة غربية عالمية . وقد شهد عام ١٩٦٧ ذروة التدخل الامريكى فى فيتنام ، وكان من الضرورى بالنسبة للمؤيدين التقدميين لاسرائيل الفصل بين وجود اسرائيل فى الأراضى المحتلة والوجود الامريكى فى الهند الصينية والبحث عن اسباب مناسبة للدفاع عن اسرائيل ولادانة أمريكا .

وقد لعب فالتزر دورا رائدا فى هذا المجال فكتب بالاشتراك مع مارتن بيرتز (الذى اهدى اليه كتاب « الخروج والثورة ») مقالا هاما فى مجـلة رامبارتس (يوليو ١٩٦٧) عنوانه « اسرائيل ليست فيتنام » . وكان المقـال مكونا من ست نقاط أوضحت جميعها أوجه الخلاف بين اسرائيل وفرنسـا أو الولايات المتحـدة الامريكية أو بريطانيا فى مغامراتها الاستعمارية القـذرة فى الماضى . ولم يغير المقال آراء الكثير من اليساريين الذين وجه اليهم ، وسحب بيرتز فيما بعد دعمه المادى لمجـلة رامبارتس . وعلى اية حال ، فان اهمية المقال لا تكمن فقط فىاستخدام فالتزر لرصيده اليسارى فى الكتابة لليساريين ، ولكن ايضا فى أن المقال يوضح الطريقة التى يتبعها فيما بعد فى تحليله .

وتستحق الخطوات التى يتبعها فالتزر الاهتمام والعناية . وتتمثل الخطوة الاولى فى تناول وضع يجد أنه اذا استغل بشكل فورى ، فانه يؤثر على موقف اسرائيـل . وفى كتاب « الخروج والثورة » فان هذا الوضع يتمثل فى ظهور التطرف اليهـودى ، واستمرار سـيطرة الاستعمار على العرب والأراضى العربية . وتتمثل الخطوة الثانية فى ظهوره منذ البداية فى صورة من يدين شيئا يستطيع التقدميون ادانته بسهولة لان هناك اجماعا كبيرا عليه وفى مجلة رامبارتس فقـد كان هـذا الشىء متمثلا فى الاستعمار الغـربى ، وفى كتاب « الخروج والثـورة » كان هذا الشىء هو الصهاينة المتطرفون مثل حركة جوش امونيم والحاخام كاهانا . وتتمثل الخطوة الثالثـة فى اظهار كيف أن بعض الجوانب المثيرة للغضب فى التاريخ اليهودى والاسرائيلى وبعض احداث التاريخ الامريكى أو الفرنسى المشابهة مثلا لا تتناسب كلها مع تلك الحالات التى تتم ادانتها على الرغم من أن بعضها يستحق الادانة فعلا . وحيث أن كاهانا ، الذى تتشابه مواقفه مع بيجن وشارون لا يشبه موسى ، فان فالتزر يعمل على رفع مكانة موسى ويقـوم بنفس الشىء مع بعض الشخصيات الاسرائيلية المعاصرة مثل

جرشوم شوليم وبعض قادة حزب العمل . وتتمثل الخطوة الرابعة (والتى تعتبر على قدر كبير من الاهمية الفكرية) فى طرح فالتزر لنظرية من خلال تناول شخص أو نص لا يكون عاما للغاية أو غير مختلف عليه او نظرى بحت ــ تقدم أساسا لنوع جديد من السلوك السياسى ــ الاخلاقى . ويتناسب كتاب سفر الخروج كما يفسره فالتزر مع هذه النظرية تماما ويتيح له فرصة استخدام لغة التحرر القومى وتطبيقها على اليهود فى قديم الزمان بشكل لا يخلو من المفارقة التاريخية وبنفس الطريقة ، فان فالتزر يستخدم موقف البير كامى من الاستعمار الفرنسى لتبرير نظريته . وتتمثل الخطوة الخامسة فى استخدامه لأشياء لا تتناسب بعضها مع البعض فى اطار الأخلاق والسياسة. ويستخدم فى هذا الامر الاساليب الخطابية والبلاغية . ومن ثم فان التأثير المطلوب يأتى من اتساع « وملاءمة » المعلومات وليس من عدم تناسقها. وليس من الممكن ان يتحمل مثل هذا النوع من الكتابة اى تحليل نقدى .
ويثبت كتاب « الخروج والثوره » مدى ضعف هذه الكتابات بكافة اشكالها .
ويتمثل السؤال الملح فى كيف يستطيع فالتزر الاستمرار فى الزعم بأنه يتبنى مواقف تقدمية وراديكالية . ويبدو انه غير واع بمدى تأثير انتصارات اسرائيل العسكرية على عمله باضفاء روح الانتصار المعنوى الكريه ــ والمتسمة بالتزمت ، وقصر النظر ، والقسوة على كل ما يكتبه بالرغم من المظهر الكاذب لتعبيراته وتأكيداته الراديكالية . لقد كانت النتائج فى اغلب الاحوال تدعو للازعاج بشكل عادى ولكن المؤلف لا يرى ذلك بصورة واضحة . وهناك مقاطع مضطربة تظهر هنا وهناك فى اسلوب كتابته ولكنه راض عن نفسه بوجه علم . وعلى سبيل المثال ، فقد زعم فى عام ١٩٧٢ أنه ستظهر فى كل دولة فى المستقبل جماعات تعيش على « هامش الامة » وانه من الضرورى « مساعدتها على الخروج » . وعند طرحه لهذه المقولة كان فى الواقع يفكر فى وضع اسرائيل والفلسطينيين . وبالرغم من ذلك ، فقد فكر فى هذا الامر (قبل عشر سنوات من ظهور كاهانا الذى يصرخ قائلا « لابد أن يذهبوا »). فى اطار مفاهيم التقدمية والليبرالية والاستقلال ، والحرية والتخلص من الاضطهاد . ويصر فالتزر فى كتابه « حروب عادلة وغير عادلة » على أن هناك فرقا بين هذين النوعين من الحروب ، ولكنه يجد أسبابا لتبرير قيام اسرائيل باعمال يصفها فى مواطن اخرى بأنها اعمال انتقامية وارهابية . وقد كانت مقالاته السياسية التى نشرها فى مجلة نيوريبيليك (الجمهورية الجديدة) التى يحررها بيرتز ، أثناء فترة غزو اسرائيل للبنان فى عام ١٩٨٢ مليئة بمثل هذه التناقضات التكتيكية . وفى عام ١٩٨٤ ، أعاد فالتزر كتابة تاريخ الحرب الجزائرية ، وامتدح كامى المتقلب الآراء لولائه لسكان الجزائر ذوى الاصل الاوربى (الذين يسميهم فالتزر أحد شعبى الجزائر) ولرفضه السياسة « الاستبدادية » ولعدم استعداده لادانة الاحتلال الفرنسى ، ويتمثل هدف فالتزر الاساسى وغير المعلن فى اثبات ان احتلال الجزائر لمائة وثلاثين عاما ،

ومطلب تحــرر الجزائر افتقرا الى وجود قضية اخلاقية اكبر من قضية جمــاعة كامى من المستوطنين الفرنسيين .

ويعد استرجاع فالتزر لنمط كامى اكثر اثارة ، كمثال للتطبيق الحــرفى للخطورة الرابعة (وهى خلق نوع جديد من السلوك السياسى الاخلاقى) ويوضح مقال فالتزر ، الذى نشر فى نهاية عام ١٩٨٤ فى مجلة ديسنت الاشتراكية التى يحررها مع ايرفينج هاو ، شخصية المؤلف اكثر مما يكشف عن شخصية كامى . ويقول فالتزر أن شخصية كامى كانت تدعو للاعجاب « لانه كان ملتزما بقضية شعبه » . وسأترك الآن قضية ذلك الحكم الغــريب على المقاومة الجــزائرية وسأعود اليه فيما بعد . ووفقــا لفالتزر فان جمهور قراء كامى كان من جماعته التى ينتمى اليها . ولكن اذا كانت وجهة النظر السائدة هى انه اذا كان دور الناقد هو الكتابة لجماعته « وللآخرين » فان كامى كان يكتب ايضا الى جمهور عريض . ومن هنا ، فان هذا الرأى لا يناسب رأى فالتزر . وينطبق نفس الامر على كتاب بيندا الفرنسى « خيــانة المثقفين » . ولقد كتب كامى عمــا كان قريبا منه بوصفه « ناقدا اجتماعيا منتميا » اى مرتبطا بشعبه من ســكان الجزائر المستعمرين ذوى الاصــل الاوربى . ولذلك فقد كان مؤثرا عنــدما لمس ضمائرهم بطرق عجــز عنها المفكرون لدى تبنيهم لموقف نقــدى تجــاه الشعب ويضيف فالتزر أن كامى« كاتب النقــد الحميم » كان يدرك كيف أن ما يكتبه قد يعرض عائلته « لارهاب متزايد » . ولذلك فانه كان يضــطر أحيــانا الى التزام الصمت بالرغم من أن « الناقد الاجتماعى لا يستطيع ابدا أن يعيش بمفرده مع شعبه ، وان الفتــه أو مودته لا يمكن أن تأخذ صــورة الحديث الخاص ، وانما تستطيع فقط تشكيل خطبه الشعبية والسيطرة عليها ». وباختصار ، فانه على خلاف المفــكرين الفرنسيين مثل سارتر وأرون الذين ادانوا الاستعمار الفرنسى صراحة ، كان كامى المســاير للرأى العام ، والسياسى « الواقعى » أكثر بطولة . فقد ظل كما يقول فالتزر موافقا « يعبر عن طبيعته » .

ويلاحــظ على فالتزر استخدام اســاليب التكرار والحشــو والسفسطة بكياسة لاعادة تعريف دور المثقف المسئول . ولا يؤيد فالتزر فقط الســير على الطريق مع الشعب والولاء له ولكنه يطرح مسألتين اساسيتين ، الاولى هى : ما اذا كان الناقد لا يستطيع نقــد مجتمعه فى نفس الوقت الذى يكــون فيه وثيــق الصلة به وبمعنى آخر هل يمكننا القــول بان النقــد والصــلة الوثيقة بالشعب أمران متناقضان بشكل متبادل ، والمسألة الثانية هى ما اذا كانت علاقة الناقد بمجتمعه اقل قيمة من ادانــة الشرور التى يقترفهــا ، مما يعنى المعاناة من خطر العزلة ، وتثير هذه الاسئلة اسئلة اخرى مثل ايهمــا اكثر تأثيرا كناقد لسياسة جنــوب افريقيــا العنصرية : ناقــد جنــوب افريقيــا الابيض الثائر ضــد النظام أم الافريقى الليبرالى الذى يحث على « التعامل

البنـــاء » مع هذا النظـــام ؟ وأيهما يستحق الاحترام وفقا للمعتقـــدات الغربية واليهودية : المثقف الصريح الشجاع أم الفرد المســـاير للاغلبية المشـــاركة في الجريمـــة ؟

وتضفى الكثير من كتابات فالتزر السياسية والفلسفية الحديثة ، الشرعية على فكرة تبنى الموقفين ، على أن يطبق أحدهما على الغرباء ، وان يطبـــق الآخر على أفـــراد المجتمع الذى ينتمى اليه المثقف ، او كما يقول فالتزر « المجـــال » الذي ينتمي اليه . ولقد كان رونالد دوركين صادقا عندما قـــال فى مجلة « نيويورك ريفيو اوف بوكس » فى الثالث عشر من ابريل عـــام ١٩٨٣ ان نظرية فالتزر الاخلاقيـــة تعتمد على « فرضية غيبية » وهى « ان هنـــاك عددا محدودا من مجالات العدالة التى تم ارســاء مبادئها الرئيسية من قبـــل ، ولذلك فمن الضرورى ان تبقى هذه المبادىء على ما هى عليه فى كل المجتمعات » . وبشكل ما ، فان كتاب « الخروج والثورة » يدور حول اقامة مثل هذا المجال للشعب المختار الذى ورد اسمه فى العهد مع الله ، والذى يملك ارض الميعاد التى يحكمها الله . وبالتالى فانه يتضح للمـــرء أن مفهوم فالتزر عن « سياسة سفر الخـــروج » مفهوم متحال ومحدود فى واقع الأمر .

ويرجع فالتزر الى اتخـــاذ موقف غريب حـــول مفهوم المســـاواة . وقـــد ادخل بعض التغيرات عليه بالقـــول بانه لابـــد من النظر الى المنافع الاجتماعية على اساس ان لكل منها قيمة مختلفة داخل مجالاتها المنفصلة مثل (التعليم ، والدواء ، والمنصب) وليس على اساس مطلق والمصطلحات الاساسية التى يستخدمها هذا المجال هى « الاعضـــاء » « والغرباء » فى المجتمع . وبالرغم من ان فالتزر لا يشير الى اليهـــود وغير اليهـــود ، الا أنه من الصعب عدم التوصـــل الى استنتاج ان موقفه كيهودى تجـــاه اسرائيل « يشكل ويسيطر » على باقى أفكـــاره . ومن ثم فان آراءه المتعلقة بأن للاعضاء حقوقا لا يتمتع بهـــا الغرباء ولا يستطيعون التمتع بها مستمدة من نفس الاساس الســـياسى الذى تقوم عليه اسرائيل كدولة للشعب اليهودى وليس لمواطنيها الذين يضمون بينهم ٢٠٪ من غير اليهود . وهناك مشكلة أخرى تتجاهلها فلسفة فالتزر ،وهى أنه بينما من حق أى يهودى فى أى مكان الحصول على الجنسية الاسرائيلية وفقا لقانون العودة ، فانه ليس من حق الفلسطينى فى أى مكان ، سواء كان مولودا فى فلسطين قبل عام ١٩٤٨ أم لا ، أن يتمتع بهذا الحق . واشير هنا الى ما يربو على مليونى لاجىء فلسطينى ، طردتهم اسرائيل مثل (اسلافهم) الكنعانيين من أراضيهم لانه « تم استثناؤهم من عالم الاهتمام الاخلاقى » .

غير ان الحقائق العلمانية ليست دقيقة أو واضحة أو بســـيطة بالكامل ، لان « المجـــالات » غير موجـــودة ولا تكتسب قـــوة الحقائق الطبيعية ولانـــه لا يتم التسليم بها ببساطة من قبل « الغرباء » الذين يشـــعرون بانـــه قـــد

المتصبت حقوقهم . ذلك أن الانسان هو الذى يخلق هذه المجالات ويحافظ عليها فى المجتمع . وشعورى تجاه فالتزر هو أن آراءه بخصوص وجود مجالات منفصلة ليست متأثرة للغاية باسرائيل بقدر ما هى متأثرة بانتصارات اسرائيل التى يشعر ، كما يبدو ، بأنها فى حاجة الى الدفاع عنها ، وشرحها وتبريرها . واذا لم تكن هناك دولة لليهود واذا كانوا لا يزالون يعيشون فى الجيتو فلا أعتقد ان فالتزر كان سيتبنى نفس المواقف التى يتبناها . ولا يمكننى الاعتقاد بان فالتزر كان يستطيع القول على سبيل المثال بان للمجتمع حق فرض القيود على ملكية الارض أو الهجرة بشكل يجعل اليهود (أو السود أو الهنود) لا يستطيعون المشاركة بصورة متساوية ومطلقة . ان الاجابة هى بالطبع لا ولكن لأن اسرائيل تسيطر الآن على شعب ادنى منها ، فانه لا يتساءل عن الممارسات التى ترتكب فى حق غير اليهود . ولكنه يفضل التحدث عن الانتماء الحميم لكامى وعن دور « أعضاء » الدولة ، ودور من يعيشون على هامشها . أما القضية الرئيسية وهى لماذا لابد أنيكون الاضطهاد الذى يمارسه اليهود عندما تكون السلطة فى أيديهم أكثر عدلا من الاضطهاد الذى يمارسه غير اليهود الذين يمتلكون السلطة ضد اليهود — فانها لا تستحق أدنى تعليق .

وقد يكون من الخطأ والظلم اعتبار فالتزر متفردا بكل هذه الافكار ، ذلك ان كل محاولات التصديل والتوفيق التى يبذلها تعتبر جزءا من مواقف حالة التراجع العام بين مفكرى اليسار والليبراليين على مدى السنوات القليلة الماضية . اننا نعيش الآن فى فترة أصبح فيها من المستحيل تقريبا ان نتبين الموضوعات الفردية داخل الجماعات التى تكرر الافكار السابقة والتى تطالعنا بها صفحات المطبوعاتاليسارية أو الليبرالية السابقة مثل مجلة نيوريبيليك . ويلاحظ الآن ان الدين والله قد استردا مكانتهما السابقة واصبحا ملازمين للواقع . واصبحت اليوتوبيا والراديكالية من الكلمات القذرة ، واكتسب الارهاب والشيوعية السوفيتية نوعا من النقاء الميتافيزيقى للرعب ، بشكل يلغى التاريخ بالكامل وحلت المنافسة وقوانين السوق الحر محل العدالة والاهتمامات الاجتماعية .

ومن المؤكد أن غرابة مواقف فالتزر (التى لم يناقشها أحد بشكل جاد باستثناء القليل منها) تتمثل فى انها مازالت محل حفاوة وتكريم باعتبارها مواقف يسارية . انها فى الواقعمواقف تحرص على استخدام تعبيرات اليسار ، ولكنها تخرق أسس النظرية ، وصرامتها النقدية التى اعطت اليسار من الناحية التاريخية قوته الفكرية والاخلاقية . وقد استبدل فالتزر النظرية والصرامة النقدية بدعوة غير صريحة وغير مدروسة للتشدد والتمسك بالروابط العرقية والعائلية وبالواقعية وبالمسئولية « الاخلاقية » للمنتمين الذين يمارسونها . ولكن كما قلت من قبل ، فانك اذا كنت مثل الكنعانيين لا تستحق أن تكون عضوا

فى هذا المجتمع فانه يتم استثناؤك من عالم الاهتمام الاخلاقى . وعلى حد قول فالتزر فى أحد احكامه التى تدعو للدهشة وتحط من قدر الآخرين ، فانك تتحول الى مجرد قضية مثل المثقفين الاوروبيين فى الجزائر .

واذا كان هذا هو الفرق بين سياسة سفر الخروج وسياسة القضايا فاننى افضل النوع الثانى من السياسة ليس فقط لان سفر الخروج لا يعمى المفكرين فيه عن رؤية حقوق الآخرين ، وانما يسمح لهم أيضا بالاعتقاد بأن تاريخ المجتمعات والامم التى خلفها الانسان يمنح بعض الشعوب منحة معقدة ، هى منحة « الخلاص » . ولكن هذا الخلاص الذى يضفيه فالتزر على المنتمين لسفر الخروج يرفع بعض البشر فى احكامهم الخاصة للاسف الشديد ، الى مرتبة القوى الاخلاقية المقدسة . وتقلل هذه المرتبة فى المقابل ، ان لم تلغ بالكامل ، الشعور بالمسئولية من جانب من يتمتعون بالخلاص تجاه من هم أقل حظا ، ومن لا يتمتعون بالخلاص والغرباء والمطرودين ومن يقفون خارج علم الاهتمام الاخلاقى . وازاء هذه المشكلة الصغيرة فان لدى فالتزر ايضا الحل المطمئن ، وهو كما يقول : « ان القوة الاخلاقية لا تعنى من يتصرف بالحسنى ، ولكنها تعنى من بمقدوره التصرف بشكل جيد » وفى حين انه ليس من الواضح لى كيف تكون الاستقامة القومية — وهى بادىء ذى بدء فكرة مشكوك فيها للغاية — نابعة من مثل هذه الافتراضات ، فانه من المؤكد اننى استطيع رؤية قيمتها كاداة للتبرير والتاكيد الذاتى .

وينبع القليل من مثل هذا النوع من الكتابة من « الراديكالية » أو من « الحق » . وقد كتب فالتزر كتاب الخروج والثورة من منظور الانتصار الذى يدعمه الكتاب . ونتيجة لذلك فان الكتاب يتمتع بثقة حصل عليها من تجارة سهلة بين شركة ناجحة فى العالم العلمانى وأخرى شبيهة (سبقت الاولى) متمثلة فى الانتصارات التى تم تحقيقها فى العالم التاريخى القديم . ولا أستطيع ان افهم اطلاقا كيف يتم التوفيق بين الراديكالية والواقعية وبين اعتماد فالتزر على الله . وليس أمامى من سبيل — ولا يقترح فالتزر أيا منها — للتمييز بين الادعاءات التى يسوقها اليوم المتنافسون من المسئولين عن اديان التوحيد فى منطقة الشرق الاوسط ، الذين يقول كل منهم — آية الله الخمينى ، وآية الله بيجين وآية الله الجميل (وهناك آخرون) — ان الله يقف بلا شك الى جانبه والقول بان اتباع فالويل وسواجرت وفراخان فى امريكا يقولون نفس الشىء يعتبر خلطا بين بيليون وأوسا ولا يحدث تلقا بالنسبة لفالتزر الذى يدعو الى اعتبار الله والواقعية شيئا واحدا فى حياتنا .

غير أن الشىء الوحيد الذى أود ان يتذكره فالتزر هو انه كلما أكد على سياسة سفر الخروج ، فانه سيصبح من المرجح قيام الكنعانيين من الخارج بمقاومة هذه السياسة ، وسيقدمون على محاولة اختراق الجدران التى تحول بينهم وبين التمتع بخيرات عالمهم ايضا . وتتمثل قوة الكنعانيين فى وضع الشتات

الذى يعيشـــون فيه والذى يمكن التغلب عليه ٠ اذ يستطيع المرء عندما يكون مغلوبا على امره خارج أرضه ، اثارة العطف وادراك الظلم والتحدث بشــكل مباشر وببساطة عن الاضطهاد وفهم التاريخ والمساواة . وقد قرأت اعمــال فالتزر على مدى سنوات عديدة ، وقد احترمت دائما افكاره بالرغــم من انى اختلف معه بالكامل من الناحية السياسية . وقد أردت دائما أن اقول له أن الدفاع عن « المجالات » والشعوبية بشكل يعتمــد على اســـتثناء واستبعاد الاخرين ممن كتب عليهم أن يكونوا أقل درجة ، امر لا يتفق مع طبيعة المفكرين . كما اردت دائما أن أقول له ان الايديولوجيات المختلفة أقل اهمية من الاجناس والشعوب والنشاطات ، وان الفصل والتمييز أمران لا يستحقان الاحترام مثل الارتباط والتواصل ، وان الانتصارات المعنوية والعسكرية ليست دائمــا من الأمور الرائعة . ولكن بعد قراءة عمله مرة أخرى فى الفترة الاخيرة فاننى أدرك الان أن كتاب « الخروج والثورة » قد يكون كتابا تراجيديا من حيث انه يؤكــد أن المرء لا يســتطيع أن « ينتمى » وأن يشــغل نفسه بالكنعانيين الذين لا ينتمون ٠ واذا كان الامر كذلك فاننى اتوجه بالشكر لفالتزر لانه اظهر لى هذا الامر ، واتاح لى — وأمل للأخرين — ان اظل غير مقتنع بما يقولــه ، وان اقاومه .

الجزء الرابع : الدراسات بين القديم والحديث

فلسطين : التاريخ القديم والسياسة الحديثة

بقلم : ج.و. باور سوك

في الركن الجنوبي الشرقي من البحر الابيض المتوسط كانت هناك مقاطعة في الامبراطورية الرومانية تعرف باسم المقاطعة العربية . احتل الرومان هذه المنطقة من جنس من العرب الموهوبين في التجارة والذين كانت مملكتهم تشكل حدود هذه المقاطعة . وقد شكل هذا الجزء من الشرق الاوسط لثلاثمائة سنة على الاقل تحت حكم العرب ، وحوالى مائتى سنة تحت حكم الرومان ، وحدة ادارية وثقافية . ووفقا المنظور الحديث ، فانه من الصعوبة بمكان تصور استمرار بقاء تلك المقاطعة العربية التى كانت تحت حكم الرومان ، بالرغم من كل الانتفاضات والحروب الاهلية والغزوات اثناء الفترتين الهيلينية والرومانية . ولكنها تمكنت من البقاء .

وكان للمنظمة شكل غريب ، على الأقل بالنسبة للمنظور الحديث ، بالرغم من ان التضاريس الطبيعية وخطوط المواصلات كانت تتبع نوعا من الترابط والوحدة . ومن الناحية الجغرافية الحديثة ، كانت هذه المقاطعة تشمل كل شبه جزيرة سيناء ، وصحراء النقب ، وكل المملكة الاردنية الحديثة والجزء الجنوبى من الجمهورية السورية الحالية ، ومنطقة الحجاز التى تقع شمال غرب المملكة العربية السعودية . واذا نظرنا الى المنطقة بطريقة اخرى ، فسنجد انها كانت تمتد من السويس عبر الجزء الجنوبى من الأرض المقدسة ، لتشمل كل الضفة الشرقية للاردن التى تقع فى مواجهة دولة اسرائيل الحالية . وكان من الممكن الوصول الى الجانب الشرقى من وادى الأردن اما عن طريق البحر عند العقبة أو عن طريق البر فى الحجاز بالسعودية . ولذلك كانت الصلات التجارية مع دمشق تتم عبر الطرق التجارية البرية والبحرية لشبه الجزيرة العربية . وكانت هذه العلاقة بين الشمال والجنوب تتصل فى نفس الوقت وبصورة آمنة بالعلاقة بين الشرق والغرب ، عبر منخفض عرابة جنوب البحر الميت حتى البحر الابيض المتوسط عند غزة أو حتى الجزء الجنوبى الغربى عبر الجزء الشمالى من شبه جزيرة سيناء . ولفترة تربو على الخمسمائة عام كان هنالك كيان سياسى طبيعى على قدر كبير من الاهمية فى منطقة الشرق الاوسط فى العصور الكلاسيكية يمتد على مساحة كبيرة من الارض مقسمة الآن بين خمسة بلدان على الاقل وهى مصر واسرائيل والاردن والمملكة العربية السعودية وسوريا .

ومنذ مايقرب من خمسة عشر عاما ، طرات على ذهنى فكرة مؤداها ان هناك حاجة لاجراء دراسة تاريخية منظمة عن هذه المنطقة اثناء فترة الحكم

الرومانى . ومنذ ذلك الحين وحتى الآن كرست جهدى فى كل الوقت المتاح لى لكتابة ذلك التاريخ . وحيث ان كتاب « المنطقة العربية تحت الحكم الرومانى » قد صدر مؤخرا فقد تكون هذه اللحظة مناسبة لتوضيح العلاقة بين الماضى والحاضر فى منطقة الشرق الاوسط . ويعرف أى مؤرخ انه الممكن استغلال الماضى سياسيا فى الصراعات المعاصرة . ويتضح ذلك بشكل بارز فى منطقة الشرق الاوسط اكثر من أية منطقة اخرى .

وعنـــد زيارة المنطقة ، وجدت نفسى مجبرا على التنقل من الجنـــوب الى الشمال ومن بلد الى آخر وبشكل لا تعوزه الصعاب . وقد أصبح جزء كبير من المقاطعة العربية الرومانية جـــزءا من المنطقة التى عرفت فى العصر البيزنطى بفلسطين . ويمكن ان يكون استخدام تعبير فلسطين ، الذى يعنى حرفيا ارض قدمـــاء الفلسطينيين ، وسيلة مفيدة لتذكر الوحـــدة القديمة بين جانبى وادى الاردن . وقد استخدم المؤرخ اليونانى العظيم هيرودوت تعبير فلسطين سوريا للاشارة الى كل المنطقة الساحلية الممتدة من لبنان الى مصر ، فى القرن الثانى . وبعد مرور قرنين من الزمان اصبح تعبير فلسطين اكثر شمولا وكان الحكام البيزنطيون يرون أن هناك ثلاث مناطق تسمى بفلسطين ، وكانت الثانية منها تقع فى اقصى الشمال وتشمل المنطقة التى تقع حول حيفا بجنوب لبنان . وكانت المنطقة التى تقع حول القدس تسمى بفلسطين الاولى ، وكانت فلسطين الثالثة تشمل جزءا كبيرا من المقاطعة العربية الرومانية القديمة ، اذ كانت تشمل سيناء والنقب والضفة الشرقية للاردن حاليا بجنوب عمان . ومن ثم فان تعبير فلسطين يعطى انطباعا بانه كان هناك ترابط جغرافى وادارى منذ القدم ، ويمثل من الناحية التاريخية الاحداث ، وحدة اكثر تجانسا من المقاطعة العربية القديمة . وبشكل آخر يمكننا القول بانه عندما أضيفت منطقة يهودا بالكامل الى المملكة العربية القديمة التى كانت تقع على جانبى نهر الاردن ، ظهر مفهوم فلسطين القديمة المقسمة الى ثلاثة اجزاء .

ولم يكن من قبيل الصدفة ان يهمل المؤرخون لفترة طويلة تاريخ هـــذه المنطقة اثناء العصر الرومانى . وقد جمع العديد من المستكشفين والرحالة البارزين كمية هائلة من المادة العلمية ، وصحب ذلك فى احيان كثيرة قدرا كبيرا من المخاطر الشخصية . وكان يبدو انه ليس هناك تاريخ مترابط فى أى مكان للمنطقة . ولكن مع نهاية العقد الاول من هذا القرن ، تمخضت الاكتشافات . التى تم اجراؤها فى سوريا وشرق الاردن عن نتائج غزيرة كان من شأنها تمكين اى مؤرخ جاد من كتابة عمل هام فى ذلك الوقت بسهولة . فقد قامت بعثات كثيرة من فرنسا والمانيا وامريكا بزيارة المنطقة . وكانت من الكثرة والدقة بحيث يمكن فى حالات عديدة ملاحظة مدى التكرار فى تقاريرها . ولكن . ولكن بقيت المادة التى تم جمعها على مدى سبعين عاما فى حالة غير منظمة . وقد تخلل هذه الفترة بالطبع المزيد من الاكتشافات .

ويمكن تفسير التأخر فى الاخــذ بتــاريخ منطقة الشرق الاوسـط تحت حكم الرومان والبيزنطيين ماخذ الجد بطرق متعــددة . فقد سيطر التنقيب من آثار العهد القــديم على دراسة التاريخ القــديم لمنطقة الشرق الاوسط . نتيجة للجهود التى بذلهــا الرحالة وعلماء الاثار الغربيون . وقــد اعتقــد معظم المتخصصين الغربيين فى التنقيب فى المنطقــة حتى فترة قريبة ان التــاريخ القديم ينتهى بالاسكندر الاكبر ، وانه كان شخصية متأخرة ومتدهورة بشــكل يدعو للاسف . وفيما يختص بالشرق فان سكانــه الاصليين كانــوا يبدون قدرا ضئيلا من الاهتمام بدراسة تاريخ سيطرة الاجانب عــلى اراضيهم . وفضــلا عن ذلك ، فان العرب ينظرون الى فترة ما قبــل النبى محمد على انهــا فترة ساد فيها الجهــل . ويطلق العرب على هــذه الفــترة اســم الجاهلية . ومن المؤكد ان عصور ما قبل الجاهلية شملت قدرا كبــيرا من الانجازات التى حققتها اسلاف السكان الاصليين .

ولكن ، لعل الامر الاكثر اهمية من اى شىء آخر هو ان انحراف البحث التاريخى كان فى الواقع مقاومة لمواجهة حقيقة وجود دولة عربية وبالتــالى دولة فلسطينية واسعة فى الشرق الاوسط . لقــد كانت هــذه الدول اجزاء من المجتمع الدولى لروما وبيزنطة ، ولكنهــا لــم تتخل عن استقلالها الثقافى والاقتصادى . ومنــذ اقامة اسرائيل فان البحث فى هــذه المنطقة اصــبح اكثر صعوبة . وقــد ذكرنى احــد الباحثــين الاسرائيليين منذ ما يقرب من عقــد من الزمان بحقيقة اساسية تتمثــل فى ان علم الآثار يتخذ طابعا سياسيا فى تلك الدولــة ، ولذلك فاننى افترض انه ليس هنــاك ما يدعو للدهشة عنــد معرفة ان هناك عالم آثار اسرائيلى واحــد فقط يهتم ببحث الثقافة العربيــة قبــل الاسلام . وهناك ما يجعل هــذا الباحث يشعر بكثــير من الوحدة فى اسرائيل .

وهناك العــديد من الصعاب التى تكتنف محاولة فهم الوحــدة الاساسية للمنطقة العربيــة القديمة سواء كانت فى شكل مقاطعة عربية او فى شــكل فلســطين الكبرى وذلك فى ظل الظروف الراهنة . وفى قديم الزمان ، كان التجار يعبرون بانتظام من مدينة البتراء العظيمة عبر وادى عرابــة وعــبر النقب حتى غــزة او الى منــاطق ابعد منها فى الغرب . ولا يستطيــع سوى الانســان المتهور والطائش الاقدام الآن على محاولة عبور هذا الطريق من اى من الاتجاهين . وقــد قمت بالرحلة من مدينــة فيلادلفيا الرومانية القديمة ، وهى العاصمة الأردنية عمــان حاليا ، الى القدس عبر جسر اللنبى الجديد ، ولكننى كنت احتفظ بالمستندات اللازمة بشــكل مرتب للقيــام بهذه الرحلة . وبالنســبة لاى طالب يــدرس اى فترة من فترات تاريخ الشرق الاوســط فانــه ليست هنــاك اية تجربة اكــثر فائدة من القيــام برحلة من الهضــبة

الاردنية الى وادى النباتات الاستوائية ثـم الى المنطقة البحريـة الجافـة التى يتجه منهـا الى اريحا . وبشـكل عام فان كل مـن يسافر فى هـذه المنطقة يفكر دائما فى الصـعاب التى تعوق حرية تنقله ، ولكن كل هـذه العوائق تذكر دائما مؤرخ التاريخ القديم بأنه لـم يكن هنك أى مثيـل لهـا فى الازمنة السابقة .

وترتبط السياسة بعـلم الآثار فى كل مكان . وعـلى سبيل المثال فان ايجال يادين كان عالم آثار بارزا وشخصية سياسية بارزة . ويتمثـل المزج بين هـذين المجالين فى اهتمامه بتعريف الرأى العـام باكتشافه لخطابات موثوق فى صحتها منسـوبة الى الثائر اليهـودى بركوخبا . ويرجع تاريخ هـذه الخطابات الى فترة الثورة اليهودية ضـد الحكم الرومانى اثنـاء فترة حكم هادريان . وبالنسبة لاى قارىء نزيه فان هـذه الخطابات تظهر بصعوبة بالغـة هـذه الشخصية المشهورة كشخصية قيـادية (وقـد اطلقت مرة عليـه اسم السفاح التقى ، ولكن يادين كان سـعيدا عند تقديمه للرأى العام الاسرائيلى على أنه لا يقـل عن كونه أول رئيس لاسرائيل . وقد اطلق عليـه هـذا اللقب لأن هـذا الثائر كان يسـمى نفسـه بالعبرية « نسـيا » أو الامـير) .

وفى غضون هـذه الفترة ، وبالرغـم من ان خطابات بركوخبا حظيت باهتمام وشعبية كبـيرة ، فقـد كان هناك اكتشاف آخر قام بـه يادين والعديد من زمـلائه من علماء الآثار ، لم يتم الاعلان عنـه لمـا يقرب من خمسـة وعشرين عاما . فقـد اكتشف يادين فى بداية الستينيات فى كهف فى صـحراء يهـودا مجموعة مكونة من ٣٥ وثيقة شخصية بخصوص أمرأة يهودية تعرف باسم باباثا ، كانت قد هربت الى البرية طلبا للامان اثناء فترة الاضطرابات التى بدأها بركوخبا . ويمكننا القول من خلال المقتطفات والملخصات القليلة التى تم نشرها ، ان هذه الوثائق تتعلق بوضع هذه المرأة القانونى اثناء فترة تقدر بأربعين سـنة . ولم تقتصر ملاحظات هـذه المـرأة وعائلتها على تحول الوضع مـن مملكة عربية الى مقاطعة رومانية فى المنطقـة المعروفـة باسم المنطقة العربية وانما كما يبـدو فانهـا قـد عاشت مـع عائلتهـا هناك لفترة زمنية محـددة . ومن الواضح أن العـلاقة التى سـادت بين اليهود والعرب فى المنطقة الواقعة جنوب البحر الميت تتسـم بالتـآلف . ومن الواضـح أيضا أن سجل باباثا يحتوى على وثائق بالغـة الاهمية تدل على طبيعة الترابط الاجتماعى فى فلسـطين والذى يعكس الوحـدة الادارية والجغرافية . ولا يهمنا هنـا ما اذا كان من قبيل الصدفة أم التعمد عـدم قيام يادين أو أى باحث اسرائيلى آخر بنشر هـذه المـادة غير العادية . ولكن فى مجتمع يتم فيه نشر تقارير الاكتشافات الاثرية على نطاق واسع فان عـدم نشر هـذه الوثائق حتى اليوم ، دليل بليغ على اهميتها .

واذا كان علم الآثار يدخل فى مجال السياسة فان التاريخ حتما يدخل فى نفس المجال . ومرة اخرى ، تعد الطريقة التى يتم بها تناول ثورة بركوخفا ذات دلالة واضحة . وقد كتب المدافعون يقولون ان العقـــوبة الرهيبة التى أنزلها هادريان على اليهود مع نهاية الثورة تمثلت فى اقامة معبد وثنى على نفس موقع المعبد اليهودى الذى تم تدميره أثناء فترة حكم فيسباسيان . ولكن شهادات من عاشوا فى هذه الفترة تؤكد أنه لم يكن هناك أى معبد على ذلك الموقع فى القدم ، وان كل ما كان هناك هو تمثال للامبراطور ، وأن المعبد الوثنى المذكور كان فى موقع بعيد . ولأن هذه الحقيقة لا تخدم السياسة فقد تم اخفاؤها بهدوء .

وهناك مثال جيد آخر على استعمال التاريخ فى السياسة . ويتضح هذا المثال فى الرؤية الجديدة للتاريخ التقليدى للفينيقيين . ومنـــذ عصر هيرودوت وحتى فترة أباطرة الرومان ، كان يسود اعتقاد فى المدن الفينيقية الواقعة على ساحل البحر الابيض المتوسط وفى مدن الخليج العربى بأن الفينيقيين الاصليين جاءوا من منطقة الخليج . وقد كان هذا الاعتقاد مثيرا لدهشة المؤرخين الغربيين الذين فضلوا تجاهله أو عكسه،والقول بأن الفينيقيين استعمروا الخليج . ولكن الفينيقيين أنفسهم قبلوا هذا الاعتقاد . وبالرغم من الرفض المستمر للتســـليم بقصة أصول الفينيقيين القديمة فاننا نواجه مرة اخرى بمسألة استغلال الماضى .

ويواجه المرء باستمرار العديد من العقبات التى يتم وضعها بشكل متعمد لتفتيت وحدة المنطقة . واذا كانت فلسطين وسوريا التى تقع بشمالها — كانتا تشكلان فيما بينهما منطقة واحدة مترابطة ومستقرة نسبيا فى العصرين الرومانى والبيزنطى ، فان ذلك يكن — كما يشكك البعض — نتيجة لفرض الرومان هذا الوضع على المنطقة . فقد ورث البلدان هذه الوحدة من السكان الاصـــليين . وعندما تم احتلال سوريا ، وقبل أن يضم الرومان المقاطعة العربية بوقت طويل ، فان الحكام السلاجقة بذلوا جهودا قليلة لتغيير الانماط الثقافية والادارية التى ورثوها . وعندما أصبحت سوريا وفلسطين تحت النفوذ الرومانى والبيزنطى فان مفهوم سوريا — فلسطين الموحدة كوحدة جغرافية وثقافية شاملة كان أمرا منطقيا . وفى الحقيقة فان التهديد الحقيقى والوحيد الذى تعرضت له هـــذه الوحدة جاء من أسرة زنوبيا فى تدمر . وكان من الواضح انها كانت تعمل على احلال نفوذ تدمر محل نفوذ روما ولكنها لم تحاول القضاء على وحدة المنطقة من أساســــها .

وقد أدى تفتيت هذه المنطقة فى العصر الحديث الى حدوث مأساة لا نهاية لها . ومازال الديبلوماسيون والمفاوضون يأملون فى امكانية حل مشاكل المنطقة عن طريق تقسيمها وتوزيعها لارضاء المصالح المختلفة لكل الاطراف . ولكن بالنسبة لمؤرخ منطقة الشرق الاوسط فى العصر الرومانى على الاقل ، فان مثل هذا الحل يبدو ، حسب التعبير الذى استخدمه السيبيان لوصف الديمقراطية الاغريقية بمثابة حماقة معترف بها . ومن الناحية التاريخية فان الاضـــطرابات

التى شهدتها المنطقة فى العقد الاخير تمثل محاولة عنيفة ودموية لاسترداد شيء من الترابط المفقود واستعادة التوازن الطبيعى فيها . ويدل الوجود السورى فى لبنان ، وغزو اسرائيل لنفس الدولة وسيطرتها على بعض الاراضى الاردنية والسورية على الجهود الهادفة الى القضاء من جهة أخرى على التجزئة غير المستقرة وغير الحكيمة فى المنطقة . ولكن لسوء الحظ ، فان القرار الذى تم اتخاذه منذ ثلاثين عاما بتوطين سكان جدد فى جزء من منطقة الساحل الفلسطينى قد قضى على امكانية استرداد وحدة المنطقة أو توازنها الطبيعى . ومهما كانت طبيعة التوازن الذى يمكن تحقيقه فى المستقبل القريب فانه لن يكون طبيعيا .

وفى ظل هذه الظروف فانه من المطمئن ملاحظة تزايد اهتمام دول كثيرة فى الشرق الاوسط بتاريخ المنطقة فى العصرين الرومانى والبيزنطى . فقد شهد هذان العصران ازدهار حضارات هذه البلدان فى ظل وجود قوى دولية عظمى . ونلاحظ هنا أن اهتمام دول الغرب بدراسة آثار وتاريخ العهد القديم لم يكن مفيدا بشكل كاف لسكان دول المنطقة . ويظهر التمسك باستخدام تعبير الارض المقدسة عدم حياد الدوائر الغربية المهتمة لمنطقة الشرق الاوسط منذ فترة طويلة . وبمعنى آخر يمكننا القول بأن التحول من مجال دراسة تاريخ العهد القديم الى مجال التاريخ الرومانى والبيزنطى ليس مجرد تحول فى اهتمام الباحثين . ولكنه يعكس استخدام البحث التاريخى لخدمة أغراض الحاضر .

ويمكن رؤية الاتجاهات الجديدة فى مجال دراسة عصور ما قبل الاسلام فى بلدان عربية عديدة عن طريق متابعة مشاريعها مطبوعاتها . فقد قامت ادارة الآثار بالمملكة العربية السعودية باعداد مشروع ضخم للتنقيب والبحث عن الآثار وهناك العديد من الخطط الهادفة الى التوسع فى اقامة العديد من المتاحف فى المملكة العربية السعودية وقد عقد فى الرياض منذ سبع سنوات مؤتمر حول تاريخ السعودية قبل الاسلام . وسيتم نشر أبحاث هذا المؤتمر قريبا . وقد أوضحت احدى الاكتشافات البارزة التى قام بها أستاذ بقسم الآثار بجامعة الرياض أنه كان هناك وجودا هيلينى — رومانى فى قلب شبه الجزيرة العربية فى منطقة تعرف بقرية الفاو .

وقد قدمت ادارة الآثار فى المملكة الاردنية خدمة جليلة للبحث والتنقيب فى عصور ما قبل الاسلام خاصة بالنسبة لحضارة النبطيين من العرب الذين سبقوا الرومان فى هذه المنطقة . ونظم الاردنيون عدة مؤتمرات دولية حول حول تاريخ البلاد ، وتصدر ادارة الآثار مجلة دورية ممتازة وتقارير سنوية حول الاكتشافات الجديدة. وفى سوريا أيضا يتم تشجيع البحث فى مجال الدراسات غير المتعلقة بفترة العهد القديم . وقد مهدت احدى الصحف التى تهتم بعلم الآثار ، الطريق لنشر دراسة هامة عن تاريخ سوريا . وستتضمن هذه الدراسة التى تقع فى عدة مجلدات مساهمات من باحثين من الغرب ومن الشرق الاوسط . وسيتم نشر الدراسة باللغتين الفرنسية والعربية .

ويعنى كل هذا ان تاريخ منطقة الشرق الاوسط الواقع بين فترة انتهاء العهد القديم وفترة ظهور النبى محمد قد أصبح الآن وبعد مرور قرون طويلة من الاهمال دائرة بحث هامة . ويتصل هذا التطور كما هو واضح بالجهود التى شهدتها حديثا منطقة الشرق ، فانه كان من السهل نسيان ان انتعاش عن طريق استرجاع الجانب المنسى منه . وبالنظر الى بعض الاحداث الهامة التى شهدتها حديثا منطقة الشرق ، فانه كان من السهل نسيان أن انتعاش الاهتمام بروما وفلسطين قد مر عبر علاقة وثيقة وقوية بين المؤرخين وعلماء الآثار من الشرق والغرب .

ويختلف الوضع فى اسرائيل • ويأخذ علم آثار العهد القديم ولاسباب معروفة — مكانة بارزة فى اسرائيل ، ولا تتساوى نوعية العمل فى مجالى الدراسات الرومانية والبيزنطية مع نوعية الدراسات التى يتم اجراؤها على العهد القديم . وترجع المشكلة الى العزلة المفروضة على المتخصصين فى الدراسات الرومانية والبيزنطية . واذا كان علم الآثار يشغل مكانة بارزة فى اسرائيل فانه يولى قدرا ضئيلا من الاهتمام لدراسة العرب النبطيين أو لحضارة الاباطرة الرومان . وكما رأينا من قبل فانه لم يتم السماح لما يقرب من ربع قرن بنشر أحد الاكتشافات الهامة التى تلقى الضوء على روما والعرب . وحتى هؤلاء الذين كرسوا كل حياتهم لدراسة الشرق الرومانى يتبنون وجهات نظر غريبة حول هذا الموضوع . فقد زعم أحد علماء الآثار الاسرائيليين أنه كان هناك نظام دفاع فى أقصى شمال صحراء النقب ، بالرغم من أن معظم علماء الآثار الاجانب لا يستطيعون التوصل الى أى دليل يثبت وجود مثل هذا النظام . والشىء الذى يدعو للملاحظة أن هذا العالم يزعم أنه كان لابد من وجود خط دفاع فى داخل المقاطعة الرومانية ، فى حين أنه من الممكن حدوث هذا الامر على الحدود فقط . اذ ان ذلك يشبه القيام ببناء عائق من الحصون فى داخل ولاية نيويورك . ولكن هذا العالم رأى أن افتراضه هذا سليم لانه اعتقد أن السكان اليهود كانوا يتعرضون للتهديد من عرب الصحراء . وهذا الزعم ليس الا تكرارا لذلك الاعتقاد القديم الذى لا يعترف بوحدة الشرق الاوسط اثناء العصر الرومانى . وحقيقة الامر انه لم يكن هناك أى صراع آنذاك بين العرب واليهود .

ومما يدعو للاسى رؤية الضغوط السياسية تؤدى الى حدوث تشويه من هذا النوع فى كتابة التاريخ خاصة عندما يكون التقييم الهادىء للحقائق أمرا مطلوبا • ولم يعان الباحثون الاسرائيليون الاوائل الذين كانوا قد نضجوا عند اقامة الدولة من هذا النوع من قصر النظر ، وأقروا مبادىء لا يستطيع المرء سوى أن يأمل فى عودة الاسرائيليين الى التحلى بها . واذكر هنا بصفة خاصة مايكل آفى — يوناه الذى كان تناوله لتاريخ فلسطين فى الموسوعة الالمانية الموجزة ذا قيمة بالغة . وتميز عمله بالدقة والشمولية والنزاهة .

ويمثل النقيض الآخر باحث امريكي ذو علاقات قوية مع اسرائيل . وقد نشر منذ فترة غير طويلة مقالة قصيرة ناقش فيها تاريخ المنطقة الواقعة حول القدس ، التى كان يقطنها الادوميون فى فترة زمنية معينة . وحيث أن هذا الباحث على دراية بأن الادوميين والاسرائيليين كانوا أعداء تقليديين فى فترة العهد القديم وما بعدها فانه يفترض بشكل تلقائى ان الادوميين كانوا عربا . وتذكر نصوص العهد القديم ان الادوميين كانوا على علاقة مع الاسرائيليين . وترجع هذه النصوص أصول عداوتهم الى المنافسة التى تقوم عادة بين الاخوة. ويستطيع المرء فى هذا المجال افتراض ان مثل هذا الباحث يعتمد على افتراض عام مفاده انه لابد من ان يكون أى عدو لاسرائيل من العرب ، وهذاالاعتقاد كما هوا واضح ، خطير للغاية ويتميز بالخبث .

ان التلاعب بالتاريخ لخدمة أغراض الحاضر يستحق الادانة . شأنه شأن أى نوع من أنواع سوء العرض . واذا كان من الممكن حدوث اخطاء غير مقصودة فى أى مكان وزمان ، الا ان التزوير المتعمد للماضى يعتبر امرا آخر . ولدى انطباع بانه اذا كانت دراسة المنطقة العربية وفلسطين تحت حكم الرومان تجذب اهتمام الباحثين فى العالم العربى ، فانها تشكل تهديدا متزايدا للباحثين فى اسرائيل ، وهناك القليل من الباحثين الذين لا يحظون بالثقة التى لا يستحقونها . وهناك على سبيل المثال مقال فى أحد اعداد مجلة «كاشيدار» يقدم فيه الكاتب عرضا شاملا للمشاكل المتعلقة بفلسطين الرومانية . ولكن حتى فى مثل تلك المجلة لا يستطيع المرء تجنب ملاحظة ان الاهتمام الرئيسى منصب على الحصون الدفاعية بالمنطقة وليس على الحياة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت تربط بينها ،

ان التلاعب بالتاريخ القديم لخدمة اغراض الحاضر ليس الا خدعة مفضوحة بشكل غير عادى . ذلك أن معظم الادلة واضحة للعيان ، ومن ثم فان الاستنتاجات التى يروجها البعض عرضة دائما للبحث المتمعن والفحص الدقيق من قبل الاخرين . واذا وجد المرء استعدادا لدى البعض للتلاعب بالحقائق المعروفة للجميع فانه يصبح من الصعوبة بمكان الثقة فى الاستنتاجات التى تم تقديمها على اساس الادلة التى يتم الحفاظ على سريتها . وهذ هى المشكلة التى تواجه مؤرخ التاريخ القديم الذى يطلع على التقارير الواردة من اسرائيل بشأن المذابح فى لبنان أو معاملة العرب فى الضفة الغربية ، وبكل أسف فان التقرير الذى أعدته مؤخرا اللجنة الدولية المشكلة لبحث انتهاكات اسرائيل للقانون الدولى خلال غزوها لبنان لم يقلل من مخاوف المرء(١) .

---

(١) اسرائيل فى لبنان . تقرير اللجنة الدولية . ايثاكا بريس (لندن) ١٩٨٣ .

وقد رفضت السلطات الاسرائيلية التعاون مع هذه اللجنة الدولية . وبالنظر الى تكوينها فانه يمكن بالتأكيد فهم اسباب قلقها . ولكن التزام الصمت ليس كافيا للرد على الامور .

أن شأن الماضي هو نفس شأن الحاضر فى منطقة الشرق الاوسط حاليا ، كما هى الحال بالنسبة لكافة البلدان ذات التاريخ العريق . وتعتبر أمريكا استثناء غير عادى من حيث عدم شعورها بمعاصرة التاريخ القديم . ويرجع السبب الى أنه ليس هناك تاريخ قديم لامريكا . وقد لا يرى الكثير من المراقبين الاهمية المعاصرة للامور التى تجرى فى بعض المجالات التى قد تبدو عملية بحتة ان علم الآثار والتاريخ فى واقع الامر جزء من السياسة ، ومن نسيج العالم الحديث . ولو كانت اسرائيل اليوم تهتم حقا بالوضع الاجتماعى لباباثا وعائلتها فى أوساط العرب فى القرن الثانى بعد الميلاد ، لما كان قد تم نشر الخمسة والثلاثين وثيقة التى تركتها منذ فترة طويلة . وبعد خمسة عشر عاما من دراسة عالم باباثا ، فقد أصبحت مقتنعا بأن اهمال شهادتها ليس الا كتمانا لها .

لقد كان سجل باباثا حتى فترة قريبة هو اهم دليل جديد يوضح العلاقة بين اليهود والعرب فى فترة ما بعد العهد القديم . ولكن ظهر اكتشاف هام آخر منذ بضع سنوات فى صحراء النقب ، وتمثل هذا الاكتشاف فى وجود حجر تظهر عليه كتابة بخط العرب النبطيين . وبالرغم من أن النص مكتوب بخط واحد الا انه يبدو أنه مكتوب بلغتين متميزتين ، احداهما نبطية والاخرى عربية . ويميل مكتشف هذا الحجر الى الاعتقاد بأن أصل هذا الحجر يرجع الى منتصف القرن الثانى بعد الميلاد ، ومن ثم فانه يمثل أقدم شكل للغة العربية . ومن الواضح ان وجود هذا الحجر فى صحراء النقب له دلالة كبيرة بالطبع . وهذا الحجر متغير اللون وهش التكوين . ومن الممكن أن يكون ذا أهمية كبيرة لدراسة تاريخ ما قبل الاسلام . واذا كان هذا الحجر موجودا فى أى بلد آخر يولى اهتماما جادا بعلم الآثار لكان قد تم نقله الى مكان آمن للحفاظ عليه . والاكثر من هذا ، ان المرء كان يتوقع نشر المزيد من الاخبار عن هذا الاكتشاف ، ولكن لم يتم نشر أى شىء عنه . ومازال الحجر ملقى تحت شمس الصحراء .

القومية المؤسسة على الاقليمية

وسياســـة الانكـــار

بقــلم : ابراهيم أبو لغد

فى غضون اقل من عقد من الزمان سيبلغ عمر القضية الفلسطينية بشكلها الاساسى نحو مائة عام . وقد شهدت العقود التسعة الماضية تحولات كبيرة فى الابعاد الاقليمية والديموغرافية والسياسة المتعلقة بهذه القضية . فقد وقعت فلسطين كوحدة ادارية/جيوبوليتيكية تحت السيطرة العثمانية الشرعية ثم تحت الانتداب البريطانى ، ثم تحت سيطرة اسرائيل الكاملة على الارض . ويمثل سكانها حاليا مزيجا كبيرا ومتنوعا من السكان : فمن ناحية الهويـــة الدينية فان غالبية السكان من اليهود ، ومن الناحية العرقية فان نسب غالبية السكان يرجع على الارجح وبصورة متفاوتة الى الاصل العربى ، ومن ناحية الهوية القومية فان الســـكان مقسمون وفقا للابعاد السياسية الى يهـود اسرائيليين والى عرب فلسطين . ويخوض الطرفان صراعا كبيرا من أجـل السيطرة على السلطة السياسية او من أجل تقسيم السيطرة الشرعية بصورة مقبولة (١) . وبالرغم من أن سيطرة الاستعمار البريطانى على الارض لم تدم سوى أقل من ثلاثة عقود ، فان هذه الفترة أفضت الى التحولات الكبرى التى حدثت بعد ذلك . وبعد مرور عقدين من تمزيق فلسطين ، احتلت اسرائيـــل الاجزاء المتبقية والتى أصبحت معروفة بالضفة الغربية وغزه . وينتظر هـذا الاحتلال وضع حد له . ويتوقف ما اذا كان هذا الاحتلال سياخذ طريقه الى الزوال سواء عن طريق تحوله الى شكل شرعى كما يرغب بعض الاسرائيليين ، او عن طريق تحول هذه الاراضى الى مكان تتم فيه اقامة دولة فلسطينية مستقلة يضغط الفلسطينيون من اجل اقامتها ، بتأييد من الرأى العام العالمى — يتوقف على توازن القوى القومية والعالمية .

وبالرغم من هذه الحقائق الموضوعية المتغيرة ، فانه لابد من ملاحظة حجم التغير الطفيف الذى طرأ على تناول القضية الفلسطينية . وقد ارتكزت القضية الفلسطينية منذ ظهورها على ثلاثة محاور رئيسية وهى :

١ — الارض   ٢ — الشعب   ٣ — السيادة السياسية لشعب ولارض فلسطين .

وتشكل هذه المحاور الثلاثة جوهر سياسة الرفض التى تمسك بها حتى الآن كل طرف من أطراف القضـــية . فمن الناحية التاريخية ، انكر العــرب

الفلسطينيون — وغيرهم من العرب ايضا — المزاعم الصهيونية المتعلقة بأن التطلعات القومية للشعب اليهودى تتطلب اقامة وطن (دولة) فى فلسطين . وانكر اليهود الصهاينة ، وفيما بعد اسرائيل ، حق العرب الفلسطينيين فى فلسطين وفى اقامة دولة فلسطينية فيها . وانكرت بريطانيا ، باعتبارها قوة استعمارية انذاك وحتى الآن ، ، حق الفلسطينيين فى تقرير المصير الذى يستلزم اقامة دولة فلسطينية ، وأكدت بريطانيا — بغض النظر عن مراوغتها — على حق الشعب اليهودى فى اقامة وطن يهودى فى فلسطين . ومنذ عام ١٩٤٨ ، أى خلال الفترة التى كانت فيها كافة المستعمرات تحقق استقلالها بشكل عملى ، فان اسرائيل التى حصلت على مساعدة ضخمة من بريطانيا فى البداية ومن الولايات المتحدة الامريكية فيما بعد ، تنكر باستمرار حق الفلسطينيين فى تقرير المصير . ويكمن هذا الانكار فى طبيعة رؤيتها لكل من فلسطين وشعبها . ويعتمد الكثير من الاحاديث البلاغية المعاصرة التى تعكس مواقف سـياسية معينة على الرؤية التاريخية للقضية الفلسطينية (٢) .

وبصرف النظر عن كيفية تعريف الصهيونية ، فان رؤيتها لفلسطين على انها المكان الذى ستقام عليه الدولة اليهودية فى المستقبل لم تكن محل خلاف حتى عندما تم بحث بدائل اخرى . وقد ادرك قادة الصهاينة ان فلسطين حينذاك كانت جزءا من امبراطورية متعددة القوميات ، ولذلك تركزت جهودهم فى البداية على الدولة العثمانية التى كانت تفرض سيادتها على فلسطين من اجل الحصول على موافقتها . وعندما فشلوا فى هذا المسعى ، توجهوا بأنظارهم الى القوى الاخرى ، وقدمت بريطانيا فى النهاية وعد بلفور فى عام ١٩١٧ وتعهدت فيه بانها « ستسهل اقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين » . . ولعل تناول سياسة التنازلات الصهيونية والعثمانية أو الاوروبية لا يتناسب مع موضوع هذه الدراسة . ولكن من المناسب هنا تناول دلالة مصطلح فلسطين من الناحية الجغرافية والتى تطلع اليهود الاوربيون الصهاينة الى اقامة وطن فيها . وبينما ينظر الصهاينة ، مثل غيرهم ، الى فلسطين من الناحية التاريخية ، فانه لابد الاشارة الى أن فلسطين حتى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت مقاطعة اقليمية ، ولم تكن تشكل وحدة ادارية — جيوبوليتيكية متميزة . وباعتبارها مقاطعة اقليمية فانها كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية . اما من الناحية الادارية فانها لم يكن لها وجود كوحدة يحكمها حاكم من قبل الامبراطورية العثمانية . وكانت ، شأنها شأن باقى المقاطعات العربية التابعة للدولة العثمانية ، جزءا من الولايات الاخرى ، أو المقاطعات (السناجق) التى تتمتع بالحكم الذاتى . ولذلك فقد كانت اجزاء معينة من مناطق الساحل الفلسطينى تتبع ولاية بيروت . وكانت القدس سنجقا تتمتع بالحـكم الذاتى . وعلى مـدى التاريخ الطويل للدولة العثمانية — الاسلامية ، فان فلسطين لم يكن لها أى وجود كوحدة جيوبوليتيكية — ادارية . ولكن كان يبدو اثناء المناقشات التى سبقت صياغة وعد بلفور ، أن

الصهاينة وغيرهم كانوا يعتقدون ان فلسطين تقع تحت سيطرة جهة معينة بالرغم من عدم دقة حدودها الجغرافية . وكان من شأن هذا الفهم التاريخي لفلسطين ، بالاضافة الى عدم دقة حدودها الجغرافية ، المساهمة فى التناول السلبى للقضية من جانب كل طرف من اطرافها .

وكوحدة ادارية - سياسية فان فلسطين خلقها الاستعمار البريطاني بنفس الطريقة التى اتبعها الاستعمار الاوربى عند اقامته لكافة الدول الافريسة (ولدول المشرق العربى) . ولكن فى الوقت الذى لاتتحدى فيه الدول الافريقية بشكل جدى مدى شرعية وجودها كـدول مستقرة ، فان العرب الفلسطينيين واليهود الاسرائيليين يقاومون بأساليب ولاسباب مختلفة للغاية الاعتراف بذلك وقد وجدت فلسطين بالشكل الذى هى عليه الان عندما تم الانتداب البريطانى على المنطقة فى عام ١٩٢٢ • وباختصار شديد ، فان بريطانيا وفرنسا قد توصلتا فى عام ١٩١٦ الى اتفاقية سايكس - بيكو ، وقررت الدولتان تقسيم مقاطعات المشرق العربى التابعة للامبراطورية العثمانية • وفى الوقت الذى حصلت فيه فرنسا على مايعرف الان بسوريا ولبنان التى كانت مكونة من خليط عشوائى من مناطق ادارية متنوعة فان بريطانيا اخذت خليطا من مناطق ادارية مختلفة وبشكل اعتباطى ، وتعرف الان بأسماء العراق وامارة شرق الاردن وفلسطين(٢) وماينساه البعض الان هو حقيقة الضعف الذى كان عليه هذا المخطط . ويرجع سبب ذلك الى اننا نسلم بان الاشياء الموجودة الان كانت موجودة من قبل • ومن المستحيل فى الواقع ان نجد دولة من كل هذه الدول « المتعاقبة » لم تعترض على شرعية اجزاء أو كل الخريطة الجيوبوليتيكية للمنطقة . فقد عارضت الجمهورية التركية بريطانيا وفرنسا (اللتين كانتا تمثلان العراق وسوريا) بخصوص مناطق الحدود الشمالية الغربية التابعة لهما • وقـد سوت خلافها مع بريطانيا فى العراق ، وتخلت عن منطقة الاسكندرونة بسوريا لتركيا . وتمت تسوية الحدود الشمالية من فلسطين بين بريطانيا وفرنسا . واقتطعت فرنسا جزءا من سوريا (طرابلس) واعطته الى لبنان وكما فرضت فرنسا الانتداب على سوريا ولبنان وأصبح بمقدورها فرض ارادتها على هذه المنطقة ، فقد فرضت بريطانيا ، لاسباب خاصة بها ، ارادتها على العراق وامارة شرق الاردن وفلسطين . وكان من الضرورى بالنسبة لبريطانيا نتيجة لفرضها الانتداب على فلسطين ، ان تتوصل الى تعريف محدود فلسطين • وتعين عليها القيام بهذا الامر نتيجة لالتزامها بالعديد من التعهدات المتناقضة . فبالاضافة الى اتفاقية سايكس - بيكو قدمت بريطانيا تعهدات معينة مثيرة للخلاف الى الشريف حسين امير مكة عندما اعلن باسم العرب قيام الثورة العربية فى عام ١٩١٥ • وفهم العرب ان هذه التعهدات ستتضمن اقامة دولة عربية مستقلة تشمل فلسطين . ولكن كان هناك اتفاق آخر ، هو وعد بلفور ، انكر مضمونه التعهدات التى قدمتها بريطانيا للعرب . وكان الجانب المتعلق بالارض فى وعد بلفور يكتنفه الغموض • وليس

تقديم التعريف الخاص بها لفلسطين عند معرفتها بما تعنية كلمة فلسطين فى المفهوم الصهيونى . ولكن مما لاشك فيه ان بريطانيا قد حلت المشكلة عندما صدقت عصبة الامم فى عام ١٩٢٢ على وضع فلسطين كوحدة سياسية طبيعية تحت الانتداب . ووضع ملحق قرار الانتداب على فلسطين فى اعتباره المادة ٢٥ المتعلقة بالحدود الشرقية لفلسطين ، والتى استثنت منطقة شرق نهر الاردن من كونها منطقة يحق لليهـــود الاوروبيين الحصــول عليها أو الهجــرة اليهــا . وتــم الاتفــاق على أن وعــد بلفور لا ينطبق على امارة شـــرق الاردن . وحيث أنه من المعروف ان الفلسطينيين فى هذه الفترة ، ودول عربية اخرى ، رفضوا مشروع الانتداب ووعد بلفور ، وفى ظل غياب أى ضغط قوى ومنظم من جانب شرق الاردن فان استثناء بريطانيا لشرق الاردن كمنطقة محتملة لهجرة يهـــود اوربا اليها ، يمكن ان يعزى الى المعنى الذى طرحته المنظمة الصهيونية العالمية لفلسطين . وبناء على طلب مؤتمر السلام فى عام ١٩١٩ ، قدمت المنظمة الصهيونية خريطة(٤) للمنطقة التى تصورت انها ستكون موقعا « للوطن القومى للشــعب اليهودى . وادعت المنظمة ان التعهد الــذى قدمته بريطانيا فى وعد بلفور ينطبق على تلك المنطقة . وليس من المثير للدهشة الان تحديد هذه المنطقة ، فهى تشمل فلسطين تحت الانتداب واجزاء معينة من جنوب لبنان وسوريا (الجولان) واجزاء كبيرة من شرق الاردن . وكان الحد الادنى للتصور الصهيونى لفلسطين يشمل قطاعات هامة من المنطقة الواقعة شرق نهر الاردن . وليس هناك مايدعو للقول بانه ليس هناك اى مثيل سواء فى التاريخ القديم أو الحديث لهذا التصور الصهيونى . واذا كان هذا التصور للوحدة السياسية الطبيعية الذى قدمته المنظمة الصهيونية يفى بالجوانب الاقتصادية او الاستراتيجية ، فانه ليست له اية جذور تاريخية .

ومن الواضح ان بريطانيا لم تول اية اهمية تذكر للخريطة الجيوبولتيكية التى قدمها الصهاينة . واستمرت فى ممارسة سلطة الانتداب على المنطقتين ــ فلسطين وشرق الاردن ــ وكأنهما وحدتان منفصلتان . ولم يؤد وجود مندوب سامى ومستشار « مقيم » فى عمان الى الغاء الفصل بين المنطقتين سياسيا واداريا وغير ذلك من الشئون الاخرى .

ومن المناسب فى هذا الصـــدد ذكر التقــرير الذى قدمه السيد هربرت صمويل ، أول مندوب سامى بريطانى ، الى عصبة الأمم عن ادارة فلسطين وامارة شرق الأردن فى الفترة الواقعة بين أعوام ١٩٢٠ ــ ١٩٢٥ . فهــو يتناول فى هذا التقرير بشــكل واضح الوضــع المتميز لامارة شرق الأردن ، وظروف نشأتها ، ولا يترك مجالا للشك فى ان فلسطين لم تشمل امارة شرق الأردن فى اية فترة تاريخية سابقة . فهو يذكر فى التقرير :

« عندما انتهت الحرب ، وجدت امارة شرق الاردن نفسها داخل المنطقة الادارية التابعة لسمو الأمير فيصل ، الابن الثالث للملك حسين ملك الحجاز ،

وكانت عاصمته دمشق . وفى شهر يوليو من عام ١٩٢٠ دخل الامير فى نزاع مع السلطات الفرنسية التى تقــوم بالانتداب على سوريا، وترك البـــلاد . وفى تلك اللحظة ، أصبحت امارة شرق الأردن بلا قيادة سياسية . وقد فصلتها من سوريا ، الحدود بين المنطقتين اللتين يطبق عليهما الانتداب الذى تم الاتفاق عليه بين بريطانيا العظمى وفرنسا ولكن لم تتم اية سلطة من فلسطين بادارة المنطقة . ولم يكن من المكن اقامة ادارة بريطانية مباشرة حيث ان امارة شرق الأردن كانت جزءا من منطقة واسعة كانت الحكومة البريطانية قد وعدت فى عام ١٩١٥ ، أثناء المفاوضات حول الحجاز ، بالاعتراف وتأييد استقلال العرب بها . ولم تكن حــكومة صاحب الجلالة على استعداد ، باى حال من الاحــوال ، لارسال قوات مسلحة لادارة المنطقة . وحيث ظهرت كل هذه الظروف بعد وصولى مباشرة الى فلسطين ، فقد توجهت الى شرق الأردن فى شهر اغسطس من عام ١٩٢٠ . وعقدت اجتماعا مع قادة السكان . وحيث انه لم يكن من المكن اقامة حكومة مركزية انذاك ، فقد اتخذت عدة اجراءات لتكوين مجالس محلية فى المناطق الثلاث التى تنقسم اليها البلاد وفقا لسماتها الجغرافية . وبدأت هذه المجالس فى ممارسة الشـــئون الادارية بمساعدة عـــدد قليل من الضباط البريطانيين الذين أرسلوا من فلسطين لهذا الغرض .

وبعد مرور بضعة أشهر ، وصل سمو الأمير عبد الله ، الابن الثانى للملك حسين ، الى شرق الاردن قادما من الحجاز . وكانت معه قوة صغيرة ،واعرب عن نواياه العدائيةتجاه السلطات الفرنسية فى سوريا . وكان وزير الخارجية تشرشل موجودا انذاك فى فلسطين . وقد عقــد اجتماعا مع الأمير فى القدس . وتم التوصل الى اتفاق اعترفت سلطة الانتداب بموجبه بسلطة الأمير لفترة معينة كادارى لشرق الاردن بشرط عدم اتخــاذ أى اجــراء معاد لسوريا . وقام الامير فى عام ١٩٢٢ بزيارة لندن وتم التأكيد هناك على كافة الترتيبات وفى شهر أبريل من عام ١٩٢٣ ، فوضت باعلان البيان التالى فى عمان عاصمة المنطقة : « فى حالة موافقة عصبة الأمم ، فان حكومة صاحب الجلالة ستعترف بوجود حكومة مستقلة فى شرق الأردن تحت حكم سمو الأمير عبد الله ، بشرط ان تكون هذه الحكومة دستورية وان تضع الحكومة البريطانية فى وضع يمكنها من الوفاء بالتزاماتها الدولية فى المنطقــة وذلك عن طريق عقــد اتفاقية بين الحكومتين بهذا الشأن » . ونتيجة للعديد من العوامل المختلفة ، فقد تم ارجاء مناقشة شروط هذه الاتفاقية من حين الى آخر ، ولم يتم التوصل اليها بعد . وعلى ايــة حال ، فان حــكومة الأمير استمرت فى الحصـــول على الاعتراف والتأييد .

ويحكم سمو الأمير حاليا هذه المنطقة عن طريق مجلس وزراء صغير . ويقيم ممثل بريطانى فى عمان ويقدم النصح والمشورة للحكومة بخصوص ادارة

امورها . ويتصرف بناء على توجيهات المندوب السامى فى فلسطين . وتتميز العلاقات القائمة مع الأمير ووزرائه بالقـــوة وروح الصداقة(٥) » .

ويتضح مما سبق ذكره ان امارة شرق الأردن كانت مثل فلسطين وسوريا ولبنان من حيث انها تكونت بشكل معين من قبل نظام استعمارى متنافس ، بهدف خدمة المصالح الاستعمارية لكل من فرنسا وبريطانيا . ولم تكن نشأة هذه الدول تعكس بأى شكل جاد مصالح أو قيم سكانها العرب . وليس من قبيل الصدفة ان يتحدى كل من العـــرب والصهاينـــة فى آن واحـــد المخطط الاستعمارى بأسره . فقد كافح القوميون العرب ـــ الذين تمسكوا بفكرة قيام دولة عربية مستقلة تضم فى اطارها كل المنطقة ـــ ضد شرعيـــــة الاساس « الاقليمى » للدولة ، وضد نظام الانتداب المفروض ، وضد حق بريطانيا فى تقديم وعد بتغيير ملكية فلسطين . واعترض الصهيونيون من جهة اخرى على التعريف الذى طرحته بريطانيا لفلسطين واستثنائها لامارة شرق الأردن من الانتداب على فلسطين .

ويؤكد الصهاينة وفيما بعد اسرائيل على « حقيقة » ان اسرائيل نشأت على جزء صغير جدا من فلسطين ـــ يقدر حجمه بأقل من ثلث المساحة الكلية ـــ التى يرون انهـــا تشمل كل فلســـطين وامارة شرق الأردن . ومن هنا ظهر مصطلح« الدولةالفلسطينية (٦) » .

وقد ظل الصهاينـــة متمسكين دائمـــا بمزاعمهم . وساوضح هنا مدى «اصرارهم » من خلال الاشارة الى بعض الامثلة التى تفصل بينها فترات زمنية متباعدة . وعلى سبيل المثال فان ديفيد بن جوريون ، اول رئيس وزراء اسرائيلى وموشى شاريت (شيرتوك) ، أول وزير خارجية اسرائيلى كانا يشيران عادة الى تقسيم فلسطين فى عام ١٩٢٢ ، والى مشروع اقامة دولة يهـــودية فى « غرب فلسطين » . وكان فلاديمير جابوتنسكى ، زعيم المراجعين ، عنـــد ادلائه بشهادته امام لجنة بيل فى عام ١٩٣٧ مصرا على حق اليهـــود فى كل المنطقة ، اى فى فلسطين على ضفتى نهر الأردن(٧) . وفى الوقت الذى تحرص فيه اسرائيل على التزام الحذر فى تصريحاتها الرسمية ، فان متحدثيها الرسميين يشيرون عادة الى الأردن على اساس انها دولة فلسطينية ، ويزعمون بالتالى ان للفلسطينيين بالفعل دولة خاصة بهم هناك .

وقـــد زعمت صراحة سلسلة من الاعلانات التى ظهرت بشـــكل منتظم فى صحف امريكية رئيسية خلال عام ١٩٨٣ ان الأردن هى فلســـطين . ومن المعروف مسبقا ان هذه الاعلانات دفع تكلفتها المؤيدون لاسرائيل والذين عرف عنهم أنهم يعملون لحساب قطاعات معينة من القيادة فى اسرائيل(٨) .

وبالرغم من اعتبار كتاب جوان بيترز « منذ قديم الازل » الذى صدر فى عام ١٩٨٤ دراسة زائفة وغير منطقية ، الا انه روج التعريف الصهيونى لفلسطين

والذى يعتبر ان فلسطين تشمل شرق الأردن (اذا تستخدم فى كتابها بيانات خاطئة تشير بصفة خاصة الى « فلسطين الغربية ») . وقد يكون تفضيل اسرائيل حل الصراع الفلسطينى ـ الاسرائيلى على أساس فكرة الخيار « الاردنى » انعكاسا لنفس المفهوم .

فما الذى نستطيع استنتاجه من المناقشة سالفة الذكر ؟ انه فى الوقت الذى وافق فيه عرب فلسطين (وباقى العرب ايضا) على التعريف القائم على الأمر الواقع بأن فلسطين هى المنطقة التى كانت تقع تحت الانتداب البريطانى والتى اتخذت فيها التطلعات الفلسطينية لاقامة دولة لهم شكلا محددا ـ وتدعم المادة الأولى والثانية من الميثاق الوطنى الفلسطينى ما وافق الفلسطينيون عليه ـ فان التعريف الصهيونى ـ الاسرائيلى لفلسطين أكثر مرونة واتساعا . ويوحى التعريف التاريخى الصهيونى والسياسة الاسرائيلية الحالية بان فلسطين تشمل المنطقة التى تقع على ضفتى نهر الأردن . ومن هنا ، فان القضية الاقليمية مازالت تشكل جوهر سياسة الرفض .

لقد كان ينظر الى كتاب جوان بيترز فى البداية بصورة جدية ـ بالرغم من ان أول عرض له فى مجلة « نيويورك تايمز » بوك ريفيو » (فى ١٣ مايو ١٩٨٤) والذى اعده جون كامبل اثار قضية « مصداقية » الكتاب دون ان يتخذ اى موقف تجاهه ـ وتساءل بعض الباحثين عن مدى صحة أحد المزاعم الرئيسية فيه ، وهى مسألة وجود الشعب الفلسطينى . وبالرغم من انهم انتقدوا طريقة تناول الكتابة للاحصائيات التى تشوه بعضها عن عمد واختلف بعضها الآخر بدون الرجوع الى الاحصائيات الرسمية الوحيدة عن فلسطين او الدراسات الأكاديمية الجادة عن هذه الاحصائيات ، فان الكثير من الباحثين لم يتعرضوا الى الصلة الوثيقة بين مزاعمها وبين الموقف التاريخى للحركة الصهيونية تجاه الشعب الفلسطينى . ولم يكن هناك فى الحقيقة اى شىء جديد فى مزاعم جوان بنترز سوى ابراز « بعض المعلومات القاسية » . وحتى اذا لم يكن امام المرء فرصة للاطلاع على التاريخ ، فان تصريح جولدا مائير فى عام ١٩٦٩ » بانه ليس هناك شىء اسمه الشعب الفلسطينى ، وانهم غير موجودين « كان يجب ان ينبه القراء الى أحد الثوابت فى سياسة الانكار الفلسطينية ـ الاسرائيلية . لقد كان تعداد سكان فلسطين فى أعقاب الدمار الذى خلفته الحرب العالمية الأولى يربو على ٧٠٠,٠٠٠ نسمة . وكان معظمهم من السكان المقيمين على اراضيهم ـ وكان الاستثناء يتمثل فى بعض اليهود الأوربيين الذين كان يقدر عددهم باقل من ٨٠,٠٠٠ نسمة(٩) . ولو لم تكن المناقشة الديموغرافية/السياسية الدائمة التى تميز القضية الفلسطينية موجودة أصلا ، لما كان هناك تساؤل جدى حول اصول أو حقوق الشعب الأصلى السياسية . ولكن تناول القضية وعرضها أساسا من وجهة النظر الاسرائيلية ـ الصهيونية قد اثرا حتما

وبشكل عكسى على التمعن فى هذه الأمور · وكان حاييم وايزمان هو أول من صاغ الموقف الصهيونى تجاه قضية الأرض والشعب . فقد ذكر فى مؤتمر صهيونى عقد فى باريس فى شهر ابريل من عام ١٩١٤ الملاحظة التالية « كان رواد الصهيونية فى مرحلتها الأولى يرون انها حركة تعتمد بالكامل على عوامل ميكانيكية بحتة : فهناك بلد يسمى فلسطين غير مأهول بالسكان ، ومن ناحية أخرى هناك شعب يهـودى بلا أرض . فما الذى يلزم اذن أكثر من تثبيت الجوهرة بالخاتم وتوحيد هذا الشعب مع هذه الأرض ؟ » واخـذ يوضح ان جهودهم انصبت على « شراء البـلاد من » « ملاكهـا الاتـراك » . وفى الوقت الذى أشـار فيـه وايزمان الى الصهاينة الاوائل ، فان البيـان الذى أدلت بـه جولدا مائـير فى عام ١٩٦٩ ، وكتـاب جوان بيترز يشـيران الى أن الصهاينة المعاصرين لا يملون من تكرار نفس المـزاعم . وقـد تمثـلت اهـداف الصورة التى تـم ويتم نقلهـا حتى الآن بشـكل واضح فى أن اقامة الدولة اليهوديـة بزرع مستوطنـين من اليهود الاوربيين عـلى الارض لن يكون على حسـاب سكان مقيمين عليهـا بالفعل . وقد ادرك تيودور هيرتزل ، الذى صاغ الصهيونية السياسية فى عـام ١٨٩٧ ، ان فلسـطين كـانت مأهولة بالسكان ، ولكنـه كان يعتقـد أن من شأن الاستيطان الصهيونى تحسين وضع هؤلاء السـكان . وكان هـذه النظرة شبيهة للغاية بموقف الاستعمار الاوربى الذى كان يـرى انه يخـدم الشعوب الافرو — آسيوية التى استعمرها ، وكان يعتقد انه من الضرورى التخلص من السـكان غير المرغوب فيهم بهدوء . ولذلك فانـه عنـدما واجه الصهاينة واقع وجود شعب آخر على الارض ، الصقوا اتهامات معينة بهؤلاء السـكان ، لتبرير اخضاعهم أو « ترحيلهم » . وحقيقـة الامر أن هـذه النقطة كانت النقطة الرئيسـية الثانية التى تبنتها الصهيونية فى محاولتهـا انكار وجود الشعب الفلسـطينى الذى كان يعارض بوضوح تطلعات الحركة الصهيونية .

وكان يشـار الى الفلسطينيين عادة على انهم عرب . وكان لهذا المصطلح آنذاك وفيما بعد دلالتان سلبيتان · كانت احداهما اكثر اعتدالا من الاخرى ، وهى انهم جزء من المنطقة العـربية المحيطة بهم ، والتى كانت توصف بأنها « متخلفة » وغـير متطورة « وغـير متحضرة » الخ . وكانت الدلالة الاخرى أقل كرما من الاولى وتتمثـل فى الاشـارة اليهم بأنهم بدو رحل · وفى كلتا الحالتين ، كان يسود الاعتقاد بأنهم سيستفيدون مـن الاسـتيطان اليهودى الذى اقترحه هيرتزل والذى استمر الصهاينـة فى التأكيـد عليـه فى كـل بياناتهم طوال فترة الانتـداب . ومع مرور الوقت ، أصبح التفاوت الملحوظ فى تأكيـد هـذين الزعمين هو الاساس الذى تـم بناء عليـه ابراز هجرة العرب من مناطق اخرى الى فلسطين .

وفيما يتعلق بالبعد الثالث — والمتمثل فى هوية السكان — فقد تم تجاهله تماما • ويتمثل هذا الانكار فى المصطلحات التى تستخدمها اسرائيل اليوم للاشارة الى سكان « يهودا والسامرة » وكأنه ليست لهؤلاء السكان أية هوية ثقافية أو قومية . ويبدو ان الصهاينة والبريطانيين بشكل محدود واسرائيل فيما بعد قد لجأوا متعمدين أو غير متعمدين الى مثل هذا الانكار من أجل القضاء على شرعية الشعب ولتسهيل مهمة تجريده من حقوقه السياسية . وهناك دليل هام على نجاح هذه الجهود المنظمة والهادفة الى انكار الهوية الفلسطينية — العربية للسكان المعنيين أو التقليل من أهميتها يتمثل فى حذف أية اشارة فى وعد بلفور الى الطابع القومى أو الثقافى لسكان فلسطين الذين ستعمل نصوصه على حماية حقوقهم المدنية والدينية . ومن جهة اخرى ، كان وعد بلفور يتسم بالتحديد والوضوح بخصوص الشعب اليهودى .

واعتقد هنا ان الصهاينة واسرائيل والادارة الاستعمارية البريطانية قد عملوا الى حد كبير ضد منح الفلسطينيين حق تقرير المصير لاسباب لا تختلف الا فى التفاصيل . ولكن العامل المشترك الذى كان يجمع بينهم هو اتفاقهم على تعريف سكان فلسطين بأنهم جزء من شعب آخر (هم العرب) . ففى حين أن بريطانيا كانت تزعم انها أوفت بوعودها للعرب بصفة عامة ، فقد كانت ترى أن الفلسطينيين يستطيعون حل مشكلتهم فى داخل الاطار العربى . وعندما كان وايزمان يفكر فى الفلسطينيين فانه كان يفكر فيهم على أنهم عرب ، وانه اذا كان لكل شعب وطن طبيعى فان فلسطين هى الوطن القومى لليهود ، وان وطن العرب يقع فى مناطق اخرى مثل دمشق وبغداد الخ ، وان الفلسطينيين ينتمون الى هذه المناطق وليس الى فلسطين .

وتكرر جوان بيترز هذا الزعم فى كتابها بشكل واضح ، وترجع الوجود الفلسطينى فى فلسطين الى العصور الحديثة ، وتفسره أساسا على أنه نتيجة للتحسن الذى طرأ على الارض بفضل المستوطنين اليهود ، ومن ثم « جاذبيتها » للمهاجرين العرب . وعندما تطور الصراع بين العرب الفلسطينيين واليهود الفلسطينيين ، فقد تم استخدام الهوية العربية للفلسطينيين كوسيلة للقضاء على حقوقهم السياسية ، عن طريق المقارنة بين القيم اليهودية والغربية والعربية . ففى حين استمر التأكيد على تخلف العرب ، تم اضفاء المزيد من الصفات السلبية عليهم ابتداء من نزعات معاداة الديمقراطية ، وحب السلطة ، والتعصب (سواء الدينى أو القومى) الى التعاون مع الفاشستيين والنازيين وانتهاء بمعاداة السامية . وبخصوص هذه القضايا فان كتاب جوان بيترز ليس الا آخر العروض التاريخية التى تقدمها الحركة الصهيونية . ويعتمد الكتاب أساسا على أولى الاعمال التى تناولت هذه القضايا مثل تلك

التى كتبهـا س . الروى ، واى . كيدورى ، وس . حاييم وبرنارد لويس ، بالاضافة الى بعض المناصرين الاقل شأنا .

وتظهر قراءة تاريخ الشعب الفلسطينى بشكل أقل سلبية صورة مختلفة تماما . فقد لاحظ مؤرخو الشرق الاوسط ــ الذين لا يحرصون كثيرا على خدمة المصالح السياسية للحركة الصهيونية ــ ان فلسطين ، بغض النظر عن مساحتها الجغرافية ، كانت وما تزال جزءا من المنطقة العربية وان غالبية سكانها من العرب من حيث الهوية الثقافية منذ القرن السابع الذى شهدت فيه كل المنطقة تحولات ثقافية ودينية هامة ــ كشعب أقام على الارض فى هذه المنطقة ذات الاهمية الدينية الواضحة بالنسبة لليهود والمسيحيين والمسلمين ، فانهم يمثلون خليط طبيعيا من العرقيات والتقاليد والتاريخ . وفى اطار المجتمع القومى العربى ، فان الفلسطينيين كانوا عربا ــ بغض النظر عن معتقداتهم الدينية ــ وشعبا له أرضه المحددة . وحيث ان الهوية الاقليمية ــ التى تستمد من الدولة الاقليمية ــ تعتبر ذات أصول حديثة للغاية ، فقد كانت الهوية الفلسطينية فى فترة ما قبل العصر الحديث ، مثل هوية باقى العرب ، تقوم على خلفيتهم الدينية والثقافية والجغرافية ــ فى المدن أو القرى أو القبيلة . ولذلك فانه عندما يجرى الحديث عن الهوية الاقليمية فانه يتم عادة ارتكاب خطأ تاريخى فادح من قبل الفلسطينيين ومعارضيهم لدى محاولتهم تبرير « حقهم » السياسى الحديث .

واذا كانت فلسطين قد استوعبت العديد من الشعوب الاخرى ، فان هذه الحقيقة تتساوى أيضا مع حقيقة انها كانت مكانا ينزح منه السكان . ومن المستحيل بالفعل أن نجد دولة عربية واحدة فى العصر الحديث لا تضم مواطنين لم ينزح اسلافهم من مناطق أخرى من العالم الاسلامى او العربى . فحقيقة أن منظمة السيطرة العثمانية كانت من الناحية النظرية والعملية منطقة تضم قوميات مختلفة ، مكنت شعب أى جزء من الامبراطورية العثمانية من التنقل الى أى جزء آخر لاغراض التجارة والتعليم والعمل الخ .

ولذلك فان احتواء فلسطين منذ الماضى وحتى الآن على عرب ومسلمين وغير عرب ليس أمرا استثنائيا وانما هو أمر نمطى فى المنطقة . ولو كانت هذه المنطقة قد عاشت منعزلة لكان ذلك أمرا غير طبيعى يحول دون التفاعل والهجرة والاستيطان البشرى العادى . ولم يكن بعض المصريين فقط هم الذين استوطنوا فى فلسطين بعد رحيل جيش ابراهيم باشا ــ كما لاحظ مؤرخو القرن التاسع عشر سواء من العرب أو غير العرب ــ وانما كان هناك آخرون ايضا استوطنوا فى فلسطين من سكان المنطقة التى تعرف الآن بلبنان وسوريا . وقد حدث العكس ايضا ، حيث استوطن

بعض الفلسطينيين فى مناطق مختلفة من الامبراطورية العثمانية ، ومن الممكن حتى الآن تمييزهم . وقد كان رئيس الوزراء اللبنانى الراحل ، السيد سامى الصلح يشير دائما فى سياق مناقشاته عن الوحدة العربية الى أنه ولد فى مدينة عكا الفلسطينية .

وقد لعبت الجغرافيا والتقاليد والتاريخ والسياسة دورها فى تشكيل الوعى الفلسطينى ، وفى تشكيل هوية فلسطينية ــ عربية متميزة . ومع ظهورها ، قامت معركة السيادة السياسية فى فلسطين بين العرب الفلسطينيين واليهود الصهاينة .

ورغبة منهم فى « اثبات » الاساس التاريخى للاستقلال الفلسطينى ، فان الفلسطينيين يشيرون عادة الى الجهود التى بذلها الزعيم الفلسطينى ظاهر العمر لانتزاع السيطرة على أكبر جزء من فلسطين من أيدى العثمانيين فى نهاية القرن الثامن عشر والحقيقة أن القوميين اللبنانيين يعزون دوافع مشابهة الى الشهابيين فى لبنان ، ويجد القوميون الاقليميون فى سائر أنحاء العالم العربى حوادث مشابهة . وليس هناك أى خلاف فى ان الامبراطورية العثمانية قد واجهت تحديات « اقليمية » جدية لسلطتها فى كل مكان تقريبا . ولكن القول بأن هذه التحديات كانت نابعة من « وعى قومى اقليمى » ليس الا أمراشائكا وغير واضح . ومن الامور التى ليس هناك أى خلاف عليها أيضا أن الثورة القومية العربية التى كانت موجهة ضد العثمانيين قبل وأثناء الحرب العالمية الاولى كان يقودها ائتلاف من زعماء عرب نشيطين من مناطق عربية مختلفة . وقد ظهرت أسماء بعض القادة الفلسطينيين فى قوائم الذين تم اعتقالهم أو شنقهم على يد القائد التركى جمال باشا أثناء الحرب العالمية الاولى . ومن الواضح انهم كانوا يناضلون من أجل استقلال العرب . وكان هذا النضال مغلفا بروح القومية العربية . واستمر ذلك الوعى القومى الشامل فى اشعال روح النضال السياسى ، ضد الاستعمار الاوربى اثناء الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وتمثل فيما بعد فى ظهور جامعة الدول العربية . وربما باستثناء مصر ، فان كافة حركات الاستقلال العربية اصبحت ترتكز على الاقليمية فقط فى أعقاب قيام الاستعمار الاوربى برسم الخريطة السياسية لمناطق المشرق العربى . وبهذا المعنى ، فان القومية الفلسطينية كحركة تطالب بحق تقرير المصير والاستقلال لفلسطين بذاتها ، يمكن ان تراجع أصولها الى فترة الانتداب البريطانى وما بعدها .

وهناك بعض الدراسات التى تتناول تطور القومية الفلسطينية فى فترة الانتداب ، ولكنها تتجنب الدخول فى تحليل مفصل لهذه الحركة القومية . ويكفى القول هنا بأن العديد من عوامل الوحدة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية قد انطلقت وتدعمت باطراد وادت فى مجملها الى اعطاء القومية

الفلسطينية طابعها الخاص . وقد قويت هذه العوامل نتيجة للعوامل الاخرى التى ميزت التجربة الفلسطينية فى فترة ما بعد التمزق الفلسطينى . ذلك ان التجربة الفلسطينية بكل ما بصحبها من سلب الاراضى ، والطرد والاحتلال والقهر ومحاولات القضاء على العرق تعد الآن تجربة قومية بحتة بحيث تشكل حافزا للفلسطينيين على تحقيق الاستقلال والسيادة ، شأنها شأن عوامل الوحدة القومية السابقة التى شكلت سياسة فترة الانتداب . ورغم ما قد يكون لهذه العوامل من أهمية ، فقد يكون من الاول ذات الاهمية الاكبر بالنسبة بالنسبة لموضوعنا المتعلق بسياسة الرفض ، هو كيفية مواجهة الفلسطينيين لمزاعم اسرائيل المتعلقة بالسيادة السياسية .

وبينما واجه الفلسطينيون سياسة الرفض الصهيونية من طريق الاقرار المحدود بأنه بمقدور اليهود العيش فى دولة فلسطينية عربية كأقلية ، فان الموقف الفلسطينى الذى تمت صياغته فى فترة ما بعد الستينات ، يظهر قدرا اكبر من هذا الاقرار . ولا يطرح أحد الآن قضية اعتراف الفلسطينيين بوجود الشعب اليهودى فى فلسطين — بالرغم من أن هذا الوجود غير شرعى . وقد دعا الفلسطينيون فى فترة ما بعد الستينات الى اقامة دولة علمانية ديمقراطية فى كل فلسطين بالرغم من صعوبة تحقيقها . ورأى الفلسطينيون أيضا أنه ليس من الممكن انهاء الوجود اليهودى فى فلسطين ، ومن ثم فان السؤال المطروح الآن هو كيف يتم التوفيق بين ذلك الوجود وبين وجود فلسطينى مساو للوجود اليهودى على نفس الأرض . وتستتبع الاجابة المبدئية الفلسطينية على هذا السؤال بالضرورة اقتسام السلطة السياسية فى كل فلسطين . وقد دفع رفض اليهود الاسرائيليين لهذه الصيغة ، الفلسطينيين الى تقديم بديل آخر . ومنذ عام ١٩٧٧ يطرح الفلسطينيون فكرة اقامة دولتين على نفس الأرض . احداهما عربية فلسطينية والاخرى يهودية اسرائيلية . وكان الدافع لهذين البديلين واضحا ، ومتمثلا فى وجود شعبين مختلفين — بغض النظر عن أصولهما وثقافتهما وهويتهما الدينية — على أرض فلسطين يسعيان الى تحقيق السيادة السياسية. ومن شأن سياسة الرفض التاريخية هذه انكار تطلعات احد هذين الشعبين ، فى حين انه من شأن سياسة الاقرار ، الوفاء بالمطالب القومية الاقليمية للطرفين . وفى اطار سياسة الاقرار المتبادل فقط يمكن حل الصراع التاريخى بين العربى الفلسطينى واليهودى الاسرائيلى .

وفى هذا الاطار فقط ، يمكن لكل طرف تقدير موقف الطرف الآخر .

هــوامش :

١ — جانيت . ل أبو لغد : « الحرب الديموغرافية حول فلسطين » فى الرابطة (نيويورك : الامريكيون من اجل فهم الشرق الاوسط) ، ديسمبر ١٩٨٦

٢ — انظر الاعمال التالية : أ . ابو لغد محرر : التحول فى فلســـطين (ايفانستون ، نورثويستيرن يونيفر ستى بريس ١٩٧٦ ، أروري : الاحتلال الاسرائيل فى فلسطين (بلمونت : برس ١٩٨٣) ، ح . كتان : فلسطين والقانون الدولى (لندن . لونجمان ١٩٧٤) ، مارك هيلير : دولة فلسطينية (كامبريدج ، الناشر جامعة هارفارد ١٩٧٤) ، ديفيد هيرست : البندقية وغصن الزيتون (لندن . فابير ١٩٧٩) ، أ . م . كيالى : فلسطين : التاريخ الحديث (لندن : كروم هيلم . ليس هناك تاريخ للنشر ، غالبا فى نهاية السبعينات) ، و.تى. ماليسون واس ماليسون : المشكلة الفلسطينية (لندن : لونجمــان ١٩٨٦) ، ادوارد . و . سعيد . المشكلة الفلسطينية (نيويورك : كتب التايمز ١٩٧٩) ، كريستوفر سايكس : مفترق الطرق الى اسرائيل ١٩١٧ — ١٩٤٨ (نيويورك : عالم النشر ١٩٦٥) .

٣ — المزيد عن الخلفية والمناقشة انظر جورج انطونيوس : اليقظة العربية (لندن . هاميشر هميلتون ١٩٣١) ، أ . ل . طيباوى : التاريخ الحديث لسوريا بما فيها لبنان وفلسطين (لندن . ماكميلان ١٩٦٩) ، وكتابة : العلاقات العربية — الانجليزية والمشكلة الفلسطينية (لندن . لوزاك ١٩٧٨) .

٤ — هذه الخريطة ضمن خرائط أخرى من كتاب بن هالبيرن : فكرة الدولة اليهودية (كامبريدج الناشر جامعة هارفارد ١٩٦١) ص ٢٧٨) . قارن بخريطة الانتداب المصدق عليها فى ص ٢٧٩ .

٥ — نجدتقرير صمويل فى كتاب : المنظمات الامريكية اليهودية واسرائيل للمؤلف لى ابرين (واشنطن . دى.س : اى بى اس ١٩٨٦) ، صرص .

٦ — استخدام هذا التعبير كعنوان لكتاب عاموس بيرلموتر : اسرائيل : الدولة المقسمة . نيويورك : شارلز سكريبنير سونس ١٩٨٥ .

٧ — تظهر سمات بن جوريون وشيرتوك فى مجلة العلاقات الخارجيـــة للولايات المتحدة الامريكية . المجلد الخامس (واشنطن دى س ١٩٧١) ص ١٢٥ وما بعدها . انظر رأى جابوتنسكى فى كتاب ارتر هيرتزبرج : الفكرة الصهيونية (نيويورك : كتب مريديان ١٩٥٥) ص ٥٦٢ .

٨ — كان نص البيانات موحدا . ولمزيد من التوضيح انظر النص الذى ظهر فى مجلة « نيويورك تايمز » عدد ٢٥ مارس ١٩٨٣ ، ومقالة وارين ديكى :

« الاردن بوصفه فلسطين » فى صحيفة « كريستيان ساينس مونيتور » الصادرة فى ٦ ابريل ١٩٨٣ والتى يقدم فيها بعض المعلومات عن ميول السيد ريتشـــارد جاكوين الذى حول هذه الاعلانات .

٩ ــ انظر تحليل جانيث ابو لغد : « التحول الديموغرافى » فى كتاب تحول فلسطين الذى اعده أ . أبو لغد . نفس الصفحه .

١٠ ــ انظر راى وايزمان فى كتاب هيرتزبرج : الفكـــرة الصهيونية . ص ٢٧٥ .

مقاومة الفــلاحين الفلسطينيين للصهيونية
قبل الحرب العالميــة الاولى

بقلم : رشيد الخالدى

(١)

من الامور البديهيــة أن المنتصرين هم الذين يكتبون التاريخ . وبالتالى فانه غالبا ما يكتب عن الاقوياء أكثر من الضعفاء . ويقوم المؤرخون عــادة بتسجيل وجهات نظر ومصالح من بمقــدورهم القراءة والكتابة أكـثر من آراء غــير المتعلمين . وقــد شـوهت هــذه النزعات التاريخية المتأصلة تاريخ فلســطين الحديث ، ان لــم يكن ذلك دائما بشكل متعمد . فعلى مدى العقود الاربعة المــاضية ضاعت أو فقدت العــديد من المصــادر المتعلقة بالتاريخ الفلســطينى او وضعت فى سجلات اسرائيل الرسمية التى لا يتــم السماح للمؤرخين الفلســطينيين والعرب بالاطلاع عليهــا ونتيجة لعــدم استقرار وضع الشعب الفلســطينى سـواء تحت الاحتلال أو فى الشتات ، فقــد حرمت مراكز السجلات والابحاث والجامعات الاخرى من فرصة الاستقرار والوجود المنظم والعمل فى هــدوء ، وهى شروط ضروريــة للقيــام بعملهــا عــلى اكمل وجه (١) .

ونتيجة لهذه الظروف فان الدراســات التاريخيــة الصحيحة التى يقوم بهــا الفلسطينيون قليلة . (٢) ولذلك معظم الكتابات التى تتناول التــاريخ الفلسطينى يقوم بها غير الفلسطينيين الذين تعوزهم غالبا معرفة المصــــادر الاصلية والاشخاص المعنيين بالامر ، والاطــار الاجتماعى والثقافى للســـياسة الفلسطينية . وبغض النظر عن اى تحيز قد يكون لدى مثل هؤلاء البـــاحثين الاجانب، فان هذا الوضع كان له أثر كبير على ماكتب وخاصةعلى المنظور الذى كتب منه . وفى الوقت الذى يعد فيه المنهج الذى يأخذ بوجهات نظر الاطراف المختلفة على قدر كبير من الاهمية حيث يمكن الباحث من التوصــل الى آراء جديدة ، الا أنه ليس هناك ما يمكن أن يغنى عن قيام الشعب المعنى بكتابة تاريخه . وحقيقــة الامر أن هذين المنهجين يمكن بل يجب أن يكمل أحـــدهما الاخر .

وقد أولت العــديد من الاعمال التى تناولت فلسطين اهتمــاما ببعض المصــادر والموضوعات أكبر بكثير من غيرها . وعلى سبيل المثال فان كتــاب يهوشع بن أريه وعنوانه « القدس فى القرن التاسع عشر : المدينة القديمة » يتناول فى الجزء الاكبر منه مسألة السكان العرب فى هذه المدينة ، ويعتقــد

بن أريه أن السكان العرب كانوا يمثلون الاغلبية فى معظم الفترة التى يغطيها) دون أن يستخدم أية مصادر عربية أو عثمانية (٣) . كما أن كتاب اسياح فريدمان « المسألة الفلسطينية ١٩١٤ — ١٩١٨ » وعنوانه الفرعى دراسة فى العلاقات البريطانية اليهودية العربية» ،يتناول الجانبين البريطانى واليهودى فقط دون أن يستخدم ايضا اية مصادر عربية أو عثمانية (٤) .

كذلك فانه عندما كان العرب هم الموضوع الرئيسى ، فقد كان التركيز ينصب على السكان المتعلمين والمقيمين فى المدن ، كما هى الحال فى معظم الاعمال القيمة التى تناولت التاريخ السياسى للفلسطينيين فى العشرينات والثلاثينيات والتى قام باعدادها يهوشع بورات ، وآن موسلى ليس التى تعتمد على مصادر عربية وصهيونية عربية (٥) أما فى الاعمال الاخرى فقد كانت تستخدم المصادر الصهيونية أكثر من المصادر العربية . وينطبق ذلك حتى على الدراسات الجادة والاصيلة التى تركز على وضع مثل كتاب « العرب والصهيونية قبل الحرب العالمية الاولى » والذى قام باعداده نيفل مانديل والذى يعتمد الى حد كبير على التقارير الصحفية المحفوظة فى السجلات الصهيونية المركزية أكثر من اعتماده على الصحف العربية ذاتها لدى تحليل الصحافة العربية (٦) .

وهناك بعض الاسباب التى تبرر جزئيا مثل هذا الضعف الظاهر فى منهجية البحث . وقد أشرنا من قبل الى أن السجلات الاسرائيلية والغربية تحتوى على مادة أكثر غزارة من المادة المتوفرة فى السجلات العربية . وفى حالات اخرى فلن توفر فرص الاطلاع على السجلات ومدى ملاءمتها قد حددت بصورة خاطئة طبيعة المصادر التى تم استخدامها . وفضلا عن ذلك ، فانه من الممكن توقع أن يكون السكان العرب المقيمين فى المدن ، والذين كانوا أعلى صوتا وأكثر نشاطا من الناحية السياسية وأكثر من تشير اليهم السجلات المكتوبة،هم أكثر من يحظون باهتمام الدراسات المتمعنة والمكثفة. واخيرا ، فان سكان الريف كانوا من الفقراء وغير المتعلمين ، ولم تكن هناك فرصة للتحدث معهم . ومن ثم فان هناك سجلات قليلة للغاية تتناول أوضاعهم .

غير أنه عند النظر الى قضايا مثل بيع الاراضى ، وطرد الفلاحين ومقاومتهم وتأثير الاستيطان الصهيونى على غالبية السكان الفلسطينيين المقيمين فى الريف فان بعض هذه التبريرات تعتبر واهية . ففى الوقت الذى تشكل فيه السجلات البريطانية والصهيونية مصادر رئيسية لاى تحليل ، وفى الوقت الذى يجب فيه توجيه الاهتمام الى الصحف ونشاط الاعيان العرب المقيمين فى المدن ، فانه لابد من ان يكون ما حدث فى القرى محل الاهتمام الاكبر . ومن الممكن القيام بهذا الامر عن طريق استخدام مصادر غير تقليدية كما فعل يعقوب فيرستون فى عمله الرائد الذى استخدم فيه

مادة ليست مستقاة من السجلات الرسمية . (٧) ، او عن طريق استخدام هذه السجلات مع اهتمام خاص بالمناطق الريفية ، كما فعلت يـلانا ميلر فى كتابها « الحكومة والمجتمع فى الريف الفلسطينى ١٩٢٠ ـــ ١٩٤٨ » (٨) .

ان مثل هذا المنهج حيوى فى أى عمل يتطرق الى قضايا الديموغرافية والأرض والفلاحين فى فلسطين . ولا شك انه ليس هناك أى اثر لهذا المنهج فى كتاب « منذ قديم الازل » للكاتبة جوان بيترز والذى يصدر احكاما عامة وقاطعة فى كل هذه المجالات . ان كتابا يعتمد على الاستخدام الانتقائى والمتميز للمصادر ويتسم بتشويه المراجع ونسبة آراء الآخرين اليه بالاضافة الى استخدام وسائل لا تمت للبحث بصلة ، لا يستحق الذكر . ولكننا نذكر هذا الكتاب لأن بعض الكتاب البارزين امتدحوه ولان بعض الباحثين الذين ساعدوا المؤلفة لم يعلنوا تبراهم منه ، ولان بعض الدوريات المحترمة فشلت فى كشف ابعاد هذه الفضيحة(٩) .

وليس هناك اى استخدام لمثل هذا المنهج فى أعمال اكثر جدية تتناول نفس الموضوعات التى تطرقت اليها بيترز . وعلى سبيل المثال ، فان كتاب اريه افنيرى « ادعاء الطرد » وعنوانه الفرعى الاستيطان اليهودى والعرب ١٨٧٨ ـــ ١٩٤٨ « يهدف الى اظهار انه لم يتم طرد الفلسطينيين لانه لم يكن هناك بالفعل أى فلسطينيين بالمعنى الشائع للكلمة . ويؤكد على ان أغلب السكان العرب دخلوا فلسطين فى العصر الحديث . واذا كان هذا الكتاب يتميز بمزيد من الترابط بالمقارنة بكتاب بيترز فان افنيرى يعتمد فيه على المصادر الغربية والعبرية ، ويستبعد اى استخدام للمصادر العربية أو العثمانية(١٠) . ولا يعرب المؤلف فى كتابه الذى يقدر حجمه بثلاثمائة صفحة عن احترامه أو تقديره للسكان المحليين او للسلطة السائدة هناك حتى عام ١٩١٨ . ولا يستشهد المؤلف بأى مصدر من جانب السكان او المسئولين عن السلطة ويلاحظ فى أمثال بيترز وافنيرى ان المجتمع الذى تدور الدراسة حوله يتم النظر اليه كمفعول به أكثر من النظر اليه كفاعل فى التاريخ ، حيث يمكن ان يصفه الاخرون ولكنه لا يستطيع ان يصف نفسه .

وقد دحضت تأكيدات هؤلاء المجادلين من جانب باحثين مثل بورات واليكسندر سكولخى اللذين درسا المجتمع الفلسطينى بعناية واستخدما فى الدراسة مادة عربية وتركية ومصادر غربية وصهيونية . (١١) ومن الممكن الدفاع عن اراء أمثال بيترز وافنيرى فقط من المنظور الذى ينكر صحة مصادر المجتمع الذى تتم دراسته . وعلى حد قول ادوارد سعيد ان مثل هؤلاء الكتاب يعتقدون انه ليس من حق الفلسطينيين رواية تاريخهم (١٢) ، وهو امر من منظور هؤلاء الكتاب منطقى للغاية لانه لا يعترف بوجود الفلسطينيين !

وفى الوقت الـذى يعـد فيه من المستحيل سرد أدق تفاصيـل ما حدث فى الريف الفلسطينى قبـل عـام ١٩١٤ ، فـان هـذا المقـال محـاولة لاعـادة تركيب بعض التفاعـلات المعنيـة عن طـريق استخـدام مصـادر مختلفة بهدف تقديم منظور لا يتم استخدامه فى أغلب الاحيان .

ترى احـدى وجهـات النظر السـائدة ان وعى العـالم العـربى بالصهيونية بـدأ فقط اثناء نهاية فترة الانتداب . ومنذ ذلك الحـين قـوى العـديد من الدعاة وعى الناس بالصهيونية للعديد من الاسـباب . وليس لوجهة النظر هذه أى أساس من الصحة . وحقيقة الأمر أن مثل هذا الوعى ترجع جـذوره الى فترة سابقة كما يتضح من خلال أية دراسـة متأنية للمجتمع العـربى وسياسته قبل الحرب العالمية الأولى . اذ انه خـلال تلك الفتـرة كـانت الصهيونية هى موضع اهتمام التعليقات الصـحفية والمناقشـات الشـعبيه فى كافة ارجاء المقاطعات العربية التابعة للامبراطورية العثمانية ، وفى مصر . ومن ثم أصبحت الصـهيونية تشـكل قضـية رئيسية فى السـياسة المحليـة والعثمانية (١٣) .

وقد أوضحت عدة دراسات مدى المعارضة التى كانت بداخل فلسـطين تجاه الهجرة الصهيونية قبل عام ١٩١٤ . (١٤) غير أنه لم يهتم احـد كثـيرا بتأثير التطورات التى كانت تشهدها فلسطين خلال هذه الفترة على تفكـير الصفوة فى سوريا ومصر والبلدان العـربية الاخـرى الخاضـعة للحكـم العثمانى . وكانت هذه الفترة تشـهد ظهـور فكـرة العـروبة والقوميـة العربية وتطورها الى حركة سياسية فعالة .

وفى أعقاب اعـادة فرض الدستور العثمـانى فى عام ١٩٠٨ ، ازدهر النشاط السياسى والفكرى والصحفى فى كل أرجاء الامبراطورية بعد عـدة عقود من سيطرة ديكتاتورية السلطان عبد الحميد . واستمر هـذا الوضـع الليبرالى نسـبيا حتى عام ١٩١٤ . وقد شهدت هذه الفترة توسعا كبـيرا فى الصحافة العربية فى كل المنطقة . وتزايـد نشـاط الاحزاب السـياسية والجمعيات السرية ، بالاضافة الى عدة تطورات فكرية هامة اخـرى . وفى نفس الفترة التى شهدت بداية قرن جديد ، كان عرب فلسطين يروعهم تأثير الاستيطان الصهيونى المتزايد بسبب تزايد اضطهاد يهود شرق أوروبا الـذى دفع بالعديد من المهاجرين الجدد الى فلسطين فى موجـة الهجـرة الثانية . وكان القادمون الجدد أكثر تشبعا بالصـهيونية السياسـية من المستوطنين اليهود الاوائل واكثر تصـميما على اقامة مجتمع يهودى جـديد وخالص فى فلسـطين .

وكان رد الفعل الفلسطينى قويا تجاه تزايد النشـاط الصهيونى خـلال الفترة الواقعة بين أعوام ١٩٠٨ — ١٩١٤ . فقد كانت هذه هى المرة الأولى

التى يدرك فيها الكثير من العرب ان الصهيونية كانت تهدف اساسا الى اقامة دولة يهودية مكان الدولة العربية . وقد أدى تزايد شراء الاراضى فى الريف واستخدام العمال اليهود فى الاراضى اليهودية بدلا من العمال العرب الى غضب العديد من الفلاحين . « وتساعد حدة ردود الانفعال هذه على تفسير الدور الذى لعبته القضية الفلسطينية فى السياسة العربية » آنذاك وفيما بعد ذلك . وبينما كان التعبير عن رد فعل المثقفين الفلسطينيين الذين ينتمون الى الطبقة العليا يجرى فى الصحافة ، وفى البرلمان العثمانى ، وفى أماكن أخرى ، مما أثر على تفكير البلدان العربية الآخرى ، فقد كان من الواضح ان اصول مخاوفهم من الصهيونية كانت تكمن فى تجربة هؤلاء الفلاحين الذين كانوا اول من دخلوا فى صدام مع المستوطنين الصهاينة .

وكما اوضح كل من اوين ويساوى فان التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى طرأت على الاراضى الواقعة شرقى البحر الابيض المتوسط كانت سرعتها تتزايد فى نهاية القرن التاسع عشر(١٥). وقد تغيرت القرن التاسع عشر فى عام ١٩٠٨ .وتغيرت بشكلأكثر حدة فى عام١٩١٤ .وكان سبب الكثير من هذهالتغيرات يكمن فى النزعة الهادفة الى اضفاء طابع الملكية الخاصة على الاراضى ، وتركيز الملكية فى ايدى القليل من الملاك فى أعقاب صدور قانون الاراضى العثمانى فى عام ١٨٥٨ . وقد تم ادخال هذا القانون الى حيز التنفيذ فى سوريا وفلسطين ببطء شديد وعلى مدى عقود من الزمن . وتطلب هذا القانون تسجيل اسماء ملاك الاراضى الزراعية التى لم يتم ابدا تسجيلها من قبل ، والتى كان يتم التعامل فيها وفقا للاشكال التقليدية المتبعة بخصوص ملكية الاراضى الواقعة فى المناطق المرتفعة فى فلسطين وخاصة الاراضى المشاع او غير المستخدمة . وكان هذا القانون يعنى للمرة الاولى انه لليس من الممكن فقط حرمان الفلاح من ملكيته للارض التى لم يتمتع بها الا فى القليل النادر وانما حرمانه ايضا من حق الاقامة عليها وزراعتها ونقل ملكيتها لورثته ، وهو امر لم يكن محل نزاع فى الماضى فى حالة دفع الضرائب بشكل منتظم .

ووفقا لبنود قانون عام ١٨٥٨ ، فقد تم تجاهل حقوق البعض فى ملكية الاراضى ، خاصة وان العديد من الفلاحين الذين كانت ملكيتهم متوارثة منذ زمن طويل لم يسجلوا اراضيهم خوفا من الضرائب ومن الاجراءات الحكومية الاخرى مثل التجنيد. وبدلا من هؤلاء قامبعض الذين ينتمونالى الطبقة العليا والمتمرسين فى التحايل على الاجراءات القانونية بتسجيل مساحات كبيرة من الاراضى على انها ملك لهم . وفيما يتعلق بالاراضى فى فلسطين ، فان اكبر المنتفعين كانوا من تجار المدن الساحلية مثل بيروت ويافا وحيفا . وقد جاءت ثروتهم الجديدة نتيجة لضم المنطقة الى عجلة الاقتصاد العالمى ، واقامة وسائل مواصلات جديدة ، ونمو التجارة والانتاج الزراعى المرتبط بتحسن الوضع الامنى فى الريف فى فترة السبعينات والثمانينات من القرن التاسع عشر . وفى الوقت الذى حدث فيه

هذا التحرك الاجتماعى والاقتصادى ، حدثت نهضة ثقافية وتعليمية ولغوية فى بلاد الشام (أى سوريا وفلسطين ولبنان) التى كانت وثيقة الصلة بنشأة العروبة والفكر القومى العربى . وكانت نهضة الصحافة اساسية لحركة الاحياء هذه ولظهور انماط جديدة من التفكير التى صاحبتها . وبالرغم من ان الصحافة كانت تتعرض للرقابة التى فرضها السلطان عبد الحميد فى السنوات اللاحقة لعام ١٨٧٨ فقد ازدهرت الصحافة التى كان يصدرها افراد من هذه المنطقة فى القاهرة . وقد تزايد عدد الصحف والمجلات العربية والدوريات الفنية والعلمية المنشورة فى القاهرة والتى كان يصدرها مثل هؤلاء الكتاب ، ومكنت العالم العربى من الوقوف على احدث الأفكار الأوروبية وآخر افكار حركة الاصلاح الاسلامية واولى ومضات القومية المصرية والعربية والعديد من التيارات الفكرية الأخرى . وانتقلت بلاد الشام والعديد من المناطق التابعة للأمبراطورية العثمانية فى اعقاب عام ١٩٠٨ من حكم الفرد المطلق الى نظام الديمقراطية البرلمانية الذى اتاح قدرا معقولا من التعبير عن حرية الراى . وبعد مرور سنة واحدة على اعادة فرض الدستور ، انشئت ٣٠ صحيفة جديدة فى مدن هذه المنطقة وانشئت فى فلسطين ٨ صحف و ٢١ دورية ازدهرت بين اعوام ١٩٠٨ و ١٩١٤م عدا عشرات المطبوعات الأخرى التى لم تدم طويلا(١٧) .

وفيما يتعلق بعدد المدارس ومعدل محو الأمية فان النسبة كانت ترتفع ايضا ، بالرغم من بطئها ، فى سوريا وغيرها من مناطق الامبراطورية العثمانية . وترجع بعض اسباب هذا الأمر الى التوسع الملحوظ فى شبكة المدارس التبشيرية التى كانت القوى الكبرى تدعمها وتمولها . ومع حلول عام ١٩١٤ كان هناك ما يقرب من ثمانين الف طالب فى المدارس الفرنسية والروسية فى سوريا وفلسطين . وكان هذا الأمر ناجما ايضا عن الجهود التى بذلتها الحكومة والسكان المحليين بهدف فتح مدارس جديدة فى عهد السلطان عبد الحميد واثناء العهد الدستورى . ومع نشوب الحرب العالمية الأولى كانت هناك ٢٢١ مدرسة رسمية لكل المستويات فى ولاية بيروت التى كانت تضم مناطق نابلس وعكا بشمال فلسطين ومناطق بيروت وطرابلس واللاذقية . ووفقا للتقديرات العثمانية فى عام ١٩١٤ كانت هناك ٩٨ مدرسة حكومية و ٣٧٩ مدرسة خاصة اسلامية(١٨) .

ويمكننا القول بانه على اساس هذه المعدلات الخاصة بنمو الصحافة وانتشار التعليم ، فانه فى الوقت الذى كان فيه المجتمع الذى استوطن فيه اليهود مع نهاية القرن مايزال متخلفا الا انه لم يكن راكدا . وكان المجتمع يشهد فى هذه الفترة العديد من التغيرات ، وبدأ فى اكتساب الشعور بالوعى بذاته . وكانت معظم هذه المتغيرات ، واوضح ردود الفعل للاستيطان الصهيونى تسود فى اوساط اعيان المدن والطبقة المتوسطة الصغيرة والمتزايدة . وعلى اية

حال ، فلقـد طرأت بعض التغيـرات أيضا فى أوساط الفلاحين الذين كانوا يشكلون غالبية السكان . ويزعم بعض الباحثين انه « من الناحية العملية فانه لم يكن هناك اى وجود سياسى أو اجتماعى أو ثقافى للجماهير(١٩) ، « وان ردود الانفعال تجاه الصهيونية كانت تسود بشكل بارز فى أوساط الصـفوة السياسية العربية ، ولكن لم تكن هناك اية ردود انفعال فى أوساط جماهير الفلاحين على قدر كبير من الاهمية(٢٠) » . وعلى عكس وجهات النظر هذه يمكننا القول بان رد فعل الفلاحين كان رئيسيا فى مواجهة الاستعمار الصهيونى فى فلسطين .

وبالرغم من ان معظم الفلاحين كانوا من غير المتعلمين ، فقد كانوا مدركين لطبيعـة الاحداث التى تقـع فى مناطقهم وربما فى المناطق البعيدة عنهـم . اذ من المؤكد انهم لاحظوا عمليات بيع الأراضى ونقل الملكية التى كانت تتضمن ابعاد المزارعين العرب التقليديين لصلحة المهاجرين الجدد . ولأن الفلاحين كانوا من غير المتعلمين ، فقد كان لابد من قيام آخرين بتدوين ردود أفعالهم ولذلك فانه ليس لدينا سوى مصادر قليلة تحتوى على ردود افعال الفلاحين بشـكل مباشر ، باستثناء ردود أفعالهم التى ذكرها سكان المدن المتعلمين الذين نادرا ماكانوا يتلقون ردود الانفعال هذه بشكل مباشر أو عن طريق الانتفاضات العنيفة التى كان يقوم الفلاحون بها ضد المستعمرين اليهود . ومن خلال دراسـة كلا المجموعتين من ردود الافعال والعلاقة بينهما تتضح لنا الاسباب والكيفية التى جعلت الاحداث ، التى وقعت فى فلسطين ، تثير اهتماما واسع النطاق فى باقى ارجاء العالم العربى .

ليست هناك أية ارقام دقيقة عن تعداد السكان اليهود فى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى ، ووفقا لبعض الدراسات التى اعتمدت على مصـادر صهيونية يتضح ان تعداد السكان اليهود كان يتراوح بين ٨٠ر٠٠٠ و ٨٥ر٠٠٠ نسمة من الاجمالى العام للسكان الذى كان يقـدر بـ ٧٠٠ر٠٠٠ نسمة(٢١) . ووفقا لنفس المصادر كان معظم اليهود الفلسطينيين يعيشون قبل عام ١٩١٤ فى المدن والضواحى ولم يكن يعيش سوى نحـو ١٢ر٠٠٠ فقط على الأرض ، ويقيمون كلهم تقريبا فى حوالى ٤٤ مستوطنة زراعية اقيمت منذ عام ١٨٧٨ .

وعلى اية حال ، فان اهتمامنا هنا ينحصر فى هذه الأقلية اليهودية التى كانت تعيش فى الريف . وترجع أسباب اهتمامنا بهذه الأقلية الى انهـا كانت تختلف أولا عن معظم الغالبية اليهودية التى كانت تقيم فى مدن فلسطين فى هذه الفترة والتى كانت اهتماماتها دينية وغير سياسية بصفة عامة ، فى حين انه كانت لدى معظم هؤلاء المقيمين فى الريف أهداف سياسية واضحة . ويكمن السبب الثانى لاهتمامنا فى انهم كانوا على علاقة وثيقـة بغالبية سكان فلسطين العرب ، وهم الفلاحون . وقد حدث ذلك بشكل طبيعى ومن الممكن معرفة اسبابه من

خلال النظر الى اية خريطة توضح موقع أولى المستوطنات اليهودية(٢٢) حيث كانت تقع فى الأراضى الخصبة الواقعة فى منطقة السهل الساحلى وشرق الجليل او فى منطقة مرج بن عامر (سهل جرزيل) وفى الوادى الممتد من جنوب شرق حيفا حتى بيسان . وكانت هذه المناطق مكتظة نسبيا بالسكان العرب وان كان بشكل أقل من المناطق المرتفعة .

ولابد من شرح الوضع فى مناطق الأراضى المنخفضة التى حدث فيها أول صدام بين العرب واليهود . ومن المعروف ان تربة السهل الساحلى الرملية التى تعد أرضا مثالية لزراعة الموالح وتصديرها توسعت بسرعة فى العقود السابقة لعام ١٩١٤ وجذبت الكثير من العمال الى هذه المناطق التى لم تكن مأهولة من قبل . وفى غضون هذه الفترة ازداد عدد السكان فى باقى مناطق الارض المنخفضة فى الجليل فى أعقاب فترة الستينات من القرن التاسع عشر . وكانت فى هذه الزيادة حماية لهم من استيلاء ونهب البدو لأراضيهم . وقد اتاح ذلك للقرى الأكثر استقرارا والواقعة على المرتفعات التوسع فى الزراعة بالوديان . ولاحظ ذلك تجار المدن الأغنياء الذى عملوا على فرض سيطرتهم على مساحات كبيرة من هذه الأراضى الخصبة وتوطين مزارعين عرب جدد فيها . وبدأ المستوطنون الصهاينة فيما بعد فى الاتجاه نحو هذه المناطق .

ومع حلول عام ١٩١٤ كان عرب فلسطين الذين كان يربو عددهم على ٦٠٠ر٠٠٠ نسمة ينتشرون بصورة متفاوتة الكثافة فى كل انحاء البلاد سواء فى المناطق المرتفعة أو فى الوديان(٢٣) . ولذلك فانه منذ أولى مراحل الاستيطان الصهيونى ، كانت الخطوات المصاحبة لاقامة مستعمرة يهودية جديدة — والمتمثلة فى شراء الأراضى من الملاك غير المقيمين فى الأرض وطرد المزارعين المستأجرين وتوطين المهاجرين اليهود — تؤدى غالبا الى حدوث العديد من المواجهات مع السكان المحليين .

ولقد كانت هناك استثناءات لهذا النمط عندما كانت بعض الأراضى غير مأهولة بالسكان أو غير مزروعة (وفى مثل هذه الحالات كانت الأراضى تستخدم لاغراض الرعى وكان السكان كارهين للتنازل عنها) . ولكن كانت معظم الاراضى التى تم شراؤها قبل الحرب العالمية الأولى وخاصة مع بداية هذا القرن أراضى خصبة وبالتالى كانت مأهولة بالسكان . وقد تم طرد الفلاحين ، الذين كانت لهم حقوق ملكية تقليدية ، من اراضيهم أثناء فترة الاستيطان اليهودى . وطبيعى ان الفلاحين كانوا يعتبرون هذه الأرض ملكا لهم ولكنهم كانوا يكتشفون فى الغالب انهم لم يعودوا الملاك الشرعيين لها عندما يتم بيعها لليهود من قبل أصحابها غير المقيمين فى فلسطين والذين كانوا قد حصلوا عليها فى العقود التى أعقبت تنفيذ قانون الأرض الصادر فى عام ١٩٥٨ .

ومن الممكن توضيح هذا التطور باجراء مناقشة مستفيضة لحالتين متعلقتين بشراء الاراضي في منطقة طبرية في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٠١ و ١٩٠٢ (والتي كان لها نتائج دموية في عام ١٩٠٩) وفي عفولة في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٠ و ١٩١١ وبالاشارة الى بتاح تكفا في عام ١٨٨٦ التي لخص مانديل الوضع فيها . وفي حادثة بتاح تكفا تدخلت القوات العثمانية لفض الصدام الذي حدث هنك واعتقلت العديد من الفلاحين . وفي أثناء الشجار قتل مستوطن يهودي واصيب آخرون على يد الفلاحين الذين ثاروا لدى علمهم بأن الارض التي اعتبروها لهم قد تم بيعها للمستعمرة في أعقاب رهنهم لها للمرابين وللسلطات المحلية . والاكثر من ذلك ، ان السلطات المحلية « باعت لليهود أراضي أكثر من التي كان من حقها بيعها » . وكما يوضح تقرير مانديل ، فانه بعد مرور بضع سنوات من بيع الاراضي اكتشف بعض الفلاحين للمرة الاولى حقيقة انهم لم يعودوا ملاكا للارض(٢٤) .

ويؤكد ما حدث في بتاح تكفا في عام ١٨٨٦ النمط الذي تعود أصوله الى أولى سنوات الاستعمار اليهودي في فلسطين . ويذكر مانديل اربع حوادث مشابهة في نفس الفترة كانت تدور حول خلافات على الملكية . ووصلت هذ الخلافات الى الذروه مع المستوطنين في جديرا الذي جرى ازعاجهم على مدى عده سنوات منذ عام ١٨٨٤ . وفي الغاره التي شنت على رحوفوت في عام ١٨٩٢ والشبيهة بالهجوم الذي شن على بتاح تكفا ، وفي الخلافات الطويلة حول الملكية التي دارت في نيس تسيونا وفي هديره . ويلاحظ مانديل ان عداء العرب في معظم هذه الحالات كان يخمد عندما كان بمقدور الفلاحين استئجار بعض أراضيهم أو الحصول على العمل بشكل دائم أو في بعض المواسم في أجزاء أخرى من أملاكهم السابقة .

ولقد كان مستوطنو موجة الهجرة اليهودية الاولى عمليين وغير ايديولوجيين ، ولذلك فانهم كانوا يعاملون الفلاحين بشكل يختلف بعض الشيء عن أصحاب الارض السابقين من العرب ، ولم يعملوا على تجريدهم بالكامل من ممتلكاتهم . وتغير هذا الوضع بالكامل مع بدء موجة الهجرة الثانية في بدايات القرن العشرين ، اي مع ظهور فكرة « غزو العمل » والتي كانت تعني احلال العمال العرب بعمال يهود ومع ظهور شكل جديد وخاص من أشكال الاحتلال (٢٥) .

وتعتبر أحداث القرن العشرين التي وقعت في منطقة طبرية وفي عفولة خاصة على قدر كبير من الاهمية حيث كان لها فيما بعد تأثير كبير في نطاق السياسة القومية العثمانية والعرب . اضف الى ذلك انهما تعتبر المره الاولى التي كانت فيها مسألة احلال العرب باليهود مصدرا للمصادمات . وكان هذان الحادثان غير عاديين من حيث انهما تحولا الى موضوع

نقاش رئيسي ، والى مصدر خطير للاضطرابات في ذلك الوقت . كما انهما من الحوادث القليلة التي لدينا بيانات كافية عنهما . ومن ثم فانهما يوضحان نمط معارضة الفلاحين للاستعمار كما في حادث بتاح تكفا والاحداث الاربعة الاخرى التي وقعت في القرن التاسع عشر وكما سيتضح فيما بعد من بعض الارقام الخاصة بشراء الصهاينة للاراضي قبل عام ١٩١٤ .

وبالرغم من انه جرى الترويج للكثير من الاكاذيب التي ذكرتها بيترز بهدف اثبات ان فلسطين كانت ارضا خالية من السكان وغير ماهولة قبل الاستيطان الصهيوني ، فقد كان هناك قليل من الشك يساور نفوس أوائل المستوطنين والمسئولين عن شراء الاراضي للاستيطان اليهودي بأن الوضع ليس على ذلك النحو . فقد كتب الكاتب اليهودي الشهير احاد هعام في عام ١٨٩١ يقول :

لقد اعتدنا في الخارج على الاعتقاد بأن أرض اسرائيل خالية تقريبا من السكان وانها مجرد صحراء غير مزروعة ، وان كل من يرغب في شراء ارض ، يستطيع الذهاب الى هناك وشراء أية مساحة يرغب في شرائها . ولكن هذا الامر غير صحيح في واقع الامر . اذ انه من الصعوبة بمكان ان يجد امرء هناك ارضا غير مزروعة . فليس هناك سوى تلال رملية وجبال صخرية لا تصلح لزراعة أي شيء سوى أشجار الفواكه ، ويتطلب الامر جهدا شاقا وأموالا طائلة لاستصلاح هذه الاراضي غير المزروعة(٢٦) .

فليس هناك سوى تلال رملية وجبال صخرية لا تصلح لزراعة أي شيء سوى اشجار الفواكه ، ويتطلب الامر جهدا شاقا وأموالا طائلة لاستصلاح هذه الاراضي غير المزروعة (٢٦) .

وكنتيجة حتمية لهذا الوضع فقد فكر الدكتور ارثر روبين خبير الاراضي الاول في الوكالة اليهودية في الاجراءات الواجب اتخاذها بشأن الاراضي التي يزرعها العرب ويطمع فيها الصهاينة . وكتب روبين في عام ١٩٣٠ ، أي عندما كان قد تم تثبيت مبدأ « غزو العمل » في الفكر الصهيوني وما صحب ذلك من عدم الاكتفاء بسلب الاراضي من المزارعين عن طريق شرائها وتمكين ملاك ومديري الارض اليهود من الاشراف على الفلاحين العرب ، وانما ايضا بطردهم لاحلال المزارعين اليهود محلهم ، كتب يقول : « ان الارض ضرورة قصوى لتثبيت جذورها في فلسطين . ولانه ليست هناك تقريبا أية اراضي خصبة غير مزروعة في فلسطين فانه يتعين علينا عند القيام بشراء الاراضي واستيطانها طرد الفلاحين الذين يزرعون الارض ، سواء كانوا ملاكا أو مستأجرين » (٢٧) .

وقد تم تنفيذ اجراء « طـرد » الملاك بسهولة ، نتيجة لتراكم مساحات كبيرة من الاراضي الخصبة في أيدي عدد قليـل نسـبيا من تجار وأعيـان المدن في أعقاب تنفيذ قانون الاراضي الصـادر في عام ١٨٥٨ . أما وضـع الفلاحين فكان مختلفا عن وضع المـلاك . اذ لم يكن من السـهل انتغلب على مقاومة الفلاحين لطردهم واقتـلاع جذورهم من الاراضي التي عملوا فيهـا وعمـل فيهـا اسلافهم . طوال اجيـال عـديدة ، واعتقد الفلاحون ان نقل الملكية بشكل رسمي وشرعي لا يعني حرمانهم من حقوقهم المطلقة في الانتفـاع بالارض . ولم تكن مثل تلك الاجـراءات الشرعية او التعويضـات التي كان يتم تقديمها عادة مقنعة للفلاحين .

وقد كان الفلاحـون يقبلون في بعض الاحيـان التعويض من الجهـات المسئولة عن الاستيطان اليهودي شـعورا منهم بانه ليس بمقدورهم الوقوف في مواجهة ملاك الاراضي الجـدد ومؤيديهم . ولكن في أحيـان أخرى كان الفلاحون يقاومون عمليات طردهم ، وكان العنف يصاحب هـذه المقاومة في بعض الاحيـان . وقد كان من الضروري للمشترين في مثل هذه الحـالات الاعتماد على سلطة الدولة سواء كانت الامبراطورية العثمانية أو سـلطات الانتـداب البريطاني في مرحلة لاحقة لتمكينهم من السيطرة على الارض . وفي كلتا الحالتين كان الشعور بالمـرارة يكمن في النفوس ويتم التعبير عنـه عادة بأعمـال العنف ضد المستوطنات الجـديدة .

وعندما حاولت وكالة الاستيطان اليهودي في الفترة الواقعة بـين عـامي ١٩٠١ — ١٩٠٢ طرد الفلاحين الذين كانوا يزرعون الارض في مساحة تقـدر بحوالي ٧٠,٠٠٠ دونم في منطقة طبرية (وكانت هذه هي اكبر مساحة يتم بيعها للاستيطان اليهودي في الجليل حتى ذلك الحين) توبلت هذه المحاولة بمقـاومة عنيفة من قبل السكان العرب في قرى الشجرة ، وميشا وملحمية ، الذين كانوا سيطردون من الارض بعد شرائها . وقد تم بالفعل شراء ما يربو على ٦٠,٠٠٠ دونم من هذه الارض من عائلة سرسق التي كانت من العائلات الكبيرة في بيروت ، ومن عائلة تويني وعائلة مدور الذين كانوا من رجال الاعمال . وتم شراء ما يقرب من ٧٠٠ دونم من بعض اصحاب الارض المحليين ، و ٣,٠٠٠ دونم من الفلاحين انفسهم (٢٨) .

ووفقا لرواية هـ.م. كالفاريسكي ، احد مسئولي وكالة الاستيطان اليهودي ، عن هذا الحادث فان الفلاحين لم يكتفوا برفض ترك اراضيهم وانما قاموا « باطلاق الرصاص على السيد اوزوفيستكي مندوب الوكالة الذي عقد الصفقة ، وتـم استدعاء قوات البوليس التي اعتقلت العديد من مستأجري الارض وأودعتهم السجن » . وعن طريق تدخل السلطات بالقوة ، تم الاستيلاء على الاراضي التي كان يزرعها سكان القرى الثلاث ، وتم منعهم من زراعتها . وخـلال السنوات

الثلاث التالية اقيمت مستوطنات زراعية يهودية على هذه الاراضى . وهـذه المستوطنات هي سيجيرا وكفر تافور ، ويافنيل ، ومناحاميا وبيب جان (٢٩) .

وبالرغم من انه كان هناك صراع دائم بين ملاك الاراضى الجدد وبين سكان الارض التقليديين ، فقد كانت السلطات تتدخل بشكل حاسم لصالح الملاك الجدد. وكان هناك عاملان غير عاديين فى هذا الصدد . وكان الاول متمثلا فى ان ملاك الاراضى الجدد كانوا من الاجانب الذين يعتزمون ان يحلوا محل المزارعين المحليين. وتمثل العامل الثانى فى ان المهاجرين الجدد كانوا يحصلون على تأييد نظام بـدأ السكان المحليون يدركون لاول مره انه غريب عنهم (٣٠) .

وفى ظل هذا الوضع الذى كان يتزايد فيه النظر الى الحكومة العثمانيـة على انها حكومة تركيه مسيطره ، اجبرت الفلاحين العرب على الموافقة على بيع ونقل ملكيه اراضيهم الى المستعمرين الصهاينة ، فقد كانت لمعارضة القائمقام العربى الامير امين ارسلان المسئول عن منطقة طبريه لصفقة بيع الارض ، على اسس قومية ، دلالة هامه بعض الشىء . ولاحظ كالفاريسكى ان ارسلان عارض بيع الاراضى بالرغم من عدم اهتمام رئيسه رشدى بك والى بيروت بالجوانب القوميه من قضيه بيع الاراضى . فقد كان رشدى بك يتصرف وفقا لالتزامه الحرفى بالقانون الذى يفرض عليه التأكيد من ان ملاك هذه الاراضى الجدد يستطيعـون السيطره على ممتلكاتهم . ولكن معارضة مسئول حكومى عربى أثارت معارضة العرب ، فيما بعد ، لمحاولات الاستيطان الصهيونية لوسيطره الحكومة التركيـة التى لم يكن لديها اى اهتمام ظاهر بمسالة تحظى باهتمام كبير ومتزايد من جانب السكان العرب فى الامبراطوريه العثمانية .

ووفقا لما يقوله كالفاريسكى فانه حتى بعد تنفيذ اوامر الوالى ، فقد استمر ارسلان فى معارضه محاولات القضاء على عروبة المنطقة ، وربما كان يعرب ايضا عن تشجيعه بشكل متحفظ للجماعات الصغيره من الفلاحين الغاضبين من ضياع اراضيهم والذين قاموا فيما بعد بشن غارات متكرره على المستوطنين الجـدد وازعاجهم (٣١) . ولم يكن امام ارسلان آنذاك ان يفعل شيئا اكثر من الاصرار على دفع تعويض للسكان الذين يتم ترحيلهم من اراضيهم والذين تحطمت اراده المقاومه لديهم بعد تعرضهم للقمع والاضطهاد من قبل الحكومة العثمانية نيابه عن وكالة الاستيطان اليهودى . وقد وقفت الحكومة العثمانية والمستوطنون اليهـود الجدد واصحاب الارض السابقون فى مواجهة الفلاحين المظلومين الذين وجدوا خلال بضع سنوات بعض المؤيدين لمقاومتهم الصامتة . وادت ثورة عام ١٩٠٨ الى اعادة فرض دستور عام ١٨٧٦ الذى ضمن حرية التعبير عن الرأى ، واتاح فرصة عقد انتخابات برلمانية . وكان من بين النواب المنتخبين لتمثيل ولاية بيروت الامير امين ارسلان القائمقام السابق لمنطقة طبرية والذى نجح فى انتخابات عـام ١٩٠٩ . وقد اصبح ارسلان عضوا نشيطا فى البرلمان العثمانى ، ضمن مجموعـة

كبيرة من النواب الممثلين للمقاطعات العربية والذين تزايدت حدة مواقفهم تجـــاه الصهيونية والقومية العربية . وفى نفس الوقت ومع انتشار التعليم ورفـــع الرقابة عن الصحف ، وازدهار الصحافة العربية أتيح للعديد من الافكار التى ظلت مكبوتة فى الماضى فرصة الظهور على السطح والانتشار .

وسرعان ما اصبحت قضية الصهيونية موضع اهتمام التعليقات فى الصحافة الحرة الجديدة وبؤرة تركيز للانتقادات الموجهة الى السلطات العثمانية (٣٢) . وفى نفس الوقت الذى كانت الصهيونية تتعرض فيه للنقد فى الصحافة العربيـــة فقد شهدت فترة ما بعد الثورة المزيد من الهجمات على المستوطنات اليهودية خاصة تلك الواقعة فى منطقة الجليل حول الشجرة التى شهدت العديد من الحوادث فى فترة مابين عامى ١٩٠١ — ١٩٠٢ والتى شارك فيها الامير امين ارسلان . وقـــد ظهرت فى عام ١٩٠٩ مشاكل جديدة حيث ان الخلافات على الارض التى كانت قد استمرت لسنوات عديدة تفجرت من جديد بالاضافة الى ان الفلاحين « اعترضوا على الحدود التى كان قد اتفق عليها منذ عقد من الزمان » (٣٣) .

وقد كانت المصادمات الناجمة عن ذلك خطيرة للغاية ، ونجم عنها مقتـــل ثلاثة اشخاص واصابة العديدين من كلا الطرفين فى غضون ايام قليلة ، حتى ان منظمة هشومير (الحارس) اليهودية السرية شبه العسكرية قد سمح باقامتهـــا بشكل رسمى وعلنى فى اعقاب حصول المستوطنين من السلطات العثمانيـــة على تصريح لهم بتسليح انفسهم . وقد كان ذلك بمثابة ذروة الاحداث التى وقعت على مدى عدة سنوات فى الماضى ، والتى تدخل فى اطار مبدأ « غزو العمل » الـــذى رافقه قيام مهاجرى الهجرة اليهودية الثانية تدريجيا بتحمل مهام الحراســـــة العسكرية للمستوطنات اليهودية ، وبالعمل مكان العرب الذن كانوا يقومون بهذه المهام فى الماضى . وبذلك كان المستوطنون يقومون فى الواقع بحراسة الاراضى التى حصلوا عليها من مزارعيها السابقين الذين تم تجريدهم من اراضيهم ، والذين كانوا يعتقدون ان لهم حق البقاء فيها : وكان ذلك بصورة مصغرة هو جوهـــر الصراع فى فلسطين .

ويصف الجنرال ايجال آلون فى كتاب « تكوين الجيش الاسرائيلى » ، منظمة هشومير بانها نواة منظمة الهجاناه ، التى كانت اساس القـــوات المسلحـــة الاسرائيلية (٣٤) . وهكذا تكمن جذور المؤسسة العسكرية التى كانت ضرورة اساسية للصهيونية عبر معظم مراحل تاريخها ، فى مواجهة مقاومة الفلاحين المسلحة والمعارضة للاستيطان اليهودى فى الاراضى التى كان يصر الفلاحون عـــلى انها ملك لهم . وبالرغم من ان هذه المقاومة كانت صامتة وغير واضحة ، الا انهـــا كانت شديدة بما فيه الكفاية فى تلك المناطق التى باع فيها ملاك الاراضى الغائبون مساحات شاسعة من الاراضى . وعلى حد قول زئيف شيف فى كتابه الـــذى استعرض فيه تاريخ الجيش الاسرائيلى ، فان هذه المقاومة استلزمت اقامة قوات

مسلحة على قدر كبير من النظام . وكانت هذه القوات هي نواة الجيش الاسرائيلي (٣٥) .

وعلى قدر اهمية الاحداث التي وقعت في الشجرة بين عامي ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ وما اعقبها من احداث في عام ١٩٠٩ ، وكذلك المصادمات التي حدثت في بتاح تكفا ومستوطنات اخرى في نهاية القرن التاسع عشر ، فان الاحداث التي وقعت في قرية عفولة التي تبعد ما يقرب من خمسة عشر ميلا عن الشجرة وتقع في المنطقة المجاورة للناصرة كانت لها نتائج أبعد اثرا . وكان ما حدث بين عفولة شبيها بما حدث في الشجرة منذ ثماني سنوات حيث اعرب القائمقام العربي عفولة عن تأييده للفلاحين المهددين بالطرد ، وقاوم دون نجاح رئيسه التركي ، بمعارضة قيام احد اصحاب الاراضي الغائبين ببيع ارضه وتحويل ملكيتها الى الصهاينة . وبالرغم من أن النتيجة النهائية تمثلت في طرد الفلاحين من أراضيهم وتشريدهم، فقد كانت عملية الشراء في عفولة تمثل بداية حملة صريحة وواضحة ضد الصهيونية تقوم على اعلان التفاصيل الكاملة لهذه العملية من عمليات نزع الملكية . وقد تطورت هذه الحملة على مدى السنتين التاليين حتى شملت مقاطعات بلاد الشام والصحافة العربية والبرلمان العثماني .

وتفاصيل صفقة قرية عفوله بسيطة . فقد كانت المساحة الكلية لهذه القرية تقدر بعشرة آلاف دونم تقريبا (والدونم يساوى الف متر مربع أو ربع فدان). وتقع القرية في وسط منطقة مرج بن عامر الخصبة بين الناصرة وجنين. وكانت عفولة جزءا صغيرا من ممتلكات شاسعة في أجزاء مختلفة من هذا الوادي تابعة لعائلة سرسق ببيروت التي اشترت في عام ١٨٧٢ ما يقرب من ٢٣٠،٠٠٠ دونم من الحكومة العثمانية مقابل مبلغ زهيد يقدر ٢٠،٠٠٠ ليرة تركية . وكما يبدو كانت تمتلك ما يربو على ربع مليون دونم . ووفقا لاحد المصادر فان الدخل السنوى الذي كانت تحصل عليه العائلة من ممتلكاتها في مرج بن عامر كان يساوى المبلغ الذي دفعته في شراء الارض . وقدر مصدر آخر الدخل السنوى الذي حصلت عليه العائلة من هذه الارض في عام ١٨٨٣ بـ ٢٠٠،٠٠٠ دولار . (٣٦) .

وقد وافق الياس سرسق في نهاية عام ١٩١٠ على بيع اراضي عفولة الى الصندوق القومي اليهودي الذي كان يرأسه ارثر روبين . ووفقا لاقوال ماندیل فان هذه الاراضي كانت من احسن الاراضي في فلسطين (٣٧) . وقد بدأ الصندوق القومي اليهودي فور شراء الارض في احتلالها والاستيطان عليها . وقد قامت مقاومة فورية عنيفة من قبل الفلاحين في عفولة ، الذين ازداد تصميمهم مع تغير الموقف في فلسطين وباقي أجزاء الامبراطورية تجاه الصهيونية ، وبتأثير الاحداث السابقة التي جرى فيها سلب ممتلكات الفلاحين من الاراضي الواقعة بالقرب من الجليل الادنى . وبالاضافة الى المستوطنات الخمس التي تمت اقامتها في الفترة ما بين عام ١٩٠١ وعام ١٩٠٤ على الارض التي عارض الامير أمين

ارسلان بيعها ،اقيمت خمس مستوطنات أخرى فى نفس المنطقة ما بين عام ١٩٠٥ وعام ١٩١٠ . وقام مهاجرو موجة الهجرة اليهودية الثانية باستيطانها جميعا .

وكان هناك عامل آخر شجع بدوره على مقاومة الفلاحين فى عفولة . وتمثل هذا العامل فى تأييد القائمقام او الحاكم العربى لمنطقة الناصرة لهم . وكان شكرى العسلى من عائلة بارزة من دمشق ، وتلقى تعليمه العالى فى كلية ملكية فى اسطنبول وتولى فيما بعد عدة مناصب حكومية فى اجـزاء مختلفة من بلاد الشام . وعندما علم ببيع الاراضى ، رفض تسليم صك الملكية الى الملاك الجدد بالرغم من تلقيه أوامر بالموافقة من والى بيروت حيث تم ترتيب الصفقة .

وقد أدى رفض القائمقام التسليم ببيع الاراضى الى تزايد الشكاوى فى بيروت وخاصة من جانب روبين نفسه ، والى قيام الوالى مرة ثانية باصـدار أوامر تسليم صك ملكية اراضى عفولة الى ملاكها الجدد . وعند وصول الامر الى هذا الحد اتخذ العسلى موقفا اكثر حدة من ارسلان . وارسل فى ديسمبر ١٩١٠ خطابا مفتوحا الى صحيفة « المقتبس » التى كانت احدى صحف المعارضـة الهامة فى دمشق . وشن فى هذا الخطاب الذى وقعه باسم صلاح الدين الايوبى هجوما عنيفا على الصهيونية . ونشر هذا الخطاب ومقالين آخرين عن عفولة فى شهر فبراير من عام ١٩١١ . واتهم الصهيونية بانها حركة ذات اهداف انفصالية فى فلسطين ، واشـار الى أن هنـاك دوافع لا تتفق مع الولاء للامبراطورية العثمانية ، وان هذه الدوافع هى التى تحرك الصهيونية .

وقرأ عدد كبير من القراء هذا المقالات الثلاث ولا سيما انها نشرت فى صحيفة « الكرمل » الصادرة فى حيفا ، وفى صحف المفيد والاتحاد العثمـانى والحقيقة التى كانت تصدر بشكل يومى فى بيروت . وكانت هذه المقـالات بمثابة الوقود الذى اشعل حدة النقاش الدائر حول الصهيونية . وفى هـذه المقالات وباقى كتابات العسلى الصحفية الاخرى شغلت قضية سلب اراضى الفلاحين مكانة بارزة وتم ربطها بالموضوعات القومية من خلال التأكيد على أن هناك صلات تاريخية تربط ما بين الناس والارض وأن هـذه الصـلات ترجع اصولها الى ايام صلاح الدين . وكتب العسلى فى احدى هذه المقالات يقـول ان طرد الفلاحين والسكان الاصليين لهـذه الارض واستبدالهم بالاجانب ليس الا خيانة (٣٨) .

وكانت الخطوة التالية التى اتخذها شكرى العسلى اكثر حدة . اذ انه لدى علمه بانه تم ارسال ثلاثين عضوا مسلحا من منظمة هشومير لاحتـلال اراضى الفلاحين فى عفولة بناء على أوامر الوكيل المحلى للصندوق القـومى اليهودى ، فانه قام فى الحال بارسال قوات كبيرة الى موقع الحادث لطردهم . وكان ذلك هو كل ما فى وسعه ، اذ أن القانون كان فى صف الملاك الجـدد ، بالاضافة الى قدراتهم المالية الضخمة . وقام الوالى التركى بفرض اجراءاته

المجحفة فى شهر يناير من عام ١٩١١ بالسماح باقامة مستوطنة مرحافيا على الاراضي المتنازع عليها .

واستمرت مقاومة فلاحى عفولة الذين سلبت اراضيهم وباعت عائلة سرسق فى بيروت أراضيهم ومنازلهم من تحت أقدامهم حتى بعد اتمام صفقة البيع . وقام مزارعو الارض السابقين بشن هجمات متكررة على مستوطنة مرحافيا . وعلى حد قول اليكس بين الذى كان خبيرا فى شراء الاراضى للصهاينة « فان هذه الهجمات كانت ناجمة عن الشعور الطبيعى بالرفض من جانب المزارعين السابقين » . (٣٩) وفى احدى المصادمات المسلحة التى وقعت فى شهر مايو من عام ١٩١١ ، قتل احد العرب بالقرب من المستوطنة . وادى هذا الحادث الى اثارة غضب السكان المحليين الذين فرضوا حصارا على المستوطنة . واستمر الحصار لمدة يومين حتى تدخلت السلطات المحلية واعتقلت عددا من المستوطنين .

ولم يتوقف دور شكرى العسلى عند هذا الحد . فقد ركز حملته الانتخابية على قضية عفولة . وكسب العسلى عند هذا الحد . فقد ركز حملته الانتخابية التى جرت فى شهر يناير من عام ١٩١١ . وقد تعهد فى حملته الانتخابية بمحاربة الصهيونية حتى آخر قطرة من دمه على أساس تجربته السابقة فى عفولة . وعندما تم انتخابه ، لعب العسلى دورا كبيرا ليس فقط فى معارضة الصهيونية فى داخل البرلمان العثمانى أو خارجه ، وانما شمل دوره حث سائر الاعضاء العرب فى البرلمان على معارضة روح القومية التركية السائدة فى أوساط لجنة الاتحاد والتقدم الحاكمة . (٤٠) وكان للعسلى تأثير كبير لانه كان احد محررى — وشريك فى ملكية — صحيفة « المقتبس » الصادرة فى دمشق والتى كانت أكثر الصحف العربية تأثيرا فى وقتها . وكان نجاح هذه الصحيفة يرجع الى جهوده وجهود شريكه فى الصحيفة ورئيس تحريرها محمد كرد على .

ونتيجة لجهود العسلى ، تحول حادث عفولة الى قضية ذائعة الصيت فى بلاد الشام . وظهر عدد كبير من المقالات فى الصحف فى دمشق وبيروت وحيفا وفى أماكن أخرى حول هذا الحادث لفترة طويلة تربو على العام . وعند وصول العسلى الى هناك كان للصحافة وللمناقشات التى دارت فى البرلمان العثمانى دور كبير فى ابراز التهم الموجهة الى لجنة الاتحاد والتقدم الحاكمة بشأن عدم اهتمامها بهموم العرب الذين كانوا يشعرون بالغضب من تزايد السيطرة التركية على الامبراطورية . ويتضح من تقارير الصحف ووصفها للخطب التى القاها العسلى اثناء حملته الانتخابية وفى البرلمان العثمانى فيما بعد ، أن قضية مقاومة الفلاحين العرب للطرد من منازلهم واراضيهم ورفضهم تمكن المستعمرين الاجانب من الاستيطان أعطت هذا الحادث قوة تأثير كبيرة . ونلاحظ مرة ثانية انه كان للتحقيقات الصحفية وأصوات الفلاحين غير المتعلمين الذين كانوا يزرعون

أراضيهم صدى كبيرة عند وصف قضية عفولة . وينطبق هـذا الامر حتى على احدى المقالات التى دافعت عن نور الدين بك والى بيروت الذى أصدر اوامره بتسليم الارض . الى ملاكها الجدد . اذ يعترف بأنه فى أعقاب بدء الياس سرسق فى اجراءات بيع الارض فان الفلاحين توسلوا اليه بأن يحث الحـكومة على ممارسة حقها فى السيادة ، أو القيام ، فى حالة الفشل ، « ببيع الاراضى الى سكان القرى بنفس السـعر » . ويعترف نور الدين بأن السلطات العليا فى اسطنبول رفضت هذا المطلب على اساس ان لسرسق كامل الحق فى بيـع ممتلكاته كما يشاء (٤١) .

ومن الواضح أيضا ان المرارة الدائمة فى النفوس والناجمة عن طرد هؤلاء الفلاحين جرى التعبير عنها فى أخبار محلية قصيرة فى الشهور التالية فى صحيفة « المقتبس » . وذكرت الاخبار أن المستوطنين فى منطقة طبرية بما فيها عفولة بعثوا ببرقيات الى السلطات يتهمون فيهاالسكان المحليين بأنهم يشعرون بالعداء تجاههم ، ويتهمون الحكومة بالضعف ويطالبونها بالتدخل (٤٢) .

وذكرت مقالة اخرى فى صحيفة « الكرمل » ان فشل الحكومة فى القيام بدورها فى مقاومة تسـلل الاستعمار الاجنبى ادى الى عداء عـرب فلسطين للمستوطنين . ويضيف المقال أنه عندما سيطر الصهاينة على الارض ، كان من الطبيعى قيـام الفلاحين بمقاومة ومحاربة المستوطنين ، وقيام المستعمرين بقتل العديد من الفلاحين فى المصادمات الناجمة عن ذلك ، وارسال برقيـات احتجاج الى السالطات(٤٣) . ويتضح من خلال التقارير التى نشرتها صحيفة « الكرمل » عن بعض الاحداث ان الفلاحين قد استمروا فى مقاومتهم لعمليـات سلب اراضـيهم . ومن بين امثلة المقـاومة ما حدث فى شـهر يونيـو من عام ١٩١١ ، اى بعد مرور بضعة اشهر على صفقة عفولة . ويتمثل الحادث فى اتهام المستوطنين لسكان قرية عربية مجاورة — الذين كان بعضهم بلا شك من الذين فقدوا منازلهم واراضيهم نتيجة لصفقة بيع الاراضى — بتدمير محاصيل وممتلكات تقدر قيمتها بـ ٣١٠٠ جنيه تركيا(٤٤) .

ويؤكد الجدل الحاد والمستمر الذى فجرته صفقة عفولة — بالرغم من صغرها — اهمية الدور الذى لعبه سلب الاراضى واستمرار مقاومة الفلاحين الفلسطينيين فى تحويل قضية الصهيونية الى قضية مركزية فى مسار السياسة العربية قبل عام ١٩١٤ . وكما اوضح مانديل وآخرون ، فقد كانت هناك اسباب اخرى عديدة لرد الفعل القوى الذى حدث فى أوساط عرب فلسطين والبلدان المجاورة تجاه الصهيونية السياسية . ولكن لا يمكن تفسير حدة رد الفعل فى فترة ما بعد عام ١٩٠٨ الا بانها نتيجـة للاثر المتراكم لسلسلة عمليات شراء الاراض من الملاك الغائبين ، ومانجم عنها من طرد الفلاحين وما اعقبها من مصادمات . وكانت هذه الاحداث هى التى جعلت طبقة الصفوة فى المدينة تدرك الجوهر الحقيقى للصهيونية وان الأمر لا يقتصر على شراء الأراضى ولكنه يشمل

طرد المزارعين العرب واستبدالهم بالاجانب الذين يضمرون اهدافا سياسية صريحة فى فلسطين .

ولقد كانت هذه الظاهرة على قدر كبير من الاهمية خاصة فى الجليل مع انتهاء القرن الماضى ، حيث اقيمت اثنتى عشرة مستوطنة من الخمس عشرة مستوطنة فى فلسطين بين اعوام ١٩٠١ — ١٩١٢ . ففى هذه المنطقة الخصبة، سيطرت مجموعة من ملاك الارض غير المقيمين فى فلسطين على جزء كبير من الاراضى.وكان معظمهمن تجار بيروت الاغنياء الذين كانت الارض بالنسبة لهم نوعا من انواع الاستثمار،وكانوا يرغبون فى البيع فى الوقت الذى تناسبهم فيه اسعار البيع . وقد ظهر التوتر ايضا لان حرية التعبير عن الرأى التى تم السماح بها بعد عام ١٩٠٨ شجعت على التعبير عن العداء للصهيونية والسلطات العثمانية التى اتخذت موقفا متهاونا فى التعامل مع الصهيونية . وتزايد التوتر بعد عام ١٩٠٣ مع وصول موجة الهجرة اليهودية الثانية التى تمسكت بمبدأ «غزو العمل» واحلال العمال اليهود محل العرب فى اكبر قدر ممكن من المهن . وادى تراكم كل هذه العوامل الى جعل المصادمات التى وقعت فى عفولة بين الفلاحين العرب والمستوطنين اليهود اكثر اهمية من كثير من المصادمات التى سبقتها والتى كانت على نفس النمط .

وقد ذكر نور الدين بك عند رده على العسلى بخصوص قضية عفوله « ان المرء يستطيع التصرف فى ملكيته كيفما يشاء طالما انه ليست هنالك اية عوائق قانونية . وان هذا الحق تمنحه كل الدول »(٤٥) وكانت الدولة العثمانية تعتقد ان القضية بسيطة وانها لا تتجاوز مسألة حقوق الملكية ، وانه بمقدور الياس سرسق بيع ارضه لمن يشاء . أما حقيقة انه كان يبيع الارض الى مواطن عثمانى يقوم بدور الوسيط للصهاينة ، فانه لم يكن للدولة اى شأن بذلك ، وان كان وثيق الصلة بمصير الفلاحين الذين تم سلب اراضيهم أو بالطبيعة التاريخية للارض (وقد أورد العسلى قول أحد مؤرخى العصور الوسطى العرب بأن عفولة كانت موقعا لقلعة اقامها صلاح الدين فى أعقاب هزيمته للصليبيين بالقرب من حطين فى عام ١١٨٧) .

وقد توحدت كل هذه الاعتبارات مع تزايد اهتمام الصفوة فى فلسطين وفى اجزاء مختلفة من بلاد الشام بتطور الحركة الصهيونية فى اوربا . (وقد غطت الصحافة فى بلاد الشام ومصر وبشكل مكثف ، المؤتمرات الصهيونية خاصة المؤتمر العاشر الذى عقد فى بال فى شهر اغسطس من عام ١٩١١(٤٦) . وتمثل النتيجة فى خلق مزيج فعال ادى الى اثارة مشاعر العروبة فى اوساط الصفوة . واتهمت الصهيونية بانها تلقى تسامحا وتحظى بتشجيع لجنة الاتحاد والتقدم التركية بسبب عدم اهتمامها بالبلدان العربية . وقد يجوز أو لا يجوز تبرير هذه الاتهامات حيث انه فى الوقت الذى كان فيه بعض قادة اللجنة مثل كافد بك وزير

المالية متعاطفين بشكل واضح مع الصهاينة ، وكان هناك آخرون اقل تعاطفا معها ، وعلى اية حال ، فقد كان هناك تصديق واسع النطاق لهذه الاتهامات التى كانت تشكل سلاحا فعالا فى الصراع الدائر بين النزعة العربية التى كانت سائدة فى اوساط الصفوة العربية وبين لجنة الاتحاد والتقدم .

ولكى يمكن التوصل الى تقييم حقيقى لمقاومة الفلاحين لبيع الارض وتجريدهم من ممتلكاتهم ، فانه من الضرورى محاولة ارساء بعض الحقائق المتعلقة ببيع الارض للصهاينة قبل عام ١٩١٤ . وتتم الاشارة عادة الى ان البائعين كانوا من « أصحاب الارض الغائبين » ، ويدور جدل حاد حول هذه النقطة . وهناك جدول يوضح مواقع الاراضى التى تم شراؤها من الملاك السابقين ، (وهو اكثر الجداول المنشورة الموثوق بها حتى الآن) ومن الممكن الرجوع اليه فى كتاب « نظام الارض فى فلسطين » الذى اعده الدكتور افراهام جرانوت الخبير الصهيونى البارز فى شئون الاراضى . وقد تولى جرانوت منصب المدير الادارى للصندوق القومى اليهودى (الذى كان يمثل الوكالة الرئيسية لشراء الارض للحركة الصهيونية) من عام ١٩٢٢ الى عام ١٩٤٥ ثم تولى منصب رئيس مجلس ادارة الصندوق . ويقدم الجدول ، الذى يعتمد على ارقام الوكالة اليهودية غير الكاملة ، معلومات بخصوص ٦٨٢ر٠٠٠ دونم تم شراؤها حتى عام ١٩٣٦ ، اى حوالى نصف مساحة الاراضى التى اشتراها الصهاينة فى فلسطين حتى عام ١٩٤٨(٤٧) .

وفيما يتعلق بفترة ما قبل عام ١٩١٤ التى تهمنا ، فان جدول جرانو يقدم ارقاما بخصوص ٢٤٥ر٥٨١ دونم تم شراؤها فى الفترة الواقعة بين عام ١٨٧٨ وعام ١٩١٤ (أى ٥٩٪ من مجموع ٤١٨ر١٠٠ دونم حصل عليها اليهود فى فلسطين قبل الحرب العالمية الأولى) . ويقسم جرانوت عمليات شراء الأرض الى اربعة أقسام طبقا للملاك السابقين على النحو التالى :

تم شراء ٢٥٪ من « كبار اصحاب الأرض الغائبين » ، و ٢٥٪ من « كبار اصحاب الأرض المقيمين » ، و ٣٧ر٥٪ من مصادر مختلفة (مثل الحكومة العثمانية والشركات الأجنبية الكبيرة والكنائس) و ١٢ر٥٪ من الفلاحين(٤٨) . ونلاحظ ان كل الفترة (الواقعة بين عامى ١٨٧٨ — ١٩٣٦) التى يتناولها الجدول توضح ان الأرقام تميل بشدة نحو كبار ملاك الأرض سواء الغائبين او المقيمين . ونلاحظ ان النسب المئوية للأقسام الاربعة موزعة كالتالى : ٥٢ر٦٪ ، و ٢٤ر٦٪ ، و ١٣ر٤٪ و ٩ر٤٪ على التوالى .

ويتضح انه حتى عام ١٩١٤ فان الأرقام التى أوردها جرانوت تشير الى ثقل كفة الملاك الغائبين من غير الفلسطينيين . ويتضح ذلك من أرقام صفقات بيع الأراضى قبل الحرب العالمية الأولى والتى كانت تتم بالتجزئة . وقد وردت هذه الأرقام فى جدول بدراسة غير منشورة كتبها روحى الخالدى ، نائب القدس والزميل البرلمانى لشكرى العسلى . ويتناول هذا العمل حجم مبيعات الأراضى

للمؤسسات اليهودية فى الفترة ما بين عامى ١٨٧٨ ــ ١٩٠٧ . ومن الممكن اكمال ارقامه بالرجوع الى المعلومات المتوفرة بصحف تلك الفترة وبغيرها من المصادر المنشورة (٤٩) . وتتميز الأرقام المأخوذة من هذه المصادر بأنها أكثر تفصيلا من الارقام التى يوردها جرانوت . فهى تذكر أسماء الذين باعوا ٢٤٧٫٤٦٦ دونم أو ٦٠٪ من كل الأراضى التى تم بيعهـا حتى هذه الفترة ، واسماء الـ ٢٢ مستعمرة يهودية التى اقيمت على هذه الأراضى بما فيها الكثير من أقدم وأكبر المستعمرات ، واسم كل مستعمرة شهدت مقاومة الفلاحين التى سبق ان استعرضناها من قبل .

وتقدم هذه المصادر النتائج التالية بخصوص الذين باعوا الأراضى :

١٤٣٫٥٧٧ دونم (٥٨٪) ملاك أرض غائبون غير فلسطينيين .

٨٨٫٦٨٩ دونم (٣٦٪) ملاك أرض غائبون فلسطينيون متغيبون .

١٥٫٢٠٠ دونم (٦ ٪) ملاك أرض محليون وفلاحون .

وتشمل المجموعة الأولى الأجانب والديبلوماسيين الأجانب وتجار بيروت والاتراك الذين كانوا من مسئولى الحكومة . وقد باعت هذه المجموعة والمجموعة الثانية ٩٤٪ من الأرض التى تغيرت ملكيتها قبل ١٩١٤ والتى لدينا أرقام مفصلة عنها . واذا كانت هذه الأرقام صحيحة (وتدل أرقام جرانوت المماثلة على صحتها) فانها تظهر ان نسبة ملاك الأرض الغائبين سواء من الفلسطينيين أو من غير الفلسطينيين الذين باعوا الأرض أكبر بكثير مما يشير اليه بعض الباحثين . ويتضح أيضا ان الدور الذى لعبه ملاك الأرض الغائبون من غير الفلسطينيين كان حاسما فى هذا الشأن فى فترة ما قبل عام ١٩١٤ .

ويمكننا من خلال معرفة أرقام بيع الاراضى قبل عام ١٩١٤ ،ومن باقى أرقام بيع الأراضى فى العقود اللاحقة ، التوصل الى نتائج تقريبية بخصوص حجم مبيعات الأرض طوال الفترة السابقة لعام ١٩٤٨ . ويؤكد كينيث شتين فى كتاب « نظام الأرض فى فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٣٩ » على قيام الفلسطينيين خاصة الأعيان منهم ــ الذين لعبوا عادة دورا بارزا فى المعارضة القومية للصهيونية ــ ببيع الأراضى لليهود . ومما لاشك فيه انه فى ظل الضغط الاقتصادى المصحوب بالاغراءات المالية التى يقدم شتين وصفا لها ، فان ملاك الأراضى الفلسطينيين سواء المتغيبين أو المقيمين وكذلك الفلاحين المزارعين كانوا فى الغالب يبيعون الأرض . ولكن الصورة العامة فى واقع الأمر أكثر تعقيدا مما يرسمها شتين .

ويؤكد شتين نفسه انه « فى خلال فترة العشرينات باع ملاك الأراضى المتغيبون خارج فلسطين لليهود ما تربو نسبته على ٦٠٪ من الأرض(٥٠) . والارجح هو ان النسبة الحقيقية تزيد على ٦٠٪ اذا وضعنا فى اعتبارنا حقيقة

ان ما يربو على مساحة ٢٤٠٫٠٠٠ دونم — أو ما يقرب من نصف الـ ٥١٠٫٠٠٠ دونم التي بيعت خلال الفترة ما بين عامي ١٩٢٠ — ١٩٢٩ كانت جزءا كبيرا من أرض تشمل معظم منطقة مرج بن عامر الخصبة والتى باعتها عائلة سرسق من بيروت وعدد آخر من شركائهم فيما بين عامى ١٩٢٤ — ١٩٢٥ . وقد تم بيع اراضى أخرى من مرج بن عامر (مثل عفوله) الى الصهاينة قبل عام ١٩١٤ . وقد باعت هذه الأراضى عائلة سرسق وشركاؤها من العائلات الأخرى من بيروت مثل عائلة العريان وتوينى . وتقدر مساحة هذه الوحدة من الأرض الى تم بيعها فى منطقة واحدة بـ ٣١٣٫٠٠٠ دونم أو ما يربو على ٢٢٪ من مساحة كل الأراضى التى اشتراها اليهود حتى عام ١٩٤٨ . ويتضح ان ذلك يتناقض مع ما يؤكده شتين من ان بيع الأراضى فى مرج بن عامر « كانت له أهمية كبيرة ، ولكن لم تكن له تلك القيمة السياسية التى يضفيها عليه العديد من الكتاب(٥١) . والاكثر اهمية من ذلك ان الـ ٤٠٠٫٠٠٠ دونم التى تم بيعها قبل عام ١٩١٤ ، وان الـ ٥٠٠٫٠٠٠ دونم التى تم بيعها فى عقد العشرينات تشير الأرقام المتوفرة (التى تنطبق فقط على جزء من المجموع) الى ان الملاك غير الفلسطينيين باعـوا منها الى الصهاينة ما تربو مساحته على الـ ٦٠٪ قبل عام ١٩٣٠ . وحيث ان الـ ٩٠٠٫٠٠٠ دونم هذه ، تمثل المساحة الكبرى فى الـ ١٫٣٩ مليون دونم التى اشتراها وسجلها الصهاينة حتى نهاية الانتداب(٥٢) فان هذه الأرقام الجزئية لها مدلولات كبرى فى قضية بيع الأراضى منذ بداية الاستيطان اليهودى الحديث حتى عـام ١٩٤٨ . فعلى الرغم من ان الكثير من ملاك الأراضى والفـلاحين الفلسطينيين كانوا يقومون ببيع الأراضى سواء بسبب الطمع أو نقص الوطنية او بسبب الحاجة أو عدم علمهم بمن ستؤول اليه فى نهاية الأمر ، فان الاجزء الاكبر من الأرض قد تم بيعه من جانب ملاك الأرض الغائبين من غير الفلسطينيين .

(٥)

على ضوء المعلومات السابقة ، يتضح ان معارضة بيع الأراضى للصهاينة خاصة تلك الأراضى باعها ملاك الأرض المتغيبون (سواء من الفلسطينيين أو غيرهم) كانت عاملا مشتركا هاما فى تقوية العلاقة بين أفراد الصفوة العربية الذين كانوا يعارضون الصهيونية من ناحية المبدأ وبين الفلاحين الذين شغلت مقاومتهم اهتمام الشعب ، ولعبت دورا كبيرا فى تعبئة الرأى العام فى فلسطين وفى العالم العـربى . ووحدت هـذه المعارضة كلا من الفلاحين الذين حاولوا يائسين التمسك بأراضيهم أو الانتقام من المستوطنين الصهاينة وتدمير ممتلكاتهم فى حالة فقدانهم للأرض ، ومثقفى واعيان المدن الذين ادركوا كنه الصهيونيـة فقط عندما رأوا عمليات سلب الأراضى التى كان يقف العسلى ضدها . وتمثلت النتيجة فى ظهور مفهوم مشترك بين سكان المدينة والريف فى أوساط الفلسطينيين تجاه الصهيونية . وظهر هذا المفهوم عندما بدأ الاستيطان اليهـودى فى فترة الهجرة الثانية يشهد لأول مرة قيام المستوطنين اليهود ليس فقط بامتلاك الأرض

ولكن أيضا بالتوسع فى زراعتهـــا . وسرعان ما ولـــدت هذه الظاهرة الجديدة رد فعل محليا فى أوساط الفلاحين الذين كانوا يشعرون بالمرارة ، مما ســـاعد على تشكيل معارضة منظمة للحركة الصهيونية فى فلسطين والعالم العربى .

وكان هذا النمط من التفـــاعل بين مقاومة الفلاحين ومعارضة المثقفـــين للحركة الصهيونية موجودا بالفعل اثناء فترة الانتـــداب البريطـــانى . ولذلك فقد تحولت الجنازة التى شهدتها حيفا فى شهر نوفمبر من عام ١٩٣٥ عند تشييع جثمان الشيخ عزالدين القسام ــ الذى كان رائدا شعبيا لحركة المقاومة المسلحة ــ والذى لقى مصرعه فى اشتباك مع القوات البريطانية ، الى مظاهرة شعبية عارمة(٥٣) . وساعد ذلك بدوره على اشعال اضراب عام ١٩٣٦ العام واندلاع الثورة الفلسطينية العربية التى استمرت بين أعوام ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ . وعلى حد قول عبد الله شليفر ، الذى أعد دراســـة ممتازة عن القسام ، فان موته « كان بمثابة صدمة كهربائية للشعب الفلسطينى(٥٤) » . وكانت دعوة النضال التى طرحها القسام موجهة أساسا الى الفلاحين الذين اقتلعوا من أراضيهم وانتقلوا من الجليل الى مدينة حيفا . وكان أوائل المجندين الذين انضموا الى المقاومة العسكرية المنظمة من بين هؤلاء الذين سلبت أراضيهم او طردوا بسبب النشاط الاستعمارى الصهيونى فى الجليل . وعلى حد قول شليفر فان « الكثير من اتباعه كانوا من المزارعين السابقين الذين طردوا من الأرض فى أعقاب اتمام صفقات شراء الأرض ، وحرموا من العمل بسبب سياسة الصندوق القـــومى اليهودى باستبعاد العرب من العمل(٥٥) » . وعلى الطرف الآخر من الســـلم الاجتماعى ، فان قيادة المدن المنتمين الى حزب الاستقلال الوطنى العلمانى مثل اكرم زعيتر تأثروا بعمق بجنازة القسام ، على حد ما ذكره فى مذكراته عن هذه الفترة(٥٦) . وهكذا نرى ان هذا النمط من مقاومة الفلاحين الذى أثر على باقى المجتمـــع الفلسطينى اثناء فترة الانتداب ترجع اصـــوله فى الواقع الى ما قبل عام ١٩١٤ .

ولأن هؤلاء الذين ركزنا عليهم لم يتحدثوا عن أنفسهم فى المصـــادر التى وصلت الينا بعـــد سبعة أو ثمانية عقود ، فاننا نرى أعمالهم فى منظـــار قاتم عن طريق السجلات التى تركها الاجانب الذين لم يتحدثوا لغتهم ولم يفهمـــوا حضارتهم ولم يكن لديهم اى تعاطف معهم ، بل كانوا فى الغالب اعداء لهم . وفيما يتعلق بطبقة الصفوة الفلسطينية فقد تركوا لنا القليل مما يمكن ان يساعدنا على اكمال صورة ما حدث على ارض فلسطين فى فترة بدء الصراع بين المستوطنـــين الصهاينة وعرب فلسطين . وحتى فيما يتعلق ببعض القضايا التى من الضرورى ان تتوفر عنها المعلومات ، مثل قضايا شراء الارض ، فاننا مضطرون الى استعمال بيانات متفرقة غير مكتملة التفاصيل .

ولكن كان من الممكن فى بعض الاحيان تتبع اجراءات نقل ملكية الارض مـــن مزارعيها الى اصحاب الارض من العرب المتغيبين احيانا والى وكالات شراء

الاراضى الصهيونية احيانا اخرى . وقد نشأت حركة المقاومة على نطاق واسع وصامت خاصة حينما كانت عمليات نزع ونقل ملكية الاراضى تعقبها عمليات الطرد . وفى بعض المستعمرات الصهيونية القديمة كان المستوطنون يقومون بتشغيل العمال العرب ، مما كان يؤدى الى تهدئة غضب الفلاحين الذين كان بمقدورهم الحصول على وظائف او استئجار اراضيهم كمزارعين مقيمين فيها. ولكن الوضع تغير مع بدء موجة الهجرة اليهودية الثانية عام ١٩٠٣ ومع بدء الجهود الرامية الى اقامة اقتصاد يهودى مستقل فى فلسطين .

وبعد عام ١٩٠٨ كان لمقاومة الفلاحين صدى كبير فى اوساط من ينتمون الى الطبقات العليا بالمدن والذين كانوا قد بداوا يدركون هويتهم كعرب . ويرفضون السيطرة التركية ويعبرون عن موقفهم فى الصحافة وفى السياسة الحزبية . وقد اتلم هذا المزيج الفعال نمطا قويا من المعارضة التى اثبتت وجودها بالفعل بحلول عام ١٩١٤ . وكانت كل العناصر مهياة لمواجهة الخلافات الحادة والطويلة حول قضايا بيع الارض وسلب الفلاحين وتزايد العنف ، وهى السمات الرئيسية لفترة الانتداب البريطانى .

وبالرغم من ان اجراء المزيد من البحث فى السجلات العثمانية والبريطانية والاسرائيلية يمكن ان يؤدى الى نتائج حاسمة بخصوص العديد من هذه القضايا ، فانه من الواضح ان هناك العديد من الدلائل على ان هجمات العرب على اولى المستوطنات اليهودية كانت اكبر بكثير من كونها عمليات « للنهب » أو « قطع الطرق » كما يصورها الكثير من الكتاب الاسرائيليين (٥٧) . ولكنها كانت فى الغالب نتيجة لعملية تجريدهم من اراضيهم ، والتى يمكن فى بعض الاحيان توثيقها ليس فقط على لسان الضحايا ولكن من خلال بعض المصادر الصهيونية المعاصرة ، والابحاث التى تعتمد على هذه المصادر . وشأن الكثير من الضعفاء فى التاريخ ، فاننا مضطرون الى رواية قصتهم من خلال اقوال الذين جعلوهم ضحايا . ولا يقلل ذلك من حيوية او شرعية صورة ما حدث فى فلسطين قبل عام ١٩١٤ .

هـــوامش

١ — بالرغم من ظروف بيروت فان مركز الابحاث الفلسطيني التابـــع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، ومركز الدراسات الفلسطينية قدما ابحاثا هامة حتى الفترة التي قامت فيها اسرائيل بغزو لبنان عام ١٩٨٢ . وقد عطل هذا الغزو عمل هذه المراكز واثر ايضا على انتاج العديد من المفكرين الفلسطينيين . واستولت قوات الاحتلال الاسرائيلية على سجلات المركز التاريخية ، ولكن تمت اعادتهـا كجزء من عملية تبادل الاسرى مع منظمة التحرير الفلسطينية في شهر نوفمبر من عام ١٩٨٣ . وعطلت الحرب أيضا مشروع اليونيسكو لاقامة جامعة فلسطينية مفتوحة ، وتوفير المناخ الاكاديمي في خمس جامعات فلسطينية كان يعمل بهـا العديد من الباحثين الفلسطينيين . ويخلق الاحتلال الاسرائيلي العديد من المشاكل لجامعات الضفة الغربية مثل بيرزيت . والنجاح وبيت لحم .

٢ — تشمل الاستثناءات عارف العارف مؤلف كتاب النكبة الذي يتنـاول بالدراسة حرب ١٩٤٧ — ١٩٤٩ ، وهناك العديد من الدراسات الهامة لنفس المؤلف وانظر احسان النمر مؤرخ منطقة نابلس . وعبد اللطيف تيباوي مؤلـف القومية العربية والفلسطينية . ووليد الخالدي المتخصص في احــداث الفترة الواقعة بين ١٩٤٧ — ١٩٤٨ . وانظر « مقالة طارف الخالـــدي » التاريخ الفلسطيني ١٩٠٠ — ١٩٤٨ في مجلة دراسات فلسطينية المجلد العاشر العـدد الثالث (ربيع ١٩٨١) ص ٥٩ — ٧٦ . وهناك العديد من الباحثين الشبان الذيـن يعملون في هذا المجال . ونذكر منهم الياس سنبر ، مؤلف كتاب فلسطين ١٩٤٨ : الطرد (باريس : كتب الدراسات الفلسطينية ١٩٨٤) ، اميل سحلية : منظمة التحرير الفلسطينية بعد الحرب اللبنانيـة (بولدرويستفيـو ١٩٨٦) ، موسى بديري : الحزب الشيوعي الفلسطيني ١٩١٩ — ١٩٤٨ (لندن : ايتاكا ١٩٧٩) ومحمد مصلح ، مؤلف كتاب القومية الفلسطينية في اطارها العربي . وستنشر جامعة كولومبيا هذا الكتاب قريبا .

٣ — القدس ونيويورك : مركز يد اسحاق بن تسفي وسانت مارتينز بريس ١٩٨٤ .

٤ — لندن : روتليدج وكيجان بول ١٩٧٣ .

٥ — الاعمال الرئيسية التي تتناول هذا الموضوع هي :
يهوشع بورات : ظهور الحركة القومية الفلسطينية — العربية ١٩١٩ — ١٩٢٩ (لندن : فرانك كاس ١٩٧٣) ، وكتاب الحركة القومية الفلسطينية العربية ١٩٢٩ — ١٩٣٩ : من الاضطرابات الى الثورة (لندن : فرانك كاس ١٩٧٧) ،

وكتاب ليش : السياسة العربية فى فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٣٩ (ايثاكا : كورنيل يونيفرستى برس ١٩٧٩) .

٦ ــ بركلى ــ كورنيل يونيفرستى بريس ١٩٧٦) .

٧ ــ انظر على سبيل المثال « اقتصاديات اقتسام ــ المحاصيل فى فلسطين اثناء فترة الانتداب » مجلة دراسات الشرق الاوسط العدد الحادى عشر ، الجزء الاول (يناير ١٩٨٥) ص ٣ ــ ٢٣ ، والجزء الثانى العدد الحادى عشر ، الجزء الثانى (ابريل ١٩٧٥) ص ١٨٨ ــ ٢٠٣ ، ومقال « الانتاج والتجارة فى اطار اسلامى : عقود الشركة فى الاقتصاد الانتقالى لسامره الشمالية ١٨٥٣ ــ ١٩٤٣» فى المجلة الدولية لدراسات الشرق الاوسط ، المجلد السادس الجزء الثانى (ابريل ١٩٧٥) ص ١٨٥ ــ ٢٠٩ ، الجزء الثانى ، المجلد الثالث ، العدد الثالث (يوليو ١٩٧٥) .

٨ ــ اوستين : يونيفر ستى اوف تكساس برس ١٩٨٥ ــ هناك امثلة بارزة على استخدام الابحاث لمجموعة مختلفة من السجلات وغيرها من المصادر الاخرى لبحث العديد من القضايا على هذا المستوى . ونذكر فى هذا المجال اليكسندر شوليخ ، وساره جراهام براون ، وسالم تمارى ، وافى بلاسكوف . وساهم كل هؤلاء الباحثين فى كتاب دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى لفلسطين فى القرنين التاسع عشر والعشرين . واعد هذا الكتاب روجر اوين (لندن : ماكميلان ١٩٨٢) .

٩ ــ ثار الكثير من الجدل حول كتاب بيترز الذى نشره هاربر وراو عام ١٩٨٤ وامتدحه الكتاب باربارا توشمان ، وشاؤل بيلو ، وارثر جولدبرج ، وتيود ورورايت والعديد من الشخصيات البارزة فى مجلة « النيويورك تايمز » فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٨٥ ــ ١٩٨٦ . وكان نورمان فينكلستين ووليام فاريل اول من اظهرا الاخطاء الكبيرة الموجودة فى الكتاب . وتم نشرها فى كتاب « فى هذه الاوقات » فى ١١ سبتمبر ١٩٨٤ . وفى مجلة دراسات فلسطينية فى نهاية عام ١٩٨٤ .

١٠ ــ نيوبرونسويل : ترانزاكستين بوكس ١٩٨٤ .

١١ ــ نبذ بورات المؤرخ الاسرائيلى المعروف كتاب بيترز بشكل قاس عند تقديمه لهذا الكتاب فى مقال بعنوان « رؤية السيدة بيترز لفلسطين » فى مجلة « ذى نيويورك ريفيو اوف بوكس » فى ١٦ ناير ١٩٨٦ ص ٣٦ ــ ٣٩ . وقد اوضح شوليخ الذى استخدم مصادر عثمانية وغربية العديد من النقاط بخصوص الديموغرافية الفلسطينية ، وفند العديد من المزاعم التى يروجها البعض بخصوص هذه القضية . انظر مقال «التطور الديموغرافى لفلسطين مابين ١٨٥٠ ــ ١٨٨٢ »

فى المجلة الدولية لدراسات الشرق الاوسط . المجلد السابع عشر (١٩٨٥) ص ٤٨٥ — ٥٠٥ .

١٢ — انظر مقال « حق الرواية » فى مجلة دراسات فلسطينية المجلد الثانى عشر ، الجزء الثالث (ربيع ١٩٨٤) ص ٢٧ — ٤٨ .

١٣ — بخصوص أهمية الصهيونية كقضية فى سياسة هذه الفترة انظر كتاب نيفيل مانديل « العرب والصهيونية » الذى يتناول هذه القضية فى عدة فصول من الكتاب . وانظر الفصول الرابع والخامس والسادس فى كتاب رشيد الخالدى السياسة البريطانية تجاه سوريا وفلسطين فى الفترة ما بين عامى ١٩٠٦ — ١٩١٤ (لندن : ايثاكابريس ١٩٨٠) . ويشكل هذا الموضوع بؤرة اهتمام رشيد الخالدى فى مقال « دور الصحافة فى أولى ردود الافعال العربية تتجاه الصهيونية » فى مجلة شعوب البحر الابيض المتوسط المجلد العشرين (يوليو — سبتمبر ١٩٨٢) ص ١٠٢ — ١٢٤ . ويوضح المقال انه قد تم نشر ما يربو على ٦٠٠ مقال عن الصهيونية فى سبع عشرة صحيفة هامة فى القاهرة وبيروت وحيفا ودمشق فى الفترة الواقعة بين عامى ١٩٠٩ — ١٩١٤ .

١٤ — يعد كتاب ماندبل أول كتاب كبير يحاول معالجة هذه المشكلة . ويقدم — الكتاب بهذه المهمة على اكمل وجه . ويتناول أوائل المؤرخين الفلسطينيين هذه المشكلة وتذكر منهم عبد الوهاب الكيالى مؤلف كتاب : فلسطين : التاريخ الحديث (لندن : كروم هيلم ١٩٧٨) ونلجى علوش مؤلف كتاب المقاومة العربية فى فلسطين ١٩١٧ — ١٩٤٨ (بيروت مركز الابحاث الفلسطينى ١٩٦٧) .

١٥ — روجراوين : الشرق الاوسط فى اقتصاد العالم ١٨٠٠ — ١٩١٤ (لندن : ميثوين ١٩٨١) ، تشارلز عيساوى . التاريخ الاقتصادى لمنطقة الشرق الاوسط وشمال افريقيا (نيويورك : كولومبيا يونيفرستى برس ١٩٨٢) . انظر ليلى فواز التى توضح هذه التغيرات فى المنطقة فى كتب « التجار والمهاجرون فى بيروت فى القرن التاسع عشر » (كمبريدج) : هارفارد يونيفرستى بريس ١٩٨٣) .

١٦ — تم وصف هذه العملية بشكل جيد فى كتاب افراهلم جرانوت : « نظام الارض فى فلسطين : التاريخ والبنية » (لندن : ايروسبوتيسود ١٩٥٢) ص ٧٢ — ٧٧ . ونتيجة لان جرانوت كان المدير الادارى للصندوق القومى اليهودى ، فانه كان اكثر الخبراء تخصصا فى شراء الصهيونين للارض . وكان جرانوت ذا (علاقة مباشرة بصفقات شراء الارض اثناء فترة الانتداب . انظر ايضا كتاب دورين وارينر : استصلاح الارض والتطور

فى منطقة الشرق الاوسط : دراسة عن مصر وسوريا والعراق . طبعة ثانية (لندن اوكسفورد يونيفرستى بريس ١٩٦٢) ص ٦٠ — ٧٠ . واعمال ى . فيرستون التى أشرنا اليها فى الملحوظة رقم ٧ .

١٧ — لمزيد من التفاصيل انظر رشيد الخالدى : « الصحافة كمصدر لدراسة التاريخ السياسى العربى الحديث » فى مجلة دورية الدراسات العربية ، المجلد الثالث ، الجزء الاول (شتاء عام ١٩٨١) ص ٢٢ — ٤٢ . يوسف الخورى : الصحافة العربية فى فلسطين ١٨٧٦ — ١٩٤٨ ، بيروت ، مركز الدراسات الفلسطينية ١٩٧٦ ص ٣ — ٢٦ . ويقدم هذا الكتاب قائمة شاملة بأسماء الصحف العربية فى فلسطين قبل عام ١٩٢٤ .

١٨ — انظر عدد المدارس التبشيرية فى آنون — (أسعد داغر) ثورة العرب . القاهرة (ليس من المعروف اسم الناشر) ١٩١٦ ص ١٣٣ . بخصوص ولاية بيروت انظر كتاب محمد بهجت ورفيق التميمى . ولاية بيروت . بيروت : اقبال . عام ١٩١٧ — المجلد الثانى ص ١٥٢ — ١٥٣ . وبخصوص فلسطين انظر . أ . ل . تيباوى . التعليم العربى فى فلسطين : دراسة ثلاثة عقود من الادارة البريطانية (لندن : لوزاك ١٩٥٦) ص ٢٠ — لمعرفة وضع التعليم أثناء فترة حكم السلطان عبد الحميد انظر أ . ل . تيباوى : التاريخ الحديث لسوريا شاملا لبنان وفلسطين (لندن . ماكيلان ١٩٦٩) ص ١٩٤ — ١٩٦ .

١٩ — هشام شرابى . المفكرون العرب والغرب : سنوات التكوين ١٨٧٥ — ١٩١٤ (بلتيمور : جونز هوبكينز بريس ١٩٧٠) ص ٣

٢٠ — مانديل . العرب والصهيونية . ص ١٧ .

٢١ — نفس المصدر السابق ص ٢٤ . انظر بورات : الظهور ص ١٧ .

ونتيجة لان مانديل يقول « من الممكن أن يكون كل فرد من كل اثنين من المهاجرين قد غادر مرة ثانية » ونتيجة لان جزءاً من السكان اليهود كان يرحل دائما من منطقة لاخرى فمن الممكن أن تكون هذه الارقام مبالغا فيها . وتظهر الارقام العثمانية فى عام ١٩١٤ والمتعلقة بسنجق القدس (الواردة فى كتاب كمال كريات : التعداد السكانى العثمانى ١٨٣٠ — ١٩١٤ (ماديسون : يونيفرستى اوف ويسكونسين بريس ١٩٨٥) ص ١٨٤ — ١٨٥) ان تعداد السكان اليهود كان يقدر بـ ٢١٫٢٥٩ وان التعداد الكلى للسكان كان يقدر بـ ٣٢٨٫١٦٨ . ولكن هذه الارقام التى لا تغطى شمال فلسطين تعتبر قليلة لانها لم تحسب عدد المهاجرين الذين احتفظوا بجنسياتهم الاوربية ، ولم يصبحوا رعايا عثمانيين .

٢٢ — انظر على سبيل المثال . مانديل : العرب والصهيونية ص ١٥ .

٢٣ — بورات : « مفهوم السيدة بورات لفلسطين » ص ٣٧ ويلخص بورات مسيرة النمو الطبيعى للسكان . ويقدم شموليخ فى مقال « التطور الديموغرافى فى فلسطين » تفاصيل كثيرة بما فيها تحول الكثافة السكانية الى الاراضى المنخفضة .

٢٤ — مانديل — العرب والصهيونية . ص ٣٦ — ٣٧ .

٢٥ — نفس المصدر ص ٣٤ — ٣٩ . ولقراءة المزيد من التفاصيل عن التغيرات الناجمة عن الجرة اليهودية الثانية انظر اليكس بين : العودة الى الارض : تاريخ الاستيطان اليهودى فى اسرائيل (القدس قسم الشباب والرواد فى المنظمة الصهيونية ١٩٥٢ ص ٣٦ وما بعدها) .

٢٦ — « كل كتابات احادهعام » ص ٢٣ — يلخص مانديل هذه الفترة بقوله « صدم معظم أعضاء الاستيطان الجديد عند معرفتهم ان فلسطين ماهولة بالسكان العرب » ، العرب والصهيونية ص ٣١ .

٢٧ — أ . روبين : « السكان العرب فى اسرائيل » مجلة ميراخيم المجلد الثالث ١٩٧١، ص ١٠ . يعد هذا العمل من الاعمال الاولى فى هذا المجال وقد وصف اسحاق ايبشتين ، أحد المعاصرين لاحادهعام فى عام ١٩٠٧ كيف تم شراء أراضى من رأس الزاوية وعفولة من ملاك أراضى غير مقيمين فى عام ١٨٨٢ . وعام ١٨٩٦ من أجل اقامة مستوطنات روش بيناه ، وعفولة : انظر مقال قضية خفية الذى نشره ايبشتين فى مجلة هشيلوح فى المجلد الخامس عشر فى عام ١٩٠٧ . ص ١٩٣ وما بعدها .

٢٨ — نيفيل باربور . فلسطين : نجم أم هلال ؟ (نيويورك : اوربيسا بريس ١٩٤٧) ص ١٣٣ — ١٣٤ . بخصوص تفاصيل ملكية الارض فانها ماخوذة من جدول موجود فى صفحة ١١١ من مخطوطة روحى الخالدى نائب القدس فى البرلمان العثمانى . وعنوان المخطوطة « الصهيونية أو المسالة الصهيونية » . وبالرغم من اكتمال المخطوطة الا انه لم يتم نشرها بسبب وفاة المؤلف فى علم ١٩١٣ ، وهى الان فى حوزة العائلة . وهذا العمل هو أول الاعمال التى يتطرق فيها مؤلف عربى الى الصهيونية .

٢٩ — بخصوص التفاصيل المأخوذة من الجدول فانها مقتبسة فى أعمال الخالدى ، وباربور : فلسطين ص ١٣٤ . والكسندربين . العودة الى الارض ص ٣١ . لمعرفة خلفية هذا الحادث والمصادمات اللاحقة انظر مانديل ، العرب والصهيونية . ص ٦٧ — ٧٠ .

٣٠ — للحصول على مزيد من التفاصيل عن الشعور بالنهضة العربية فى الامبراطورية العثمانية فى هذه الفترة انظر رشيد الخالدى : السياسة

البريطانية ، الفصل الرابع ، ومقال رشيد الخالدى : القومية العربية فى سوريا. سنوات التكوين « المنشور فى كتاب القومية فى دولة غير قومية والذى اعده ر — حداد ، وو . اوكسينوالد تولومبوس : اوهيو يونيفرستى بريس ١٩٧٧) ص ٢٠٧ — ٢٣٧ ، ومقال رشيد الخالدى « الصحافة كمصدر » «ومقال رشيد الخالدى » العثمانية والعروبة فى سوريا قبل عام ١٩١٤ : اعادة تقييم « المنشور فى كتاب بداية القومية العربية الذى أعده رشيد الخالدى وآخرون (نيويورك : كلومبيا يونيفرستى برس) وسيظهر هذا الكتاب قريبا .

٣١ — باربور . فلسطين ص ١٣٤ .

٣٢ — رشيد الخالدى « دور الصحافة » يتناول هذا المقال هذا الموضوع كما فعل مانديل فى كتاب العرب والصهيونية .

٣٣ — نفس المصدر ص ٦٧ .

٣٤ — ايجال آلون — تشكيل الجيش الاسرائيلى (لندن : فالنتين ميتشيل ١٩٧٠) ص ٤ — توجد صورة بالكتاب لحراس هشومير فى الجليل فى الصفحة المقابلة لصفحة ٢٠ ويرجع تاريخها الى عام ١٩٠٤ . انظر ايضا زئيف شيف تاريخ الجيش الاسرائيلى من عام ١٨٧٤ حتى الوقت الراهن . طبعة ثانية (نيويورك ماكميلان ١٩٨٥) ص ١ — ٣ . وهناك صورة يرجع تاريخها لعام ١٩٠٩ ويظهر بها ٢٣ عضوا من نفس الجماعة . وتظهر الصورة فى الصفحة المقابلة لصفحة ٨٦ .

٣٥ — بين العودة — ص ٤٤ ، ٧٧ .

٣٦ — جرانوت — نظام الارض ص ٨٠ — ٨١ . حصل لورانس أوليفانت على معلومات عن عام ١٨٨٣ من الفريد سرسق نفسه الذى اشتكى من أن نقل المحاصيل الى حيفا وعكا للتصدير كلفه ٥٠٠,٠٠٠ دولار . انظر حيفا : أو الحياة فى فلسطين الحديثة (ادنبرة : وام بلاكوود ١٨٨٧) ص ٤٢ ، ٦٠ .

٣٧ — مانديك العرب والصهيونية ص ١٠٣ .

٣٨ — رشيد الخالدى « دور الصحافة ص ١١٦ — ١١٧ — يتناول هذا المقال تأثير العسلى ، ويشير الى اعداد معينة من الصحف التى ظهرت بها المقالات .

٣٩ — بين — العودة . ص ٧٨ . يضع بين عامل « الغضب الطبقى للمزارعين السابقين » فى المكانة الثالثة فى قائمة باب هجومهم على المستوطنين . ويسبق هذا السبب رغبتهم فى السرقة وعدم قبولهم لوجود اليهود فى داخل المنطقة بين العرب » — وما يقوله بين والآخرون عن أولى المصادمات التى

وقعت بين اليهـود والعرب فى فلسطين تظهر عدم الاهتمام بحجم هذا الغضب وتتحدث عن نهب العرب لليهود .

٤٠ — مانديل العـرب والصـهيونية ص ١١٢ ، وص ١٠٦ — ١٠٧ . ويتناول هذا الكتاب تضبة عفوله ، ويقيم فى ١١٢ وما بعـدها تاثير العسـلى على البرلمان العثمانى .

٤١ — الاتحاد العثمانى (بيروت) رقم ٧٣٧ ، ٢١ فبراير ١٩١١ ص ٢

٤٢ — المقتبس (دمشـق) رقم ٧٤٠ ، ٢٩ يوليـو ١٩١١ ، ص ٢ ورقم ٧٤٨ — ٧ اغسطس ١٩١١ ص .

٤٣ — الكرمل (حيفـا) رقم ١٥٣ — ٢٣ يونيو ١٩١١ ، ص ٣ .

٤٤ — الكرمل رقم ١٤١ ، يونيو ١٩١١ ، ص ٣ .٩٠

٤٥ — الاتحاد العثمانى رقم ٧٣٧ ، ٢١ فبراير ١١١ ص ٢ .

٤٦ — انظـر على سبيل المثـال الكرمل رقم ١٧١ ، ٢٥ اغسطس ١٩١١ ، ص ١ افتتاحيـة المقتبس رقم ٧٦٧ ، ٢٩ اغسطس ١٩١١ ص ٣ ، رقم ٧٧٧١ ، ٣ سبتمبر ١٩١١ ، ص ٢ رقم ٧٨٢ ، ١٦ سبتمبر ١٩١١ ، ص ٢ ، رقم ٧٨٤ ، ١٨ سبتمبر ١٩١١ ، ص ٢ . الحقيقـة (بيروت) ٣٧٣ ، ٢٤ اغسطس ١٩١١ ، ص (افتتاحيـة الأهرام (القـاهرة) رقم ١٠١٦٧ ، ٢١ اغسطس ١٩١١ ، ص ١ . افتتاحيـة الأهرام (القاهرة) رقم ١٠١٧٢ ، ٢٥ اغسطس ١٩١١ ، ص ١ .

٤٧ — كينث شتين . مشكلة الارض فى فلسـطين ١٩١٧ — ١٩٣٩ (شابل هيـل : يـونيفرستى أوف نورث كاليفورنيـا بـريس) ص ٢٢٦ — ٢٢٧ . يقدم هذا الكتاب جدولا مصدره السجلات الصهيونية المركـزية ويوضح فى الجدول مساحة الاراضى التى اشـتراها اليهـود فى فلسـطين حتى عام ١٩٤٥ والتى كانت تقـدر مساحتها الكلية بـ ١ر٣٩ مليون دونم . ولذلك فان جدول جرانوت رقم ٣٢ الوارد فى كتاب جرانوت (نظام الارض ص ٢٢٧) يمثل ٥٠٪ من المساحة الكلية للارض .

٤٨ — نفس المصدر السابق .

٤٩ — روحى الخالدى (« الصهيونية » ص ١١١ . ان الجـدول الذى يوضح عدد المستوطنات اليهـودية وعدد الذين باعوا الارض يعتمـد فى جزء منـه على قائمة تم نشرها فى ١١ مارس ١٩١١ فى صحيفة تركيـا الفتـاة الصـادرة بالفرنسية فى اسطنبول ، ولكنها تتضمن اضـافات عديدة بخصوص بائعى الاراضى . وكما يبدو فان هذه الاضـافات هى نتائج للبحث الذى قام به روحى الخالدى .

٥٠ — شتين . قضية الارض ص ٢١٨ .

٥١ — نفس المصدر السابق ص ٥٩ .

٥٢ — نفس المصدر السابق ص ٢٢٦ .

٥٣ — هناك العديد من الاعمال التى تشير الى اهمية القسام ونذكر منها أعمال علوش والكيالى التى ذكرناها فى ملحوظة رقم ١٤ ومقال غسان كنفانى : « ثورة ١٩٣٦ — ١٩٣٩ فى فلسطين : خلفية ، تفاصيل وتحليل المنشور فى مجلة شئون فلسطينية ، المجلد السادس (يناير ١٩٧٢) ص ٤٥ — ٧٧ . وقد لعبت كتابات علوش وكيالى وكنفانى الذين كانوا جميعا من النشيطين سياسيا (وقد قتل كنفانى فى ١٩٧٢ وقتل الكيالى فى ١٩٨٠) دورا رئيسيا فى تشكيل المفاهيم الحديثة لهذه الفترة . ٥٤ — س — عبد الله — شليفر : « حياة وفكر عز الدين القسام » ، الدورية الاسلامية ، المجلد الثانى والعشرين الجزء الثانى (١٩٧٩) ص ٦١ — ٨١ .

٥٥ — نفس المصدر السابق ص ٧٠ .

٥٦ — لمزيد من الاعمال المعاصرة عن اهمية القسام انظر اكرم زعيتر : الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥ — ١٩٣٩ : يوميات اكرم زعيتر (بيروت مركز الدراسات الفلسطينية عام ١٩٨٠) ص ٢٧ وما بعدها . انظر وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨ — ١٩٣٩ : من اوراق اكرم زعيتر (بيروت : مركز الدراسات الفلسطينية ١٩٧٩) ص ٣٩٧ — ٤٠١ .

٥٧ — على سبيل المثال عوزى بينزيمان : شارون : قيصر اسرائيل ، نيويورك : ادااما ١٩٨٥ ، ص ٢ . ورد فى الكتاب « لقد اخذ الصراع فى البداية صورة الهجمات الاجرامية على اليهود وممتلكاتهم من قبل السفاحين العرب » . وانظر كتاب الون : تشكيل الجيش الاسرائيلى » ، ص ١١ . وذكر فى كتابه ان اوائل المستوطنين اليهود مارسوا حق الدفاع عن انفسهم فى مواجهة السرقة والنهب والقتل والاغتصاب . ولم تكن اغلب هذه الاعمال ذات طابع سياسى » .

لمحة عن حياة الشعب الفلسطيني

بقلم : ادروارد و. سعيد

ابراهيم ابو لغد

جانيت ل. ابو لغد

محمـــد حلاج

ايليــا زريــق

التاريخ والتطور السياسي :

التاريخ القـديم :

قامت على أرض فلسطين واحدة من اقدم الحضارات في العالم . فقبل ان تهاجر قبائل العبرانيين الاولى بعدة قرون الى المنطقة « نشأت ثقافة فريدة في فلسطين وفي هذه الفترة ــ على قدر ما نعلم ــ نشأت في فلسطين اقــدم القرى الدائمة في العالم » .. وهي أيضا مهــد الحياة المدنية ، وهي « المكان الوحيد في العالم الذي ترجع مدينة فيه الى تسعة آلاف سنة » . فمدينــــة اريحا هي أقدم مدينة دائمة السكنى في العالم ، « وهي أقدم من اية مستوطنة حضرية معروفة في الوقت الحاضر بأربعة آلاف عام (١) » . وأنه لمن اعظــم سخريات التاريــخ اننــا في منتصف القرن العشرين ــ حيث العصر الذهبي لحقوق الشعوب في تقرير مصيرها ــ نجد فلسطين تسقط من خريطة العالم .

لقد ساد العرب والاسلام في فلسطين في نهاية القرن السابع ، وسرعان ما أصبحت حدودها وخصائصها ــ بما في ذلك اسمها العربي فلســـــطين ــ معروفة للعالم الاسلامي كله بخصبها وجمالها واهميتها الدينية ، وتدلنا على ذلك ، تلك الفقرة التي نجدها في أواخر القرن العاشر باللغة العربية :

« فلسطين » هي ابعد أقاليم سوريا من الغرب ، ومسافتها للراكب طول يومين من رفح الى حد اللجون (ليجيو) ، وعرضها من يافا الى اريحا يومان ، واما زغر (زيجور أو صوار) وديار قوم لوط والجبال والشراة حتى آيلة فهما اقليمان منفصلان . ولكنها مضمومة اليها وتتبع حكومتها .

وفلسطين ماؤها من الامطار والندى ، ولا تحتاج أشجارها ولا ارضــها المحروثة الى ري صناعي باستثناء نابلس فان بها مياها جارية . وفلســـــطين أزكى بلاد الشام ، ومدينتها العظيمة الرملة ، وبيت المقدس تليها في الكبر .

وبفلسطين نحو عشرين مسـجدا على صغر رقعتها ، ولها منابـر لصـلاة الجمعـة (٢) » .

وفى سنة ١٥١٦ ، صارت فلسطين جزءا من الامبراطورية العثمانيـة ، واستعادت خلال سنوات خصوبتها وكذلك ميزاتها العربية والاسلامية . وفى سـنة ١٦١٥ تحدث عنها الشاعر الانجليزى جورج ساندز قائلا انها « ارض تفيض لبنا وعسلا ، فى وسط العالم المعمور ، معتدلة المناخ ، مزدانة بالمرتفعات الجميلة والوديان الغنية الخصبة ، وتنبـع من صخورها مياه رائعة ممتازة ، ولا يخلو جزء فيها من البهجة والنماء (٣) » وتكثر مثل هذه الاوصاف بوفرة فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، ليس فقط من جانب الرحالة والمسافرين ، ولكن ايضا فى الدوريات العلمية المنشورة عن صندوق استكشاف فلسـطين (البريطانى) .

وبالرغم من وصول المستعمرين اليهود المستمر الى فلسطين بعد سـنة ١٨٢٢ ، فانه يهمنا ان نؤكد وجود اغلبية ساحقة من العرب حتى الاسابيـع القليلة التى سبقت قيام اسرائيـل مباشرة فى ربيع ١٩٤٨ . ومثـال لذلك ان السكان اليهود كانوا سنة ١٩٣١ ، ١٧٤٫٦٠٦ أفراد من المجموع الكلى البالغ ١٫٠٣٣٫٣١٤ نسمة . وفى سنة ١٩٣٦ ارتفـع عدد اليهود الى ٣٨٤٫٠٧٨ والمجموع الكلى الى ١٫٣٦٦٫٦٩٢ نسمة وفى سنة ١٩٤٦ كان هناك ٦٠٨٫٢٢٥ يهوديا من المجموع البالغ ١٫٩١٣٫١١٢ نسمة (٤) . وكان من السهل فى جميع هذه الاحصاءات تمييز « الوطنيين » عن غيرهم من المستعمرين القـادمين . ولكن من هم هؤلاء الوطنيون ؟

لقد كان أكثرهم من المسلمين السنة ، وبينهم اقلية من المسيحيين والدروز والمسلمين الشيعة ، ويتكلمون جميعا اللغة العربية ، ويعتبرون أنفسهم عربا . وكان ٦٥٪ تقريبا من العرب الفلسطينيين مزارعين يعيشون فى نحو ٥٠٠ قرية حيث تنمو الحبوب والفواكه والخضروات . وقد بنيت المـدن الفلسـطينية الرئيسية ـــ وهى نابلس والقدس والناصرة وعكا ويافا واريحا والرملة والخليل وحيفا بأيدى العرب الفلسطينيين الذى استمروا يعيشون فيها حتى بعد ان طغى عليها تسلل المستعمرات الصهيونية . ووجدت أيضا فى ذلك الحين طبقة فكرية ، وعلمية فلسطينية جديرة بالاحترام ، وبدايات للصناعة الحديثة ، ووعى وطنى على أعلى درجة . كما كانت تـدور الحيـاة الفلسـطينية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية الحديثة حول نفس القضايا السائدة فى المنطقة ، وهى قضايا الاستقلال ومقاومة الاستعمار ، الا انـه كان على الفلسـطينيين ان

(*) آثرت الاخذ من النص الاصلى فى كتاب المسالك والممالك للاصطخرى ، فى حدود النص الانجليزى . (المترجم) .

يكافحوا ضد تركة الحكم العثمانى ، ثم الاستعمار الصهيونى ثم سلطة الانتداب البريطانى (بعد الحرب العالمية الاولى) جميعها تقريبا . وكان الفلسطينيون جميعا ، وبلا استثناء يشعرون بانهم جزء من الصحوة العربية الكبرى التى كانت تموج بالمنطقة فى السنوات الاخيرة من القرن التاسع عشر ، وكان هـذا الشعور هو الذى ترتب عليه منطقيا ذلك التاريخ الحديث الملىء بالتمزق . وقد شكل الكتاب والمفكرون الفلسطينيون امثال محمد عزت دروزة ، وخليل سكاكينى وخليل بيداس ، ونجيب نصار ، والتنظيمات السياسية مثل الفتوة ، والنجادة ، واللجان العربية العليا ، وهيئة التحرير الوطنى (التى أكدت فكرة أن القضية الفلسطينية يمكن ان تحل فقط بيد العرب واليهود معا (٥) ، هؤلاء جميعـا شكلوا جبهات وطنية كبيرة وسط السكان ، واخذوا يوجهون المجتمع الفلسطينى « غير اليهودى » ، ويبرزون الهوية الفلسطينية فى وجـه كل مـن الحـكم البريطانى والاستعمار الصهيونى على حد سواء ، يقويهم شعور بالانتماء الى جماعة قومية متميزة بلغتها (وهى اللهجة العربية الفلسطينية) واحسـاس جماعى خاص (مهدد من الصهيونية بوجه خاص) وقائم بذاته .

وقد تعرض هذا المجتمع الفلسطينى للتفكك والتشتت . وحتى الحقيقـة التاريخية الخاصة بوجود فلسطين ككيان من قبـل ، والفلسطينيين كشعب اصبحت محل خلاف وصورت على أنها وهم مشكوك فى صحته واصالته .

وعادة ما ننسى أن تدمير فلسطين امر حديث جدا ، وتصف الاستاذة جانيت ابو لغد كلا من تفرد وحداثة هذه المأساة ، وكتبت عن تمزيق المجتمـع ، الفلسطينى وتشتته تقول :

« باستثناء ابادة شعب تسمانيا ، لا يعرف التاريخ الحديث حالات تـم فيها استئصال فعلى بالكامل للسكان الاصليين لقطر ، واحلال سلالة غريبـة محلهم فى فترة وجيزة لجيلين فقط ، الا تلك المحاولات التى تجرى فى فلسطين منذ بداية القرن العشرين » . وتحذر من نسيان تلك « الحادثة المفزعة » لتدمير فلسطين بقولها : « أن ميلنا الطبيعى الى اعتبار ان ما هو قائم اليوم كان قائما دائما قد يمنحنا سلاما نفسيا ، انما هو على حساب باهظ بانكار الحقيقة . ويوم ننكر الواقـع التاريخى ، فان قدرتنا على الادراك ورد الفعل المناسـب مع الحاضر تكون قد دمرت هى الاخرى تماما (٦) » .

الصهيونيـــة :

لم يكن تدمير فلسطين نتيجة غير مقصودة لاحداث غير متوقعة ، بل كان ولا يزال جزءا اصيلا من الخطة الصهيونية لتحويـل فلسطـين الى « ارض اسرائيل » وعندما قال احد الجنود الاسرائيليين الشبان المشاركين فى غزو لبنان فى صيف سنة ١٩٨٢ : « اننى افضل أن ارى جميع الفلسطينيين وهم موتى ،

لانهم مرض اينما ذهبوا (٧) » ، فانما كان يعبر بصراحة عن فكرة اساسية قديمة العهد فى الحركة الصهيونية . وقد كان هذا الاتجاه سائدا على نطاق واسع — كما ذكرت لجنة كينج — كرين التى خلصت من استقصاءاتها فى فلسطين سنة ١٩١٩ الى ان « الصهاينة يتطلعون الى طرد الشعب الفلسطينى بصورة كاملة بالفعل (٨) .

وتركز اغلب كتابات التاريخ على الجهود الصهيونية لخلق وجود يهودى فى فلسطين . ولهذا السبب ، فانها تترك انطباعا مضللا بوجود جهد بناء شامل ولا جدال فى ان الهجرات الصهيونية قد اتت معها خلال فترة ما بين الحربين بطاقة بشرية ماهرة ، ورأسمال ، وبنت بعض القرى والمصانع ، غير ان الحقيقة الماثلة ، وان كانت اقل شيوعا ، هى أن نجاح الحركة الصهيونية ، بالتزامها بتحويل فلسطين الى دولة ذات « دين واحد » هو اليهودية (٩) ، كان يتطلب منها قدرا من التصميم على تحطيم المجتمع العربى الاصلى يماثل تصميمها على بناء الحياة اليهودية ، فى فلسطين ، كما عبر عن ذلك المرحوم د. فايز أ . صايغ بقوله :

« كما أن نبضة القلب تتكون من عمليتين متناغمتين — هما القبض والبسط (ضخ الدم للداخل وللخارج) — كذلك يتألف القلب الصهيونى ، ولا غنى عن أى منهما ، وهما فصل اليهود عن بلادهم الاصلية ونقلهم باعداد كبيرة الى فلسطين العرب الفلسطينيين الاصليين ، ونقلهم بأعداد وفيرة الى خارج فلسطين (١٠)» . ولكى تنجح عمليتا الضخ للداخل وللخارج ، كان لابد من تقويض المجتمع الفلسطينى من اساسه ، لان الشعب الفسطينى — كما يقرر الاستاذ ناثان واينشتوك (كان مقدرا له ان يصبح غريبا فى بلده ، على فرض انه سيسمح له بالبقاء حيث هو (١١)) .

وعلى اية حال ، فانه لم يكن مقدرا بالنسبة للعرب الفلسطينيين (ان يبقوا حيث هم) لان « المشروع الصهيونى يمثل نموذجا شاذا ومنحرفا للاستعمار (١٢) » . فهو لم يكن يهدف الى الاستغلال فقط . بل ايضا الى الطرد والتشريد . ولهذا السبب كان الصهاينة يرون منذ البداية ان الصراع مع الفلسطينيين ليس سوى عملية تصفية نهائية . وكان خلق اسرائيل يعنى بالضرورة تدمير فلسطين . وكما قال ر. فايتس ، الذى ظل لسنوات عديدة رئيسا لادارة المستعمرات فى الوكالة اليهودية : —

« يجب ان يكون واضحا فيما بيننا انه ليس هناك مكان لشعبين معا فى هذه البلاد . . ولا بديل هناك لنقل العرب من هنا الى الدول المجاورة،وترحيلهم جميعا دون ان نترك قرية واحدة او قبيلة واحدة (١٣) .

وقد تأكد القادة الصهاينة منذ البداية ، ان العقبة الكئود أمام تحويل فلسطين الى « ارض اسرائيل » انها فعلا وطن لآخرين غيرهم . وقد عوقت هذه الحقيقة الجهد الصهيونى لتعبئة التأييد اليهودى وغير اليهودى . ونجد احاد هاعام (آشرجينزبرج) ، وهو واحد من اشهر الشخصيات الادبية المعروفة فى الجزء الاول من هذا القرن ، والذى سافر الى فلسطين وشاهد الاثر المدمر للاستعمار الصهيونى على المجتمع العربى ، يقول : ان الصهيونيين (يعاملون العرب بحقد ووحشية ، ويحرمونهم من حقوقهم : ويؤذونهم بدون سبب ، بل ويتباهون بهذه الافعال) . وقد بلغ به النفور الى حد قوله عن الصهيونية : « انه اذا كانت تلك هى « المخلص المنتظر » ، فاننى لا ارغب فى ان ارى مجيئه (١٤) » .

وشبيه بذلك ، انه عندما حاول الصهاينة الحصول على موافقة ومساندة القادة الاسيويين الوطنيين فى الثلاثينات والاربعينات ، قوبلوا بالرفض بشدة بسبب الاثار المدمرة للصهيونية على المجتمع الفلسطينى . فقد قال غاندى لاحد المبعوثين الصهاينة . الذى جاء يطلب تأييده : (انكم تريدون تحويل الاغلبية العربية الى اقلية) . واضطر نهرو ، بسبب استخفاف الصهاينة بحقوق ومصالح المجتمع العربى الاصلى ، الى القول بان الصهاينة « قد تجاهلوا حقيقة هامة جدا . . وهى ان فلسطين لم تكن ارضا قفرا ، او خلاء غير مأهول ، بل كانت وطنا بالفعل لآخرين (١٥) » .

وتوضح البحوث الحديثة التى تعتمد على الملفات الصهيونية القديمة ان اعضاء الحركة الصهيونية لم يكونوا غافلين عن وجود الشعب الفلسطينى ، وكانوا فى الحقيقة مشغولين بما كان يشار اليه بانه القضية العربية (١٦) . اذ لم تكن فلسطين ارضا قديمة فقط ، بل كانت وطنا مأهولا بمجتمع معاصر ايضا. ففى سنة ١٩٢٢ ، وفى مستهل الاستعمار الصهيونى الخطير « كانت الكثافة السكانية فى فلسطين ٧٢ نسمة فى الميل المربع — وهى نسبة عالية بالمقارنة بدول المنطقة وخارجها (١٧) ولم تكن فلسطين ارضا مهملة ، فقد زارها لورانس اولنيفانت عام ١٨٨٧ ، وكتب فى كتابه (حيفا ، أو الحياة فى فلسطين الحديثة) ان وادى اسوريلون كان (بحيرة خضراء واسعة من القمح المتماوج ، وروابيه الريفية المرتفعة من خلالها كالجزر ، تمثل واحدة من اروع الصور الخلابة بخصوبتها الوافرة التى يمكن ان نتصورها (١٨) » . وقد خدمت هذه الصورة اغراض الصهيونيين فى انكارهم الحقيقة ، حيث حاول الاستاذ جون ريدى أن يثبت (انها كانت مناسبة لان يصور الصهاينة ومؤيدوهم ان فلسطين كانت ارضا قفرا مهملا قبل مجيئهم اليها) .

---

* لعله وادى نهر المقطع المتجه الى حيفا (المترجم) .

وعلى اية حال ، فانهم كانوا يعترفون بعكس ذلك فيما بين بعضهم البعض ، فيقول آرثر روبين ، مدير ادارة المستوطنات الصهيونية فى خطاب له الى زميل صهيونى انه من الصعب ان تجد ارضا تستحق الزراعة لم تكن قد زرعت فعلا من قبل (١٩) . ومن المثير ملاحظة انهم وسط حماسهم لاعلان اثر الاستعمار الصهيونى المفيد الذى يرمز اليه شعارهم المعروف عن ازدهار الصحراء ، لم يقلل الصهاينة من قدر الانجاز العربى فى فلسطين فحسب بل ضخموا ايضا من انجازاتهم بشكل خطير . ففى زيارته الاولى لفلسطين سنة ١٨٩٨ ، اعترف تيودور هرتزل بأنه كان يكذب من اجل هذا الغرض . وربما تساعدنا على توضيح هذه الصورة ، تلك الاقصوصة ، ففى تدوينه لاحدى يومياته بتاريخ ٣١ أكتوبر ١٨٩٨ بعد زيارته لمستشفى يهودى فى القدس ، كتب يقول : (بؤس وقذارة ، ورغم ذلك اضطررت من أجل المظهر ، أن اشهد فى دفتر الزيارات بنظافتها . وهكذا ينشأ الكذب (٢٠) .

وكما كان من مصلحة الصهاينة أن يصوروا فلسطين بأنها أرض قاحلة كان من المناسب لهم أيضا أن يصوروها بأنها ارض خالية ومهجورة — فقد رفعت الحركة منذ البداية شعار (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) . وفى اول الامر ، كان واضحا ان الصهاينة يميلون الى ان يكون هذا الشعار مقبولا بمعناه الحرفى . ونروى عن ذلك قصة ماكس نورده ، الرجل الثانى فى القيادة بعد هرتزل ، حيث يعرب لهرتزل عن استغرابه لدى معرفته لاول مرة بوجود العرب الفلسطينيين قائلا : (اننى لم ادرك ذلك ابدا ، ونحن نرتكب ظلما (٢١) .

ان الشىء الغريب فى هذا الرأى الصهيونى بعدم وجود الشعب الفلسطينى ، هو محاولتهم التمسك به بكل اصرار ، فيؤكد المبعوث الصهيونى الى غاندى فى الثلاثينات بكل وقاحة أن (فلسطين نفسها كانت ارضا بورا عندما ذهبنا اليها .. ولم يكن احد آخر يريدها .) (٢٢) وحتى بعدما اتم القادة الصهاينة غزو فلسطين سنة ١٩٦٧ ، استمروا فى اعادة تأكيد هذا الرأى . وفى سنة ١٩٦٩ قالت جولدا مائير ، التى أصبحت رئيسة للوزراء فيما بعد ، أن اهالى فلسطين (لم يكونوا موجودين .) (٢٣) .

ولما وجد الصهاينة استحالة الابقاء على خرافة عدم الوجود الفلسطينى بمعناه الحرفى غير الدقيق ، حاولوا التقليل من اهمية الوجود الفلسطينى . فعندما سأل صحفى ليفى اشكول سنة ١٩٦٩ عما اذا كان يوافق على ان للفلسطينيين كما للاسرائيليين الحق فى وطن قومى أجاب متسائلا : (من هم الفلسطينيون ؟ اننى عندما اتيت هنا كان يوجد ٢٥٠,٠٠٠ من غير اليهود — أغلبهم عرب وبدو ، لقد كانت صحراء أكثر من متخلفة ، لقد كانت لا شىء .) (٢٤) ووصف فلاديمير جابوتنسكى ،

الموجه المخلص لمناحم بيجين ، العرب بأنهم (رعاع صخابون يلبسون خرقا بدائية مزركشة .) (٢٥) وكان الباحث الصهيونى بريوروشوف يؤمن بان العرب الفلسطينيين (تنقصهم ثقافة من صنعهم ، وليست لهم خصائص قومية بارزة .) (٢٦) .

وبانكارهم وجود الشعب الفلسطينى ، وبالنظر اليهم نظرة غير انسانية كان الصهاينة يرمون الى اخفاء ضحايا استعمارهم عن العالم ، والظهور أمام الراى العام العالمى على أنهم يمثلون حركة تحرير وطنى للشعب اليهودى ، ولكن لم يكن ذلك أمرا ممكنا اذا عرفت الحقيقة بأنهم يدمرون مجتمعا وطنيا آسيويا يناضل من أجل حريته . ويعزو ماكسيم رودنسون هذا الاتجاه القوى الى انه ميراث أوروبى لقيادة الحركة الصهيونية ، ويقول بأن النظرة الاوروبية فى القرن التاسع عشر كانت تؤمن بأن (كل ارض خارج هذا العالم (أوروبا) تعتبر خالية — ليس من السكان ، بالطبع ، ولكنها تشكل نوعا من الفراغ الثقافى ، ولذا فهى مناسبة للاستعمار (٢٧) . ويرى كاتب آخر ان هذا الاتجاه الصهيونى كان لازما لتبرير الاستيطان الصهيونى ، فيقول : (ان الصورة غير الانسانية للفلسطينيين التى أوجدها الصهيونيون ونشروها كانت مفيدة فى ازاحة الجانب الاخلاقى ، وخلق جو من التبرير المشروع لاهداف الصهيونية ونشاطها (٢٨)) . وقد اعترف مناحم بيجين فى الواقع بصدق هذا الرأى ، وحذر جمعا من الاسرائيليين سنة ١٩٦٩ من خطر التسليم (بمفهوم فلسطين) قائلا : (انه اذا كانت هذه هى فلسطين ، وليست أرض اسرائيل ، فأنتم اذن فاتحون ولستم فلاحون للارض . انتم غزاة . واذا كانت هذه هى فلسطين فهى اذن تخص شعبا سكنها قبل أن تجيئوا (٢٩)) .

ولهذه الاسباب الايديولوجية والعملية ، كان لابد من ازاحة العرب الفلسطينيين عن طريق الصهيونية . واستعدادا لازاحتهم ، وهو ما تم القيام به الى حد كبير تحت ستار حرب ١٩٤٨ ، كان لابد من زعزعة المجتمع الفلسطينى وتقويضه . وهذا هو ما دابت الصهيونية على القيام به فى ظل حماية الانتداب البريطانى وسياسته باقامة (الوطن القومى) .

الانتداب البريطانى :

لقد بدات سياسة الوطن القومى رسميا بتصريح بلفور سنة ١٩١٧ الذى ايد الهدفين الصهيونيين المزدوجين لاقامة الوجود الصهيونى والقضاء على الوجود العربى فى فلسطين . وفى فقرة مختصرة تحدث عن الالتزام باقامة وطن قومى يهودى فى فلسطين ، وجعل العرب الذين كانوا يشكلون اكثر من تسعين فى المائة من السكان فى ذلك الوقت لا اهمية لهم بتسميتهم

، الجماعات غير اليهودية (٣٠) . ودعم هذا الالغاء المبدئى الشعب الفلسطينى سكانيا ، واقتصاديا ، وتشتيت جمعهم فى مواقع غريبة فى وطنهم . وقد احتاج الانتداب على فلسطين (١٩٢٣ - ١٩٤٨) الى القسوة الاجبارية ، ليس لتسهيل الهجرة اليهودية ، ونقل ملكية الارض فحسب بل أيضا لوضع (البلاد تحت الظروف السياسية والادارية والاقتصادية التى تؤمن اقامة الوطن القومى اليهودى (٣١) . وأعطت المادة « ٤ » من نظام الانتداب الوكالة اليهودية نصيبا فى ادارية البلاد .

وقد أدت ترجمة هذه التدابير الى سياسات عملية خلال الثلاثين سنة من الانتداب البريطانى تقريبا على فلسطين الى تحويل فلسطين الى اسرائيل بشكل مأساوى فريد . كما أدت الهجرة اليهودية ، من الناحية السكانية ، والتى فرضت بالقوة دون موافقة ، وضد المعارضة الصريحة للمجتمع الأصلى بواسطة قوة استعمارية أجنبية الى زيادة نسبة المستوطنين الغرباء من واحد الى عشرة سنة ١٩١٨ لتصبح واحدا الى اثنين سنة ١٩٤٧ . وتناقصت نسبة السكان الوطنيين بسرعة من أغلبية ساحقة الى اندلاع الحرب ، واكملوا عمليتهم بتحقيق هدفهم الثابت البعيد بخلق اغلبية اقلية صغيرة ، تتضاءل باستمراره ،فى سنة ١٩٤٨ ، استفاد الصهاينة من يهودية فى البلاد ، وأصبحت فلسطين العربية هى اسرائيل اليهودية نتيجة (للتخلص من السكان غير المرغوب فيهم) بصورة لا مثيل لها فى التاريخ الحديث . وفى نهاية السنة التالية (١٩٤٩) لم يتبق سوى ١٣٠٫٠٠٠ عربى فلسطينى فى المنطقة تحت سيطرة اسرائيل داخل (خطوط الهدنة) ، وأصبح نحو ٧٨٠٫٠٠٠ شخص مطرودين اما الى الاجزاء المتبقية من فلسطين حيث المواطنون من أبناء بلدهم أو الى الدول المضيفة المجاورة مثل لبنان وسوريا والاردن .

وبينما كانت فلسطين هدفا لعملية التحول السكانى هذه ، كانت تعانى كذلك من عملية تحول اقتصادى هام مشابه . فنقل ملكية الارض الى المستوطنين اليهود كان (ولايزال هدفا رئيسيا للحركة الصهيونية ولم يكن ذلك ضروريا لمجرد اسكان الهجرة الكثيفة من المستوطنين اليهود بل أيضا لضمان تقويض الاسس الاقتصادية ، للمجتمع العربى الزراعى السائد . فقد كانت سياسة الصهيونية لامتلاك الارض تحول المجتمع الفلسطينى الى جماعة من الفلاحين المعدمين .

وفى سنة ١٩٣٠ قام سير جون هوب سمبسون مبعوث الحكومة البريطانية الى فلسطين لدراسة أحوالها الاقتصادية بالتسجيل المدعم بالوثائق لنوع الحياة المتدهورة للعرب الفلسطينيين كنتيجة مباشرة للاستعمار الصهيونى ، فوجد ان السياسة الصهيونية بشأن الارض تقوم على امتلاك اية قطعة ارض

بالقوة أو بالسيم حتى وان كانت فوق ما تحتاجه لاسكان الهجرات اليهودية •
وادت هذه السياسة الى طرد المزارعين العرب الى جانب اهمال كثير من أراضى البلاد الزراعية وتدهورها . ومثال ذلك ما ذكره سمبسون عن أحد السهول الشمالية الخصبة فيما مضى ، وكيف انه أصبح الآن (بحـــرا من الاشواك ، خربته فئران الحقل نتيجة استيلاء الصهيانة على أراضى أكثر من حاجتهم او أكثر من قدرتهم على زراعتها (٣٢) •

ولم تحرم الحركة الصهيونية العرب الفلسطينيين من أرضهم فقط ، بل حرمت أيضا المزارع اليهودية ، وغيرها من المؤسسات التجارية والاقتصادية من الانتاج والجهد العربى • فقد كانت العقود الصادرة عن الوكالات الصهيونية التى تملكت معظم الأراضى التى حصل عليها اليهود تشترط تشغيل اليهود فقط ، وقد كتب سمبسون فى تقريره :

(كانت نتيجة شراء الارض فى فلسطين بواسطة الصندوق القومى اليهودى فى الواقع ، أن أصبحت الارض فوق حاجة الملكية الخاصة • لقد صارت ارضا لا يمكن للعرب ان يجنوا منها أية فائدة ، سواء الآن أو فى أى وقت فى المستقبل حيث لا يمكنهم أن يأملوا فى استئجارها أو زراعتها مطلقا ، بل انهم محرومون الى الابد من تشغيلهم فى هذه الارض بسبب شروط التأجير المتعسفة الصادرة من الصندوق القومى اليهودى) •

وانتهى الى أن مخاوف العرب من الأثر الهدام للاستعمار الصهيونى كان لها أساسا ، ولذلك دعا الى وجود رقابة وضبط :

من المستحيل ان نحتفظ بضبط النفس ونحن نرى انتشار المستعمرات التى تم طرد العرب منها فى فلسطين • ويرقب السكان العرب بالفعل نقـــل ملكية الارض الى الأيدى الصهيونية برعب وفزع • ولا يمكن صرف النظـر عن ذلك باعتباره لا مبرر له فى ضوء الســـــياسة الصهيونية التى شرحناها سابقا (٣٣) •

ويستمر التقـــرير فى الاشارة الى أنه بسبب امتداد سياسة العمل الصهيونية التى ساعد اتحاد العمال اليهودى (الهستدروت على فرضها الى جميع المؤسسات اليهودية أن اصبح الفلاح العربى المطرود لايستطيع أن يجد حتى الوظيفة غير الزراعية ، مما جعل مشكلة البطالة بين العرب (خطيرة وواسعة الانتشار ويرفض سمبسون الراى الصهيونى المتواتر بأن العامل العربى قد استفاد من الهجرة اليهودية فيقول :

(ان سياسة اتحاد العمال اليهودى ناجحة فى اعاقة تشغيل العـــرب فى المستعمرات اليهودية بجميع أنواعها ، ولذلك فاننا لا نتوقع فرجا من وراء التوسع فى المنشآت اليهودية ما لم يتم الاقلاع عن بعض الممارسات القائمة (٣٤) •

وقد هددت الهجرة اليهودية التفوق العددى للمجتمع العربى الاصلى ، وهز الاستعمار الصهيونى أسسه الاقتصادية ، وأصبح المجتمع العربى محروما من القدرة على حماية مستقبله فى بلده نتيجة حرمان فلسطين من أى قسط من الحكم الذاتى أثناء الانتداب البريطانى . وقد ألقت الحركة الصهيونية بكل ثقلها ضد ظهور أية مؤسسات ديمقراطية فى فلسطين لتمتع المجتمع العربى من تحقيق القدرة على الدفاع عن نفسه سياسيا • وقد دعا ذلك نهرو الى القول بأن الصهاينة (فضلوا الوقوف بجانب القوة الاجنبية الحاكمة ، وبذلك ساعدت على حجب الحرية عن غالبية الشعب (٣٥) . وقد عارض الصهاينة فى الواقع الحقوق الفلسطينية كلية لدرجة ان حاييم وايزمان ، الذى يعتبر ، فى العادة ، قائدا صهيونيا معتدلا كان يعتقد أن تضمين تصريح بلفور ، نصا يتعلق بالحقوق (المدنية والدينية) للعرب هو (تراجع مؤلم) فى المخططات الاولى التى أيدها الصهيونيون • وكان يرى ان مثل هذا النص (يمكن ان يترجم بوضع قيود على عملنا تعوقه تماما (٣٦) •

واذا كانت الحركة الصهيونية تعتقد بأن صيانة الحقوق المدنية والدينية للشعب الفلسطينى من شأنها ان تعوق المشروع الصهيونى ، فمن الواضح أنها كانت تعتقد بأنه من الخطر السماح لهم بممارسة حقوقهم السياسية كلية . وهذا هو السبب فى أنه عندما حاولت الحكومة البريطانية التلاعب بفكرة اقامة مجلس تشريعى لفلسطين فى الثلاثينات ، رفضتها اللجنة السياسية للمؤتمر الصهيونى صراحة باعتبارها (ضد روح الانتداب) (٣٧) • وكانت المعارضة الصهيونية لتطبيق أى قدر من الحكم الذاتى فى فلسطين معارضة قوية ، لدرجة ان وايزمان ، الذى حقق مكاسب للحركة الصهيونية اكثر من اى شخص آخر باستثناء ديفيد بن جوريون ، هوجم بضراوة عندما أبدى رغبته فى التفكير فى اقامة مجلس تشريعى حتى ولو حصلت فيه الاكثرية العربية على الاقلية فى تمثيلها وعندما استرجع هذه الحادثة العرضية فى وقت لاحق قال أنه تعرض بهذه المناسبة الى (أقسى هجوم تعرض له فى حياته) ، وقد سمى (بالمسترضى لعدوه) و (العميل البريطانى (٣٨) واستعمل الكتاب الصهاينة بين حين وآخر المنطق الاستعمارى الصريح لتبرير اعتراضهم على الحكم الذاتى ولو تحت الحكم البريطانى فى فلسطين • وظهر كتاب فى سنة ١٩٣٦ يقول بأن اقامة مجلس تشريعى يعتبر انتهاكا للتقاليد الاستعمارية البريطانية التى لا تسمح للسكان الوطنيين بالمشاركة فى ادارة البلاد (٣٩) •

وقد انزعج جوداه ، ماجينس رئيس الجامعة العبرية بالقدس ، من الاثر الخانق للاستعمار الصهيونى ، واعتبره عبئا على الضمير اليهودى لا يمكن تحمله وكتب فى سنة ١٩٣٠ ان الحكم الذاتى قد ادخل فى الدول المجاورة (فلما لا يدخل فى فلسطين اذن ؟) ، (الآن اليهود هنا ؟ ان الضمير اليهودى لن

يتحمل ذلك لفترة طويلة (٤٠) وعلى اية حال ، فانه الى ان انتهت فتـــرة الانتداب سنة ١٩٤٨ ، ظلت فلسطين ينقصها أى قدر من الحكم الذاتى · ومن ثم فقد كان العرب الفلسطينيون عاجزين عن منع تناقصها السكانى وتقويض الاوضاع المادية لحياتهم وبقائهم بشكل مستمر · واصبحت فلسطين مهيأة لتدميرها ماديا ، كما حدث بصورة نهائية فى حرب التقسيم ·

الوضع والتنظيم السياسى للفلسطينيين اليوم :

يوجد فى العالم اليوم اكثر قليلا من ٤٫٥ مليون فلسطينى ، منهم مـن ولد فى فلسطين هو وذريته ، او فى مناطق اخرى بعد الطرد والتشتيت ولا يتمتع هؤلاء الناس أو يمارسون اية حقوق سياسية كفلسطينيين فى أى مكان . ورغم ذلك نجدهم ملتزمون بشدة بالعمل على حصولهم على وضع ســـياسى عادى ، يتعهدون بالكفاح من أجل تقرير مصيرهم الوطنى بما فى ذلك حـــق الاستقلال والسيادة فى فلسطين ، وحق العودة ، والحق فى الهوية القومية . وقد نجح الفلسطينيون خلال اكثر من العقود الاربعة الماضية فى الحفـــاظ بدرجة كبيرة على هويتهم ، واختيار ممثلهم الشخصى ، وهى منظمة التحرير الفلسطينية وذلك بالرغم من المحاولات المنظمة لمحو كليهما (٤١) .

وترجع جذور الاوضاع الراهنة للشعب الفلسطينى الى ذلك الحـــدث التاريخى المتمثل فى تمزيق فلسطين فى مايو سنة ١٩٤٨ . فقد ترتبت نتيجتان على ظهور اسرائيل آنذاك على جزء من فلسطين : أولا طرد الفلسطينيين مـــن الاراضى التى أصبحت تحت سيطرة اسرائيل وسلطتها ، وأصبح المجتمع العالمى يعرفهم منذ ذلك الحين باللاجئين الفلسطينيين ، وقد بلغ عددهم فى الاصـــل حوالى ٧٨٠٫٠٠٠ نسمة وهم الآن أكثر من مليونين . وأصبح التقدم الاجتماعى والاقتصادى والتعليمى للاجئين مسئولية مشتركة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للامم المتحدة (اونروا ــ التى انشأتها الامم المتحدة عام ١٩٥٠) ، والدول العربية العربية (المضيفة) ، وأخيرا منظمة التحرير الفلسطينية · وثانيا ، ضم بقية اراضى فلسطين قانونيا واداريا الى الاردن ومصر · وقد أخذ الجـــزء الفلسطينى الواقع تحت الحكم الاردنى فى آخر الامر صفته الشرعية بموجب قانون اصدره البرلمان الاردنى عام ١٩٥٠ وأصبح يعرف بعد ذلك بالضـفة الغربية ، اما الجـــزء الجنوبى من فلسطين الذى وقع تحت سيطرة مصر وادارتهـا فأصبح يشار اليـــه (بقطاع غـــزة) . وقد وقع كلا الجزاين تحت الاحتلال الاسرائيلى سنة ١٩٦٧ . وهكذا أصبحت منطقة الانتداب الفلسطينية كلها تقع الآن بكاملها تحت سيطرة اسرائيل ·

وفيما بين عامى ١٩٤٨ ، ١٩٦٧ لم تعد فلسطين قائمة بكيانها السياسى والادارى . وفى قطاع غزة فقط ، كان من الممكن استعمال اصطلاح فلســطين

دون التعرض لاساءة او عقاب سياسي . والغت اسرائيل اسم فلسطين من قطاعها ، وطورت الاردن الاسم تدريجيا حيث اصـــدرت اداة التعريف قرارا سنة ١٩٥٠ بالغاء استعمال كلمة فلسطين للاشارة الى الاجزاء الواقعــة في نطاق سلطتها ، واستبدلته بتعبير الضفة الغربية ، وكان لابطال استعمال لفظ فلسطين معنى سياسي وتشريعي واجتماعي يناسبه فحصـــل الفلســطينيون الذين استمروا يعيشون في فلسطين تحت الانتداب على تحديد قانوني جديد بسلسلة من القرارات الاسرائيليـــة . وبموجب قانون الجنسية والتجنس ، سمحت اسرائيل للفلسطينيين الذين كانوا يقيمون فعلا في مساكنهم عند اجراء الاحصاء الاسرائيلي الاول سنة ١٩٤٩ بامكانية حصـــولهم على الجنســـية الاسرائيلية . ويعتبر هؤلاء الافراد وسلالتهم من الابناء عربا اسرائيليين اليوم. واندمج عدد كبير من الفلسطينيين الموجودين فعلا في المنطقة داخل اسرائيل ، ولكن الذين لم يكونوا في مساكنهم المعتادة وقت اجراء الاحصاء أصـــبحوا يعرفون في القانون والسياسة الاسرائيلية بالاشخاص (الغائبين — الحاضرين) وقد حصل الفلسطينيون المقيمون بالضفة الغربية ، بصرف النظـــر عن محلهم الاصلي ، على الجنسية طبقا للقانون الاردني ، ومنح الفلسطينيون الذيـــن لجأوا الى الضفة الشرقية من نهر الاردن نفس المزايا . اما اولئك الذين بقوا في قطاع غزة أو لجأوا الى سوريا ولبنان والعراق ومصر فقد أصبحوا بلا دولة ولكنهم يخضعون لسلطة وقوانين الدول التي يقيمون فيها . ونجح عدد قليل من أفراد هذه الفئة الاخيرة في الحصول أخيرا على جنسية الدولة التي يعيشون فيها . وتظل الاغلبية العظمى من هذه الفئة من الفلســـطينيين اليوم — وقـــد يزيدهم عددهم عن المليون — بدون دولة .

ونتيجة لهذا التفتيت والتشتت ، لم تعـــد للفلسطـــينيين سلطة حقيقية ترشدهم ، وتوجه وتصون حياتهم القومية . ولم تعد لهم سلطة على مؤسساتهم الثقافية أو الاجتماعية أو الاقتصادية ، واصبحت اية حقوق قد ينالونها تنشأ عن وضـــــعهم الجديد ، اكثر مما تنشـــــأ عن سلطة حكومة فلســـطينية متكاملة (٤٢) .

وفي لغة السياسة ، لم يكن ليسمح للفلسطينيين المقيمين في أي مكان عدا قطاع غزة حتى سنة ١٩٦٧ بتنظيم أنفسهم في أحـــزاب سياسية أو القيام بحملة لاي برنامج سياسي فلسطيني ، وهكذا كانوا محرومين من اية قنوات شرعية معتمدة لتكوين قيادة سياسية يمكنها التحدث عنهم أو تمثيل الجماعات السياسية الفلسطينية بكاملها . وحتى اليوم ، وعلى فرض تمثيل منظمـــــة التحـــرير الفلسطينية قيـــادة الشعب الفلسطيني ، يصادر أي نشاط سياسي خاصة ما استهدف منه دعم الحقـــــوق الفلسطينية الاجتماعية والاقتصـــادية معظم الدول التي يقطنهـــا الفلسطينيون . وبسبب هذه القيـــود الخارجية ، وعندما يرغبون في تنظيم أنفســـهم في اية مناسبة قومية فلسطينية فانهم يضطرون

الى أدائها فى صورة غير أو شبه قانونية . واليوم ، فان الحركات الفلسطينية التى يقرها المجلس الوطنى الفلسطيني ، والتى تعتبر بصفة عامة عناصر شرعية لمنظمة التحرير الفلسطينية تنظم أساسا للغرض المحدد وهو تحرير فلسطين . وهى تقوم بالضرورة على هامش الشرعية القانونية فى الدول التى يؤدون فيها عملهم . وفى فلسطين تحت الاحتلال الاسرائيلى ، يعتبر اى ارتباط مع أى تنظيم فلسطيني أو هدف قومى يتفق والميثاق الوطنى الفلسطينى مخالف للقانون الاسرائيلى أو لقرارات سلطات الاحتلال العسكرى الاسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة .

ولم تمنع هذه الصعوبات الفلسطينيين من الاشتراك فى العمل السياسى الذى تحركه أساسا ضرورتان ملحتان لا يمكن تجاهلهما : أولاهما ، استمرار الكفاح لاستعادة الحقوق الوطنية ، وثانيهما ، توجيه الفرص السياسية القائمة لتحسين الظروف الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية . وقد أدت هذه الاهتمامات الغالبة الى ظهور نموذجين من التنظيم السياسى : الاول ، الممثلون للفلسطينيين فى كل مكان ، والثانى ، أولئك المرتبطون بصورة أكبر بالدول التى يعيش فيها الفلسطينيون .

منظمة التحرير الفلسطينية :

منذ تقسيم فلسطين ، يكافح الفلسطينيون لتكوين سلطة قادرة على تكريس جهدها لقضية الحقوق الوطنية الطبيعية لشعبها . وفى هذا الصدد ، يمكن تحديد ثلاثة نماذج لهذه السلطة ، أولها ، اللجنة العربية العليا ، والتى عملت فوق التراب الفلسطينى خاصة منذ عام ١٩٤٦ ، ولاتزال قائمة من الناحية النظرية ، وان كانت غير مجدية من الناحية العملية . وقد مثلت هذه اللجنة برئاسة الزعيم الوطنى الفلسطينى الحاج أمين الحسينى الاجماع الوطنى العربى الفلسطينى ، ولقيت مساندة من الاحزاب السياسية الفلسطينية التى عملت فى فلسطين ، واعترفت بها بشكل ما الحكومات العربية باعتبارها صوت الشعب الفلسطينى حتى حققت منظمة التحرير الفلسطينية صفتها التمثيلية . وللجنة العربية العليا مكتبان يقوم عليهما زملاء قدامى لمفتى القدس ، أحدهما فى المملكة العربية السعودية ، والاخر فى نيويورك . وقد اصبحت ذات تاثير عملى قليل منذ ظهور منظمة التحرير الفلسطينية . ولعل اكبر عمل أدته هو الحفاظ على الامال الفلسطينية حية فى عالم يتسم بعدم المبالاة . وفى اثناء فترة الغياب السياسى الفلسطينى فيما بين عامى ١٩٤٨ الى ١٩٦٤ ، كان مكتبها الرئيسى فى القاهرة يصدر مذكرات دبلوماسية حول قضية فلسطين ، ويسجل الانتهاكات الاسرائيلية

للحقوق الفلسطينية ، ويحاول زيادة وعى الدول العربية بالتأكيد على مسئوليتها التاريخية نحو القضية الفلسطينية . وعلى المستوى الذاتى ظلت اللجنة العربية العليا رمزا لالتزام الشعب الفلسطينى المشتت والممزق تجاه فلسطين .

ومن الانجازات المشكوك فى نتيجتها قيام اللجنة العربية العليا بتكوين حكومة عموم فلسطين نظرا لان فلسطين كانت مقسمة بين عدة سلطات غير فلسطينية . فعندما اجتمع مؤتمر اريحا تحت رعاية الاردن سنة ١٩٤٨ للتصديق على مبدأ ضم الاردن لما أصبح يعرف بالضفة الغربية ، نظمت اللجنة العربية العليا عقد مجلس وطنى فلسطينى فى غزة ، وأعلن المجلس ، ضمن أشياء أخرى ، تشكيل حكومة عموم فلسطين ، وتعيين مجلس للوزراء ، وحاز كل من المجلس الوطنى ومجلس الوزراء على موافقة الادارة المصرية . وكان مجلس الوزراء معدا ليباشر الحكم . الا انه فى الواقع لم يكن قادرا على ممارسة صلاحياته حتى فى قطاع غزة . وظلت وظائفه تتضاءل حتى اقتصرت على اصدار جوازات السفر للسكان الفلسطينيين فى قطاع غزة . وقد اعترفت الحكومة المصرية بهذه الجوازات ، وكان من الصعب على حامليها السفر لابعد من مصر . وقد ظلت الحكومة قائمة من الناحية الرسمية ، ولكنها انتهت فى واقع الامر بوفاة رئيس وزرائها السيد أحمد حلمى عبد الباقى سنة ١٠٥٧ (٤٣) .

أما آخر تنظيم سياسى وطنى ظهر من بين حطام الحياة الفلسطينية ، فكان منظمة التحرير الفلسطينية . وقد حدث ذلك عام ١٩٦٤ فى أعقاب انعقاد المجلس الوطنى الفلسطينى فى القدس فى شهر مايو بمبادرة من السيد أحمد الشقيرى الزعيم الوطنى الفلسطينى السابق النشط . وبتأييد وموافقة الحكومة المصرية (ثم بارشاد من المرحوم جمال عبد الناصر) ، عقد المجلس العزم على تكوين منظمة التحرير الفلسطينية وفوضها بتعبئة الشعب الفلسطينى لمهمة تحرير فلسطين . وبداية بسيطة جدا طلبت منظمة التحرير الفلسطينية ، بعد فترة وجيزة ، الحصول على شرعيتها من جموع الشعب الفلسطينى . وفى مؤتمر القمة بالرباط سنة ١٩٧٤ ، اعترفت الدول العربية بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعى للشعب الفلسطينى . واخيرا ، حصلت المنظمة على اعتراف مماثل من غالبية دول العالم . وفى نفس العام وافقت الجمعية العامة على قرار بدعوة منظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة فى اعمال الامم المتحدة كمراقب .وحصلت على وضع مماثل فى كافة وكالات الامم المتحدة المتخصصة . وللمنظمة فى الوقت الحاضر بمثابة الدبلوماسية ـ الاعلامية فى كل وكالات الامم المتحدة ، وفى عواصم نحو تسعين دولة .

النشاط السياسى فى دول الاقامة والشتات : —

برز الدافع لتكوين منظمة سياسية وطنية ، مباشرة ، من خلال النشاطات السياسية الفلسطينية فى فترة الانقطاع . وكانت الحاجة الى مثل هـذا النشاط — المحرم دائما فى ذاته ، ولذا كان متقطعا وناقصا قبل سنة ١٩٦٤ — واضحة وملحة على الدوام . وكان التمييز القائم ضد الفلسطينيين فى كل مكان ، والظروف المهينة اجتماعيا واقتصاديا داخل اسرائيل وفى المنفى ، والسيطرة والمعالجة الروتينية للسياسات الفلسطينية من جانب ادارات الأمن فى الدول (المضيفة) التى تعمل عادة تحت اشراف بعض الادارات التى تبدو غير ضارة مثل ادارات فلسطين أو شئون اللاجئين ، وزارات الداخلية والشئون الاجتماعية) ، كانت هذه جميعا هى العوامل الرئيسية فى تشكيل الارادة السياسية الفلسطينية ، وشحذ الرغبة فى استعادة الحقوق الوطنية وهى رغبة كان يزداد التعبير عنها بكلمات نضالية ، ولكن قبل منتصف الستينات كان النشاط السياسى الفلسطينى يأخذ اشكالا لا تتصل بشكل مباشر بآمال الفلسطينيين الوطنية ، ومثال ذلك ان الفلسطينيين الذين حصلوا على الوضع الوطنى الاسرائيلى كانوا كثيرا ما يشاركون فى سياسة الحركة الشيوعية المعارضة ، وقد قبلت الحركة مبدأ السيادة الاسرائيلية ، الا ان برنامجها التاريخى يطالب باقامة دولتين فى فلسطين ، واحدة عربية والأخرى يهودية ، وفضلا عن ذلك فان الحركة الشيوعية الاسرائيلية تنظر الى الصهيونية على انها أداة استعمارية تمارس التمييز فى الواقع العملى ضد الاقليات القومية والفقراء . كما ان العرب الفلسطينيين الذين بقوا فى اسرائيل — وخضعوا بذلك لنظامها العسكرى ، واصبحوا محرومين من الاشتغال على وجه الخصوص بأية احزاب سياسية فلسطينية — قد وجدوا ملجأ جاهزا لطاقاتهم وآمالهم السياسية فى برنامج وانشطة الحركة الشيوعية . وهكذا اصبح تأييدهم للمرشحين الشيوعيين احدى الوسائل الهامة لتأكيد مطالبتهم بالحقوق السياسية الوطنية . وقد اعتبرت المحكمة الاسرائيلية العليا المحاولة الفلسطينية الوحيدة لتنظيم حزب سياسى عربى خاص فى اسرائيل — وهو حركة الارض — محاولة غير قانونية ، وعوقب انصارها على يد الحكومة الاسرائيلية .

وفى مكان آخر ، نجد ان الفلسطينيين فى الاردن فقط كان يمكنهم المشاركة قانونا فى السياسة بصفتهم أردنيين — وسمح النظام السياسى الاردنى للمنطقة الفلسطينية فى الضفة الغربية بالمشاركة فى التمثيل النيابى ، على الاقل فى فترة انعقاد البرلمان ، واعطى الفلسطينيين نصيبا متساويا مع الاردنيين فى مجلس الاعيان (الذى يعينه الملك غالبا) . وقد ادى التقلب السياسى داخل النظام الاردنى ، على كل حال ، الى عدم استقرار الحياة البرلمانية . وصعوبة التنبؤ بهـا . ومهما يكن ، فمن المهم ان نلاحظ شيئين بهذا الشأن : انه حتى سنة ١٩٦٧ لم ينشىء الفلسطينيون داخل النظام الاردنى ايـة احـزاب سياسية

فلسطينية خاصة بهم ، ولم يرتبطوا عمليا بأية سياسة عرقية معارضة ، وما وجد من معارضة كان صادرا عن نزاعات اردنية لا فلسطينية .

ولم يكن للفلسطينيين فى اى بلد عربى آخر الحق فى الاشتغال بأى نشاط سياسى من أى نوع ، الا ان سجل التاريخ يبين بوضوح تام انهم كانوا يشتغلون فعلا بالسياسة فى هذه البلاد . وبصفة عامة ، فأنهم شاركوا فى الحركات السياسية التى تهم كل العرب ، وكذلك فى الحركات الاصلاحية ، والحركات الملتزمة بتحرير فلسطين ، وتصفية الاستعمار فى المنطقة العربية ولذلك نشط الفلسطينيون فى سوريا ولبنان والاردن والعراق فى تكوين حزب البعث وتطويره ومن خلال هذا الحزب وأمثاله شغلوا مناصب قومية بارزة . ولكن يجب أن نلاحظ انه بالرغم من رفعة مكانتهم فانهم لم يطلبوا ولم يمنحوا حقوق المواطنة فى هذه البلاد . ونظرا لانجذاب الفلسطينيين باعداد متزايدة بفرص التنمية الجديدة فى منطقة الخليج العربى ، فانه لم يكن لوجودهم هناك ثقل سياسى بنفس الدرجة ، ذلك ان وضعهم كأجانب ونوع الحياة السياسية المقيدة فى هذه البلاد الى حد ما لم يشجع على المشاركة الفلسطينية النشطة فى السياسة .

وعلى مستوى آخر ، كانت التنظيمات العامة القائمة على المبادىء الفلسطينية العرقية محرمة صراحة وضمنيا فى كل هذه المناطق . وهكذا لم يكن مصرحا للفلسطينيين بتشكيل تنظيمات عمالية خاصة بهم ، أو تكوين تجمعات مثل نقابات للمعلمين او اتحادات الكتاب . وكل جماعة تكونت فعلا لم يكن تكوينها بصفة رسمية ، وكانت تمارس عملها بصفة عامة دون موافقة من الدولة .

ونجد الاستثناء الوحيد فى قطاع غزة . فقد كان للفلسطينيين هناك حرية تأكيد هويتهم الوطنية ، وقد قاموا بذلك تنظيما سياسيا خلال الفترة من ١٩٤٨ — ١٩٦٧ . ولم تعترض الادارة المصرية على الهوية الوطنية لسكان قطاع غزة ، ولم تر فى آمالهم الوطنية تعارضا مع السياسةالوطنية المصرية . وكانت حصيلة هذا الانسجام ظهور المجلس التشريعى الفلسطينى الذى كان يمثل السكان — الاصليين واللاجئين — فى قطاع غزة وبالمثل ، سمح للفلسطينيين هناك بتنظيم انفسهم مهنيا ونقابيا طبقا للتشريعات الصادرة لهذا الغرض(٤٤).

ومن هذا المفهوم للمشاركة النشطة فى السياسة المعارضة — وبالوعى المتزايد للصعوبات التى تكتنف التأييد الفعال من الدول العربية للطموحات الفلسطينية — بدأ الشعور الوطنى الفلسطينى آخر الامر فى تدعيم ذاته بانشاء منظمة التحرير الفلسطينية التى كافحت لمدة ثلاث سنوات بعد ظهورها لاثبات وجودها ومواصلة تأكيد برنامجها لانصارها الفلسطينيين المشتتين فى المنطقة العربية والعالم . وفى تلك السنوات كان التحدى لشرعيتها يأتى أساسا من ثلاثة مصادر مختلفة . فمن الواضح أنه كان يأتى من اسرائيل التى رأت فى

المنظمة تجسيدا جديدا للشعب الفلسطيني القديم الذى اعتقدت انــه اختفى تماما . كذلك كان يأتى من الاردن الذى احس بتهديد لنظامه السياسى ، وبتحد لضمه للضفة الغربية اذا ما اتفق الفلسطينيون هناك مع منظمة التحـــرير الفلسطينية . وكان التهديد الثالث للمنظمة يأتى من المناضلــين الفلسطينيين الدين كانوا ينظمون انفسهم سرا من اجل التحرير الوطنى ، ويرون ان المنظمة وقادتها هم أدوات فى يد سياسة مصر العربية الشاملة ، وانهم ليسوا مناضلين بالدرجة الكافية ، أو مستقلين فى صنع قرارهم . وقد تحــولت كل هــذه التحديات لشرعية منظمة التحرير فى اعقاب هزيمة اسرائيل للدول العربية فى حرب يونيــة ١٩٦٧ .

اثــر حـــرب ١٩٦٧ :

كان أول ما نتج عن الحرب هو احتلال اسرائيل العسكرى للضفة الغربية وقطاع غزة . وبذلك اصبحت كل فلسطين التى كانت تحت الانتــداب تحت سيطرة اسرائيل ، وكان معنى هذا الاحتلال من الناحية الانسانية طرد حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ فلسطينى من الضفة الغربية ، واخضاع اكثر من مليون فلسطينى آخر ليصبح المجموع ٤٫١ مليون عربى فلسطينى تقريبا تحت سلطة اسرائيـل بالكامل (٤٥) . ومنذ سنة ١٩٦٧ ، والاحتلال الاسرائيلى يعمل بصورة منتظمــة على الحاق الاذى بالشعب الفلسطينى . فأولا ، بدات عملية طرد الفلسطينيين من الاراضى المحتلة فى وقت مبكر ، وادت الضغوط الاقتصادية والسياسيـــة المختلفة ، والطرد المباشر للعناصر الملتزمة سياسيا الى استنزاف خطير للسكان (انظر الجدول رقم ٧) . وثانيا ، كانت سياسة اسرائيل فى بناء مستوطنـــات استعمارية بالضفة الغربية وغزة (وقد تم بناء اكثر من ١١٠ مستوطنات) تعنى مصادرة الاراضى المملوكة للفلسطينيين ، وضم القدس ، وتوطين نحو مائـــة الف يهودى أسرائيلى فيها . وقد صادرت اسرائيل حتى الان اكثر من ٥٠٪ من اراضى الضفة الغربية وغزة . وثالثا ، قامت اسرائيل بتحويل مصادر الميــاه الثمينة بالضفة الغربية لتمد بها مستوطناتها ، وتسبب معاناة بالغــة للقــرى العربية من الجفاف ، وتكره المزارعين الفلسطينيين على ترك مصـــادر الرزق الوحيد لديهم . ورابعا ، نتج عن الاحتلال الاسرائيلى اضطراب اقتصادى خطير وبطالة عامة حتى يضطر الفلسطينيون فى اسرائيل للعمل بأدنى الاجور وتحت أسوأ الظروف واقساها . وأصبح الفلسطينيون مصدر الايدى العاملة الرخيصة للاقتصاد الاسرائيلى . وأخيرا ، وجدت اسرائيل فى الضفة الغربية وغزة منفذا لتصريف منتجاتها الصناعية بحيث اصبحت هذه المناطق هى (الشريك التجارى) الثانى لاسرائيل فى وقت قصير نسبيا . وترتب على استغلال اسرائيل لهـــذه السوق المغلقة على منتجاتها شلل للقاعدة الاقتصادية للفلسطينيين فى الضفة الغربيــة وغــزة .

وقد استهدف من وراء مثل هذه السياسة على المستوى الاجتماعى والثقافى والاقتصادى ، استبدال نظام الاحتلال العسكرى الظالم بنظام الفصل العنصرى للسكان الفلسطينيين تحت الحكم الاسرائيلى.ويلاحظ أن كل سياسات اسرائيل فى الضفة الغربية وغزة كانت مستمدة من التاريخ البعيد منذ الايام الاولى للصهيونية وتجاهل العرب الفلسطينيين وتشويه سمعتهم . واذا كان الهدف النهائى لاسرائيل بالنسبة للضفة الغربية وغزة لا يزال محل مناقشة فانه من المؤكد بالفعل أن اسرائيل تهدف ، سواء بالضم الشرعى او غير الشرعى ، الى طرد الفلسطينيين وتحويل من يتبقى تحت حكمها الى سكان تابعين لها بصفة دائمة .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف ، دابت اسرائيل منذ البداية ، وبصفة منتظمة ، على انتهاك حقوق الانسان الفلسطينى تحت احتلالها . فمارست رقابة مشددة قاسية على المؤسسات الثقافية ، ورفضت الالتزام بمختلف النصوص الواردة فى اتفاقية جنيف بشأن الاراضى المحتلة ، واستخفت بكل قرارات الامم المتحدة التى تنادى بذلك . والقت القبض على الآلاف من الفلسطينيين بتهمة مقاومة الاحتلال العسكرى ، وهدمت الآلاف من منازلهم . وبلغ انتهاك الحقوق الانسانية للفلسطينيين ذروته بقيام الحاكم العسكرى الاسرائيلى للضفة الغربية وغزة بطرد العمد المنتخبين فى كل المدن والقرى الكبرى الفلسطينيه تقريباً فى محاولة منه لاحباط التأييد السياسى لحق تقرير المصير الفلسطينى ، ولو فى صورته البسيطة الواردة فى اتفاقية كامب ديفيد أو المشار اليها بصورة عابرة فى بيان الرئيس ريجان فى الاول من سبتمبر ١٩٨٢ (٤٦) .

لقد كان احتلال الضفة الغربية وغزة أحد نتائج حرب يونية سنة ١٩٦٧ ، وكانت النتيجة الثانية ، غير المقصودة هى تحويل منظمة التحرير الفلسطينية الى تعبير نضالى فعال مستقل للمسيرة الفلسطينية الى التحرير . وكان ذلك الى حد ما ، ردا على ضعف الدول العربية الذى أظهرته هزيمتها السهلة على يد اسرائيل ، تلك الهزيمة التى شجعت على عدم الثقة فى سياسات المواجهة العربية لاسرائيل ، وعلى الشك فى الوصاية السابقة للدول العربية على الفلسطينيين . وهكذا سادت التنظيمات القتالية فى منظمة التحرير الفلسطينية وتولت قيادتها . وقد كانت فصائل المقاومة الفلسطينية التى شكلت تنظيمات سرية أو شبه قانونية مثل فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وغيرهما ، تشكك فى قدرة منظمة التحرير الفلسطينية وهى تحت سيطرة الحكومات العربية على تنفيذ البرنامج الفلسطينى للتحرر الوطنى . ولذلك فان هزيمة اسرائيل للدول العربية كانت تعنى أيضا هزيمة ذلك الجناح من

القيادة الفلسطينية الذى كان يتبع سياسات تتوافق مع سياسات الدول العربية . وعندما اجتمع المجلس الوطني الفلسطيني في القاهرة سنة ١٩٦٩ سمح لهؤلاء المقاتلين بتولي قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ، ومنذ ذلك الحين ، فانه لا يمكن مناقشة اية مسألة فلسطينية بشكل موثوق فيه دون مشاركة فعالة من منظمة التحرير الفلسطينية المستقلة ودون اهتمام شديد بالأسس والرؤية التى تضع خطوطها المنظمة بشكلها الجديد .

منظمة التحرير الفلسطينية بعد حرب ١٩٦٧ :

الاهداف السياسية

حدد الميثاق الوطنى الفلسطينى المقرر سنة ١٩٦٤ من المجلس الوطنى الفلسطينى المبادىء والافكار العامة التى يلزم أن يسترشد بها العمل الفلسطينى. كما رسم الخطوط العريضة ، رغم غموضها الشديد ، للطريق الى تحقيق الهدف المرسوم لتحرير فلسطين (التى كانت تعنى آنذاك اسرائيل ما قبل عام ١٩٦٧ ، وما بعد عام ١٩٤٨ فقط) . وعرض المجلس الوطنى سنة ١٩٦٨ وما أعقبته من مناقشات مستفيضة لاحد الحلول للمسألة الفلسطينية ، لا يتفق فقط مع تقرير المصير للفلسطينيين بل يتسق أيضا مع حقيقة الوجود اليهودى الاسرائيلى فى فلسطين / اسرائيل . وعالج الحل المطروح بصراحة الوضع الشاذ لكل من الضفة الغربية وغزة . واقترحت جماعات المقاومة ذات التنظيم العالى فى منظمة التحرير تصورا لقيام دولة علمانية ديمقراطية فى فلسطين لا تلعب الطائفية أو القومية أى دور فيها . وبذلك تصبح كل من الصهيونية والقومية العربية مرفوضة كأساس للدولة الفلسطينية فى المستقبل . وكان المفهوم الضمنى لهذه الرؤية هو الادراك الواعى بوجود شعبين على نفس الارض أحدهما من العرب الفلسطينيين والآخر من اليهود الاسرائيليين . ولا يستتبع انتساب الفلسطينيين قوميا الى الشعب العربى شيئا فى التنظيم السياسى لفلسطين المقترحة ، وبالمثل لا تستتبع الصلة الدينية للاسرائيليين باليهود فى اى مكان حقا أو التزاما سياسيا خاصا . ولا يتكون تصور الدولة العلمانية الديمقراطية من مجتمعين منفصلين متعاديين ، بل من أشخاص لهم حقوقهم الشخصية الاساسية والمتساوية . وكان هذا المفهوم بمثابة تحد لكل من اليهود الاسرائيليين والعرب الفلسطينيين لقبول التعايش فى دولة واحدة على أساس المساواة الكاملة .

وكان من المحقق تماما ان هذا الهدف يتعارض مع الصهيونية المتمثلة فى اسرائيل ، فضلا عن أن الحركة كانت تنظر الى اسرائيل كامتداد للامبريالية الاوروبية ــ الامريكية ، والتى لابد لذلك أن تنظم قواها

لمقاومة الصيغة الجـديدة . ولم يكن من الممكن تحقيق المبـدأ الاول — وهو اقامة دولة علمانية ديمقراطية فى فلســطين — الا بالالتزام بمبـدأ ثانى — وهو ضرورة النضــال المسلح من جانب الجماهير الفلسطينية .. ووصولا لهذا الهدف تكفلت منظمة التحرير الفلسطينية بتعبئة وتنظيم الفلســطينيين ، وبالتالى جذبت الكوادر القتالية ، وحصلت على المساندة المادية والسياسية لذلك البرنامج . وبتحقيق منظمة التحرير الفلسطينية ذلك ، نجحت فى تنظيم وتركيز ولاء الشعب الفلسطينى حولها ، وفى تحـدى شرعية ممارســة الدول العربية سيطرتها على الفلسطينيين الموجـودين فيها . وزيادة على ذلك ، أدركت منظمة التحرير الفلسطينية ضرورة مقاومة سيطرة اسرائيل على الضفة الغربية وغزة مهما كلفهـا الامر ، ويشـمل ذلك العمل المسلح . ولذلك قدمت المساعدات المادية والسياســية والاقتصادية للفلســطينيين هنــاك ليقاوموا الاحتلال الاسرائيلى . وفى النهاية ، رأت المنظمــة بصفتهــا الممثل للشــعب الفلسطينى فى كل مكان أن من مهامها تنظيم الجماعات الفلسطينية فى كل مكان وتوفير المساندة والامن والخدمات الاجتماعية لهم .

بنية منظمة التحرير الفلسطينية :

تمثل منظمة التحرير الفلسطينية ، اليوم ، الدولة والحكومة الفلسطينية فى طور الجنين ، ومجموع انصارهم كل الشعب الفلســطينى . وعلى مدى السنين فــان الفلسطينيين ، بصرف النظــر عن طردهم أو تشريدهم ، قــد احتفظوا بوعى متميز وثابت بأنفسهم كجماعة وطنية ، واستجابة لذلك ، انشأت منظمة التحرير الفلسطينية بنية قادرة على التعبير عن حاجات جمهورهــا وطموحاته .

ويعتبر المجلس الوطنى الفلسطينى الهيئة العليا لتخطيط سياسة منظمة التحرير الفلسطينية . ويتــكون المجلس فى الوقت الحاضر من ٤٢٨ عضــوا يفترض تمثيلهم لكل قطاعات الشعب الفلسطينى جغرافيا وثقافيــا (وقد خصص المجلس مقاعد معينة للفلسطينيين فى الاراضى المحتلة ، ولكن الســلطة الاسرائيلية تمنع هؤلاء الاعضاء من حضور جلسات المجلس) . وتستمد عضوية المجلس من ثلاث فئات منفصلة هى : منظمات المقاومة العســكرية (فتح ، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الشعبية الديمقراطية ... الخ) حسب قوتها الفعلية أو المفترضــة ، والروابط الشعبية مثل نقابات المعلمين ، والاتحادات النسائية والطلابية، واتحادات الكتاب والنقابات العمالية، وغيرها، وكذلك المستقلين . وبالرغم من أن التمثيل لا يفترض قيامه على أسس التوزيع الجغرافى الا ان الجغرافية تلعب دورا هاما فى تحديد أعضاء المجلس . وهكذا ، فان العضــوية المســتمدة من الفئــات الثــلاث المذكورة تســتمد عادة من

الانتشـــار الجغرافى للشـــعب الفلسطينى . وباختصـــار ، تلعب المهنـــة ، والجغرافية ، والسياسة ادوارا هامة فى تعيين العضوية فى المجلس . واذا نظرنـــا اليه بشـــكل آخـــر ، فـــان المجلس ، بصـــفته ممثـــلا للشـــعب الفلسطينى ، يرمز الى التعددية الفلسطينية . فهو مجلس متعدد الاحـــزاب ، يعكس كل الميول السياسية الموجودة فى المجتمع السياسى الفلسطينى .

ويناقش المجلس كافة الموضوعات الفلسطينية فى اجتماعاته السنوية . وتستمر هذه الاجتماعات فى العـــادة حوالى أسبوع ، تنتهى باتخاذ مجموعتين من الاجراءات . وتتعلق احداهما بالسياسات التى يتبعها الجهاز التنفيـــذى فى الفترة القادمة ، والمرتبطة بالمســـــائل الماليـــة والنشـــاطات العســـكرية والاستراتيجية السياسية ، أو الاعمال المكتبية الادارية مثل انشـــاء ادارات مختلفة فى مجالات التعليم والخدمات الاجتماعية والثقافة . . . . . . الخ . ولعله من المناسب ان نشير الى ان البرامج السياسية الاساسية تصبح ملزمة للسلطة التنفيذية فقط عندما يفوضها بها المجلس . ومثال ذلك ، ان تعـــديل البرنامج الفلسطينى الخاص بتكوين دولة علمانية ديمقراطية ، قد تم فى المجلس الذى وافق على برنامج مؤقت يقبل « فى الواقع » الســـلطة الفلسطينية على الضفة الغربية وغزة اذا انسحبت اسرائيل ، وقد عدل ذلك بالتالى سنة ١٩٧٧ للمطالبة بدولة فلسطينية مستقلة تحت اشراف منظمة التحرير الفلسطينية . وعقب هذا البرنامج المعدل قامت اللجنة التنفيذية بمناشـــدة الأمم المتحـــدة سنة ١٩٨١ بتأييد اقامة دولة فلسطينية مستقلة خاصـــة فى الضفة الغربيـــة وغزة .

والعمل الثانى للمجلس هو انتخاب اللجنة التنفيذية ورئيسها . وقد جرت العادة على انتخـــاب خمسة عشر عضـــوا بالاقتراع السرى ليمثلوا الوزارة الفلسطينية عمليا فى جميع الأغراض . واللجنة التنفيذية مسئولة عن تنفيذ السياسة التى يقرها المجلس . وينتخب المجلس رئيسها . وقد شغل الســـيد ياسر عرفات هذا المنصب خلال الثمانى عشرة سنة الماضية . ويقوم الرئيس بمهام اللجنة ورئيس الوزراء . وكل عضو باللجنة التنفيذية مسئول عن ادارة معينة . وهذه الادارات مكلفة بدعم المصـــالح السياســـية والدبلوماســـية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتعليمية والعسكرية للشعب الفلسطينى . وقد ظهرت على مر السنين ، سلطة ادارية فلسطينية واضحة تخضع لقواعد ونظم الخدمة التى وافق عليها المجلس الوطنى الفلسطينى . وقد بلغ عدد اعضـــاء الخدمة المدنية ـــ من غير الكوادر العســـكرية ـــ فى منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٨٢ نحو ثمانية آلاف فرد .

وأنشا المجلس ، ايضا ، هيئات حكومية اضافية ، مثل المجالس العليا للتعليم والثقافة وتعليم الكبار ، والتنمية الاقتصادية ، والصندوق الوطني الفلسطيني (يضم المالية والتجارة) ، وجمعية الهلال الفلسطيني (الصحة العامة) وما الى ذلك . كما اعترف بالنقابات والاتحادات المهنية . ويصور الجدول التنظيمي (شكل ٢) مكونات بنية منظمة التحرير الفلسطينية(٤٧) .

(انظر شكل ٢ بالملحق)

اثر الهجوم الاسرائيلي على لبنان :

توفر هذه التركيبات شبكة من المؤسسات الوطنية الفلسطينية لخدمة الفلسطينيين في كل مكان ، فمن خلالهـا تستطيع منظمة التحرير الفلسطينية مساعدة الجماعات الفلسطينية المشتتة في الحصول على الوظائف ، والحاق الطلاب بالمدارس الثانوية والتعليم العالي في المجتمعات المضيفة ، وتزويد المؤسسات التعليمية بالعاملين ، وتعزيز النمو الثقافي والاقتصادي الفلسطيني . واكثر ما يلفت النظر من نجاح وتقدم هذه المؤسسات كان في لبنان ، حيث بدأ مايقدر بأربعمائة الف فلسطيني في تكوين بداية مجتمع فلسطيني حر من قيود كل من الاحتلال الاسرائيلي أو التسلط الكامل من الحكومة المضيفة . ففي لبنان وجدت نسبة كبيرة من الموظفين الاداريين الفلسطينيين ، وفي لبنان نشأت المؤسسات الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وفي لبنان ايضا بدأت تظهر الهوية الفلسطينية ، وفي لبنان كذلك بدأت الهوية الفلسطينية تلتئم بحق مرة ثانية وقد تم انجاز ذلك كله بصعوبة بالغة وبدون معاونة كاملة من الحكومة اللبنانية . الا ان التقدم السليم للجماعات الفلسطينية في لبنان جعل من المحتم على اسرائيل ان تنظر اليه كتحدٍ لها ، فتحاول تدميره .

ففي ٤ يونية ١٩٨٢ ، شنت اسرائيل غارات مكثفة ضد المناطق الفلسطينية في بيروت ، واستمرت هذه الغارات على بيروت وجنوب لبنان كله في الخامس من يونية . وفي السادس منه ، زحف الى لبنان جيش يقدر بمائة الف رجل تساندهم قوات الطيران والبحرية وهدفها المعلن هو تحقيق (السلام للجليل) . ولكن اسرائيل اعترفت فيما بعد بأن هدفها كان تدمير منظمة التحرير الفلسطينية وبنيتها الاساسية في لبنان .

وفي خلال شهرين ونصف قضت الحملة الاسرائيلية التدميرية الواسعة على أرواح أربعين الف فلسطيني ولبناني ، واصابت اكثر من مائة الف بجروح خطيرة ، وخلفت أكثر من نصف مليون بدون مأوى . ونجحت اسرائيل في تدمير الجزء الاكبر من المؤسسات والهيئات السياسية والاجتماعية الفلسطينية في لبنان ، وكذلك في تدمير البرنامج والخدمات الصحية الفلسطينية

بالكامل ، وتم محو مؤسسات اقتصادية (مثل صامد) ، وتم نهب أو تدمير وسائل الاتصالات — من اذاعة وصحف ، ودور نشر . كما تحولت جميع مساكن الفلسطينيين فى لبنان من الرشيدية فى الجنوب الى حى الفكهانى فى غرب بيروت الى حطام من الحجارة . وهكذا دمرت عمد الجماعة الفلسطينية الوحيدة التى رفعت راسها من بين حطام فلسطين سنة ١٩٤٨ ، والتى حققت قدرا نسبيا من الحكم الذاتى . وتم طرد آلاف من الفلسطينيين من لبنان . وتحمل من تبقى منهم مصاعب سياسية واقتصادية واجتماعية جمة ، وما زالوا يتحملونها حتى اليوم .

ونتج عن الهجوم الاسرائيلى على لبنان وعلى الفلسطينيين المقيمين هناك ان ازداد تعقيد الموقف الفلسطينى برمته بشكل بالغ . ولم يضعف جهد التحرير الفلسطينى مؤقتا فقط ، بل ان هدف استقلال الضفة وغزة — الامر الذى كان سيحسن الحالة الفلسطينية بشكل جوهرى ، وحظى بتأييد جماعى دولى فى الامم المتحدة — استمر على حال يصعب حلها . كما اصبح الامل الفلسطينى فى العودة الى فلسطين طبقا لقرارات الامم المتحدة اشد اظلاما ، نظرا للتدفق اليومى لهؤلاء المطرودين من كل من فلسطين ولبنان المحتلتين الى الدول المجاورة مثل سوريا والاردن . ولا جدال فى ان فقد المكاتب والارض اللبنانية كقاعدة ، قد عقدت عمليات منظمة التحرير الفلسطينية ، وقلل من قدرتها على تعزيز مصالح الشعب الفلسطينى وامنه . ونظرا لان المنظمة اعادت تنظيم ورسم استراتيجيات بديلة لاستمرار تنفيذ ما كلفت به ، فقد قامت بذلك ثقة منها فى المساندة الوطنية الفلسطينية الكاملة . ومهما كانت السلطة التى يخضعون لها ، والظروف التى يقاسونها فان الفلسطينيين الذين يزيدون عن ٤ر٥ مليون مستمرون فى العمل على العودة الى دولة فلسطينية مستقلة ، وبهذا الجهد ينالون التأييد المتزايد من المجتمع العالمى .

الظروف الديمغرافية :

مما يثير السخرية أن الفلسطينيين ، اشخاص مشردون سواء كانوا يعيشون فى (بلدهم) أو فى (الخارج) . فكل سنة تمضى منذ ١٩٤٨ تزيد من ابتعادهم عن وطنهم . ولانهم محرومون من الحقوق السياسية ، فكل سنة تمر منذ سنة ١٩٦٧ يتعرضون لمزيد من الظلم والعدوان . ورغم ذلك لا ينسى الفلسطينيون تراثهم — فهم يستمرون فى الانتساب الى مدنهم وقراهم الاصلية . وبالرغم من تناقص الجيل القديم الذى يحملّ ذكريات حبه لفلسطين ، وقد مرت الآن ٣٥ سنة على أول عملية طرد لسبعمائة وثمانين الف فلسطينى الى المنفى ، نجد الشبان الفلسطينيين لا يقلون ارتباطا بفكرة فلسطين ،

ان لـم يكن بجوهرها . بل ان الحروب المتتابعة التى ارهقت المنطقة ، وضريبة الموت والدمار المتزايدة قـد ساعدت على تكريس ذلك الارتباط بـدلا مـن اضعافه . من هم الفلسطينيون ؟ وأين يعيشون ؟ وكيف اصبحوا متفرقين بهذه الصورة ؟ وماذا يخبىء المستقبل القريب لهم ؟

الدراسات السـكانية الحالية :

يبلغ عـدد الفلسـطينيين الآن اكـثر مـن ٤ر٥ مليون نسمة ، منهم ٤ر١ مليون عربى فلسطينى ممن بقوا احيـاء سنة ١٩٤٨ مـع أبنائهم وابنـاء أبنائهم . وهـذا الرقم ليس دقيقا تماما ، ولا يمكن الثقـة به بسهولة ــ فهو صحيح بالتقريب بزيادة أو نقصـان نحو مائة الف . وتعتبر حقيقة استحالة اجراء احصاء دقيق للفلسطينيين احدى اعراض اوضاعهم الصـعبة ، حيث لا يسجل الفلسطينيون فى الاحصاءات الوطنية كفلسطينيين الا فى اماكن قليلـة من البـلاد التى يعيشون فيهـا . ومما يشـير السخرية أنه فى داخـل حدود فلسـطين التى تحتلها اسرائيل الآن بالكامل يمكنك أن تحصل فقط عـلى تقـدير صحيح لعددهم ، بالرغم من أن مصادر الاحصاء الاسرائيلية تشـير اليهم (بغير اليهود) .

وفى سنة ١٩٨٤ ، وطبقا لأحسن تقديراتنا ، كان حوالى ١ر١٩٧٤ر٣٠٠ فلسطينى (أو نحو ٤٢ر٥ ٪) لا يزالون يعيشون داخل حدود فلسـطين . ومن هؤلاء ، كان حوالى ٥٧٩ر٢٠٠ يعاملون (كمواطنين) فى اسرائيـل ، و ٨٩٦ر٠٠٠ آخرون (ويشملون سكان القدس الشرقيـة والمناطق المجاورة التى « ضمت » لاسرائيل) يحملون الجنسية الاردنية اسميا بصـفتهم شعبا تحت الاحتلال ، والباقى (نحو ٤٩٩ر١٠٠) وهم سـكان غزة تحت الاحتلال ايضـا (حسب وجهـة نظر المرء) اما بلا دولة أو مواطنون فلسـطينيون مادامو يحملون أوراق الهوية الفلسطينية ، ولكن ليست لهم جوازات سـفر معترف بها عالميـا (٤٨) . ونسبة كبـيرة جدا من الفلسطينيين الذين لايزالون فى فلسـطين لا يعيشـون فى مجتمعاتهم الاصلية .

وبالاضافة الى هؤلاء الافراد المشردين « داخل البلاد » نجد الآن نحـو ٢ر٦٣٩ر٧٠٠ فلسـطينى (ما يقرب من ٦٠٪) يعيشـون حاليا خارج حـدود فلسـطين القديمة . ولا يزال الكثـير من هؤلاء يعيشون فى البـلاد المجـاورة بالأردن وسوريا ولبنان ، رغم ان هذه النسبة تتناقص على مر السنين . وفى تقديرنا سنة ١٩٨٤ ان حوالى ١ر٧٥٦ر٢٠٠ فلسطينى يعيشون فى قلب الدول المجاورة لفلسطين ، منهم نحو ٢٤٥ر٠٠٠ فى سوريا ، وربما ٢٧٥ر٠٠٠ فى لبنان، ونحو ١ر٢٣٦ر٢٠٠ فى الضفة الشرقية فى المملكة الاردنية الهاشمية (٤٩) . ومن الصعب أن نحدد هذه الاعداد بـدقة لان اغلب الفلسـطينيين فى المنفى يحملون

جنسيات أخرى (ما دام لا يوجد شيء الآن يسمى بالجنسية الفلسطينية) ، وفى بلاد الاقامة لا تميز الاحصاءات الافراد الذين هم من اصل فلسطينى من غيرهم .

وتلى فلسطين ذاتها ، المملكة الاردنية الهاشمية (الضفة الشرقية) التى تضم أكبر عدد من الفلسطينيين بالمولد او النسب . ففى سنة ١٩٤٩ منح الفلسطينيون فيما سمى بالضفة الغربية واللاجئون فى الضفة الشرقية حق المواطن الاردنى . وفى سنة ١٩٧٩ أجرى احصاء رسمى فى الاردن (الضفة الشرقية فقط) وفى ذلك الوقت ، اقترح تضمينه اسئلة تعين محل الميلاد والنسب (للفلسطينيين) ، ولكن صرف النظر عنها لطبيعة الحساسية السياسية لهذا التحديد الذى لا تطبقه الأردن رسميا على مواطنيها . ويرى المحللون المطلعون أن نصف ما يزيد عن المليونين تقريبا من سكان الضفة الشرقية هم من اصل فلسطينى .

وفى سوريا ، لم يمنح الفلسطينيون الجنسية بصورة تلقائية ، وان كان عدد غير معلوم قد منحوها بالفعل . وبالرغم من أن سوريا لا تجمع بيانات احصائية رسمية عن الاشخاص الذين هم من أصل فلسطينى الا أنها تحتفظ بسجل للفلسطينيين . وطبقا للمؤشرات الاحصائية فى سوريا (١٩٧٩) كان يوجد نحو ٢٢٦٫٠٠٠ لاجيء فلسطيني مسجلين فى سوريا سنة ١٩٧٨ ، وينتظر ان يكونوا قد ازدادوا سنة ١٩٨٤ الى نحو ٢٤٥٫٠٠٠ (٥٠) .

ويعتبر عدد الفلسطينيين الموجودين فى لبنان وقت الغزو الاسرائيلى فى يونية ١٩٨٢ رقما تخمينيا ، يقدرة البعض بنصف ميلون ، وان كان أغلب المحللين يعتقددن انه كان اقل من ٤٠٠٫٠٠٠ (٥١) . ولم يجر فى لبنان احصاء رسمى كامل منذ١٩٣٢ . وفى العينة الاحصائية سنة ١٩٧١ لم يحسب بالفعل عدد الفلسطينيين فى المخيمات ، وانما قدرتهم منظمة التحرير الفلسطينية بـ ١٣٠٫٠٠٠ نسمة . وفى سنة ١٩٨٢ بلغ عدد المسجلين لدى وكالة غوث وتشغيل اللاجئين (اونروا) بنحو ٢٣٠٫٠٠٠ فلسطيني بعضهم لا يعيش فى المخيمات . ويرى المراقبون المطلعون ان حوالى ٥٠٫٠٠٠ فلسطينى قد حصلوا على الجنسية اللبنانية منذ ١٩٤٨ ، وان كثيرا من الاردنيين من اصل فلسطينى كانوا يعيشون هناك بصفة دائمة . وبعد طرد المقاومة الفلسطينية من الاردن سنة ١٩٧٠ ، دخل عدد كبير بصورة غير قانونية الى لبنان . وربما اعيد توطين ما بين ١٥٫٠٠٠ الى ٣٠٫٠٠٠ فلسطينى هناك ، وفى مقابل هذه الزيادة ، يجب ان نحسب خروج الفلسطينيين من الطبقة المتوسطة والعالية ممن جذبهم الازدهار فى دول الخليج بعد سنة ١٩٧٣ . ودفع بهم توتر الحرب الاهلية اللبنانية سنة ١٩٧٦/٧٥ ، وآثار كارثة الغزو الاسرائيلى سنة ١٩٨٢ .

وعلى مر السنين ، كان الفلسطينيون يضطرون ، بسبب ظروفهم ، الى توسيع نطاق شتاتهم . وفى السنوات الأخيرة ، يتزايد العـــدد الذى تستوعبه الدول العربية فى الخليج . ويبلغ العدد الاجمالى للفلسطينيين الذين يعيشـــون فى المناطق غير الرئيسية من دول العالم العربى ، ويشمـــل ذلك الجمـــاعات الصغيرة نسبيا التى تعيش منذ البداية فى مصر والعراق ، وكـــذلك الجمـــاعة الصغيرة نسبيا التى ذهبت أخيرا الى ليبيـــا ، يقدر عددهم جميعا فى يونيـــة ١٩٨٤ بأقل قليلا من ٦٣٣٫٥٠٠ أو نحو ١٣٫٦ ٪ من الاجمالى . وتوجـــد اكبر مجمـــوعة فى دول (التوطن الثانى) فى الكويت التى بدأ الفلسطينيون ينتقلون اليهـــا فى الخمسينات (٥٢) ، وتليهـــا المملكة العربية السعودية فى كبر العدد . ويدل الاحصاء السكانى الرسمى فى السعودية سنة ١٩٧٤ على وجـــود نحو ٧٦٫٠٠٠ فلسطينى فقط فى هذه الدولة (يحمل حوالى نصفهم أوراق الهـــوية الفلسطينية ، وحوالى النصف جوازات سفر اردنية) ، الا ان هذه الاعداد قد زادت أكثر من أربعة أضعاف منذ ذلك الحين (٥٢) . وتضم دول الخليج الاخرى مثـــل دولة الامارات العربية المتحدة ، وقطر ، والبحرين ، وعمان ... الخ بعض الفلسطينيين . ونؤكد ثانية استحالة اعطاء أرقام دقيقة بسبب مشـــكلة الجنسية . ونجـــد الفلسطينيين الذين لم يحصلوا على جنسية اخرى فى لبنان وســـوريا وغزة يحددون حسب جنسيتهم . وعلى اية حـــال ، فان ٩٠٪ من جميع الاردنيين فى الخليج يقدرون على أنهم من أصل فلسطينى ، وبعض المهاجرين اللبنانيين يعتبرون أيضـــا من سلالة فلسطينية .

وبينما لم يكن هناك فلسطينيون تقريبا يعيشون خارج العـــالم العربى سنة ١٩٤٨ ، نجـــد هذه الحقيقة تتضاءل على مر الســـنين . وبينما نفتقـــر الى ارقام صادقة لعدد المشردين من الفلسطينيين خارج العالم العـــربى ، الا اننا نقدر مجموعهم بنحو ٢٥٠٫٠٠٠ سنة ١٩٨٤ .

ويوضح الجدول رقم (٦) توزيع الفلسطينيين فى نهـــاية ١٩٧٩ وحتى ١٩٨٤ . وهنا يثور سؤالان : أولا ، كيف وصـــل المجتمع الفلسطينى الى هذا الحـــد من التمزق ؟ وثانيا ، كيف ساهمت احداث لبنان الاخـــيرة فى زيـــادة تشريدهم ؟

ـ الجدول رقم (٦)

الحجم التقديرى للسكان الفلسطينيين وتوزيعهم فى نهاية ١٩٧٩ وبداية يونية ١٩٨٤

الفلسطينيون فى مكان الاقامة الحالى	ديسمبر ١٩٧٩ العدد	ديسمبر ١٩٧٩ ٪	يونيه ١٩٨٤ العدد	يونيه ١٩٨٤ ٪
الاجمالى المقدر	٤ر٠٠٠ر٠٠٠	١٠٠	٤ر٦١٤ر٠٠٠	١٠٠
الفلسطينيون المقيمون داخل فلسطين	١ر٧١٥ر٠٠٠	٤٢ر٩	١ر٩٧٤ر٣٠٠	٤٢ر٥
اسرائيل قبل ـــ ١٩٦٧(١)	٥٢٠ر٠٠٠(٤)	١٣	٥٧٩ر٢٠٠	١٢ر٤٦(٢)
الضفة الغربية بما فيها القدس	٧٩١ر٠٠٠	١٩ر٨	٨٩٦ر٠٠٠	١٩ر٢٧(٣)
غزة باستثناء سيناء	٤٠٤ر٠٠٠	١٠ر١	٤٩٩ر١٠٠	١٠ر٧٣
الفلسطينيون المقيمون خارج فلسطين	٢ر٢٨٥ر٠٠٠	٥٧ر١	٢ر٦٣٩ر٧٠٠	٥٩ر٢
البلاد العربية المتاخمة	١ر٥٤٠ر٠٠٠	٣٨ر٥	١ر٧٥٦ر٢٠٠	٢٧ر٨
سوريا	٢١٠ر٠٠٠	٥ر٣	٢٤٥ر٠٠٠	٥ر٣
الأردن ـــ الضفة الشرقية	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٢٥	١ر٢٣٦ر٢٠٠	٢٦ر٦
لبنان	٣٣٠ر٠٠٠	٨ر٢	٢٧٥ر٠٠٠(٥)	٥ر٩
دول عربية اخرى	٥٨٤ر٠٠٠	١٤ر٦	٦٣٣ر٥٠٠	١٣ر٦
بقية العالم	١٦٠ر٠٠٠	٤	٢٥٠ر٠٠٠	٥ر٢٣

المصدر : اخذت أرقام ١٩٧٩ عن كتاب جانيت أبو لغد ، التوزيع البيانى الديمغرافى للسكان الفلسطينيين » ، ملحق - ١ جـ ٢ ، دراسة جدوى جامعة فلسطين المفتوحة . (اليونسكو : باريس ، ٣٠ يونية ١٩٨٠) خاصة الجدول (٦) ، ص ٢٩ .. هذه الوثيقة المفصلة مبنية على دراسة المصادر الحكومية المرتبطة بالموضوع ، والمقالات المسهبة عن الدراسات السكانية ، واستخدم منهج بحث معقد فى مراجعة صحة هذه المعلومات المتجمعة للوصول الى ما يمكن الوثوق به أكثر من غيره بالرغم من انه من المؤكد أنها ليست تقديرات (دقيقة) لجملة السكان وتوزيعهم . ويمكن مراجعة الوثيقة الاصلية حسب وصف تفاصيل المنهج المتبع وقاعدة البيانات والافتراضات.والتعديل الوحيد الذى بهذا الجدول لسنة ١٩٧٩ ، هو نقل السكان الفلسطينيين المقيمين فى القدس الشرقية « المستولى عليها » من اسرائيل واعادة تصنيفهم ضمن سكان الضفة الغربية. أما أرقام سنة ١٩٨٤ فجرى تحقيقها على أرقام ١٩٨٠ التى وردت فى « المختصر الاحصائى الاسرائيلى » الحديث (١٩٨٢) والمعدل بصورة مناسبة بالنسبة للقدس وما جاورها ، وأحسن (التخمينات) من جانب المؤلفة للفترة بين نهاية ١٩٧٩ الى بداية ١٩٨٤ .

١ - تم استبعاد القدس والمنطقة المجاورة المندمجة مع (غير اليهود) الاسرائيليين فى الوثائق الرسمية .

٢ - تم تسجيل انخفاض حديث فى خصوبة السكان الفلسطينيين فى اسرائيل ، وهذا التصور مبنى على أساس انخفاض الزيادة الطبيعية .

٣ - يشمل ما يقدر بـ ١٢٠٫٠٠٠ فلسطينى فى القدس الشرقية والمنطقة المجاورة ، وهو ما يمكن أن يكون تقديرا عاليا جدا . واذا لم تكن الزيادة الطبيعية قد عدلت بالهجرة والطرد فلابد ان يكون هذا الرقم قد وصل الى ما يزيد عن ١٫٢٠٠٫٠٠٠ حتى سنة ١٩٨٤ .

٤ - الأرقام داخل القوسين تمثل المجموع الفرعى .

٥ - يشمل الفلسطينيين فى قوات المقاومة .

تفتت المجتمع الفلسطينى :

ان الأمر الأهم من دقة عدد الفلسطينيين هو حقيقة استمرار تشريدهم . وقد كان غزو اسرائيل للبنان خلال صيف ١٩٨٢ هو أحدث قصة فى سلسلة النكبات التى جردت فلسطين تدريجيا من سكانها الاصليين ، واضطرت الفلسطينيين الى ان يجدوا ملجاهم فى أماكن تزداد بعدا عن فلسطين .

وفى سنة ١٩٤٨ ، وقبل الحرب الثنائية فى فلسطين ، وقيام دولة اسرائيل من جانب واحد كان هناك ١٫٤ مليون عربى مسلم ومسيحى فى البلاد .

ونتيجة للحـــرب والتقسيم الفعلى لفلسطين ، اعتبر ٩٠٠٫٠٠٠ شخص تقريبا (لاجئين) ، ومن هؤلاء اجتث ٧٨٠٫٠٠٠ من جذورهم ، وفقد الباقون أراضيهم، وبالتالى مصادر رزقهم (٥٤) . وفى سنة ١٩٥٢ ، عندما اقترب العدد الاجمالى للفلسطينيين من ١٫٦ مليون نسمة ، كان ١١ ٪ فقط (١٧٩٫٠٠٠) يعيشون داخل خط الهدنة فى اسرائيل ، وتكدس ١٨٪ (٣٠٠٫٠٠٠) تقريبا فى قطاع غـــزة ، بينما عاش ٤٧٪ (نحـــو ٧٤٢٫٣٠٠) فى الجزء الباقى من فلسطين والذى ضم فيما بعـــد الى الاردن وسمى بالضفة الغربية . وبذلك ظل اغلب الفلســـطينيين (٧٦ ٪) يتشبثون بتراب فلســـطين ، وان كانوا لاجئـــين أو « مضيفين » ، للاجئين . وظل أغلب الباقين وهم ٣٨٠٫٠٠٠ ٪ ينتظـــرون فى الدول المجاورة فرصتهم للعودة للوطن . وكان هنـــاك نحو ١١٤٫٠٠٠(٧٪) فى لبنان ، وقريبا من ٨٣٫٠٠٠ (٥٪) فى ســـوريا ، وحوالى ١٥٠٫٠٠٠(٩٪) فى الاردن على الجانب الشرقى من النهر . وانتشر خارج هذا النطاق ما لا يزيد عن ٢ ٪ من مجموع الفلسطينيين .

وفى الخمسينات وعملا منهم على تعويض النتائج المالية والسياسية لحرب ١٩٤٨ ، بدأ الفلسطينيون ينتقلون الى المناطق التى توفر لهم بعض أسباب العيش . وكانت الضفة الشرقية للأردن مضيافة على وجه الخصوص ، حيث كان مسموحا للفلسطينيين ان يعيشوا كمواطنين على الضفة الغربية وحظى آخرون بالدخول الى مناطق أكثر ازدهارا من الناحية الاقتصادية مثل ليبيا ، والكويت التى بدأت تستفيد من البترول ، ولبنان الذى كان اكثـــر دول المنطقة قابلية للحياة فى المنطقة آنذاك .

وفى سنة ١٩٦١ كان ذلك التشتت ظاهرا بشكل واضح . فلم يكن من الفلسطينيين المقدر عددهم ما بين ٢٫١ الى ٢٫٢ مليون نســـمة سوى ٦٥٪ يعيشون على التراب الفلسطينى (١١٪ فى اسرائيل . ١٧٪ فى غزة ، ٣٧٪ فى الضفة الغربية) . وفى ذلك الحين ، كان اكثر من ثلث الفلسطينيين فى المنفى واكثرهم فى الضفة الشرقية للاردن ، اكبر الدول المضيفة (نحو ٣٨٠٫٠٠٠ نسمة من أصل فلسطينى أو ١٧٪ من المجموع الكلى) واستضـاف لبنـــان ١٨٣٫٠٠٠ (٨٪) وســـوريا ١١٦٫٠٠٠ (٥٪) بينمـــا تشرد نحو ١٠٠٫٠٠٠ (اقل من ٥٪) بعيدا عن الوطن(٥٥) .

واستمر هذا الاتجاه فى الستينات مع هجرة جماعية كبيرة من الباحثين عن الكسب من الضفة الشرقية والغربية من الاردن نحو الكـــويت استجابة للطلب المتزايد على القوى العاملة الماهرة . وعلى أية حال ، لم يختلف توزيع الفلسطينيين كثيرا عشية حرب يونية ١٩٦٧ عما كانوا عليه فى بداية العقد فنجد ٦٣٪ من الفلسطينيين المقـــدر عددهم ٢٫٦٥ مليون نســـمة لا يزالون فى فلسطين ، وأدت النسب العالية فى الزيادة الطبيعية ، الى ارتفاع النســـبة

المئوية داخل اسرائيل الى ١٢٪ ، وفى قطاع غزة الى ١٨٪ ، ولكن الهجـــرة الخارجية من الضفة الغربية عدلت من هذه الزيادة الطبيعية لدرجة أنه لم يبق هناك سوى ٩٠٠ر٩٠٠٠ (أو ٣٤٪ من المجموع الكلى) ٠

وقد نتجت عن حرب ١٩٦٧ ، التى غزت اسرائيل فيها كل القطاعات المتبقية من فلسطين وسيطرت عليها مع اجزاء من سوريا ، آثار مفجعة على السكان الفلسطينيين ٠ومن هذه الآثار العاجلة لكارثة الحرب طرد ما لا يقل عن ٣٠٠ر٠٠٠ فلسطينى من سكان الضفة الغربية وغزة ، بينما لم يسمح لعدد كبير من سكان غزة الذين كانوا متغيبين مؤقتا ، أو الذين انسحبوا مع الجيش المصرى بالعودة الى منازلهم . وأعيد توطين اغلب سكان الضفة الغربية الفارين فى الضفة الشرقية ، وان كان اغلب هؤلاء المطرودين استمروا فى الاتجاه الى مناطق استيطان ثانية ،أغلبها فى الكويت ولبنان ٠

وبينما كانت نسبة الفلسطينيين المقيمين فى فلسطين قبيل الحرب مباشرة ٦٣ ٪ من المجموع الكلى ، انخفضت هذه النسبة بشكل حاد الى ٥٠ ٪ بنهاية سنة ١٩٦٧ .وقد كانت هذه الخسائر فى الضفة الغربية فى المقام الاول ثـم فى غزة . واستمرت النسبة المئوية للفلسطينيين المقيمين بفلسطين المحتلة (اسرائيل) كما هى ١٢ ٪ قبل ١٩٦٧ . ثم انخفضت النسبة فى الضفة الغربيـــة بحدة من ٣٤٪ الى ٢٤ر٧٪ (٥٦) . وفى قطاع غزة من ١٨٪ الى ١٥٪ ويبين الجدول رقم (٧) الآثار المباشرة لحرب ١٩٦٧ فى زيادة تشريد السكان الفلسطينيين . وبينما استقبلت الضفة الشرقية للأردن العدد الاكبر من المطرودين الجـــدد ، انتشر نحو ٥٪ من السكان أبعد من ذلك فى الدول العربية بالخليج وليبيـــا ومصر ، وبقية العـــالم .

(انظر شكل ٣ بالملحق)

وحـــدث مزيـــد من التناقص فى الاعـــداد والتشريد تدريجيا فيما بين ١٩٦٨ ، ١٩٨٢ . ونفذت السياسة الاسرائيلية لترحيل غـــير المرغوب فيهم ، واجراءات الحكم العســـكرى القاسية ، والتحكم الاقتصادى والقمع المستمر ، والحرمان (مثل الحرمان من مصادر الميـــاه ومصادرة الاراضى) فيما سمى (بالاراضى الخاضعة للادارة) فى الضفة الغربية وغزة (٥٧) . وانعكست آثار تلك السياسة بوضوح على انخفاض النسبة المئوية للفلسطينيين القادرين على البقـــاء فى فلسطين ما قبل ١٩٤٨ . فانخفضت النســـبة المئوية لجميع الفلسطينيين الذين يعيشون داخل فلسطين من ٥٠٪ سنة ١٩٦٧ بعد الحرب الى ٤٦٪ ســـنة ١٩٧٠ ، والى ٤٥ر٥٪ ســـنة ١٩٧٥ ، ثم الى ٤٢ر٩٪ فى نهـــاية ١٩٧٩ . وتقديرنا فى بداية يونية ١٩٨٢ ان هـــذه النسبة قد هبطت الى ٤٠ر٨٪ فقط .

وأصبح التشريد والتشتت اكثر وضوحا خاصة بعد « الازدهار » النفطى الذى بدأ كجزء من الاستراتيجية العربيـة فى حرب ١٩٧٣ ، التى ابـرزت للفلسطينيين بجـلاء أن تحرير الارض المحتـلة ليس أمرا وشيكا . ولـم يقتصر الامر على استمرار الهجـرة من الضفة الغـربية وغـزه ، بـل ان كثيرا من الفلسطينيين فى الضـفة الشـرقية للاردن بـدأوا فى الهجـرة ايضـا بحثا عن العمل فى دول الخليج العربى ذات التوسع الاقتصادى ، فانخفضت بذلك النسبة المئوية المرتفعة لمجموع الفلسطينيين القاطنين بالضفة الشرقية للاردن من ٣٠٪ سنة ١٩٧٠ الى حوالى ٢٧٫٥٪ سنة ١٩٧٥ ، والى ٢٥٪ سنة ١٩٧٩ ، ثم الى ٢٤٪ فقط فى يونيه ١٩٨٢ . وترجع نسـبة ضئيلـة من هذا الهبوط الى طرد قوات المقاومة الفلسطينية اثر هزيمتهـا فى سبتمبر ١٩٧٠ ، ولكن أغلبها يعود الى الركود الاقتصادى للضفة الشرقية بالمقارنـة بفرص العمالة والتوظيف فى الخليج .

ان الغزو الاسرائيلى للبنان الذى بدأ دون استفزاز بتصف جوى عـلى بيروت يوم ٤ يونية ١٩٨٢ . وتبعه هجوم جيد التخطيط من القوات البريـة المحتشدة قد ظهر أن له هدفين سكانيين : احدهما موجه نحو السكان الفلسطينيين فى لبنان والآخر نحو السكان الفلسطينيين فى منطقتى غزة والضفة الغربيـة المحتلين . واستمر كلا الهدفين فى السياسة .

الجـــدول رقـــم (٧)

التوزيع الاحتمالى للفلسطينيين قبيل بدء الحرب وبعدها
فى ٥ يونيـــة ١٩٦٧

منطقـــة او دولة الاقـــامة	التقـــدير فى أول يونيـــه ١٩٦٧		التقـــدير فى ديسمبر ١٩٦٧	
	العـــــدد	٪	العـــــدد	٪
اجمـــالى الفلسطينيين	٢ر٦٥٠ر٠٠٠	١٠٠	٢ر٧٠٠ر٠٠٠	١٠٠
الفلسطينيون الذين يعيشون داخل فلسطين	١ر٦٦٨ر٢٠٠	٦٣	١ر٣٣٨ر٣٣٨	٥٠
اسرائيل ما قبـــل ١٩٦٧	٣١٨ر٢٠٠	١٢	٣٢٥ر٧٠٠	١٢
الضفة الغربيـــة بما فيها القـــدس	٩٠٠ر٠٠٠	٣٤	٦٦٦ر٣٧٧	٢٤ر٧
غــــزة	٤٥٠ر٠٠٠	١٨	٣٤٦ر٢٦١(١)	١٣
الفلسطينيون الذين يعيشون خارج فلسطين	٩٨١ر٨٠٠	٣٧	١ر٣٦١ر٦٦٢	٥٠
لبنـــــان	٢٠٠ر٠٠٠	٨	٢٢٥ر٠٠٠	٨
الضـــفة الشرقيـــة	٤٤٦ر٠٠٠	١٧ر٥	٧٣٠ر٦٠٠	٢٧
ســـــوريا	١٤٠ر٣٠٠	٥	١٤٣ر٠٠٠	٥
الكـــويت	٩١ر٠٠٠	٣	١٠١ر٠٠٠	٤
الخليج ، السعودية ، ليبيا ، العراق	٣٧ر٠٠٠	١	٨٢ر١٦٢	٣
مصـــــر	١٠ر٠٠٠	.	٣٣ر٠٠٠	١
بقيـــة العـــالم	٣٧ر٥٠٠	١	٤٧ر٦٠٠	٢

المصــــدر : تقرير اليونيسكو ، المشار اليه فى الجدول (٦) .

انظر اصل الشروح الكاملة والمصادر التفصيليـة .

(١) تستثنى سينـــاء المصرية .

(٢) الارقام بين القوسين تمثل المجموع الفرعى .

المزدوجة المرسومة اولا ، (لتطهير) فلسطين من سكانها غير اليهود ، وايجاد مكان للمزيد من المستوطنات ثم القيام بعملية ضم نهائى ، وثانيا ، « لتفريـــــع » مناطق الحدود مع الاراضى التى تسيطر عليها اسرائيل من السكان الذين قـــــد يهددون توسيعها .

وأدى ضم مرتفعات الجولان من جانب واحد فى ديسمبر ١٩٨١ الى (... الشرعية) « لحزام امنى » على الجبهة السورية . وبقيت الدولتان الملاصقتــان وهما الاردن ولبنان ، وهما هدفان تاريخيان للطموح الصهيونى ، ولكن الترتيب المنطقى كان يفرض الاهتمام بلبنان اولا .

وقد كان السكان الفلسطينيون فى لبنان يتالفون اساسا من اشخاص ونسل المائة الف فلسطينى الذين طردوا خارج فلسطين الشمالية فى حرب ١٩٤٨ ، وحتى سنة ١٩٨٢ ، كان هؤلاء الاشخاص يتركزون فى ثلاثة تجمعات رئيسية : فى مدينتى صور وصيدا وما حولهما فى جنوب لبنان ، وفى أحياء معينة غـــرب بــيروت وفى ضواحيها ، وبشكل رئيسى فى جنوب المدينة التى تجمعوا فيها ثانية خلال الحرب الاهلية اللبنانية والغزو الاسرائيلى المستمر لجنوب لبنان ، وفى شمال لبنـــــان بجوار مدينة طرابلس التى يسودها المسلمون . وبالاضافة الى نسل «اللاجئين» الاصليين ، استضاف لبنان أيضا فصائل المقاومة الاعضاء فى منظمـــة التحرير الفلسطينية ، والكوادر السياسية المطرودة من الاردن سنة ١٩٧٠ ، والفلسطينيين الذين يخدمون فى القوات السورية التى استدعت للمساعدة فى استعادة الســلام بعد الحرب الاهلية اللبنانية سنة ٧٥ ــ ١٩٧٦ . وعلاوة على ذلك ، نشـــأت فى بيروت على مر السنين مجموعة فلسطينية من رجال الاعمال والمهنيين ، ورجال الفكر الذين اجتذبتهم فرص الاعمال الكبيرة فى العاصمة .

وقد كان هدف الغزو الاسرائيلى هو القضاء على الوجود الفلسطينى فى لبنان وأصبح ذلك واضحا من سياق الحرب التى بدأت بتدمير المناطق الفلسطينية بجنوب لبنان عن طريق ضرب اراضى ومخيمات الفلسطينيين فى بيروت وما حولها ، وحقق بعض الاهداف بطرد قوات منظمة التحرير الفلسطينية ، والكوادر السياسية فى آخر اغسطس ، وبلغ الذروة بالمذابح التى ساعدت اسرائيل على ارتكابها ضـــد الالاف من الفلسطينيين (خاصة السيدات والاطفال والشيوخ) فى صابرا وشاتيلا ، وسجن عدة آلاف من الذكور الفلسطينيين فى (سن الجندية) (وهم ما بين ١٢ ــ ٦٠ من العمر) من المناطق (المستولى عليها) .

ولا يزال الوقت مبكرا لتقييم مدى تحقق هدف القضـــاء عـــلى الوجود الفلسطينى فى لبنان . وحقيقة الاحتلال الاسرائيلى المستمر للبنان تبين أن نهـــاية

العملية لا تزال بعيدة . وقد تم تقليص الفلسطينيين فى لبنان بثلاث وسائل هى القتل أو الاصابة بالعجز ، والطرد ، والسجن . وبهذا (انقص) الوجود الفلسطينى بنحو ٧٥،٠٠٠ نسمة أو ٢٠٪ . وهناك مؤشرات على التخطيط لمزيد من اقتلاع الفلسطينيين بالقوة سيتم تنفيذه ما لم يمنعه المجتمع الدولى .

ويبين الاحصاء اللبنانى الرسمى لعدد القتلى نتيجة القصف ، والغزو الاسرائيلى ان العدد قد يصل الى ٤٠،٠٠٠ شخص ويحتمل أن يكون مابين ٢٥،٠٠٠ الى ٣٠،٠٠٠ شخص (بما فيهم قتلى صابرا وشاتيلا) من الفلسطينيين ، ونحو ضعف او ثلاثة اضعاف هذا العدد ذو اصابات خطيرة ، وربما أصبح نصفهم عاجزين بسبب الحروق وفقد الاطراف .. الخ . ولا يبدو هذا الرقم مبالغا فيه بالنسبة للبيانات القليلة التى استطعنا جمعها . ويوضح الجدول رقم (٨) ملخصا لبعض الخدمات الطبية التى قدمتها مستشفيات الهلال الأحمر الفلسطينى فيمابين ٦ يونية و ١٥ أغسطس فى غرب بيروت وحدها .

واذا أخذنا فى الاعتبار ، أولا، أن عددا كبيرا من القتلى لم يصل لاية مستشفى (ويرتفع هذا العدد بين المقاتلين اكثر منه بين المدنيين) . وثانيا ، أن مستشفيات أخرى (مثل : باربر ، والجامعة الامريكية ببيروت .. الخ) كانت تعمل هى الاخرى وثالثا ، أن البيانات تنتهى فى ١٥ أغسطس قبل مذابح صابرا وشاتيلا ، ورابعا ، ان القطاع الجنوبى كله من لبنان ليس متضمنا ، فان تقديرنا لما بين ٢٠،٠٠٠ الى ٤٠،٠٠٠ من القتلى ، و ١٠٠،٠٠٠ من الاصابات الخطيرة ، ومايقرب من ٢٠٠،٠٠٠ من حالات الرضوض والجروح يكون تقديرا معقولا . وتشمل هذه الارقام ، بالطبع الضحايا اللبنانيين والفلسطينيين على السواء .

كذلك فانه من الصعب التحديد بدقة لعدد الفلسطينيين المبعدين من لبنان أو « الهاربين » من التفتيش الاسرائيلى من منزل الى منزل فى غرب بيروت . وفى الجزء الاخير من اغسطس تم (نقل) ١٢،٠٠٠ جندى وعضو فى الكوادر السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية (من مكانهم الى أماكن أخرى فى العالم العربى ، وكذلك تم ترحيل المدنيين الفلسطينيين الذين منعهم الحصار . ومنذ ذلك الحين رجع عدد غير محدد على كل حال . ويمكننا ان نقدر بان حوالى ٢٥،٠٠٠ فلسطينى مدنى ، بما فى ذلك الذين لديهم اقامة دائمة أو جنسية ابنانية ، لم يعودوا بعد الى الاقامة من جديد ، والبعض منهم قد لا يفعل ذلك ابدا .

وعلى أية حال، فان أغلب الفلسطينيين فى لبنان ليسوا مقاتلين ، ولا مزودين بالمال الكافى أو الوثائق التى تمكنهم من السفر . ومن بقى منهم على قيد الحياة سيظل فى مكانه ما لم يضطر الى الرحيل بالقوة — ومما ينطبق فى هذا

المجـــال هدم مسـاكنهم وتسويتها بالارض فى « مخيمات اللاجئين » (وهى تسمية خاطئة مادامت هذه الاحياء كانت مجاورة لهم دائمـــا) فى جنـــوب ووســـط لبنـــان ـــ وبدون منازل ، وبعـــدد كبـــير من رجالهم اما موتى أو مســـجونون او مطردون ، يلاقى أولئـــك الذين بقوا احياء مصاعب جمـــة ، وهى مصاعب يصعب التخفيف منها على ادارات منظمة التحرير الفلســـطينية الخاصــــــة بالمعاشـات او اغاثة الايتـــام والارامل ، والخدمة الطبية المجانية ... الخ . وقد بدأت الاخطار أولا بمذبحـــة الكتائب ســـنة ١٩٧٦ فى تل الزعتر ، ثم تلتهـــا مذابح مكثفة خـــلال صيف ونهـــاية ٨٢ ـــ ١٩٨٦ فى الدامـــور وصابرا وشـاتيلا ، فزادت بذلك اجـــواء الشك والمجهـــول .

جدول رقم (٨) ـ الخدمات الطبية المقدمة من مستشفيات الهلال الاحمر الفلسطيني في غرب بيروت

من ٦ يونية الى ١٥ اغسطس

نوع الحالة	مدنيون		محاربون			
	العدد	النسبة من الاجمالي	العدد	النسبة من الاجمالي	العدد الاجمالي	النسبة من مجموع الحالات
وفيات	٢ر٧٣٩	٨١ر٢	٦٣٦	١٩ر٧	٨ر١١٧	٢٩ر٩
بتر واصابات خطرة وحروق خطيرة	٦ر٥١٧	٨٠ر٣	١ر٥٩٩	١٨ر٨	٣ر٣٧٥	١٢ر٤
اصابة خفيفة ، وحروق بسيطة وكسور ، وكسور مضاعفة ، وغيرها	١٣ر٥٣٩	٨٦ر٢	٢ر١٧٥	١٣ر٨	١٥ر٧١٤	٥٧ر٧
جملة الحالات	٢٢ر٧٩٦	٨٣ر٨	٤ر٤١٠	١٦ر٢	٢٧ر٢٠٦	١٠٠

المصدر : سجلات استرجعها المدير المسئول لجمعية الهلال الاحمر الفلسطيني الذى كان موجودا هناك اثناء الهجوم على بيروت .

واخيرا ، فانه منذ الايام الاولى للغزو ، احاطت القوات الاسرائيلية بالفلسطينيين الذكور ، وشحنتهم فى السفن الى معسكرات الاعتقال فى جنوب لبنان ، ومراكز التحقيق لاستجوابهم فى اسرائيل . وفى عمليات (التطهير) المشتركة بين اسرائيل والكتائب فى غرب بيروت ، احتجز آلاف آخرون ، وطرد منهم من لم يكن يحمل وثائق رسمية ، وسجن الباقون ممن يحملون وثائقهم . وقد اخفت اسرائيل معسكرات الاعتقال ، ومراكز التحقيق عن أعين المراقبين الخارجيين ، ولكن من المقدر أن آلافا عديدة لاتزال فى الحجز والاعتقال . فماذا يخبىء المستقبل لهم ؟ هذا ما لا نعرفه .

كما لا نعرف الثمن الذى سيدفعه التجمع الفلسطينى فى لبنان من اجل (تسوية) النزاع بين اسرائيل ولبنان ، اى من اجل تحقيق انسحاب القوات الاسرائيلية . وهناك تقارير غير مؤكدة بأن لبنان يأمل فى نقل كثير من سكانه الفلسطينيين الى سوريا . ولو حدث ذلك فستنخفض نسبتهم فى لبنان بدرجة ملحوظة ولكنهم سيكونون قد انتقلوا فقط الى (حدود) اخرى مع اسرائيل .

والى هنا ، لم تكن الحملات العسكرية قد شنت ضد الفلسطينيين البالغ عددهم ٣ر١ مليون نسمة فى المناطق المحتلة بعد ١٩٦٧ ، أو الفلسطينيين البالغ عددهم أكثر من مليون نسمة على الضفة الشرقية للاردن. وفى صيف ١٩٨٢ زادت القبضة العسكرية على الصنف الاول حيث اخذ الجنود المسلحون (والمستوطنون) اليهود من اعضاء لجان الامن الاهلية يتصدون للمحتجين الفلسطينيين العزل الا من الحجارة يردون بها عليهم . ولا يزال الوقت مبكرا للحكم على الاثار الكاملة لاحكام السيطرة على السكان المغلوبين على أمرهم ، وان كانت الحملة لم تعط دليلا على انتهائها ، حيث ان اسرائيل مستمرة فى اتباع سياسة (الاستيطان) وتنفذها (بالقبضة الحديدية) .

ولذلك فاننا نتوقع استمرار انهاك الشعب الفلسطينى فى فلسطين بالتصعيد المستمر لعمليات استنزافهم بحوادث العنف . واذا ما وجدت اسرائيل ان هذه العملية شديدة البطء ، فستضاعف بلا شك من ضغوطها الاقتصادية الخانقة ، ومن عمليات القمع الشديدة لتعجل بالخروج الجماعى للفلسطينيين (٥٨) .

ومن الواضح ان طريق الخروج من البلاد لسكان الضفة الغربية يظل نحو الشرق عبر نهر الاردن . ولهذا السبب لم تشن بعد حملات عسكرية ضد الاردن . وما أن يقل عدد الفلسطينيين فى الاراضى المستولى عليها الى المستوى المرغوب فيه (فلا يكون كبيرا جدا ليتطلب رقابة وسيطرة ، ولا صغيرا جدا ليحرم الاقتصاد الاسرائيلى من الايدى العاملة الرخيصة) حتى يمكن ان يتعرض وادى الاردن للغزو وان « يطهر » من الفلسطينيين ، ويكون من السهل

تصور ان يلقى (المعقل) فى عمان نفس معاملة بيروت الغربية . وعلى الرغم من أن هذه مسألة حدس وتخمين الا انها أمر منطقى لاستمرار عمليات الطرد والتشريد طوال ثمان وثلاثين سنة لسكان فلسطين الاصليين .

الظروف الاجتماعية والاقتصادية :

كان تاريخ فلسطين خلال هذا القرن هو تاريخ احتلالها المتتابع الخطوات ، بدءا بانهيار الحكم التركى ثم الغزوة البريطانية التى اعقبته ، وانتهاء الاستعمار الصهيونى بأربع مراحل محددة واضحة ، كل مرحلة منها تثبت شكلا « بالاستعمار الصهيونى . وكان هذا الاخير هو العامل الحاسم فى تشكيل التجربة الفلسطينية . ومن الممكن تمييز تاريخ فلسطين الحديث فى ظل معينا من اشكال السيطرة ٪ ولكنها جميعا تؤدى الى الهدف النهائى وهو طرد الفلسطينيين من وطنهم . (انظر الحدول رقم (٩) .

اساليب السيطرة :

تختلف السيطرة الادارية والقانونية على الفلسطينيين باختلاف ظروف الفلسطينيين أنفسهم . فاولئك الخاضعين للحكم الاسرائيلى والذين تصادف أن اصبحوا مواطنين فى اسرائيل يلاقون اساليب السيطرة حسب موقعهم ، وهذه الاساليب تختلف عنها بالنسبة للفلسطينيين فى الاراضى المحتلة . ومع ذلك ، وكما سنرى فيما يلى ، فان هناك خصائص هامة مشتركة تميز المواقف الصهيونية تجاه الفلسطينيين ككل بصرف النظر عن مواقعهم .

كذلك فان الفلسطينيين فى العالم العربى يواجهون ظروفا مختلفة ، يجب فهمها ، ليس فقط فى اطار التعقيدات السياسية فى المجتمعات المضيفة (جمهورية كانت أو ملكية أو ما تسمى بالنظم اليسارية أو المحافظة) ولكن الاهم من ذلك يجب فهمها فى ضوء جو النشاط الذى يرتبط به الفلسطينيون . ومثال ذلك ، أن أساليب المعاملة الاقتصادية تختلف فى العالم العربى عن المعاملة السياسية .

ونبدأ القول ، بأن من المهم أن نذكر أن اكبر تركز فلسطينى فى منطقة جغرافية واحدة يظل فى فلسطين التاريخية ، حيث يستمر ٥٠٪ منهم يسكنونها. وكما هى الحال فى المجتمعات الأخرى الخاضعة للسيطرة ، يعكس التركيب الاجتماعى الفلسطينى ، سواء فى اسرائيل قبل ١٩٦٧ أو فى الاراضى المحتلة ، نموذجا مشوها للتنمية التى تتسم بها المجتمعات الوطنية تحت نظم الاستيطان الاستعمارى .

الجدول رقم ٩ — مراحل التاريخ الفلسطينى

فى القرن العشرين

المراحل	الفترة	المعالم البارزة
مجتمع مزدوج (الاستعمار الصهيونى	ماقبل ١٩٤٨	علاقات قوى غير متماثلة ، يتوسط بينها الوجود البريطانى ، مؤسسات قاصرة على الصهيونية ، تعويق تطور الاقتصاد العربى ، السيطرة الصهيونية والتشتيت النهائى للفلسطينيين .
الاستعمار الداخلى (اسرائيل قبل ١٩٦٧)	١٩٤٨ — ١٩٦٧	تهميش الفلاحين الفلسطينيين ، مصادرة الأراضى ، المناورات السياسية ، الركود الاقتصادى ، التمييز السكنى والمهنى ، الازدواجية فى العلاقات الاقتصادية والاجتماعية .
تبعية الضفة الغربية وغزة للأردن ومصر .	١٩٤٨ — ١٩٦٧	التبعية الاقتصادية والسياسية للأردن ومصر ، التمييز والكبت السياسى .
الأشكال المتسارعة للاستعمار الداخلى فى اسرائيل ، تبعية الضفة الغربية وغزة لاسرائيل استعماريا .	١٩٦٧ — الحاضر	زيادة الطبقة العمالية الفلسطينية فى اسرائيل التدخل الاقتصادى فى الضفة الغربية وغزة مصحوبا بمصادرة الأرض ، وتشجيع الفلسطينيين على الهجرة ، والقمع السياسى ، وانكار الحقوق الفلسطينية .
السيطرة الكاملة لاسرائيل .	اتجاه المستقبل	ترحيل الفلسطينيين من خلال الطرد والهجرة ، الهدف النهائى هو صهينة فلسطين التاريخية ، واعادة توطين الفلسطينيين فى الدول العربية اذا أمكن ذلك .

وفى دراسة مقارنة ، يحلل ستانلى جرينبرج فى كتابه « الجنس والدولة فى التنمية الرأسمالية » نماذج السيطرة فى أربعة نظم استيطانية هى : اسرائيل ، والباما وجنوب افريقيا ، وايرلندا الشمالية . ويخلص الى استنتاجه بأن نمو الرأسمالية فى نظم الاستيطان لاتزيل أو تقلل من مدى الاستغلال الطبقى والسيطرة العنصرية ، بل تزيد من حدتها . فتتزايد السيطرة فى الباما وجنوب افريقيا على العمال السود بالتوسع والتغلغل الرأسمالى . ويوصف الوضع فى فلسطين قبل وبعد سنة ١٩٤٨ كما يلى :

« فى اسرائيل ، نجد أن نموذج التنمية الاقتصادية الرأسمالية والجماعة المختلطة تحت سيطرة الحركة العمالية اليهودية ، قد زاد من تعزيز التمييز فى المعاملة ضد السكان العرب . ففى فترة وجود فلسطين عمل الهستدروت على ان يحد من العمالة فى القطاع اليهودى ووكالات الانتداب البريطانى ، وحاول ان يخصص حصصا ومعدل أجور « متحضرا » للعمالة اليهودية ، وابعد العرب عن نقابات العمال اليهودية وتبادل الخدمات العمالية . ولكن بعد التقسيم واقامة الدولة اليهودية أصبح تمييز الهستدروت البسيط تمييزا رسميا على نطاق واسع . وضمنت سيطرة الدولة على تبادل العمالة وسياسات التنمية الاقتصادية للدولة ، بقاء العرب خارج القطاع الاقتصادى النامى ، وداخل سوق العمل الثانوى المقنن(٥٩) » .

وتتمثل اساليب السيطرة التى تمارسها اسرائيل ضد الفلسطينيين فى فئتين : التقسيم والتمييز ، والتبعية(٦٠) .

ويتحقق التقسيم بالفصل المادى والسكنى بين الفلسطينيين ، الذى يعززه الفصل العنصرى القانونى بشكل موسع بين العرب واليهود . ويستمر الصندوق القومى اليهودى ، والجيش والهستدروت ، ومختلف الاحزاب السياسية الصهيونية ، وكذلك الأعضاء الذين ترجع أصولهم الى فترة ما قبل ١٩٤٨ فى تعزيز وتأييد السيطرة الصهيونية على المجتمع . والأهم من ذلك ، كثيرا ، ان الموارد المالية والاقتصادية الضخمة المتاحة للدولة من مصادر خارجية توجه « كلية » لسد حاجات المواطنين اليهود بحجة ان هذه الموارد ليست خاصة بمؤسسات الدولة ، ولذلك لاتخضع لقانونها . ويعتبر الصندوق القومى اليهودى مثالا ممتازا على ذلك ، حيث تستخدم ملايين الدولارات المستجداة من الخارج كل سنة فى طرد الفلسطينيين من أراضيهم ، واسكان المستوطنين الصهاينة مكانهم .

ويعتبر التمييز أسلوبا آخر للسيطرة ، ويتم من خلال التبعية الاقتصادية المستمرة للعرب للقطاع اليهودى . وقد نشأ نظام الرشوة والمحسوبية ، وعدم مراعاة الكفاءة مما يفرض على طالبى الوظائف من العرب ان يثبتوا ولاءهم وخضوعهم للسلطات

ويلاحظ المحللون انه بينما تستطيع اسرائيل ان تحافظ على سيطرتها على الفلسطينيين لمدة السنوات العشر أو الخمس عشرة القادمة ، فان المحافظة على هذا النظام فى المستقبل ستكون مكلفة للغاية . وسيؤدى اشتغال الفلسطينيين المستمر بالسياسة الى تزايد المشكلات أمام السلطات الاسرائيلية . واذا ما حدث ذلك ، فسيصبح من الممكن أن يلجأ النظام الى الطرد الكامل للفلسطينيين . وبالرغم من أن قيادة الليكود قد تكون صريحة فى هذا الاختيار ، الا انه يجب أن نذكر انه فى سنة ١٩٧٦ ، وتحت رعاية حكومة العمال ، أعد اسرائيل كونيج ، وهو من كبار موظفى وزارة الداخلية ، مسودة خطة التخفيض المنظم للسكان العرب الاصليين عن طريق الطرد ، ووضع عراقيل اضافية أمام تقدم القطاع العربى الراكد بالفعل ، مما يؤدى الى زيادة هجرة الفلسطينيين .

ويمكن النظر الى البنية الاجتماعية الفلسطينية تحت الحكم الاسرائيلى كحصيلة لنظام استعمارى داخلى ، يؤدى الى تركيبة طبقية مشوهة ، وفلاحين غرباء عن أراضيهم ، والى نموذج للتطور فى المدن معتمد على المجتمع الصهيونى المسيطر ، ويرتبط بمحيطه الخارجى دون النفاذ الى المركز .

الظروف الاقتصادية :

لا يمكن لمجتمع ان يسيطر على مقدراته دون التحكم فى بيئته الاقتصادية . ويقدم المجتمع الفلسطينى حالة فى صميم الموضوع . اذ تنقصه طبقة متوسطة مهنية منتجة ، وطبقة عاملة صناعية مماثلة .

وتتركز معظم قوة العمل العربية فى كل من اسرائيل والاراضى المحتلة فى ادنى شريحة للاجور والمرتبات . وفى سنة ١٩٧٨ كانت هذه الشريحة الدنيا تمثل ٦٣٪ من كل الساعين على رزقهم من العرب فى مقابل ٣٠٪ من مجموع اليهود الاجراء . ويكشف نموذج العلاقات الاقتصادية عن طبيعة « سوق العمل المزدوج » ، فنجد سوقا رئيسية للعمل ترتبط بأهم الصناعات الحربية الاستراتيجية مفتوحة للمواطنين اليهود فقط ، وسوقا أخرى ثانوية ، ترتبط بصناعة السلع الاستهلاكية مفتوحة للمواطنين العرب (٦١) . وقد نتج عن ذلك تمييز مهنى عنصرى متزايد . ويوضح الجدول رقم (١٠) نماذج الاوضاع المهنية بين الفلسطينيين الذكور فى مختلف الدول .

وبدراسة البيانات الخاصة بالعمال الفلسطينيين من مواطنى اسرائيل ، يتضح تركزهم فى الاعمال التى تتطلب عمالة كثيفة ، يدوية ، ماهرة أو نصف ماهرة غير اشرافية ، بينما يستأثر اليهود بالمراكز الفنية الاشرافية الماهرة . وزيادة على ذلك ، نجد عمال الصناعة العرب فى القطاع الانتاجى للسلع غير الاستراتيجية ، بينما يتركز اليهود فى قطاع الاقتصاد الصناعى والادارى

والاستراتيجي مثل صناعة الماس والصناعات الحربية والالكترونية والصناعات المرتبطة بها . ويمثل العرب ٢٨٪ من مجموع المواطنين الاسرائيليين العاملين فى التشييد بالمقارنة بسبعة فى المئة من العاملين فى الصناعة . وبالنسبة للقوى العربية العاملة ، نجد فى مقدمة القطاع « الصناعى » صناعة الاثاث والنجارة والتنجيد . ونظرا لما تواجهه اسرائيل من عجز فى عمال القطاع الفنى الصناعى حيث يلزم تدريب متخصص ، وطبقا للازدواجية المفروضة على سوق العمل ، فانها تتجه الآن الى جلب العمال المهرة الاجانب من الخارج .

وقد ترتبت على استخدام قوتين متعارضتين فى الاقتصاد الاسرائيلى آثار بعيدة المدى على الطبقة العاملة الفلسطينية . فأولا ، خلقت اعادة تكييف الصناعة الاسرائيلية لاسواق التصدير تحولا فى الطلب على العمال العرب . وادى وصول قطع التشييد الى درجة التشبع بعد أن كان يمثل نشاطا اقتصاديا كبيرا للمستعمرين الصهيونيين فى فلسطين الى عهد قريب ، وغلق الاسواق الامريقية والايرانية ، الى التحول نحو سوق جنوب أفريقيا ، ثم الى السوق المصرية حديثا . وفى كلا الحالين يتم الحصول على العمالة الرخيصة ، غير الماهرة مما يحدث انخفاضا ملحوظا على طلب العمال الفلسطينيين غير المهرة فى التشييد المحلى .

والعامل الثانى الهام بالنسبة للعمال الفلسطينيين فى اسرائيل هو الاندماج التدريجي للمجمع الحربى ـ الصناعى داخل القطاع المدنى . وقد كان هناك توسع هائل نحو أسواق التصدير للصناعات الحربية ، والتكنولوجيا العالية .

جدول رقم ١٠

التوزيع المهنى للفلسطينيين (الذكور) فى بلاد ومناطق مختارة

النسبة المئوية للفئات المهنية حسب الحالة التخصصية

بلد او منطقة الاقامة	فنيون/ مهنيون	اداريون/ رجال اعمال	بائعون كتبة	المشتغلون بالاعمال التجارية	صناعيون/ نقل ومواصلات/ خدمة عامة	خدمات شخصية اعمال	زراعيون/ الصيد/ المناجم
العربية السعودية (١٩٧٤) وهم :	٥١ر٥	٢ر٩	٦ر٠	٣ر٢	٢٨ر٩	٣ر٣	٣ر٤
اردنيون	٦٣ر٠	٣ر١	٦ر١	٣ر١	٢٠ر١	١ر٩	٢ر١
فلسطينيون	٣٦ر٩	٢ر٦	٥ر٧	٣ر٣	٣٩ر٣	٥ر٠	٧ر١
الكويت (١٩٧٥)	٢٠ر٨	١ر٣	١٧ر٨	٨ر٦	٤١ر١	٨ر٤	٢ر١
الضفة الشرقية للاردن (عمان ١٩٧٥)	٩ر٧		٧ر٠	١١ر٨	٤٥ر٤	١١ر٢	١٤ر٥
سوريا (١٩٧٠)	١٠ر٨	٠ر٧	٨ر٢	٨ر٩	٥٧ر٠	٦ر٦	٧ر٩
اسرائيل (١٩٨٠)	٧ر٨		٢ر٢	٥ر٩	٥٨ر٨	١٠ر٠	١٥ر٠
الضفة الغربية (١٩٨٠)	٦ر١	٠ر٩	٢ر٧	١٢ر٠	٥٣ر٤	٧ر٣	١٧ر٦
غزة (١٩٨٠)	٤ر٣	٠ر٨	٢ر٣	١١ر٧	٥٣ر٨	٨ر٦	١٨ر٥
مخيمات لبنان (١٩٧١)	٣ر٧		١ر٤	١٥ر٣	٤٦ر١	٨ر٩	٢٤ر٧

المصادر : مستمدة من (الخصائص الديمغرافية للسكان الفلسطينيين) لجانيت ابو لغد ، ملحق / ١ جـ ٢ من (دراسة الجدوى لجامعة فلسطين المفتوحة) باريس اليونسكو ، ١٩٨٠) ص ٦١ ، و (والمختصر الاحصائى الاسرائيلى) رقم ٣٢ ١٩٨١ ، الجدول ٢١/١٧ ، الجدول ٧/١٢ و (مختصر فلسطين الاحصائى) (دمشق : صندوق فلسطين الوطنى ١٩٨٠) . واقتضى ذلك ضرورة ادخال الفلسطينيين بشكل متردد وانتقائى فى الصناعات المتعلقة بهذا المجال • ويبدو هنا أن ألازدواجية فى سوق العمل الاسرائيلى تعمل عملها ايضا ، فيؤجر العرب للعمل فى الاعمال الروتينية ، غير الحساسة ، ذات المخاطر • وهكذا تتسع الصناعات ذات التكنولوجيا العالية والصناعات (الدقيقة) فى المناطق القريبة جدا من تجمعات العرب مثل الجليل حتى يسهل الحصول على العمالة الرخيصة بوفرة (٦٢) •

وقد اضطرت الحاجة والقيود المفروضة على الفلسطينيين الذين يعيشون فى اسرائيل كثيرا منهم الى العمل الترحالى وما يستتبع ذلك من اضطراب • ولما كان أغلب المشروعات الصناعية يقع فى القطاع اليهودى ، لذلك يضطر العمال العرب الى قطع المسافات الطويلة من قراهم الى أماكن العمل • ويقدر أن حوالى ٧٠٪ من العمال الفلسطينيين يقومون بهذا الترحال يوميا ، وتصل هذه النسبة الى ٩٠٪ بين العمال فى سن ١٥ — ٢٠ سنة . وعن الشباب العرب العاملين فى المراكز اليهودية يقول أحد المراقبين :

« ان ظروف العمل صعبة للغاية ، ودون اشراف قانونى فهم يشتغلون من عشر الى اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ولمدة ستة أو سبعة أيام فى الاسبوع — ويحصل اغلبهم على أجره الاسبوعى أو الشهرى نقدا وبدون أية أوراق تثبت تشغيلهم • وقليلون هم المسجلون لدى ادارات ضريبة الدخل أو التأمينات الاجتماعية . ويفضل أصحاب العمل التهرب من الضرائب وتجنب توفير الاعانات الاجتماعية لهم ، فبدلا من منح العامل المصاب اجازة مدفوعة الأجر وتعويضا ، فانه يتعرض للاهمال والطرد من وظيفته فى العادة »(٦٣)

ومنذ عام ١٩٦٧ ، دخلت النساء العربيات سوق العمل بأعداد متزايدة . وتوازى خبراتهن خبرات الرجال • وتشتغل النساء فى مصانع التعبئة وجمع الفاكهة ، وخياطات بعقود من الباطن •

وهناك آثران للسيطرة الاقتصادية اليهودية فى البلاد ، مع الغياب الكامل لأى قطاع صناعى فلسطينى قابل للنمو والبقاء ، أولهما ، استحالة وجود رأس المال اللازم لقيام صناعات عربية ، ويضطر العرب أن يظلوا معتمدين على الاقتصاد اليهودى ، يمدونه بالعمالة الرخيصة ، ولكنهم غير قادرين على جنى ثمار فائض قيمة عرقهم فى العمل • وثانيهما ، استمرار بنية القطاع العربى

راكدة بعجزها عن منافسة القطاع الصناعي اليهودي الاكثر تقدما من الناحية التكنولوجية • وستظل فترات الركود والأزمات الاقتصادية تنزل بثقلها البالغ على العمال العرب الذين يتعرضون للاستغناء عنهم عند أى هبوط فى النشاط الاقتصادى •

وينعكس الوضع المهنى المنخفض للفلسطينيين على دخلهم • وتقتصر الارقام الرسمية الصادرة عن الحكومة الاسرائيلية بشأن توزيع الدخل ـ على الموظفين الحضرين فقط . وتبين هذه الارقام أن اجمالى الدخل السنوى للموظف العربى فى منتصف السبعينات يصل الى ٨٤٪ من دخل الموظف اليهودى • ويجب أن نتذكر ، على كل حال ، انه بسبب وجود العائلات الكبيرة بين العرب مع الحجم البسيط لقوة العمل بينهم نجد الدخل المحسوب بالنسبة للفرد العربى منخفضا للغاية لدى المواطن اليهودى ـ يصل الى النصف تقريبا (٦٤) • وعلاوة على ذلك، يعترف أحد المحللين الاسرائيليين بأنه (بينما لا توجد دراسات منتظمة لاتجاهات الفجوة الاجتماعية ـ الاقتصادية بين العرب واليهود ، الا اننا لا نرى مبررا للاعتقاد بأن هذه الفجوة قد ضاقت ، فطالما أن اكبر الاستثمارات المناسبة تستخدم فى القطاع اليهودى ، فمن الممكن أن تزداد الفجوة اتساعا على مر السنين (٦٥) • واذا أخذنا فى الحسبان توزيع الدخل فى القطاع الريفى لازدادت الفروق بين العرب واليهود بشكل يثير الدهشة • ويعطينا الجدول رقم (١١) بيان الدخل بالنسبة للاسرة الحضرية فى سنة ١٩٨٠ •

(الجدول رقم (١١) ـ متوسط الدخل الشهرى للأسرة الحضرية بالعملة الاسرائيلية) (الشيكل) ـ سنة ١٩٨٠ •

المجموعة	الشيكل	نسبة العرب الى المجموعة
العرب	٢٢٨٥	ـــــ
اليهود من مواليد اسرائيل	٤٤٢٤	ـ ر٥١
اليهود الاوربيون والامريكيون	٣٣٤١	ـ ر٦٨
اليهود الأفريقيون	٣٠٨٣	ـ ر٧٤

المصدر : المختصر الاحصائى لاسرائيل ، رقم ٣٢ ، ١٩٨٠ ــ الجدول رقم ١/١١ . وفى كل تقديرات مستويات المعيشة ، يظل العرب أسوأ حالا من اليهود . اذ ينفق العرب من الناحية النسبية ، على الطعام والمأوى اكثر من اليهود الذين ينفقون اكثر على السلع المعمرة كالسيارات والتليفونات والتليفزيونات .. الخ ، واكثر المقارنات اثارة نجدها فى مجال الاسكان . فالزيادة فى حجم الاسرة ، والمصادر المستمرة للارض العربية تجعل كثافة السكان فى القطاع العربى تصل الى مستوى مرتفع طول الوقت . فالكثافة السكانية فى المستعمرة اليهودية الناصرة العليا ، وسكانها حوالى سبعة عشر الف نسمة تبلغ ٥٤٨م٢ للفرد فى مقابل ١٧٨م٢ للفرد فى الناصرة العربية وسكانها اكثر من ٤٠٫٠٠٠ نسمة (٦٦) . وليس الوضع بأفضل من ذلك فى القرى العربية المجاور فى الجليل . وتبين بيانات ١٩٨٠ أن سكان الحجرة الواحدة فى القطاع العربى ضعف عددهم فى القطاع اليهودى أو يزيد . وتجد فى الجدول رقم (١٢) التوزيع الكلى للكثافة الاسكانية (الجدول رقم (١٢) ــ النسبة المئوية للاسكان العربى واليهودى فى وحدات سكنية مختلفة (سنة ١٩٨٠) .

عدد افراد الحجرة	العرب	اليهود
حتى فرد واحد	١٥ر-	٥٨ر٦
١ــ٢	٢٠ر٣	٢٩ر٧
٢ــ٣	٢٩ر٦	١٠ر-
٣ــ٤ +	٣٥ر١	١ر٦
الجملة	١٠٠ر-	١٠٠ر-

المصدر : المختصر الاحصائى لاسرائيل ، رقم ٣٢ ، ١٩٨١ ــ الجدول ٢١/١١ . ويتضح موقف الحكومة الاسرائيلية بالنسبة للاراضى المحتلة بوصفها اياها بأنها (سوق اضافى للسلع والخدمات الاسرائيلية من ناحية ، ومصدر لعوامل الانتاج خاصة العمالة غير الماهرة للاقتصاد الاسرائيلى من ناحية اخرى) (٦٧) ، وتبين لنا كل المؤشرات الحالية أن هذه السياسة تنفذ بكل دقة. فبينما نجد فى سنة ١٩٦٨ ، أن ٢ر٤٪ من العمال الفلسطينيين فى غزة والضفة

الغربية يعملون فى اسرائيل ، تقفز هذه النسبة الى ٤ر٣٢٪ سنة ١٩٧٥ ثم الى ٤٠٪ سنة ١٩٨٠ ، وينتظر أن تصل الى ٥٠٪ فى نهاية الثمانينات (٦٨) . وفضلا عن ذلك ، فانه نظرا لما يتسم به اقتصاد الضفة الغربية وغزة من ركود لايستطيع ان يستوعب القوى العاملة كلها ، فان الاراضى المحتلة تتعرض لنسبة عالية من البطالة ، ولمزيد من الدمج الاقتصادى مع اسرائيل .

وفى الوقت الحاضر ، فان ما يقرب من ٤٠٪ من الضفة الغربية ، بما فيها احسب اراضيها ، تخضع للسيطرة أو تقرر (تهويدها) باقلمة المستوطنات والمناطق العسكرية بها (٦٩) . وتجدر الاشارة الى ان المستوطنات نفسها قد اقيمت فى مناطق كثيفة بالاسكان العرب . ويقصد بالضم غير القانونى للقدس الشرقية ، وفصل اماكن تركز السكان العرب بواسطة شبكة من الطرق والمستوطنات وهى نسخة طبق الاصل من عملية سابقة نفذت فى الجليل العربى الذى خضع للسيطرة مبكرا ، أن يكون عائقا لظهور دولة فلسطينية مستقلا ، وما نعا لدمج المدن العربية بشكل ذى معنى مع القدس الشرقية بصفتها المركز الحضرى الرئيسى . وقد حرم السكان العرب فى الضفة الغربية حتى من التحكم فى مصادر مياهها . ولذلك لا نندهش اذا وجدنا أن مساحة الارض المزروعة بالضفة الربية قد نقصت مائة الف فدان منذ سنة ١٩٦٧ ، وهى خسارة واضحة اذا عرفنا ان المجموع الكلى للارض المزروعة هناك يبلغ فقط خمسمائة الف فدان (٧٠) .

ان مصادرة الارض ، وطرد الفلسطينيين ، والازعاج اليومى ، ناهيك عن الارهاب الكامل من جماعات مثل جوش ايمونم الصهيونية التى تسلحها الحكومة وتحميها قد اصبحت السياسة الرئيسية التى ينفذها الصهيونيون فى خطتهم الاستعمارية بالضفة الربية وغزة .

وقد نبهت لجنة تابعة لمنظمة العمل الدولية للتحقيق فى احوال العمال بالضفة الربية الى أنه منذ سنة ١٩٧٥ يتدفق سنويا حوالى ٢٠٫٠٠٠ شخص خارج الاراضى المحتلة ، وقد نشأ ثلثا هذه الخسارة فى الضفة الغربية(٧١) .

وفى الفترة السابقة لتلك التى اشارت اليها لجنة منظمة العمل الدولية يقدر أن ٩٠٠٠ شخص ، كانوا يغادرون الضفة الغربية سنويا فى الفترة من ١٩٦٨ الى ١٩٧٥ . والمغزى الهام من تلك الهجرة التى تتجه أساسا الى دول الخليج هى حرمان الضفة الغربية من طبقاتها المهنية والمتعلمة . ويقدر انه من بين اجمالى سبعين الف فلسطينى يحملون درجات جامعية لا يعمل أكثر من ١٠٪ فى فلسطين المحتلة (٧٢) .

الفدان : نحو ٤ آلاف متر مربع — (المترجم) .

ويؤيد أحد التقارير الذى أعده فريق عمل بين الوكالات تحت رعاية برنامج الامم المتحدة للتنمية سنة ١٩٧٩ النتائج المذكوره أعلاه ، وزاد عليها ملاحظاته عن التطور على الجبهتين الاقتصادية والصناعية . وتختص النتيجة الرئيسية (٧٣) فى هذا التقرير بطبيعة الركود والتبعية للنمو الاقتصادى والصناعى للضفة الغربية بالمقارنة مع اسرائيل . فتقرر الاحصاءات الرسمية الاسرائيلية أن ما يقرب من ٩٠ ٪ من واردات الضفة الغربية تأتى من اسرائيل، وأن (الصادر) الاساسى من الضفة الغربية لاسرائيل هو العمالة غير الماهرة، خاصة العمال المقدر عليهم العمل فى قطاع التشييد والخدمة فى اسرائيل واداء الاعمال التى ينأى الاسرائيليون بأنفسهم عنها . وقد تدنى الوضع بالفلسطينيين الى درجة الاشتغال بقطع الاخشاب ورفع المياه فى الدولة الصهيونية . وفى منتصف السبعينات كانت نسبة ١٦٪ من الصادرات الاسرائيلية تتجه الى الارض المحتله فى مقبل ٢ر٦٪ سنة ١٩٦٧ . وطبقا للاحصاءات الرسمية يبلغ الفرق فى زيادة الواردات عن الصادرات ٩٢ مليون جنيه اسرائيلى بينما كان يبلغ الفرق ١٦٨ر١ مليون جنيه اسرائيلى سنة ١٩٧١ . وكانت تقدر نسبة الصادرات الى الواردات بين الضفة الغربية واسرائيل ٣ر٧ : ١ فى سنة ١٩٧٧ . وتبين (أرقام سنة ١٩٧٨) أن صادرات اسرائيل الى الضفة الغربية وغزة بما فيها القدس الشرقية زادت الى ٢٥٪ من كل الصادرات الاسرائيلية ، وتسبق حتى الولايات المتحدة (٧٤)) .

وقد ترتبت على الهيمنة الاقتصادية والسياسية المتصاعدة على الضفة الغربية النتائج التالية .

أولا : ، هجر كثير من الفلاحين الفلسطينيين أرضهم سعيا وراء الاجور المرتفعة فى السوق الاسرائيلية للعمالة غير الماهرة ، ونتج عن ذلك انخفاض شامل بنحو ستة آلاف فرصة عمل فى الاراضى المحتلة فيما بين ١٩٧٠ — ١٩٧٨ ، بينما ازداد السكان بنحو ٣٥٠٠٠٠ر نسمة . واذا اخذنا فى الاعتبار أولئك العاملين بشكل قانونى من خلال تبادل العمل الاسرائيلى . وأولئك العاملين بصفة غير قانونية ، فمن المقدر الآن أن أكثر من ثمانين الف عامل فلسطينى من الارض المحتلة يعملون فى اسرائيل ، منهم ٢٠ ٪ تحت سن ١٧ سنة ممن فاتت اغلبهم فرصة التعليم . وقد ترتبت على نقص العمالة فى الضفة الغربية آثار سلبية على القطاع الزراعى وسوق الاسكان .

ثانيا : انخفض نمو النشاط الصناعى فى الضفة الغربية من ٨ ٪ الى ٥ر٤٪ فيما بين سنتى ١٩٦٨ ، ١٩٧٦ ، وكذلك الحال بالنسبة للسياحة التى كان من المعتاد ازدهارها فى الضفة الغربية . كما أن زيادة اجمالى الناتج القومى ، وهو عنصر دعائى كثيرا ما يردده المسئولون الاسرائيليون . لا يفسرها نمو صناعى حقيقى ، بل ترجع الى الاموال التى يعود بها الى الضفة الغربية المهاجرون الفلسطينيون والعمال فى اسرائيل . وطبقا لما

أورده أحد المراقبين نجد ذلك الوصف الجيد للنشاط الصناعى فى الضفة الغربية وغزة بأنه بدائى بشكل ملحوظ ، ولا توجد بدايات لعملية تصنيع يمكن تمييزها(٧٥)) . ذلك ان أكثر من ١٠٪ من المؤسسات الصناعية فى الضفة الغربية وغزة يتكون من ورش يشتغل بها أقل من عشرة أفراد ، ولذا أصاب الاقتصاد الاسرائيلى ركود مؤقت فان آثاره تكون أكثر تدميرا فى الاراضى المحتلة حيث أن العمال ،طبقا لتقرير منظمة العمل الدولية ، غير مؤمن عليهم ضد البطالة . ويعترف الاقتصاديون الاسرائيليون بأنه اذا لم يحدث تغيير فى الركود الاقتصادى الحالى ، فمن المتوقع أن ينخفض عدد عمال اسرائيل من الارض المحتلة بأكثر من خمسين ألف عامل فى منتصف ونهاية الثمانينات . ويتضح ذلك الاتجاه من مقارنة ارقام سنة ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ التى تبين انخفاضا بنسبة ١٥٪ فى عدد العاملين المشتغلين فى اسرائيل(٧٦) .

ثالثا : ارتفعت تكاليف المعيشة ارتفاعا هائلا فى الاراضى المحتلة تحت السيطرة الاسرائيلية . فبينما ارتفع متوسط مستوى الاسعار فى اسرائيل بنسبة ٤٠٠ ٪ ما بين ١٩٧٠ ، ١٩٧٧ نجد متوسط الارتفاع ٥٠٠ ٪ فى الضفة الغربية، و ٦٠٠٪ فى غزة فى نفس الفترة . ونفهم مغزى ذلك أكثر اذا لاحظنا التباين فى أجور العاملين العرب واليهود . اذ يحصل الفلسطينيون من الاراضى المحتلة الذين يعملون فى اسرائيل على ٤٠٪ من متوسط اجر الاسرائيلى . ونفس الحال مع العاملين الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة الذين يكسبون ما بين ٦٠ — ٩٠ ٪ أقل من نظرائهم الفلسطينيين الذين يعملون فى اسرائيل .

واخيرا ، ادت السيطرة الاسرائيلية الى انتهاك حقوق الانسان الاساسية فى المجال الاقتصادى انتهاكا أظهرته بالوثائق منظمات مثل منظمة العفو الدولية ومنظمة العمل الدولية وغيرها من الاجهزة الدولية . فأية محاولات فلسطينية لتنظيم العمال لحماية حقوقهم وتدعيم نقاباتهم تفرض عليها القيود والمقاومة من الحكومة العسكرية . وهناك ثلاثة عوامل تساعد على تفسير الوضع غير المستقر للنقابات الفلسطينية . أولا ، يعمل ٤٠٪ من العاملين بالضفة الغربيةوغزة فى اسرائيل ، ولا تمثل النقابات فى الارض المحتلة مصالحهم ، ولا تستطيع اجتذابهم للانضمام اليها (٧٧) . ثانيا ، فى فبراير ١٩٨٠ عدلت سلطات الاحتلال قانون العمل الاردنى لتحد من النشاط النقابى، وتقصر انتخاب أعضاء المكاتب النقابية على الافراد المعتمدين من هذه السلطات . ثالثا ، تقرر مد نشاط الهستدروت الى الاراضى المحتلة — ولابد أن يؤدى ذلك الى زيادة اضعاف النقابات الفلسطينية كأداة ممكنة لمواجهة مزيد من الغزو الصهيونى للحياة الاقتصادية فى الضفة الغربية وغزة .

وتعتبر البيانات الخاصة بالفلسطينيين الذين يعيشون خارج فلسطين التاريخية بيانات قديمة ولا يعتمد عليها . وفى حالات معينة ، كما هى

الحال فى لبنـــان ، لا تتوفر البيانات المنتظمة بخصوص ما يقرب من ٤٠٠,٠٠٠ فلسطينى . ولكن يمكننا استخلاص النتائج العامة التالية اعتمـــادا عـــلى البيانات الواردة بالجدول رقم (١٠) .

اولا : يبين توزيع الفلسطينيين مهنيا حسب الحالة اختـــــلافا واضحا فى المكانة حسب الدولة . فلدى المملكة العربية السعودية وتليهـــا الـــكويت أكبر تركز فلســـطينى فى الوظائف المهنيـــة والفنية ، وتليهما سوريا والاردن . وباستثناء لبنـــان ، وحينما تمثـــل العينة سكان المخيمات ، يعطى الفلسطينيون تحت الاحتـــلال الاسرائيـــلى (خاصـــة الذين يعيشون فى غـــزة) أدنى تمثيل للجماعات المهنية .

ثانيا : بالرغم من تباين الحركة الاقتصادية من قطر الى قطر تبقى حقيقة أن الجزء الاكبر من الفلسطينيين بصرف النظر عن مكان معيشـتهم ، يشغـــلون أدنى الوظائف مكانة .

ولا يمكن فهم حالة الفلسطينيين فى العالم العربى فهما كاملا دون دراسة الحالة فى مخيمات اللاجئين ، ومن المهم هنا ملاحظة عدم وجود دراســـــة شاملة للحياة فى هذه المخيمات وانما نجد فقط سلسلة من دراسات الحالة .

ولا شك فى ان الفلسطينيين المشردين الذين يعيشون فى مخيمات اللاجئين يمثلون الرمز الحى لمعاناة الفلسطينيين . وفلسطينيو المخيمات ، واغلبهم من اصول ريفية ، هم المستمرون فى امداد الثورة الفلسطينية بكوادرها النضالية، وهم دون غيرهم الذين دفعوا حياتهم فداء للقضية الفلسطينية . ولعل التواطؤ الاخير بين الصهيونية والكتائب فى مذبحة اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان يعتبر مثالا مروعا لوضع هؤلاء الفلسطينيين المعرضين دائما للعدوان .

ورغم ذلك ، تحاول مخيمات اللاجئين ان تبقى العائلات متماسكة فى وجه المحنة ، وأن تدعم لديهم الاحساس بالتضامن اللازم للمحافظة على الهـــوية الفلسطينية . غير أنه ينبغى الا تضفى جوا رومانسيا على حياتهم الخشنـــة المزعزعة من جذورها والتى فرضت عليهم بالضرورة .

لقد ادى وجودهم فى المخيمات الى الشعور بالتواكل واليأس . ومع مرور الوقت ، امتد هذا الاتكال على وكالة غوث وتشغيل اللاجئين التابعة للامم المتحدة (أرنروا) الى الدول العربية المضيفة التى اعتاد الفلسطينيون الاعتماد عليها فى العمل والتعليم ، وغير ذلك من الخدمات الاجتماعية . ويعنى وضـــع الفلسطينيين انكار حقوق الانسان الاساسية لهم مثل حق التنظيم وحـــق الاجتماع ، وحق الانتقال بحرية عبر الحدود الدولية .

ولا شك فى أن أحد احتياجات الرفاهية الاجتماعية والنفسية الصحيحة ، يتحقق بتوفير المستوى اللائق للصحة العامة ، وصحة الفرد ايضا . وتشهد

التقارير العديدة « للاونروا » ومنظمة الصحة العالمية ، والفلسطينيين انفسهم على المستوى الصحى غير اللائق فى المخيمات ، والذى لابد أنه قد تدهور بشكل حاد نتيجة عمليات التدمير الاسرائيلية الاخيرة . فمثلا ، ابتت التقارير عن الفترة السابقة لجولة القتال الاخيرة أن الطبيب فى المخيم يفحص ٦٥ حالة فى المتوسط يوميا ، ويعالج طبيب الاسنان ثلاثين مريضا فى اليوم ، وتنتشر الانيميا بين ٢٠٪ من الاطفال الفلسطينيين حتى سن الستة والثلاثين شهرا ، بينما يظل ٥٠ ٪ آخرون (على هامش الخطر) حسبما أورده تقرير « الاونروا » . كما يؤدى سوء التغذية الذى يعانى منه واحد من بين كل خمسة اطفال الى التدمير الدائم للقدرات الذهنية والجسمية ، لشباب الفلسطينيين فى المخيمات (٧٨) .

التعليـــــم :

تحكم التعليم الفلسطينى فى اسرائيل منذ البداية ، ولا تزال ، مجموعة معايير سياسية ليس للفلسطينيين رأى فى تشكيلها . وفى ظل وحدة ادارية منفصلة داخل وزارة التربية نجد السياسات التعليمية دائما هى حصيلة بيروقراطية الوزارة الصهيونية والموظفين الحزبيين اكثر من التربويين المدربين الذين يحسون باحتياجات الفلسطينيين . وهـــذه السياســـة التعليمية الاسرائيلية المبنية على التصور الصهيونى العنصرى هى دليل تفصيلى على طبيعة مناهج الدراسة الابتدائية والثانوية التى تشرف عليها الحكومة . فعلى الطلبة العرب ان يقضوا ساعات طويلة فى دراسة الثقافة والتاريخ الصهيونى واللغة العبرية ، بينما يتعرض التلاميذ اليهود قليلا للتاريخ واللغة العربية . ويقرر احد الباحثين الاكاديميين حديثا عن حالة التعليم الفلسطينى فى اسرائيل انه (يبدو أن اهمال الطلبة العرب وحرمانهم من المناهج المناسبة فى ازدياد مستمر (٧٩)) . ومن الواضح بالنسبة للشباب الفلسطينى المقيم فى اسرائيل أن النظام التعليمى يستخدم كوسيلة للسيطرة الاجتماعية واسياسية ، وليس كأداة الغرض منها خلق الشخصية الديمقراطية ، والتفكير المبدع الخـــلاق والنقدى لدى الشباب .

ويقدر الكثر المحللين تفاؤلا عدد الطلاب الجامعيين الفلسطينيين فى معاهد التعليم العالى باسرائيل بحوالى ٣ر٥٪ من مجموع الطلاب ـــ بالرغم من الحقيقة المؤكدة بان الفلسطينيين يشكلون اكثر من ١٥٪ من مجموع السكان . ويمثل المعدل التراكمى لخريجى الجامعة فى القطاع العربى حوالى ٠ر١٪ بينما يبلغ نحو ١ر٣٢٪ للسكان اليهود ، اى بفارق ثلاثة عشر ضعفا (٨٠) .

وتساهم عدة عوامل فى انخفاض التحاق الطلاب بالجامعة من بين اكثر من نصف مليون فلسطينى فى اسرائيل . فالتسهيلات التعليميـــة المناسبة ، والفصول ذات التجهيزات الملائمة فى المرحلتين الابتدائية والثانوية قليلة ، وكذلك يقل عدد المعلمين المؤهلين والمدربين فى القطاع العربى (وقد صنف نحو ٥٠٪

من المدرسين فى المدارس العربية ضمن غير المؤهلين) . كما أن طرق التدريس فى المدارس العربية تعمل على تثبيت النظام التقليدى فى الاستظهار والحفظ بدون فهم ، مما يعوق الطلاب العرب عن النجاح فى الامتحانات التى تتطلب تدريبا على التفكير التحليلى . كما أن الكثير من خريجى المدارس الثانوية المؤهلين يتحولون عن التعليم الجامعى لادراكهم أنهم لن يجنوا أية فائدة من ورائه فى المجتمع الاسرائيلى ، كما يوجد تمييز مستمر فى سياسة القبول الجامعى بالكليات العلمية الرئيسية (الالكترونيات) الطبيعية النووية ، علوم الطيران.. الخ) لاسباب (الامن) التى تجبر أعدادا كبيرة متزايدة من الطلاب الذين يأملون فى دراسة العلوم على التحول للدراسات الانسانية والعلوم الاجتماعية حيث مجال العمل بها محدود .

وعلى النقيض من ذلك ، فان الفلسطينيين خارج نطاق السلطة الاسرائيلية يلتحقون دائما بمراحل تعليمية أعلى من هؤلاء الفلسطينيين تحت السيطرة الاسرائيلية منذ ١٩٤٨ كما يتضح من الجدول رقم (١٣) .

الطلبة الفلسطينيون المسجلون بالجامعات حسب المنطقة

الجدول رقم (١٣)

الاقليم	القطاع الجامعى	مجموع السكان	النسبة لكل من السكان
	١٩٧٩/٧٨	١٩٧٩	١٠٠ر٠٠٠
اسرائيل	١ر٩٠٠	٦٠٠ر٠٠٠	٣١٦
الضفة الغربية	٣ر١٩٣	٨٨٠ر٠٠٠	٤٦٤
الضفة الشرقية	٦ر٠٠٠	١ر٠٠٠ر٠٠٠	٦٦٠
لبنان (١)	١٥ر٠٠٠	٣٣٠ر٠٠٠	٤ر٥٤٥
سوريا	٤ر٠٠٠	٢١٠ر٠٠٠	١ر٩٠٤
الكويت	١ر٢٠٠	٢٥٠ر٠٠٠	٤٨٨
المملكة العربية السعودية	١ر٢٨٠	١٨٠ر٠٠٠	٧١١
أوروبا / أمريكا (*)	١٢ر٥٠٠	١٠٠ر٠٠٠	٧ر٨٢٢

المصدر : مستمد من جداول لبهاء أبولين : (جامعة فلسطين المفتوحة والاحتياجات التعليمية للشعب الفلسطينى خارج فلسطين المحتلة) . فى (دراسة جامعة فلسطين المفتوحة) باريس :

(*) النسبة المئوية المرتفعة كثيرا (١٠٠ر٠٠٠) فى لبنان وأوروبا / وأمريكا نسبة خادعة ، فعدد الطلبة المسجلين فى كل منها يشمل عددا كبيرا من الفلسطينيين من مناطق أخرى .

ويواجه الفلسطينيون فى الاراضى المحتلة مشكلات مختلفة عن تلك التى يواجهها الفلسطينيون فى اسرائيل . ويوجد ذلك أساسا فى مجالين رئيسيين :

اولا : لايتفق هيكل التعليم العالى بالضفة الغربية مع احتياجات الفلسطينيين الاجتماعية والوطنية . ويتخذ تحليل حديث من جامعة بيرزيت مثالا لتصوير الحالة التعليمية ، فيقول :

« تشارك جامعة بيرزيت المعاهد الاخرى فى العالم العربى فى عجز دورات وبرامج التدريب الفنى والمهنى لطلابها . ومثال ذلك ان منهج الجامعات بالضفة الغربية بما فيها بيرزيت يؤكد قليلا على اكتساب المهارات المتصلة بالتخطيط والتنمية الريفية ، فى الوقت الذى يعيش فيه ٧٠٪ من سكان المنطقة فى مراكز يقل سكانها عن ٥٠٠٠ نسمة . ويمثل الانتاج الزراعى نفسه ٣٠٪ من اجمالى الناتج القومى للضفة الغربية . والنتيجة النهائية لذلك ان يتخرج العديد من الطلبة ، ويجدون صعوبة فى تكييف مهاراتهم وتدريبهم النظرى مع احتياجات التنمية الاجتماعية والاقتصادية ، وحقائق العمل فى الضفة الغربية . وبالتالى ، فانهم يهاجرون لتسويق مهاراتهم فى سوق العمل الاوسع بالشرق الاوسط على حساب الضفة الغربية » (٨١) .

ويؤدى استمرار تدفق الفلسطينيين من أصحاب المهن خارج الضفة الغربية خدمة جليلة للهدف الصهيونى بتفريغ فلسطين التاريخية من سكانها العرب الاصليين . ولعل نتيجة تقرير منظمة العمل الدولية والذى اشرنا اليه من قبل تفيدنا بهذا الخصوص ، اذ يخلص الى أنه حتى الخريجين ذوى المهارة الفنية فى برامج التدريب الفنى كتلك التى تنفذها « الاونروا » يجدون صعوبة فى الحصول على وظائف فى الضفة الغربية نتيجة التخلف الصناعى للمنطقة الذى سببه الى حد كبير الاحتلال الاسرائيلى الذى ، أدى الى التبعية للاقتصاد الاسرائيلى .

والمشكلة الثانية ، التى يمكن أن تكون لها نتائج خطيرة على مستقبل الفلسطينيين التعليمى فى الضفة الغربية ، هى ادخال الاحداث القصر فى سوق العمل الاسرائيلى ليؤدوا أعمالا موسمية لا تتطلب المهارة . ويقدر أن ٢٠٪

اليونسكو ، ١٩٨٠ الملحق / ٢ ، وخليل نكلة : (الفلسطينيون تحت الحكم الاسرائيلى فى مرحلة التعليم بعد الثانوى) نفس المرجع ، الملحق / ٣ ، وجانيت ابو لغد : (السمات السكانية للشعب الفلسطينى) نفس المرجع ، الملحق / ١ حـ ٢ .

من العمال غير الدائمين من الاراضى المحتلة هم من الاحداث الذين دخلوا سوق العمل قبل التخرج من المدارس الثانوية .

وتقسم التجربة التعليمية للفلسطينيين بتفتت القيم التعليمية تبعا لنوعية المعهد الذى يلتحق به الفلسطينى . ولكن اخطر تهديد للتعليم الفلسطينى يأتى من نقص الحرية الاكاديمية فى الضفة الغربية وغزة نتيجة للتدخل الاسرائيلى. ففى سنة ١٩٧٧ ينتهى تقرير لليونسكو الى أن « الكتب العربية التى يجيزها الرقيب عادة ما يشك فى قيمتها ، مثل العدد الكبير من روايات الجريمة ، والكتب العلمية الشعبية » ، والى ان ((الرقابة كما تفعل اليوم تحد من آمال الشباب الفلسطينى فى الاراضى المحلتة باعطائهم صورة مشوهة عن تراثهم الثقافى ») (٨٢) .

ان نقص الترابط المتأصل فى السياسة التعليمية الاسرائيلية تجاه العرب يبلغ ذروته فى الاراضى المحتلة بالتدخل المباشر فى شئون المدارس . ففى اكثر من مناسبة تم اغلاق المدارس من جميع المراحل بواسطة القوات الصهيونية لاسكات معارضة الطلبة للاحتلال ، وفى اكثر من مناسبة تعرض الشباب الفلسطينى للضرب والاعتقال دون محاكمة بل والقتل على يد قوات الاحتلال . وقد اغلقت جامعة بيرزيت مرات عديدة مثلما حدث فى معظم العام الدراسى سنة ١٩٨٢ ، ومعظم الربيع والصيف عام ١٩٨٧ . وقد اثارت الرقابة على الكتب ، ورفض السلطات الصهيونية تجديد أو منح تصاريح عمل للاساتذة الفلسطينيين والاجانب للتدريس فى بيرزيت ، الانتباه العالمى وانتقاده الشديد . وفى سنة ١٩٨٣ ، رفض الحاكم العسكرى تجديد تصاريح العمل لاساتذة الجامعة من الاجانب والعرب ما لم يوقعوا على تعهدات تنص على عدم اعترافهم بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطينى ، وذلك فى الوقت الذى كانت الأغلبية الساحقة من الفلسطينيين فى الضفة الغربية وغزة تعتبر منظمة التحرير الفلسطينية هى ممثلهم الشرعى .

خاتمـــــة :

يعتبر الوضع الحالى للشعب الفلسطينى وضعا شاذا بشكل جوهرى خطير . فالفلسطينيين يملكون كل خصائص القوميــة المميزة ــ مــن تاريخ مشترك، ولغة ، ومجموعة التقاليد ، وثقافة وطنية ، ومؤسسات وطنيــة ، وممثل وطنى هو منظمة التحرير الفلسطينية المعترف بها عالميا ومن جميـــع شرائح الشعب الفلسطينى ومن أغلبية دول العالم ، واطار مشترك من الآمال والقيم ــ ورغم ذلك لا يحكمون فلسطين ، المكان الطبيعى لدولتهم المستقلــة المقترحة . ولقد كانت الولايات المتحدة واضحة للغاية بشأن حتميــــة تقرير المصير للفلسطينيين ، وكذلك المؤتمر الاسلامى ، وحركة عدم الانحياز ، ومنظمة الوحدة الافريقية ، وغيرها من مختلف الدول ذات الشأن فى أوروبا وآســيا وأمريكا اللاتينية . ورغم ذلك لا تزال العمليات المتصلبة مستمرة فى عــــزل الشعب الفلسطينى عن مسقط رأسه وميراثه الثقافى . واليوم ، نجد اكثر من ذى قبل ، مزيداً من الفلسطينيين مولودين فى المنفى ويواجهون احتمـــــال استمرار نفيهم . وتحاول المزيد من المستوطنات الاسرائيلية ، وعمليات العنف الاسرائيلى ، والعقاب الجماعى ، أن تكسر الارادة الوطنية انفلسطينية فى المناطق المحتلة ، فأهداف اسرائيل واضحة حيث ان القادة الاسرائيليين والصهيونيين يؤكدون صراحة ومنذ عدة أجيال أن مطالب الفلسطينيين الوطنية ليست مقبــولة ولا شرعية . وبالنسبة للحليف الرئيسى لاسرائيل وهى الولايات المتحـــدة الامريكية ، نجد أنه بينما ذهب الرئيسان كارتر وريجان الى حد الاعتراف بوجود المسألة الفلسطينية . بل الى حد الحديث بحذر حول الحاجة الى وطن فلسطينى من نوع ما ، فان الولايات المتحدة لا تقبل الفكرة المنطقية بشأن القوميـــــة الفلسطينية . ومشاركة منها لاسرائيل ، ترفض الولايات المتحدة باصرار فكرة تقرير المصير الوطنى . وبقدر ما تنبهت للحاجة الى حل القضية الفلسطينية فانها تفعل ذلك من منطلق عدم قبول الاجماع الفلسطينى والعالمى على تحديد حــل مقبــول .

ويستتبع ذلك ، طبيعيا ، أن تتجمع أشكال عديدة من المصـــــاعب السياسية والمعاناة المفروضة على الشعب فى تشتته . وكل هذه الآلام ناشئة عن « العجز » التام لكل فلسطينى رجلا كان او امراة او طفلا عن ممارسة أى قدر من الحقوق الاساسية غير القابلة للتنازل عنها . فلا يوجد فلسطينى يملك جواز سفر فلسطينى ، ولا يوجد فلسطينى يملك جنسية فلسطينية ، ولا يوجد فلسطينى يملك ان يدلى بصوته فى انتخاب وطنى بصفته فلسطينيا ، ولا يستطيع فلسطينى أن يرجع باختياره الى فلسطين ويقيم فيها . وفى أغلب الاماكن نجد

ان كلمة (فلسطين) نفسها اما مرفوضة او تصبح بطريقة او باخرى عرضة « للتمييز » (الجارح عادة) التشريعى والسياسى والاجتماعى والثقافى . ولذلك لا نجد ، مثلا ، اى احصاء رسمى للسكان ، أو استفتاء شعبى عندما يتطلب الأمر ذلك . والأمر الشاذ ، حقيقة ، أن الفلسطينيين كشعب يعتبرون من اكثر شعوب العالم تقدما من حيث وعيهم السياسى. اذ يشترك كل فلسطينى مع غيره من الفلسطينيين فى تاريخ الطرد والتشريد ، وبنفس الاهمية ، فى تاريخ العزم والتصميم على المقاومة . ذلك أن اعمق الحقائق بشأن الفلسطينيين اليوم لا تتمثل فى أنهم منفيون ، ومشتتون ، ومضطهدون ، بل فى أنهم تخطوا كثيرا هذه الصفات السلبية الى صياغة رؤية ايجابية للمستقبل. وبصورة جماعية لا تحتمل الخطأ ، نجد الشعب الفلسطينى قد حدد احساسه الخاص بنفسه وبمستقبله بأصراره على اقامة دولة فلسطينية مستقلة على ترابه الوطنى التاريخى .

ان هذا الحق الصريح ، الذى لا يقبل التنازل عنه ، لا يمكن انكاره او التقليل منه لتحل مكانه اية بدائل أخرى . فلسطين ليست هى الاردن ، ولا هى ركن من أرض اسرائيل . والشىء الجديد بالملاحظة انه وسط سكان فلسطين فقط يتحدث الشعب الفلسطينى عن المصير الوطنى المشترك بأسلوب يتفق مع حقوق الانسان الاساسية للآخرين . فالشعب الفلسطينى — الذى تم تدمير مجتمعه على يد حركة تنادى بصورة متناقضة بالتحرير الوطنى فى شكل الاستيطان الاستعمارى — لا يرغب هذا الشعب لنفسه صوره سلبية من تقرير المصير أو التحرير . فتجربته الوطنية المريرة قد ولدت فيه احتراما لحقوق الانسان المدنية التى يلغيها الآخرون . ولذلك فان التصور الفلسطينى مبنى على الديمقراطية والعدالة ، وعلى الكرامة والمعايشة المشتركة . وهو لايقوم على الفتح والقهر ، ولا على القومية العرقية الضيقة . وهذا هو السبب فى أن القضية الفلسطينية قد وجدت مؤيدين لها فى كل مكان بين المضطهدين فى العالم ، اولئك الذين لهم ماض استعمارى ، واولئك الذين يقاومون الظلم الاستعمارى اليوم ، وكذلك اولئك المناصرين الشجعان فى الغرب للحق والعدل وحرية الانسان .

لقد اتجه الرأى العام العالمى اخيرا ، الى فهم ومساندة مطالب الشعب الفلسطينى ، بطريقة لا شك فيها ، فى تقرير مصيره الوطنى . ولا يمكن ، بعد ذلك ، القول بعدم وجود فلسطينيين ، أن بأن فلسطين قصة من الخيال التاريخى فالتحدى الاخلاقى والسياسى الذى يواجه المجتمع العالمى اليوم امر صريح واضح . وطالما أن الارادة الوطنية الفلسطينية لايمكن صدها أو التهوين من شأنها ، فالى متى يؤجل نيل الحقوق الفلسطينية التى لا يجوز التنازل عنها وكم فلسطينى آخر يجب أن يموت أو يسجن أو يطرد من أرضه قبل أن يعترف

بهوية هذاالشعب ، ويتحقق هدفه القومى فى دولة فلسطينية مســــتقلة ذات سيادة ذلك انه اذا لم توجد اجابات ايجابية عملية لهذه الاسئلة ، فـــان المستقبل سينذر بالعنف والضياع البشرى بدركة وكثافة يجب تفاديهما مهما كلف الامر . ان الشعب الفلسطينى من جانبه لا يرغب فى أكثر من السلام والعدل ؛ ذلك أنه نتيجة لمصيره التعس الذى فرض عليه بالقوة نشأت لديه رغبة مؤكدة لانهاء وليس تكريس هذا الشذوذ المتمثل فى الطرد والنفى والمصادرة ،وهى رغبة شديدة فى اعتدالها وايجابيتها . ولذلك يجب أن تكون استجابة المجتمع الدولى وتصميمه على تحقيقها بنفس الدرجة .

هـــوامش

(١) ايمانويل أنتى ، (فلسطين قبل العبريين) ، (نيويورك ، كنويف ، ١٩٦٢) ص ٧ ، ٢٤١ — ٢٤٢ .

(٢) نقلا عن الاصطخرى وابن حوقل ، (فلسطين تحت حكم المسلمين : وصف سوريا والأراضى المقدسة من ٦٥٠ الى ١٥٠٠ بعد الميلاد ، مترجم عن اعمال الجغرافيين العربى فى العصـــور الوسطى) (١٨٩٠ واعيـــد طبعه فى بيروت : خياط ، ١٩٦٥) ص ٢٨ .

(٣) نقلا عن ريتشارد بيتنير : جعل الصحراء تزدهر : صورة تاريخيـــة لفلسطين قبل الصهيونية ، نشرة أنباء الشرق الاوســـط ، (فبراير — مارس ١٩٧١) ٥ (٢) : ٤ .

(٤) (الكتاب السنوى الانجليزى لفلسطين) ١٩٤٧ — ١٩٤٨ (لنـــدن : مطبوعات الانجلو — فلسطين ، ١٩٤٨) ص ٣٣ .

(٥) انظر لعدنان أبو غزالة القومية الثقافية العربية فى فلسطين ، (بيروت، معهد دراسات فلسطين — ١٩٧٣) .

(٦) التحول الديمغرافى لفلسطين ، لجانيت أبو لغد ، ورد فى طبعـــة ابراهيم أبو لغد « تحول فلسطين » (ايفانستون ، اليذوى : مطبوعات جامعة نورث وسترن ١٩٧١) ص ١٣٩ .

(٧) (التايمز ، لنـــدن) ١٧ يونية ١٩٨٢ .

(٨) توصيات لجنة كنج كرين ، نص ورد فى (اليقظة العربية) لجـــورج انطونيوس (لندن : هاميش هاملتون ١٩٣٨) ص ٤٤٨ .

(٩) نقلا عن (الصهيونية والفلسطينيون) لسميحا فلابان (لندن : كروم هيلم ١٩٧٩) ص ٥٦ .

(١٠) (الصهيونية : شكل من العنصرية والتمييز العنصرى) لفايز أ .صايغ. (نيويورك : مكتب المندوب الدائـــم (المراقب) لمنظمة التحرير الفلسطينية فى الامم المتحدة ١٩٧٦) ص ٧ ، هذا النص كان فى الاصل خطبة القيت امام اللجنة الثالثة للجمعية العامة للامم المتحدة فى ١٧ اكتوبر ١٩٧٥ .

(١١) (اثر الاستعمار الصهيونى فى المجتمـــع العربى الفلسطينى قبـــل ١٩٤٨) لناثان واينستوك . فى مجلة الدراسات الفلســـــطينية ، ٢ ص ٥١ شتاء ١٩٧٣) .

(١٢) المرجـع السـابق ، ص ٥٠ .

(١٣) نقلا عن (اسرائيل الأخرى) طبعة آرى بوبر (نيويورك : دابلداى، ١٩٧٢) ص ١٣ .

(١٤) من مقلته (الحقيقة من أرض اسرائيل) نقلا عن (العقل الصهيونى) لالانر . تايلور . (بيروت : معهد دراسات فلسطين ، ١٩٧٤) ص ١٠٣ .

(١٥) ورد فى (الصهيونية واسرائيل والقومية الآسيوية) ، ج.هـ جانسين (بيروت : معهد دراسات فلسطين ١٩٧١) ص ١٧٨ ، ١٨٢ .

(١٦) أنظر فلابان (الصهيونية) ، ونايل كابلان (اليهودية فى فلسطين وانقضية العربية) ١٩١٧ — ١٩٥٢ (لندن : فرانك كاس ١٩٧٨) .

(١٧) جورج قصيفى ، (الخصائص الديمغرافية للشعب الفلسطينى) ، فى كتاب الجوانب الاجتماعية للفلسطينيين) لخليل نخلة وايليا زريق (لندن : كروم هيلم ، ١٩٨٠) ص ١٦ .

(١٨) وارد فى (القوى المحركة لنقل ملكية الارض) لجون رودى ، كتاب (تحويل فلسطين) لابراهيم ابو لغد . ص ١٢٦ ، رقم ٢٠ .

(١٩) وارد فى (الصهيونية) لفلابان . ص ١٧٢ .

(٢٠) وارد فى (اسرائيل الأخرى) لبوبر ، ص ٣٧ .

(٢١) المرجع السـابق ص ٣٨ .

(٢٢) وارد فى (الصهيونية واسرائيل والقومية الآسيوية) لجانسـين ، ص ١٧٧ .

(٢٣) (الصنداى تايمز ، لنـدن) ١٥ يونية ١٩٦٩ .

(٢٤) (النيوزويك) ١٧ فبراير ١٩٦٩ .

(٢٥) وارد فى (العقل الصهيونى) ، لتايلور . ص ٩٦ .

(٢٦) وارد فى (اسرائيل الأخرى) ، بوبر ص ٣٧ .

(٢٧) (اسرائيل والعرب) ، مكسيم روبنسون (نيويورك : راندوم هاوس ١٩٦٨) ص ١٤ .

(٢٨) (العقـل الصهيونى) لتايلور ، ص ٤٨ .

(٢٩) صحيفة (يديعوت احرانوت) ١٧ أكتوبر ١٩٦٩ ، وورد أيضـا فى اسرائيل الأخرى لبوبر . ص ٧٧ .

(٣٠) نص فى جى . س . هورفيتز ، الدبلوماسية فى الشرق الاوسط والادنى ، (برنستون ، نيوجرسى : فون نوستراند ١٩٥٦) مجلد ٢ ، ص ٢٦ .

(٣١) « وثائق برلمانية » ، بريطانيا العظمى ١٩٢٢ ، كمبردج ١٧٨٥ ، ص ١٠٧ — ١١١ .

(٣٢) سيرجون هوب سمبسون (فلسطين : تقرير عن الهجرة واستيطان وتنمية الأرض) (لندن : المكتبة الملكية ، ١٩٣٠ كمبردج ٣٦٨٦) ص ١٧ .

(٣٣) (فلسطين : تقرير) ، ص ٥٦ ، ١٣٣ ، ١٣٥ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ١٣٣ .

(٣٥) (وارد فى يوميات فلسطين ، ١٩١٤ — ١٩٤٥) لروبرت جون وسامى حداوى (نيويورك : نيوورلد برس ١٩٧٠) ج ١ ، ص ٢٢٦ .

(٣٦) حاييم وايزمان ، (المحاولة والخطأ (نيويورك : هاربر ١٩٤٩ ص ٢٠٧ .

(٣٧) ورد فى (الصهيونية واسرائيل والقومية الآسيوية) لجانسين ، ١٨٣ .

(٣٨) المحاولة والخطأ ، وايزمان ، ص ٣٨١ .

(٣٩) جى. ام . ماشوفر ، حكم فلسطين : قضية ضد برلمان) (لندن بى .اس — . كنج ١٩٣٦) ، ص ٢١ .

(٤٠) ورد فى (الصهيونية) لفلابان ، ص ١٧٠ .

(٤١) أنظر (قضية فلسطين) ، ادوارد سعيد (نيويورك تايمز بكس ، ١٩٨٠) ، استعادة الحقوق الوطنية الفلسطينية ، لابراهيم أبو لغد : بحث قديم فى ندوة الأمم المتحدة حول القضية الفلسطينية ، هافانا ، كوبا ، ٣١ اغسطس — ٤ سبتمبر ١٩٨١ . واعيد طبعها باسم الحقوق الفلسطينية لأبراهيم أبو لغد (ولمت ، الينوى : ميديناپرس ١٩٨٢) ص ٣ — ١٠ .

(٤٢) المؤلفات التالية مفيدة جدا فى الوصف الدقيق للفلسطينيين والمناطق الفلسطينية : العرب فى فلسطين لصبرى جريس ، (نيويورك : الدورية الصحفية الشهرية ١٩٧٦) ، (الفلسطينيون فى اسرائيل) لزريق (لندن : روتليدج وكيجان بول ١٩٧٨) ، (الفلسطينيون فى الوطن العربى) لمعهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة ١٩٧٨) خاصة ص ٥٧٩ — ٦٠٤ .

(٤٣) انظر ، ضمن آخرين ، (الدول العربية والصراع فى فلسطين) ، بارى روبين (سيراكيوز ١٩٨١) ص ٢٠٦ — ٢٠٧ ، (الفلسطينيون) ، عزت طانوس (بيروت : ١٩٨٣) ص ٥١٣ — ٥٢٥ .

(٤٤) انظر (قطاع غزة ١٩٤٨ ــ ١٩٦٧) ، حسين ابو النمل (بيروت : ١٩٧٩) .

(٤٥) أرقام وفق (دراسة جدوى جامعة فلسطين المفتوحة ، لجانيت ابو لغد ، ملحق/ ١ جـ ٢ باريس : اليونسكو ، ١٩٨٠) ص ٣٣ .

(٤٦) انظر ، ضمن آخرين ، وثائق الجمعية العامة للامم المتحدة (تقرير لجنة التحقيق فى الممارسات الاسرائيلية وتأثيرها على حقوق الانسان لسكان المناطق المحتلة) خاصة سنوات ١٩٨٠ ، ١٩٨٢ ، « تقرير عن الاحوال المعيشية للسكان فى المناطق العربية المحتلة » (١/٣٥/٥٣٣ ، اكتوبر ١٩٨٠) (الاعلان العالمى لحقوق الانسان والاستعمار الاسرائيلى للضفة الغربية وغزة ، لمايكل أدامز فى كتاب الحقوق الفلسطينية لأبراهيم ابو لغد (قدمت اصلا فى ندوة الأمم المتحدة حول القضية الفلسطينية المنعقدة فى فيينا ، اغسطس ١٩٨٠) .

(٤٧) أ . عبد الرحمن ، ر . حامد منظمة التحرير الفلسطينية : الماضى والحاضر والمستقبل) ندوة الأمم المتحدة حول القضية الفلسطينية ، والمنعقدة فى اروشا ، تنزانيا ، يولية ١٩٨٠ ، (منظمة التحرير الفلسطينية) لشيريل روبينبرج (بيلمونت ، ماساشوسيتس : معهد الدراسات العربية ١٩٨٣) .

٤٨ ــ (المختصر الاحصائى لاسرائيل ، ١٩٨١) ، (مكتب اسرائيل المركزى للاحصاء ، ١٩٨٢) تقديرات السكان (غير اليهود) فى المناطق الفرعية بفلسطين حسب ١٩٨٠ . وقد راجعناها على منتصف ١٩٨٢ ، واجرينا تعديلات معينة لتطابق حقائق السيادة القانونية . وتضم المصادر الاسرائيلية السكان العرب فى الضفة الشرقية وما حولها مع اسرائيل . وتحليلاتنا تعيد توزيع هؤلاء السكان، وتضعهم ضمن الارض المحتلة المعروفة باسم الضفة الغربية ، وتوصف بشكل ادق بأنها فلسطين الشرقية المحتلة .

٤٩ ــ هذا القسم الخاص بالدراسة السكانية الاحصائية للفلسطينيين يعتمد بدرجة كبيرة على الخصائص الديمغرافية للسكان الفلسطينيين لجانيت ابو لغد ، وملحق/١ جـ٢ من دراسة جدوى (جامعة فلسطين المفتوحة) (نسخة باريس ، اليونسكو ، ٣٠ يونية ١٩٨٠) وتستخدم هذه الوثيقة مجموعة معقدة من مناهج الاحصاء السكانى للقياس من دراسة الزيادة الطبيعية وباستخدام طرق قياس شاذة وهى غير كاملة ومعروفة لتصل الى تقدير حجم وتوزيع الفلسطينيين فى العالم علم ١٩٧٩ . وقد قيست بيانات الاساس ١٩٧٩ فى الوثائق الحالية على احصائيات يونية ١٩٨٢ واضعة فى الاعتبار الاحصائيات الرسمية المناسبة للسكان ، والمعلومات الخاصة بالهجرة .

٥٠ ــ الجمهورية العربية السورية ، وزارة التخطيط ، ادارة الاحصاء، (مختصر سوريا الاحصائى) (طبعة ١٩٧٩) .

٥١ — ان تقدير الفلسطينيين باكثر من ٥٠٠٫٠٠٠ ورد بشكل موسع في الصحف الى جانب تقارير أخرى تبدو لنا مبالغا فيها ففى سنة ١٩٤٨ لجأ ١٠٠٫٠٠٠ فلسطيني تقريبا الى لبنان ، ومن الجائز أن يكون عددهم هذا قد زاد الى ١١٥٫٠٠٠ نسمة سنة ١٩٥٢ ، آخذين فى الاعتبار الزيادة الطبيعية . ومن الممكن أن ينمو السكان الى ٣٣٠٫٠٠٠ مع عام ١٩٨٢ وليس أكثر من ذلك حتى مع ارتفاع معدلات الزيادة الطبيعية مع عدم وجود هجرة نهائيا .

٥٢ — بنيت الارقام الخاصة بالكويت على تقارير احصائية رسمية دقيقة نسبيا . ونحن نعتقد بأن اكثر من ٩٠٪ من المواطنين الاردنيين المقيمين فى الكويت فلسطينيون ، مثل جميع الاشخاص الذين سجلوا كفلسطينيين (وقد هاجروا من غزة ولبنان وسوريا) .

٥٣ — هذا الرقم تخمينى ، وقد استنتجنا البيانات الخاصة بالقيد المدرسى للفلسطينيين والاردنيين عام ١٩٧٩ بالمملكة العربية السعودية ، والتقدير الاجمالى للسكان من أرقام هذا القيد المدرسى بأن هناك ١٥٠٫٠٠٠ تقريبا من أصل فلسطينى يعيشون بالمملكة العربية السعودية ، ونستطيع أن نفترض بأن هؤلاء السكان قد زادوا الى النصف غير أننا يجب أن نعترف بعدم وجود بيانات ثابتة بهذا الشأن .

٥٤ — انظر التحول الديمغرافى لفلسطين) لجانيت أبو لغد نشرها ابراهيم ابو لغد فى (تحول فلسطين) (ايفانستون ، الينوى : نورث ويسترن يونيفرستى برس ١٩٧١) ص ١٣٩ — ١٦٣ خاصة ١٥٣ — ١٦١ بشأن الاشخاص المطرودين واللاجئين فى الفترة من ١٩٤٧ — ١٩٤٩ .

٥٥ — (الخصائص الديمغرافية للسكان الفلسطينيين) (اليونسكو) خاصة الجدول رقم ٤ ، ص ٢٠ — ٢١ ، والتى تعطى مراجع كاملة عن مصادر البيانات ، وتقييم مدى صحتها .

٥٦ — ضمنا هنا ما بين ٦٥٠٠٠ الى ٦٧٠٠٠ فلسطينى مقيمين بالقدس الشرقية والمناطق المجاورة والذين يعيشون فى المنطقة المضمونة بصفة غير قانونية الى اسرائيل ، كما لوحظ ان مصادر الاحصاءات الاسرائيلية قد سجلت هؤلاء على انهم من غير يهود اسرائيل بدلا من اعتبارهم سكانا (للمناطق الخاضعة للادارة) .

٥٧ — تم التحقق من هذه السياسة ، ووردت ثانية فى (تقرير لجنة التحقيق فى الممارسات الاسرائيلية ، وتأثيرها على حقوق الانسان الخاصة بسكان المناطق المحتلة) (الجمعية العامة للامم المتحدة ، وثيقة أ/٣٥/٤٢٥ : ١٦ أكتوبر ١٩٨٠) .

٥٨ — انظر : المستوطنات الاسرائيلية فى الاراضى العربية المحتلة : من الغزو الى الاحتلال) التى قدمت أمام الندوة الرابعة للامم المتحدة حول القضية الفلسطينية والمنعقدة فى هافانا ، كوبا ، سبتمبر ١٩٨٠ ، وكذلك نشرها ابراهيم

ابو لغد فى الحقوق الفلسطينية بين التاكيد والانكار (ويلمت ، الينوى : ميدينا برس ، ١٩٨٢) .

٥٩ — (الجنس والدولة فى التنمية الرأسمالية : نظرات مقارنة) (نيوهافن: مطبعة جامعة بيل ١٩٨٠) لستانلى جرينبرج ، ص ٣٩٧ — ٣٩٨ .

٦٠ — انظر العرب فى الدولة اليهودية : سيطرة اسرائيل على الاقلية الوطنية) ، أيان لوستيك ، (أوستن ولندن : مطبعة جامعة تكساس ١٩٨٠) .

٦١ — (تغيرات فى الهيكل الوظيفى للعرب فى اسرائيل) لنجوى مكحول فى مجلة الدراسات الفلسطينية (١٩٨١) ، (٢) ١٠ ، ص ٨٤ .

٦٢ — انظر (تغيرات التوظيف ، لكحول ، ص ٩١ — ٩٥ .

٦٣ — مذكور فى (الفلسطينيون فى اسرائيل : دراسة فى الاستعمار الداخلى) لا يليا . ت . زريق (لندن : روتليدج وكيجان بول ١٩٧٩) ص ٩٩ .

٦٤ — المرجع السابق ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .

٦٥ — مذكور فى المرجع السابق ، ص ١٢٨ .

٦٦ — (الفلسطينيون فى اسرائيل) ، زريق ، ص ١٣٠ .

٦٧ — مذكور فى (احتياجات القوى العاملة الفلسطينية وجامعة فلسطين المفتوحة) فى دراسة جدوى جامعة فلسطين المفتوحة ، لعباس النصراوى حـ ٢ ملحق ٦ (باريس : اليونسكو ١٩٨٠) ص ١٢ .

٦٨ — المرجع السابق ، ص ١٤ .

٦٩ — « النيويورك تايمز » ١٢ سبتمبر ١٩٨٢ ، ص ١٤ .

٧٠ — (التغيرات فى الهيكل الاقتصادى للضفة الغربية وقطاع غزة تحت الاحتلال الاسرائيلى) تاليف م . ك . بديرى — فى العمل ورأس المال والمجتمع (١٩٨٢) ١ : ٤٧ — ٦٣ .

٧١ — (تقرير البعثة المرسلة من المدير العام لمنظمة العمل الدولية لدراسة وضع العمال فى الاراضى المحتلة ، (جنيف : بمكتب العمل الدولى ، ١٩٧٩) .

٧٢ — موجود فى (نيويورك تايمز) ١٢ سبتمبر ١٩٨٢ .

٧٣ — تقرير فريق العمل بين الوكالات حول مساعدة الشعب الفلسطينى، ١٩٧٩ ، برنامج الامم المتحدة للتنمية .

٧٤ — (التغييرات فى الهيكل الاقتصادى) لبديرى ، ص ٥٨ .

٧٥ — المرجع السابق ، ص ٥٦ .

٧٦ ـ موجود بالمرجع السابق ، ص ٥٧ .

٧٧ ـ المرجع السابق ، ص ٥٨ ـ ٦٣ .

٧٨ ـ انظر (بيئة التعليم) لايليا . ت : زريق فى دراسة جدوى جامعة فلسطين المفتوحة ،ملحق ٤ (باريس : اليونسكو ، ١٩٨٠) .

٧٩ ـ (التعليم العربى فى اسرائيل) ، سامى مرعى (سيراكيوز : مطبعة جامعة سيراكيوز ، ١٩٧٨) ص ٨٩ . .

٨٠ ـ (الفلسطينيون فى اسرائيل) ، زريق ، ص ١٥٣ .

٨١ ـ (الفلسلطينيون المتعلمون فى الضفة الغربية) ـ فيليب راى . ديفر ، فى مجلة الدراسات الفلسطينية ٣ (١٩٧٨) ص ٦٩ .

٨٢ ـ (تقرير الى المدير العام لليونسكو عن المراكز متعددة الاغـراض للبحوث والعمل الخلاق فى الاراضى العربية التى تحتلها اسرائيل منذ ١٩٦٦) لجاكلين حنين ، د ٤ ، ١٠٤ ، ٥٢ مقتطف ص ٥ .

٨٣ ـ انظر ، يمثال ، (صحيفة بوسـطن جلوب)١٧ نوفمبر ١٩٨٢ (نيويورك تايمز) ٢٠ نوفمبر ١٩٨٢ .

شكل (٢) بنية منظمة التحرير الفلسطينية - (مأخوذة عن الرابطة ، العدد

المجلس الوطني الفلسطيني

٤٢٨ عضواً

- البرلمان
  - المجلس المركزي (جهاز استشاري وسيط) ٦٠ عضواً
- المستقلون (غير المنتسبين رسميا الى منظمات المقاومة)
- الجماعات الفلسطينية خارج فلسطين

اللجنة التنفيذية (مجلس الوزراء) ١٥ عضواً — رئيس اللجنة التنفيذية

- الادارة السياسية
  - منظمة التحرير الفلسطينية التمثيل ٨٣ مكتبا في العالم
  - ادارة المنظمات الشعبية
    - المجلس الأعلى الفلسطيني للشباب والرياضية
    - المنظمة الفلسطينية للكشافة والزهرات (الرواد)
    - رابطة المسرح والفنون الشعبية
- إدارة التعليم
  - المجلس الاعلى للتعليم
  - المدارس ورياض الأطفال
- إدارة الصحة
  - جمعية الهلال الأحمر الفلسطينية
  - المستشفيات والعيادات
  - المراكز الصحية
- إدارة الاستعلامات والارشاد القومي
  - الاستعلامات الموحدة
  - فلسطين الثورة (جريدة مركزية)
  - ادارة الاستعلامات الخارجية
  - وكالة الأنباء الفلسطينية وفا
  - ادارة السينما والتصوير
  - محطة الإذاعة
- الصندوق الوطني الفلسطيني (الادراة المالية)
  - صامد
    - المؤسسة الاقتصادية لمنظمة التحرير الفلسطينية
    - قطاع الانتاج
    - قطاع الزراعة
    - قطاع السينما
  - معهد الشئون والخدمة الاجتماعية
    - الجمعية الفلسطينية للمكلومين
    - الرعاية الاجتماعية للجرحى
    - الرعاية الاجتماعية لعائلات الشهداء
    - دور الحضانة
- إدارة العلاقات الوطنية
- إدارة شئون الوطن المحتل
  - لجنة الدفاع عن المسجونين الفلسطينيين
  - الجبهة الوطنية الفلسطينية للوطن المحتل
- الادارة العسكرية
  - جيش تحرير فلسطين
  - قوات منظمات المقاومة
  - قوات الميليشيا
  - مركز التخطيط
  - مركز البحوث

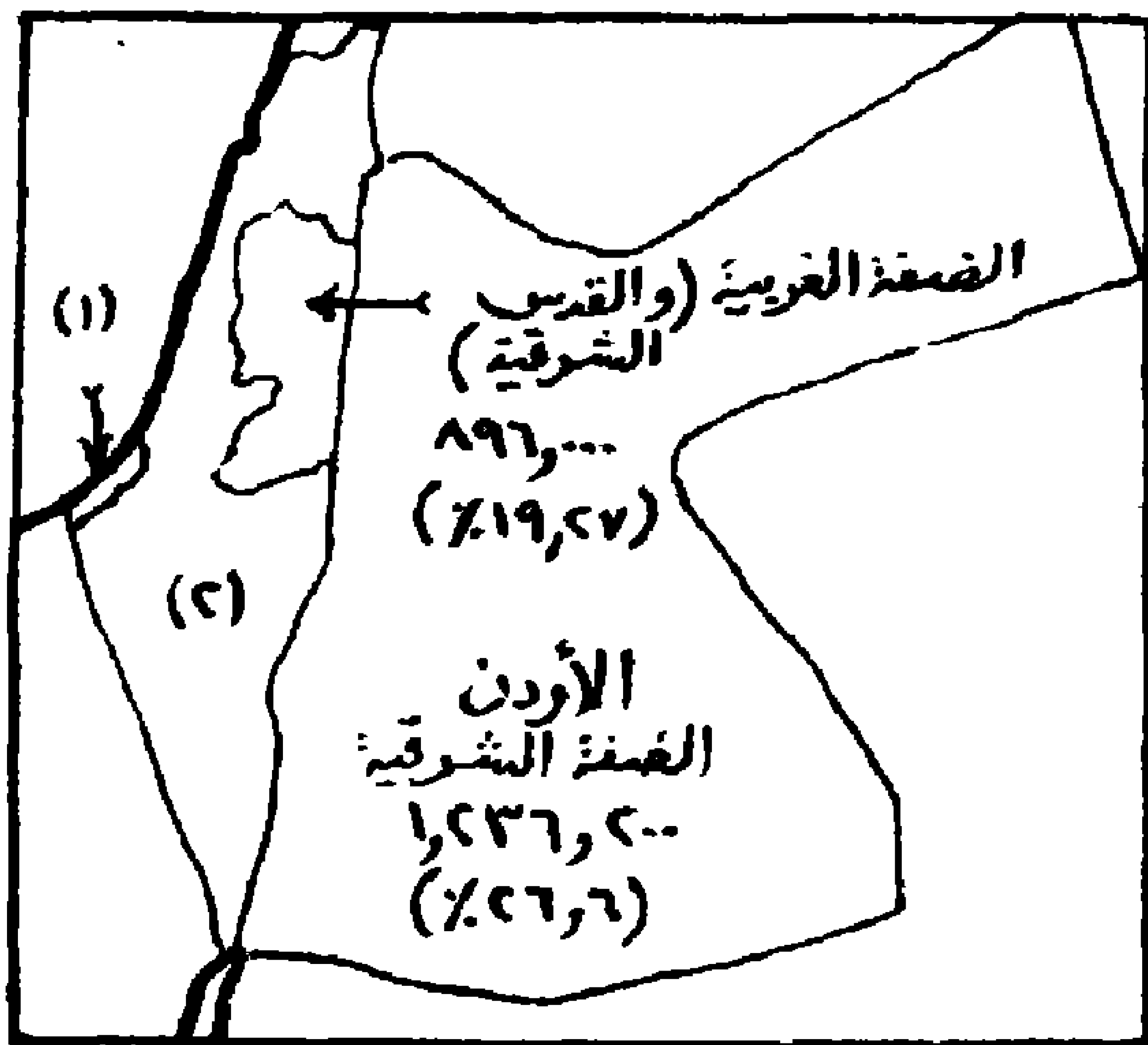
منظمات المقاومة الفلسطينية

- حركة التحرير الوطني الفلسطينية - (فتح)
- الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين
- الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين
- الصاعقة
- جبهة التحرير العربية
- الجبهة الشعبية - القيادة العامة
- جبهة تحرير فلسطين
- جبهة المقاومة الشعبية الفلسطينية

الاتحادات والنقابات الجماهيرية الفلسطينية

- الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
- الاتحاد العام للعمال الفلسطينيين
- الاتحاد العام للسيدات الفلسطينيات
- الاتحاد العام للطلاب الفلسطينيين
- الاتحاد العام للمعلمين الفلسطينيين
- الاتحاد العام للمهندسين الفلسطينيين
- الاتحاد العام للمحامين الفلسطينيين
- الاتحاد العام للأطباء الفلسطينيين
- الاتحاد العام للرسامين والفنانين الفلسطينيين
- الاتحاد العام للفلاحين الفلسطينيين





(١) غزة ٤٩٩,١٠٠
(١٠,٧٣٪)

(٢) اسرائيل بدون القدس الشرقية
٥٧٩,٢٠٠
(١٢,٤٦٪)

شكل ٣ ـ توزيع السكان الفلسطينيين سنة ١٩٨٤

المحتويات

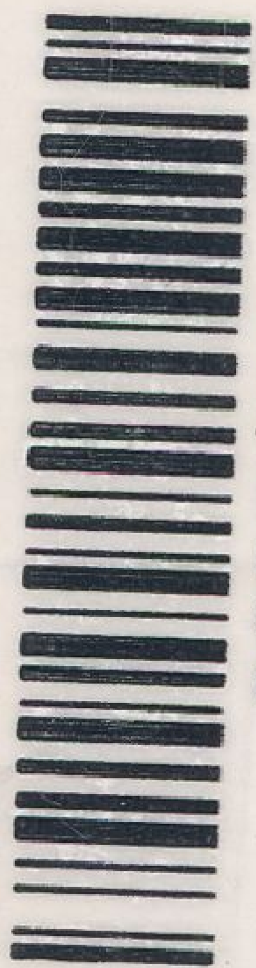


مراجعة مطبعية : على كامل دسوقى
حسين عبد المعـز

مطابع الهيئة العامة للاستعلامات



١٩٩١



مطابع الهيئة العامة للاستعلامات